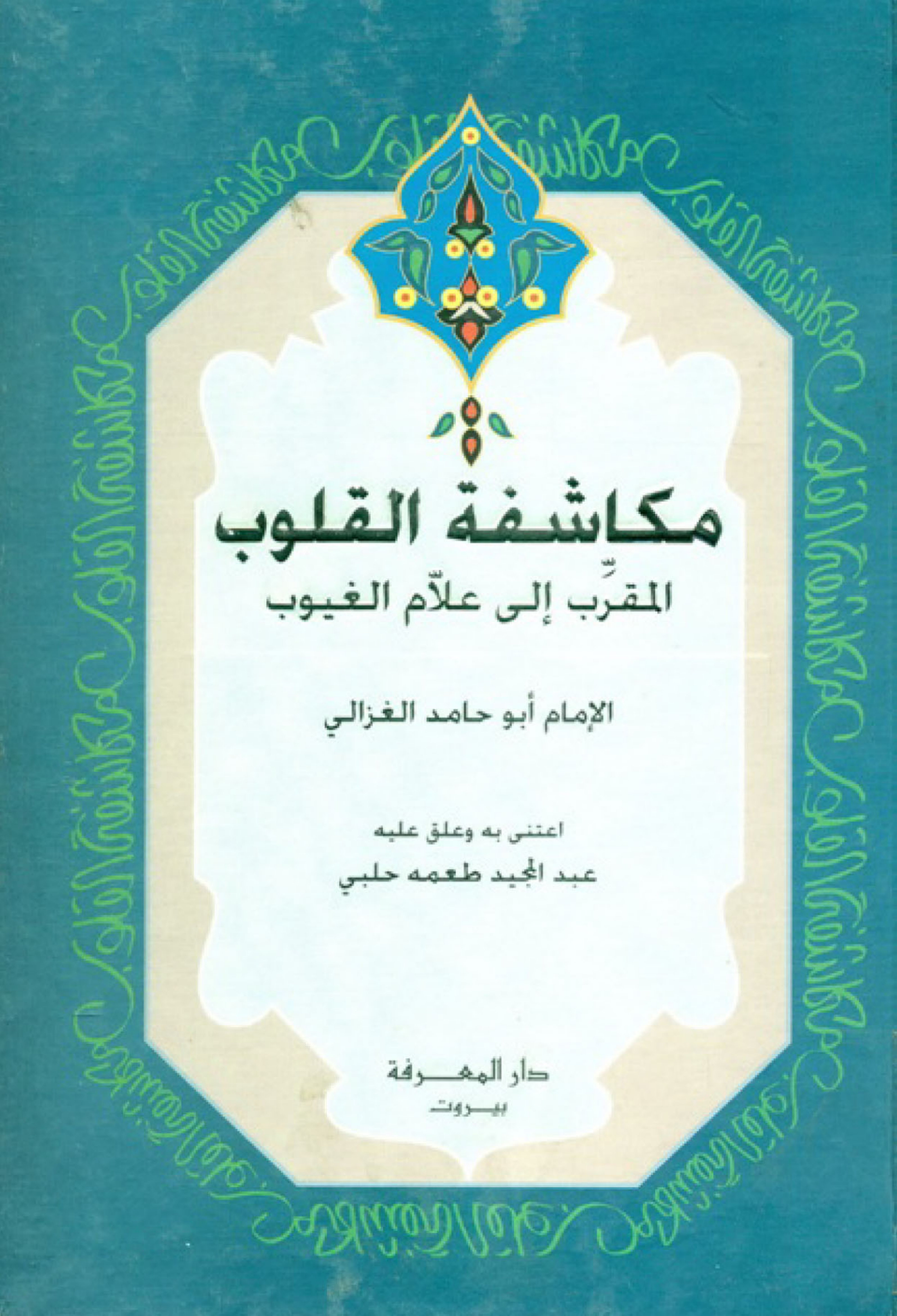

مكاشفة القلوب
المقرِّب إلى علاّم الغيوب
الإمام أبو حامد الغزالي
اعتنى به وعلق عليه
عبد المجيد طعمه حلبي
دار المعرفة
بيروت


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة حياة المؤلف
«الإمام الغزالي»

الإمام الغزالي هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الملقب حجة الاسلام، زين الدين الطوسي، فقيه، أصولي، صوفي، حكيم، متكلم، مشارك في أنواع من العلوم، ولد بطوس سنة ٤٥٠ هـ.

ويحكى: أن والده كان صالحاً، لا يأكل إلا من كسب يده، يعمل في غزل الصوف ويبيعه في دكانه، ولما حضرته الوفاة أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف، وقال له: إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط وأشتهي استدراك ما فاتني في ولديّ هذين، فعلمهما، ولا عليك أن تنفذ في ذلك جميع ما أخلفه لهما.

فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فنى في ذلك النزر اليسير الذي خلّفه لهما أبوهما، فقال لهما: اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي، فأواسيكما به، وأصْلَحُ ما أرى لكما أن تلجأ إلى مدرسةٍ كأنكما من طلبة العلم، فيحل لكما قوت يعينكما على وقتكما، ففعلا ذلك، وكان هو السبب في سعادتها وعلو درجتهما.

وكان الغزالي يحكي هذا ويقول: طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله، وكان والد الغزالي رحمه الله يطوف على المتفقهة، ويجالسهم، ويتوفّر على خدمتهم، ويجدُّ في الإحسان إليهم، والتفقه بما يمكنه عليهم، وكان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع وسأل

الله أن يرزقه ابناً واعظاً، ويجعله فقيهاً، فاستجاب الله دعوتيه، أما أبو حامد فكان أفقه أقرانه وإمام أهل زمانه، وأما أحمد أخيه فكان واعظاً، تلين الصم الصخور عند استماع تخديره، وترتعد فرائص الحاضرين في مجالس تذكيره.

وكان الغزالي (رضي الله عنه) شديد الذكاء، سديد النظر، عجيب الفطرة، قوي الحافظة، بعيد الغثور، غواصاً على المعاني، مناظراً محجاجاً. ولما مات إمام الحرمين أبي المعالي الجويني خرج الغزالي قاصداً الوزير: «نظام الملك». وكان مجلسه مجمع أهل العلم، مناظر الأئمة العلماء في مجلسه، وظهر كلامه عليهم، واعترفوا بفضله، وتلقاه الصاحب بالتعظيم والتبجيل، وولاه تدريس مدرسته «النظامية» ببغداد فقدمها وأعجب الناس حسن كلامه، وكمال فضله، وفصاحة لسانه، ونكته الدقيقة، وإشاراته اللطيفة، وأحبوه.

وأقام على تدريس العلم ونشره بالتعليم والفتيا والتصنيف مدة، زائد الحشمة عالي الرتبة، مسموع الكلمة، مشهور الاسم، تضرب به الأمثال، وتشد إليه الرحال، حتى شرفت نفسه عن كل جاه، وترك ذلك كله وراء ظهره ورحل إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، فخرج إلى الحج في ذي الحجة سنة ٤٨٨ هـ واستناب أخاه في التدريس ببغداد.

ودخل دمشق بعد عودته من الحج في سنة ٤٨٩ هـ فلبث فيها أياماً يسيرة، ثم توجه إلى بيت المقدس، فجاور به مدة، ثم عاد إلى دمشق، واعتكف بالمنارة الغربية من الجامع، وبها كانت إقامته.

وقد صادف دخوله يوماً المدرسة الأمنية فوجد المدرس يقول: قال الغزالي وهو يدرس كلامه فخشي على نفسه العجب ففارق دمشق، وأخذ يجول في البلاد، فدخل مصر، وتوجه إلى الاسكندرية، فأمضى بها مدة، وقيل إنه عزم على المضي إلى السلطان يوسف بن تاشفين سلطان المغرب لما بلغه من عدله، فبلغه موته، واستمر يجول في البلدان حتى عاد إلى مدرسة للقضاء، وخانقاه للصوفية ووزع أوقاته على وظائف من ختم القرآن، ومجالسة أرباب القلوب، والتدريس لطلبة العلم، وإدامة الصلاة والقيام وسائر العبادات إلى أن انتقل إلى رحمته تعالى.

١٨ ـ جواهر القرآن.

وكانت وفاته بطوس، في يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ وعمره خمس وخمسون سنة.

قال أبو الفرج بن الجوزي في كتاب: «الثبات عند الممات» قال أحمد أخو الإمام الغزالي: لما كان يوم الاثنين وقت الصبح، توضأ أخي أبو حامد وصلى، وقال: عليَّ بالكفن، فأخذه وقبله، ووضعه على عينيه، وقال: سمعاً وطاعة للدخول على الملك، ثم مد رجليه، واستقبل القبلة، ومات قبل الأسفار قدس الله روحه.

مؤلفات الإمام الغزالي:

١ ـ احياء علوم الدين ١/ ٥.
٢ ـ البسيط في الفقه.
٣ ـ مقاصد الفلاسفة.
٤ ـ تهافت الفلاسفة.
٥ ـ بداية الهداية.
٦ ـ المنقذ من الضلال.
٧ ـ معارج القدس في أحوال النفس.
٨ ـ الفرق بين الصالح وغير الصالح.
٩ ـ الاملاء عن اشكالات الاحياء.
١٠ ـ المستصفى من علم الأصول.
١١ ـ المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى.
١٢ ـ الوقف والابتداء في التفسير.
١٣ ـ ميزان العمل.
١٤ ـ الاقتصاد في الاعتقاد.
١٥ ـ تنزيه القرآن عن المطاعن.
١٦ ـ الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة.

١٩ ـ رسالة أيها الولد.
٢٠ ـ التبر المسبوك في نصيحة الملوك.
٢١ ـ المستضنون به على غير أهله.
٢٢ ـ فضائح الباهنية.
٢٣ ـ فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة.
٢٤ ـ عقيدة أهل السنّة.
٢٥ ـ شفاء العليل في أصول الفقه.
٢٦ ـ تلبيس إبليس.
٢٧ ـ محك النظر.
٢٨ ـ المنخول من علم الاصول.
٢٩ ـ الغاية القصوى.
٣٠ ـ إلجام العوام عن علم الكلام.

انظر طبقات الشافعية الكبرى (٦/ ١٩١) والاعلام للزركلي (٧/ ٢٢)، والوافي بالوفيات (١/ ٢٧٤ ـ ٢٧٧) ووفيات الاعيان (٣/ ٣٥٣ ـ ٣٥٥).

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحسن تدبير الكائنات، وخلق الأرضين والسماوات، وأنزل الماء من المعصرات، وأنشأ الحَبَّ والنبات، وقدَّر الأرزاق والأقوات، وأثاب على الأعمال الصالحات. والصلاة والسلام على سيدنا محمد ذي المعجزات الظاهرات، الذي حصل من نوره وجود الكائنات.

وبعد فهذا كتاب اختصرته من الكتاب البديع حسن الصنيع المسمى بـ (مكاشفة القلوب المقرِّب إلى علام الغيوب) المنسوب إلى الشيخ الغزالي، وقد سميته كأصله بـ (مكاشفة القلوب).

وأعوذ بالله من الشرك والذنوب، واقتصرت فيه على مئةٍ وأحد عشر باباً ليحفظ ما فيها أولو العلم والألباب.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

١ ـ باب: في بيان الخوف

جاء في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «أن الله تعالى خلق ملكاً له جناح في المشرق وجناح في المغرب، ورأسه تحت العرش، ورجلاه تحت الأرض السابعة، وعليه بعدد خلق الله تعالى ريش، فإذا صلى رجل أو إمرأة من أمتي عليَّ أمره الله تعالى بأن ينغمس في بحر من نور تحت العرش، فينغمس فيه ثم يخرج، وينفض جناحه فيقطر من كل ريشة قطرة، فيخلق الله تعالى من كل قطرة ملكاً يستغفر له إلى يوم القيامة».

قال بعض الحكماء: سلامة الجسد في قلة الطعام، وسلامة الروح في قلة الآثام، وسلامة الدين في الصلاة على خير الأنام.

قال تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتقوا الله﴾ يعني: اخشوا الله ﴿ولتَنظُر نَفسٌ ما قَدَّمت لغَدٍ﴾ يعني: عملت ليوم القيامة، ومعناه: تصدّقوا واعملوا بالطاعة لتجدوا ثوابها يوم القيامة ﴿واتَّقُوا الله إنَّ الله خَبيرٌ بِمَا تَعملونَ﴾[1] من الخير والشر، فإن الملائكة والسماء والأرض والليل والنهار يوم القيامة يشهدون بما عمل ابن آدم من خير أو شر، طاعة أو معصية حتى إن جوارحه تشهد عليه، والأرض تشهد للمؤمن والزاهد فتقول: صلّى عليَّ، وصام وحج، وجاهد، فيفرح المؤمن والزاهد، وتشهد على الكافر، والعاصي فتقول: أشرك عليَّ، وزنى، وشَرِبَ الخمر، وأكل الحرام. فيا ويله إن ناقشه في الحساب أرحم الراحمين.

المؤمن هو الذي يخاف الله تعالى بجميع جوارحه، كما قال الفقيه أبو الليث: علامةُ خوف الله تعالى تظهر في سبعة أشياء:

أولها: لسانه فيمنعه من الكذب والغيبة والنميمة والبهتان وكلام الفضول، ويجعله

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٨.

مشغولاً بذكر الله تعالى، وتلاوة القرآن، ومذاكرة العلم.

والثاني: قلبه فيُخْرج منه العداوة والبهتان وحسد[١] الإخوان.

لأنّ الحسد يمحو الحسنات كما قال ﷺ: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب». واعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة في القلوب، ولا تُداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل.

والثالث: نظره فلا ينظر إلى الحرام من الأكل والشرب والكسوة وغيرها، ولا إلى الدنيا بالرغبة، بل يكون نظره على وجه الإعتبار، ولا ينظر إلى ما لا يحلُّ له كما قال ﷺ: «مَن ملأ عينيه من الحرام ملأ الله تعالى يوم القيامة عينيه من النار».

والرابع: بطنه فلا يُدخل بطنه حراماً فإنه إثم كبير كما قال ﷺ: «إذا وقعت لقمة من الحرام في بطن ابن آدم لعنه كلُّ ملَك في الأرض والسماء ما دامت تلك اللقمة في بطنه وإن مات على تلك الحالة فمأواه جهنم».

والخامس: يده فلا يمد يده إلى الحرام، بل يمدها إلى ما فيه طاعة الله تعالى.

ورُوي عن كعب الأحبار أنه قال: إن الله تعالى خلق داراً من زبرجدة خضراء فيها سبعون ألف دار، في كل دار سبعون ألف بيت لا ينزلها إلا رجل يُعْرَض عليه الحرام فيتركه من مخافة الله تعالى.

والسادس: قدمه فلا يمشي في معصية الله، بل يمشي في طاعته ورضاه وإلى صحبة العلماء والصلحاء.

والسابع: طاعته فيجعل طاعته خالصة لوجه الله تعالى ويخاف من الرياء والنفاق، فإذا فعل ذلك فهو من الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿والآخِرَةُ عِندَ رَبِكَ للمُتَقِينَ﴾[٢] وقال في آية أخرى: ﴿إنَّ المُتَّقِينَ في جنَّاتٍ وعُيوُن﴾[٣] وقال الله تعالى: ﴿إنَّ المُتَّقينَ في

---

(١) الحسد: تمني زوال النعمة عن الغير.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٥.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٥.

جَنَّاتٌ ونَعِيم﴾[١] وقال الله تعالى: ﴿إنّ المُتَّقِينَ في مقَامٍ أمينٍ﴾[٢] كأنه تعالى يقول: إنهم يُنَجَّونَ يوم القيامة من النار. وينبغي للمؤمن أن يكون بين الخوف والرجاء، فيرجو رحمة الله ولا ييأس منها كما قال الله تعالى: ﴿لاَ تَقنَطوا من رحَمةِ الله﴾[٣] ويعبد الله ويرجع عن أفعاله القبيحة ويتوب إلى الله تعالى.

حكاية: بينما داود عليه السلام جالس في صومعته يتلو الزبور إذ رأى دودةً حمراء في التُراب فقال في نفسه: ما أراد الله في هذه الدودة؟ فأذن الله للدودة حتى تكلَّمت فقالت: يا نبيَّ الله، أمّا نهاري فألهمني ربي أن أقول في كل يوم: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ألف مرة وأمّا ليلي فألهمني ربي أن أقول في كل ليلة: اللهم صلِّ على محمد النبيّ الأميّ وعلى آله وصحبه وسلّم ألف مرة، فأنت ما تقول حتى أستفيد منك؟ فندم داود عليه السلام على إحتقار الدودة، وخاف من الله تعالى وتاب إليه وتوكّل عليه.

وكان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه إذا ذكر خطيئته يُغشى عليه، ويُسْمع اضطرابُ قلبه مِيلاً في ميل.

فأرسل الله إليه جبريل فأتاه فقال له: الجبار يقرئك السلام، ويقول: هل رأيت خليلاً يَخاف خليله؟ فقال: يا جبريل إذا ذكرتُ خطيئتي، وفكَّرت في عقوبته نسيت خلّتي.

فهذه أحوال الأنبياء والأولياء والصالحين والزاهدين فتأمّل!

---

(١) سورة الطور، الآية: ١٧.

(٢) سورة الدخان، الآية: ٥١.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

٢ ـ باب: في الخوف من الله تعالى أيضاً

قال أبو الليث رحمه الله تعالى: إن لله ملائكةً في السماء السابعة سُجَداً منذ خلقهم الله تعالى إلى يوم القيامة، ترتعد فرائصهم من مخافة الله تعالى، وإذا كانوا يوم القيامة رفعوا رؤوسهم فقالوا: سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك. وذلك قوله تعالى: ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُم من فَوقِهِم وَيفَعلون ما يُؤمَرونَ**﴾[١] يعني لا يعصون الله تعالى طرفة عين.

وقال رسول الله ﷺ: «إذا اقْشَعرَّ جسد العبد من خشية الله تعالى تحاتَّتْ[٢] عنه ذنوبه كما يتحاتُّ عن الشجرة ورقُها».

حُكي: أن رجلاً تعلّق قلبُه بامرأة، فخرجت تلك المرأة إلى حاجة لها فذهب الرجل معها، فلما خلا بها في البادية، ونام الناس أفشى الرجل سرّه إليها، فقالت له المرأة: انظر أنام الناس بأجمعهم؟ ففرح الرجل بقولها وظنَّ أنها قد أجابته، فقام وطاف حول القافلة، فإذا الناس نيام، فرجع إليها، وقال لها: نعم هم نيام. فقالت: ما تقول في الله تعالى: أنائم في هذه الساعة؟ فقال الرجل: إن الله تعالى لا ينام ولا تأخذه سِنةٌ ولا نوم.

فقالت المرأة: إن الذي لم ينم ولا ينام يرانا وإن كان الناس لا يروننا، فذلك أولى أن يُخاف منه. فتركها الرجل خوفاً من الخالق، وتاب ورجع إلى وطنه.

فلما توفي رأوه في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بخوفي وتركي ذلك الذنب.

حكاية: كان في بني إسرائيل رجل عابد ذو عيال وأصابته المجاعة، وصار مضطراً، فبعث امرأته لتطلب شيئاً لعيالها، فجاءت إلى بيت رجل تاجر وطلبت منه ما

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٠.
(٢) تحاتَّت: أي تساقطت.

تقوت به عيالها، فقال الرجل: نعم ولكن مَكنِّيني من نفسك. فسكتت المرأة وعادت إلى بيتها، فنظرت إلى عيالها يصيحون ويقولون: يا أمي نحن نموت من الجوع أعطنا ما نأكله، فذهبت إلى الرجل وكلَّمته في أمر عيالها فقال لها: أتكون حاجتي مقضية؟ فقالت: نعم.

فلما خلا بها ارتعدت مفاصلها حتى كادت أعضاؤها تزول عن مواضعها، فقال لها: مالك؟ فقالت: إني أخاف الله. فقال الرجل: إنك تخافين الله تعالى مع ما بك من الفقر، فأنا أحق بالخوف منك، وامتنع عنها، وقضى حاجتها، وانصرفت بنعمة كثيرة إلى أولادها ففرحوا.

فأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن قل لفلان بن فلان: إني قد غفرت ذنوبه. فجاء موسى عليه السلام، فقال: لعلك قد فعلت خيراً بينك وبين الله؟، فذكر القصة عليه، فقال: إن الله تعالى قد غفر لك ما كان من ذنوبك... كذا في (مجمع اللطائف).

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: لا أجمع على عبدي خوفين ولا أمنين، مَنْ خافني في الدنيا أمَّنته في الآخرة، ومَنْ أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة» وقال الله تعالى: ﴿**فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ**﴾[1] وقال في آية أخرى: ﴿**فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[2].

وكان عمر رضي الله عنه يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشياً عليه، وأخذ يوماً تبنة فقال: يا ليتني كنت تبنة ولم أكُ شيئاً مذكوراً، يا ليتني لم تلدني أمي، ويبكي كثيراً حتى تجري دموعه من عينيه.

فكان في وجهه خطَّان أسودان من الدموع.

وقال ﷺ: «لا يلج[3] النار من بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع».

وفي (رقائق الأخبار): يُؤْتَى بعبدٍ يوم القيامة فترجح سَيِّآتهُ، فيؤمر به إلى النار،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

(٣) يَلِجُ: يدخل.

فتتكلم شعرة من شعرات عينيه وتقول: يا رب رسولك محمد ﷺ قال: «من بكى من خشية الله حرَّم الله تلك العين على النار». وإني بكيت من خشيتك، فيغفر الله له، ويستخلصه من النار ببركة شعرة واحدة كانت تبكي من خشية الله في الدنيا، وينادي جبريل عليه السلام: نجا فلان بن فلان بشعرة واحدة.

وفي (بداية الهداية): إذا كان يوم القيامة جيء بجهنم تزفر زفرة فتجثو كل أمة على ركبها من هولها كما قال الله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: على الرُّكَب ﴿كُل أمة تُدعى إلى كتابها﴾[1]. فإذا أتوا النار ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾[2] تُسْمَعُ زفرتها من مسيرة خمسمئة عام، وكل واحد حتى الأنبياء يقول: نفسي نفسي إلا صفيَّ الأنبياء ﷺ فإنه يقول: «أمتي أمتي».

وتخرج من الجحيم نار مثل الجبال فتجتهد أمة محمد ﷺ في دفعها، وتقول: يا نار بحق المصلين وبحق المصدِّقين، وبحق الخاشعين، وبحق الصائمين أن ترجعي. فلا ترجع.

وينادي جبريل عليه السلام: إن النار قد قصدت أمة محمد ﷺ. ثم يأتي بقدح من ماء فيناوله رسول الله ﷺ ويقول: يا رسول الله خذ هذا فرُشَّه عليها، فيرشه عليها فتطفأ في الحال، فيقول ﷺ: «ما هذا الماء؟» فيقول جبريل عليه السلام: هذا ماء دموع عصاة أمتك الذين بكوا من خشية الله تعالى. فالآن أُمرت أن أعطيكه لترشَّه على النار فتطفأ النار بإذن الله تعالى.

وكان ﷺ يقول: «اللهم ارزقني عينين تبكيان من خشيتك قبل أن لا يكون الدمع».

أعينـيَّ هـلاَّ تبكيـان علـى ذنبـي تنـاثـر عمـري مـن يـديَّ ولا أدري

وجاء في الخبر أن النبيَّ ﷺ قال: «ما من عبد مؤمن يخرج من عينيه من الدموع مثلُ رأس الذباب من خشية الله تعالى فيصيب حُرَّ وجهه فتمسَّه النار أبداً».

حُكي عن محمد بن المنذر رحمه الله تعالى أنه كان إذا بكى يمسح وجهه ولحيته

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ١٢.

بدموعه ويقول: بلغني أن النار لا تأكل موضعاً مسَّته الدموع.

فينبغي للمؤمن أن يخاف من عذاب الله، وينهى نفسه عن الشهوات النفسانية، كما قال الله تعالى: ﴿فأمَّا مَن طغى* وآثَرَ الحَياةَ الدُّنيا* فإنّ الجَحِيمَ هِيَ المَأوى* وأمّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبّه وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى* فإنّ الجَنَّة هي المَأوَىٰ﴾[١] ومن أراد أن ينجو من عذاب الله، وينال ثوابه ورحمته، فليصبر على شدائد الدنيا، وطاعة الله ويجتنب المعاصي.

وفي (زهر الرياض): روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة تتلقاهم الملائكة بكل خير ونعمة، فتوضع لهم المنابر، وتفرش ويؤتى لهم بألوان الأطعمة والفواكه، ثم تكون فيهم مع هذه النعمة حيرة فيقول الله: يا عبادي ما هذه الحيرة وليست هذه دار حيرة؟ فيقولون: إنّ لنا موعداً قد جاء وقته. فيقول الله تعالى للملائكة: ارفعوا الحُجُب عن الوجوه. فتقول الملائكة: يا ربنا كيف يرونك وقد كانوا عصاة؟ فيقول الله تعالى: ارفعوا الحُجُب فإنهم كانوا ذاكرين ساجدين باكين في الدنيا طمعاً في لقائي. فترفعُ الحُجُب فينظرون فيخرون سجّداً لله عزّ وجلّ، فيقول الله تعالى: ارفعوا رؤوسكم فإنّ هذه ليست بدار العمل بل دار الكرامة، فيتجلّى لهم بلا كيف ويقول لهم انبساطاً: سلام عليكم عبادي فقد رضيت عنكم، فهل رضيتم عني؟ فيقولون: ومالنا يا ربنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وهو قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿سَلامٌ قَوْلاً من ربٍّ رحَيِمٍ﴾[٣].

---

(١) سورة النازعات، الآيات: ٣٧ ـ ٤١.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٩.

(٣) سورة يسٓ، الآية: ٥٨.

٣ - باب: في الصبر[١] والمرض

من أراد أن ينجو من عذاب الله وينال ثوابه ورحمته ويدخل جنته فَلْينهَ نفسَهُ عن شهوات الدنيا وليَصبر على شدائدها ومصائبها، كما قال الله تعالى: ﴿**والله يحب الصابرين**﴾[٢].

والصبر على أوجه: صبر على طاعة الله، وصبر عن محارمه، وصبر على المصيبة، وعند الصدمة الأولى.

فمَنْ صبر على طاعة الله تعالى أعطاه الله تعالى يوم القيامة ثلاثمئة درجة في الجنة، كلُّ درجة ما بين السماء والأرض، ومَنْ صبر عن محارم الله، أعطاه الله تعالى يوم القيامة ستمئة درجة، كلُّ درجة مثل ما بين السماء السابعة والأرض السابعة، ومَنْ صبر على المصيبة أعطاه الله تعالى يوم القيامة سبعمئة درجة في الجنة، كلُّ درجة ما بين العرش إلى الثَّرى[٣].

حُكي أن زكريا عليه السلام هرب من اليهود فقفَّوْا أثره، فلما دنَوْا[٤] منه رأى شجرة فقال لها: يا شجرة أدخليني فيك. فانشقت الشجرة فدخل فيها، ثم التأمت عليه، فأشار عليهم إبليس أن يأتوا بالمنشار ويشقوها نصفين حتى يموت فيها. ففعلوا كما قال إبليس، وذلك حيث اعتصم بالشجرة، ولم يعتصم بالله، فأورثه الله هلاك نفسه، فنُشر بالمنشار على فرقتين. كما روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: ما من عبد نزلت به بلية فاعتصم بي إلا أعطيته قبل أن يسألني، واستجبت له قبل أن يدعونَي، وما من عبد نزلت به بليَّة فاعتصم بمخلوق دوني إلا أغلقتُ أبواب السماء عليه». فلما بلغ

---

(١) الصبر: صَبَرَ صَبْراً: تجلد ولم يَجْزعْ، وصبر على الأمر: احتمله ولم يجزع منه.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٦.

(٣) الثَّرى: الأرض.

(٤) دنوا: من دنى يدنو: أي إقترب.

المناشر إلى دماغه صاح، فقيل له: يا زكريا، إن الله تعالى يقول لك: لم لا تصبر للبلاء؟ تقول: آه. لو قلتها مرة ثانية لأخرج اسمك من ديوان الأنبياء. فعضَّ زكريا شفتيه وصبر حتى شقوه نصفين.

فيجب على العاقل أن يصبر للبلاء ولا يشكو، فينجو من عذاب الدنيا والآخرة، لأن أشدَّ البلاء على الأنبياء والأولياء.

قال الجنيد البغدادي رحمه الله: البلاء سراج العارفين، ويقظة المريدين، وصلاح المؤمنين، وهلاك الغافلين، لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يأتيه البلاء ويرضى ويصبر.

قال ﷺ: «من مرض ليلة فصبر ورضي عن الله تعالى خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه؛ فإذا مرضتم فلا تتمنوا العافية».

قال الضحاك: من لم يبتل بين كل أربعين ليلة ببلية أو همّ أو مصيبة فليس له عند الله خير.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: إذا ابتلي العبد المؤمن بالسقم[1] قال لصاحب الشمال: ارفع القلم عنه. وقال لصاحب اليمين: اكتب لعبدي أحسن ما كان يعمل.

وجاء في الخبر عن النبي ﷺ: «إذا مرض العبد بعث الله إليه ملكين فقال: انظرا ما يقول عبدي، فإن هو قال: الحمدلله، رفع ذلك إلى الله، وهو أعلم، فيقول: لعبدي عليَّ إن أنا توفيته أن أدخله الجنة، وإن أنا شفيته أن أبدله لحماً خيراً من لحمه، ودماً خيراً من دمه، وأن أكفّر عنه سيآته».

حُكي أنه كان في بني إسرائيل رجل فاسق وكان لا يمتنع عن الفسق حتى ضج أهل بلده وعجزوا عن منعه عن فسقه، فتضرّعوا إلى الله تعالى، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أنّ في بني إسرائيل شاباً فاسقاً، فأخرجه من بلدهم حتى لا تقع عليهم النار بسبب فسقه، فجاء موسى عليه السلام فأخرجه، فذهب الشاب إلى قرية من القرى، فأمر الله موسى أن يخرجه من تلك القرية، فأخرجه موسى عليه السلام.

---

(١) السقم: المرض.

فخرج إلى مفازة[١] ليس فيها خلق ولا زرع ولا وحوش ولا طيور، فمرض في تلك المفازة وليس عنده معين يعينه، فوقع على التراب ووضع رأسه عليه وقال: لو كانت والدتي عند رأسي لرحمتني، ولبكت على مذلتي، ولو كان والدي حاضراً لأعانني وتولّى أمري، ولو كانت زوجتي حاضرة لبكت على فراقي، ولو كان أولادي حاضرين عندي لبكوا خلف جنازتي ولقالوا: اللهم اغفر لوالدنا الغريب الضعيف العاصي الفاسق المطرود من بلده إلى قرية ومن القرية إلى مفازة، ومن المفازة يخرج من الدنيا إلى الآخرة آيساً من كل الأشياء. اللهم قطعتني عن والديّ وأولادي وزوجتي فلا تقطعني من رحمتك فإنك أحرقت قلبي بفراقهم، فلا تحرقني بنارك لأجل معصيتي.

فأرسل الله تعالى له حوراء على صفة أمّه، وحوراء على صفة زوجته، وغلماناً على صفة أولاده، وملكاً على صفة والده فجلسوا عنده وبكوا عليه فقال: إنّ هذا والدي ووالدتي وزوجتي وأولادي حضروا عندي وطاب قلبه ووصل إلى رحمة الله تعالى طاهراً مغفوراً له، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: اذهب إلى مفازة كذا وموضع كذا فإنه مات فيها وَليٌّ من الأولياء، فاحضُرْهُ وتولَّ أمره وواره.

فلمّا حضر موسى عليه السلام ذلك الموضع رأى الشاب الذي كان أخرجه من البلد، ومن القرية بأمر الله تعالى، ورأى الحور العين حواليه، فقال موسى عليه السلام: يا رب أما هذا الشاب الذي أخرجته من البلد ومن القرية بأمرك؟ فقال الله تعالى: يا موسى إني رحمتُه وتجاوزتُ عنه بأنينه في موضعه وفراقه وطنه ووالدته ووالده وأولاده وزوجته، وأرسلت إليه حوراء على صفة والدته، وملَكاً على صفة والده وحوراء على صفة زوجته يترحمون على مذلّته في غربته، فإنه إذا مات الغريب بكى عليه أهل السماوات وأهل الأرض رحمة له، فكيف لا أرحمه وأنا أرحم الراحمين؟.

إذا وقع الغريب في النَّزْع[٢] يقول الله تعالى: يا ملائكتي هذا غريب مسافر ترك أولاده وعياله ووالديه، وإذا مات لا يبكي عليه أحد ولا يحزن. ثم يجعل الله واحداً من الملائكة على صورة أبيه، وواحداً على صورة أمّه، وواحداً على صورة ولده، وواحداً

---

(١) المفازة: هي الصحراء، أو المكان الخالي.

(٢) النَّزْعُ: احتضار المريض.

على صورة واحدٍ من أقاربه، فيدخلون عليه فيفتح عينيه فيرى والديه وعياله فيطيب قلبه، وتخرج روحه بالفرح والسرور، ثم إذا خرجت جنازته يشيعونها ويدعون له على قبره إلى يوم القيامة فذلك قوله تعالى: ﴿الله لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾[1].

وقال ابن عطاء: يتبين صدق العبد من كذبه في أوقات البلاء والرخاء. فمن شكر في أيام الرخاء، وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين.

ولو اجتمع في رجل علم الثقلين، ثم هاجت عليه رياح البلاء فأظهر الشكوى لما نزل به لا ينفعه علمه ولا عمله. كما جاء في الحديث القدسي يقول الله تعالى: «مَن لم يرض بقضائي، ولم يشكر لعطائي فليطلب ربّاً سوائي».

حكى وهبُ بن منبّه: أنّ نبياً عَبَد الله خمسين عاماً، فأوحى الله إليه: أني قد غفرت لك، فقال: يا رب لماذا تغفر لي ولم أذنب قط؟ فأمر الله عِرْقَه فضُرب عليه ولم ينم تلك الليلة، فجاء ملَك الصبح فشكا إليه مالقي من ضرَبان العِرْق فقال: إن ربك يقول لك: عبادة خمسين عاماً ما تعدل شكوى هذا العرق.

(١) سورة الشورى، الآية: ١٩.

٤ ـ باب: في الرياضة والشهوة النفسانية

أوحى الله إلى موسى عليه السلام: يا موسى إن أردت أن أكون أقرب إليك من كلامك إلى لسانك، ومن وسوسة قلبك إلى قلبك، ومن روحك إلى بدنك، ومن نور بصرك إلى عينيك، ومن سمعك إلى أذنك، فأكثر من الصلاة على محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿ولتَنظُر نَفسٌ ما قَدَّمَتْ لِغدٍ﴾[1] يعني ما عملت في يوم القيامة.

اعلم أيها الإنسان: أن النفّس الأمارة بالسوء هي أعدى لك من إبليس، وإنما يتقوّى عليك الشيطان بهوى النفس وشهواتها، فلا تغرَّنَّك نفسُك بالأماني والغرور، لأن من طَبْع النفس الأمن والغفلة والراحة والفترة والكسل، فدعواها باطل، وكلُّ شيء منها غرور، وإن رضيتَ عنها واتّبعت أمرها هلكت، وإن غفلت عن محاسبتها غرقت، وإن عجزت عن مخالفتها واتبعت هواها قادتك إلى النار.

وليس للنفس مرجوع إلى الخير، وهي رأس البلايا، ومعدِن الفضيحة وهي خزانة إبليس، ومأوى كلِّ شر، لا يعرفها إلا خالقُها. ﴿واتقوا الله إنَّ الله خبيرٌ بما تعملون﴾[2] يعني من الخير والشر. وإذا تفكَّر العبد فيما مضى من عمره في طلب آخرته كان هذا التفكُّر غسل القلب كما قال ﷺ: «تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة» كذا في تفسير أبي الليث.

فينبغي للعاقل أن يتوب من الذنوب الماضية، ويتفكّر فيما يقرِّبه وينجو به في الدار الآخرة، ويقصر الأمل، ويعجل التوبة، ويذكر الله تعالى، ويترك المناهي، ويصبِّر نفسه، ولا يتبع الشهوات النفسانية. فالنفس صنم، فمن عَبَدَ النفسَ فهو يعبد الصنم، ومن عَبَد الله بالإخلاص فهو الذي قهر نفسه.

وروي أن مالك بن دينار كان يمشي في سوق البصرة، فرأى التين فاشتهاه، فخلع

(١) سورة الحشر، الآية: ١٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٨.

نعله وأعطاه إلى البقال وقال: أعطني التين. فرأى البقال النعل. وقال: لا يساوي شيئاً. فمضى مالك. فقيل للبقال: أليس تعرف من هذا؟ قال: لا. قيل: هو مالك بن دينار. فحمل البقال الطبق على رأس غلامه وقال له: إن قبل هذا منك فأنت حر. فعدا الغلام خلف مالك بن دينار وقال له: اقبل هذا مني. فأبى. فقال: اقبل فإن فيه تحريري. فقال له مالك بن دينار: إن كان فيه تحريرك ففيه تعذيبي. فألحَّ الغلام عليه، فقال مالك بن دينار: حلفتُ أن لا أبيع الدِّين بالتين. ولا آكل التين إلى يوم الدِّين.

حُكي أن مالك بن دينار: مرض مرضه الذي مات فيه، فاشتهى قدحاً من العسل واللبن ليثرد[1] فيه رغيفاً حاراً، فمضى الخادم وحمله إليه، فأخذه مالك بن دينار ونظر فيه ساعة وقال: يا نفس قد صبرت ثلاثين سنة وقد بقي من عمرك ساعة، ورمى القدح من يديه وصبَّر نفسه ومات.

وهكذا أحوال الأنبياء والأولياء، والصادقين، والعاشقين، والزاهدين.

قال سليمان بن داود عليه السلام: إن القاهر لنفسه أشد ممن يفتح المدينة وحده.

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: ما أنا ونفسي إلا كراعي غنم، كلما ضمها من جانب انتشرت من جانب آخر. من أمات نفسه يُلَفُّ في كفن الرحمة، ويُدفَن في أرض الكرامة، ومَن أمات قلبه يُلَف في كفن اللعنة، ويُدفن في أرض العقوبة.

قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى: جاهد نفسك بالطاعة والرياضة، فالرياضة هجر المنام، وقلة الكلام، وحمل الأذى من الأنام، والقلة من الطعام، فيتولد من قلة المنام صفو الإرادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى البلوغ إلى الغايات، ومن قلة الطعام موت الشهوات، لأن في كثرة الأكل قسوة القلب وذهاب نوره. نور الحكمة الجوع، والشِّبَع يُبْعِد من الله.

كما قال ﷺ: «نوِّروا قلوبكم بالجوع، وجاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش، وأديمو[2] قرع باب الجنة بالجوع، فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله، وإنه

---

(١) ليثرد: من ثَرَدَ الخبز ثَرْداً فتره ثم بل بالمرق فهو ثارد والخبز ثريد.

(٢) أديموا: من الديمومة التي تعني الاستمرار.

ليس من عمل أحبَّ إلى الله تعالى من جوع وعطش، ولن يلج[1] ملكوتَ السماء مَنْ ملأ بطنه، ومن ملأ بطنه فقدَ حلاوة العبادات».

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ما شبعت منذ أسلمت لأجد حلاوة عبادة ربي، وما رَوِيت منذ أسلمت اشتياقاً إلى لقاء ربي، لأن في كثرة الأكل قلةُ العبادة، لأنه إذا أكْثَرَ الإنسان الأكل ثَقُلَ بدنه وغلبتْه عيناه وفترت أعضاؤه فلا يجيء منه شيء وإن اجتهد إلا النوم، فيكون كالجيفة الملقاة. كذا في (منهاج العابدين).

عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: لا تُكثر النوم والأكل فإن من أكثر منهما جاء يوم القيامة مُفْلساً من الأعمال الصالحة. كذا في (منية الفتى).

وقال ﷺ: «لا تُميتوا القلوبَ بكثرة الطعام والشراب، فإن القلب يموت كالزرع إذا كثر عليه الماء».

ولقد شبّه ذلك بعضُ الصالحين بأن المعدة كالقدر تحت القلب تغلي والبخار يصل إليه، فكثرة البخار تكدِّره وتسوِّده، وفي كثرة الأكل قلّة الفهم والعلم، فإن البِطْنَةَ تُذْهِبُ الفِطْنَةَ.

حُكي عن يحيى بن زكريا عليه السلام: أن إبليس بدا له وعليه مَعَاليق. فقال له يحيى: ما هذه؟ قال الشهوات التي أصيد بها بني آدم. قال يحيى: هل تجد لي فيها شيئاً؟ قال: لا، إلا أنك شبعت ذات ليلة فثقّلناك عن الصلاة. قال يحيى عليه السلام: لا جَرَمَ أني لا أشبع بعدها أبداً.

فقال إبليس: لا جرم أني لا أنصح أحداً أبداً. فهذه فيمن لم يشبع في عمره إلا ليلة، فكيف بمن لا يجوع في عمره ليلة ثم يطمع في العبادة؟.

حُكي أيضاً عن يحيى بن زكريا عليه السلام: أنه شبع مرة من خبز شعير، فنام تلك الليلة عن ورده، فأوحى الله تعالى إليه: يا يحيى هل وجدت داراً هي خيراً لك من داري؟ أو وجدت جواراً هو خيراً لك من جواري؟... وعزّتي وجلالي لو اطّلعتَ على الفردوس، واطّلعت على جهنم لبكيت الصديد بدل الدموع، ولَلبستَ الحديد بدل المسوح.

---

(١) يلج: من ولج يلج: أي دخل.

٥ ـ باب: في غلبة النفس وعداوة الشيطان

ينبغي للعاقل أن يقمع شهوة النفس بالجوع، إذ الجوع قهر لعدو الله، قال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع».

إن أقرب الناس إلى الله تعالى يوم القيامة من طال جوعه وعطشه، وأعظم المهلكات لابن آدم شهوة البطن، فبها أُخرج آدمُ وحوّاء من دار القرار إلى دار الذل والافتقار، إذ نهاهما ربُّهما عن أكل الشجرة، فغلبتهما شهوتهما حتى أكلا، فبدت لهما سوآتهما. والبطن على التحقيق ينبوع الشهوات.

وقال بعض الحكماء: من استولت عليه النفس صار أسيراً في حبِّ شهواتها، محصوراً في سجن هفواتها، ومنعت قلبه من الفوائد.

من سقى أرض الجوارح بالشهوات فقد غرس في قلبه شجرة الندامة.

إن الله تعالى خلق الخلق على ثلاثة ضروب: خلق الملائكة وركّب فيهم العقل، ولم يركّب فيهم الشهوة؛ وخلق البهائم، وركّب فيها الشهوة، ولم يركّب فيها العقل؛ وخلق ابن آدم وركّب فيه العقل والشهوة؛ فمن غلبت شهوته عقله، فالبهائم خير منه، ومن غلب عقله شهوته، فهو خير من الملائكة.

حكاية: قال إبراهيم الخواص: كنت في جبل اللُّكام فرأيت رُمَّاناً فاشتهيته، فأخذت منه واحدة فشققتها فوجدتها حامضة، فمضيت وتركت الرمان، فرأيت رجلاً مطروحاً قد اجتمعت عليه الزنابير فقلت: السلام عليك، فقال لي: وعليك السلام يا إبراهيم. فقلت: من أين عرفتني؟ فقال: من عرف الله لا يخفى عليه شيء. فقلت: أرى لك مع الله حالاً فهلا سألته أن ينجيك من هذه الزنابير؟ فقال: وإني أرى لك مع الله حالاً، فهلا سألته أن ينجيك من شهوة الرمان؟ فإن الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة، ولذع الزنابير يجد ألمه في الدنيا، ولذع الزنابير على النفوس، ولذع الشهوات على القلوب. فمضيت وتركته.

الشهوة تُصيِّر الملوك عبيداً، والصبر يصيِّر العبيد ملوكاً، ألا ترى إلى قصة يوسف عليه السلام وزليخا؟ فقد صار يوسف سلطان مصر بصبره، وصارت زليخا ذليلة حقيرة فقيرة عجوزاً عمياء لأجل شهوتها، فإن زليخا لم تصبر عن محبة يوسف.

حكى أبو الحسن الرازي أنه رأى والده في منامه بعد موته بسنتين وعليه ثياب من القطران فقال له: يا أبي مالي أرى عليك هيئة أهل النار؟ فقال: يا ولدي جذبتني نفسي إلى النار، فاحذر يا ولدي من خديعة نفسك:

إنـي ابتليـت بـأربـع مـا سُلِّطـوا إلا لشـدة شقْـوَتـي وعنـائـي

إبليسُ والـدنيـا ونفسـي والهـوى كيـف الخـلاص وكلُّهـم أعـدائـي

وأرى الهـوى تـدعـو إليـه خـواطـري فـي ظلمـة الشهـوات والآراء

قال حاتم الأصم رحمه الله: نفسي رباطي، وعلمي سلاحي، وذنبي خيبتي، والشيطان عدوّي، وأنا بنفسي غادر.

حُكي عن بعض أهل المعرفة أنه قال: الجهاد على ثلاثة أصناف: جهاد مع الكفار، وهو جهاد الظاهر كالذي في قوله تعالى: ﴿يُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ الله﴾[1].

وجهاد مع أصحاب الباطل بالعلم والحجة كقوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهِمْ بالتي هي أحْسَنْ﴾[2].

وجهاد مع النفس الأمارة بالسوء كالذي في قوله تعالى: ﴿والَّذِينَ جَاهدَوا فِينَا لَنَهدِيَنَّهمْ سُبُلَنا﴾[3].

وقوله ﷺ: «أفضل الجهاد جهاد النفس». وإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين كانوا إذا رجعوا من جهاد الكفار يقولون: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. وإنما سمّوا الجهاد مع الهوى والنفس والشيطان أكبر لأنّ الجهاد معها أدوم، وجهاد الكفار يكون في وقت دون وقت.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

ولأن الغازي يرى العدو ولا يرى الشيطان، والجهاد مع عدو يراه أسهل من الجهاد مع عدو لا يراه، ولأن للشيطان معيناً من نفسك وهو الهوى، وليس للكافر من نفسك معين، فلذلك كان أشد. ولأنك إذا قتلت الكافر تجد النصر والغنيمة، وإن قتلك الكافر تجدِ الشهادة والجنة.

ولا تقدر أن تقتل الشيطان، وإن قتلك الشيطان تقعْ في عقوبة الرحمن. كما قيل: من فرَّ منه فرسه في الحرب وقع في أيدي الكفار، ومن فرّ منه الإيمان يقعْ في غضب الجبّار. نعوذ بالله منه. ومن وقع في أيدي الكفّار لا تغل يده إلى عنقه، ولا تقيّد رجلُه، ولا يجوع بطنه، ولا يعرى بدنه. ومن وقع في غضب الجبّار يَسْوَدُّ وجهه، وتُغلُّ يده إلى عنقه بالأغلال، وتقيّد رجله بقيود النار، ويكون طعامه ناراً، وشرابه ناراً، ولباسه من نار.



٦ - باب: في الغفلة[1]

الغفلة تزيد الحسرة، الغفلة تزيل النعمة وتحجب عن الخدمة، الغفلة تزيد الحسد، الغفلة تزيد الملامة والندامة.

حُكي أن بعض الصالحين رأى أستاذه في المنام فسأله: أي الحسرة أعظم عندكم؟ فقال: حَسْرَةُ الغفلة.

وروي أن بعضهم رأى ذا النون المصري في منامه فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفني بين يديه، وقال لي: يا مُدَّعي يا كذّاب، ادّعيت محبتي ثم غَفَلْتَ عني.

أنت في غفلة وقلبك ساهي ذهب العمر والذنوب كما هي

حُكي أن رجلاً من الصالحين رأى والده في منامه فقال: يا أبت كيف أنت، وكيف حالك؟ فقال له: يا ولدي عِشْنَا في الدنيا غافلين، ومِتْنا غافلين.

وفي (زهر الرياض) كان يعقوب عليه السلام مؤاخياً لملك الموت فزاره، فقال له يعقوب: يا ملك الموت أزائراً جئت أم قابضاً روحي؟ فقال: بل زائراً. قال: فإني أسألك حاجة. قال: وما هي؟ قال: أن تُعْلِمَني إذا دنا أجلي وأردت أن تقبض روحي. فقال: نعم أرسل إليك رسولين أو ثلاثة.

فلما انقضى أجله أتى إليه ملك الموت فقال: أزائراً جئت أم لقبض روحي؟ فقال: لقبض روحك. فقال: أو لستَ كنتَ أخبرتني أنك ترسل إلي رسولين أو ثلاثة؟ قال: قد فعلت. بياض شعرك بعد سواده، وضَعُفَ بدنك بعد قوته، وانحناء جسمك بعد استقامته، هذه رسلي يا يعقوب إلى بني آدم قبل الموت.

مضى الدهرَ والأيامُ والذنبُ حاصلٌ وجاء رسول الموت والقلب غافلُ

---

(١) الغفلة: غفل عن الشيء غُفُولاً، وغَفْلَة: سها من قلة التحفظ والتيقظ.

نَعِيمُكَ في الدنيا غرورٌ وحسرةٌ وعَيْشُكَ في الدنيا محالٌ وباطلُ

قال أبو علي الدقاق: دخلت على رجل صالح أعوده[١] وهو مريض، وكان من المشايخ الكبار، وحوله تلاميذه، وهو يبكي، وقد بلغ أرذل العمر.

فقلت له: أيها الشيخ مِمَّ بكاؤك؟ أعلى الدنيا؟ فقال: كلا، بل أبكي على فوت صلاتي، قلت: وكيف ذلك وقد كنت مصلياً؟ قال: لأني قد بقيت إلى يومي هذا وما سجدت إلا في غفلة، ولا رفعت رأسي إلا في غفلة، وها أنا أموت على الغفلة، ثم إنه تنفس الصّعداء وأنشد يقول:

تفكّرتُ في حشري ويوم قيامتي وإصباحِ خدي في المقابر ثاويا
فريداً وحيداً بعد عِزٍّ ورفعة رهيناً بجرمي والتراب وساديا
تفكرت في طول الحساب وعرضه وذل مقامي حين أعطى كتابيا
ولكن رَجَائي فيك ربي وخالقي بأنك تعفو يا إلهي خطائيا

وفي (عيون الأخبار) ذكر عن شقيق البلخي أنه قال: الناس يقولون ثلاثة أقوال، وقد خالفوها في أعمالهم: يقولون نحن عبيد الله، وهم يعملون عمل الأحرار، وهذا خلاف قولهم.

ويقولون: إن الله كفيل بأرزاقنا، ولا تطمئن قلوبهم إلا بالدنيا، وجمع حطامها، وهذا أيضاً خلاف قولهم.

ويقولون: لا بُدّ لنا من الموت، وهم يعملون أعمال من لا يموت، وهذا أيضاً خلاف قولهم. فانظر لنفسك يا أخي بأي بَدَنٍ تقف بين يدي الله تعالى؟ وبأي لسان تُجيبه؟ وماذا تقول إذا سألك عن القليل والكثير؟ فأعدَّ للسؤال جواباً، وللجواب صواباً: ﴿واتقوا الله إنَّ الله خبير بما تعملون﴾[٢] أي من الخير والشر. ثم وعظ المؤمنين بأن لا يتركوا أمره وبأن يوحدوه في السر والعلانية.

جاء في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «مَكتوبٌ على ساق العرش: أنا مَطِيعٌ من

(١) أعوده: أزوره.
(٢) سورة الحشر، الآية: ١٨.

أطاعني، ومحبٌ من أحبَّني، ومجيب من دعاني، وغافر لمن استغفرني» فينبغي للعاقل أن يُطيع الله بالخوف والإخلاص في طاعته، والرضا بقضائه، والصبر على بلائه، وبالشكر على نعمائه، والقناعة بإعطائه.

يقول الله تعالى: «من لم يَرْضَ بقضائي، ولم يَصْبِرْ على بلائي، ولم يشكرني على نَعْمَائي، ولم يَقْنَع بعطائي، فليطلبْ رباً سوائي».

وقال رجل للحسن البصري رحمه الله: إني لا أجد للطاعة لذة. فقال له: لعلك نظرت في وجه من لا يخاف الله، العبودية أن تترك الأشياء كلها لله.

وقال رجل لأبي يزيد رحمه الله: إني لا أجد للطاعة لذة. فقال: لأنك تعبد الطاعة ولا تعبد الله، اعبُدِ الله حتى تجد للطاعة لذة.

حُكي أن رجلاً دخل في الصلاة، فلما انتهى إلى قوله ﴿إياك نعبد﴾[1] خطر بباله أنه عابدٌ لله في الحقيقة، فنودي في السرِّ: كذبت، إنما تعبدُ الخلقَ.

فتاب واعتزل الناس، ثم شرع في الصلاة، فلما انتهى إلى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُد﴾ نودي: كذبتَ، إنما تعبدُ مالك، فتصدَّق بماله كله، ثم شرع في الصلاة، فلما انتهى إلى قوله: ﴿إيَّاك نعبد﴾ نودي: كذبت إنما تعبد ثيابك، فتصدق بها إلا ما لا بد له منه، ثم شرع فيها، فلما انتهى إلى قوله ﴿إيَّاك نعبد﴾ نودي: الآن صدقت إنما تعبد ربك.

وفي (رونق المجالس): ضاع لرجل جُوالَق فلم يدر من أخذه منه. فلما دخل في الصلاة تذكره، فلما سلم قال لغلامه: اذهب إلى فلان بن فلان واسترد منه الجوالَق.

فقال له الغلام: متى ذكرته؟ فقال: حين كنت في الصلاة. فقال: يا مولاي كنت طالب الجوالق لا طالب الخالق، فأعتقه مولاه ببركة اعتقاده.

فينبغي للعاقل أن يترك الدنيا ويعبد الله ويتفكر أمامه ويريد الآخرة، كما قال الله تعالى: ﴿من كان يُريدُ حَرثَ الآخِرةَ نَزِدْ لهُ في حَرثِهِ ومن كان يُريدُ حرثَ الدُنيا﴾ أي: ملاذَّها من لباسها وطعامها وشرابها ﴿نُؤتِه مِنها ومَا لَهُ في الآخِرَة من نَصيب﴾[2] بأن ينزع

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٥.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٠.

من قلبه حب الآخرة. ولذلك أنفق أبو بكر الصديق رضي الله عنه على النبي ﷺ أربعين ألف دينار في السر، وأربعين ألف دينار في العلانية حتى لم يبق له شيء.

وكان ﷺ مُعْرضاً عن الدنيا وشهواتها ولذاتها هو وأهله. ولذلك كان جهاز السيدة الزهراء رضي الله عنها لما زوّجها النبيُّ ﷺ من عليّ جلد كبش مدبوغ ووسادة أَدَم حشوها ليف.



٧ ـ باب: في نسيان الله تعالى والفسق والنفاق

جاءت أمرأة إلى الحسن البصري رضي الله عنه فقالت: إنه كانت ابنة شابة فماتت وأحببت أن أراها في المنام فجئتك كي تعلمني ما أستعين به على رؤيتها، فعلمها فرأتها وعليها لباس من قطران، وفي عنقها الغل، وفي رجلها القيد، فأخبرت الحسن بذلك فأغتم، ومضت مدة ثم رآها الحسن في الجنة، وعلى رأسها تاج فقالت يا حسن: أما تعرفني، ابنة المرأة التي أتتك وقالت لك كذا، فقال لها ما الذي صيّرك إلى ما أرى؟ قالت مر بنا رجل فصلى على النبي ﷺ مرة، وكان في المقبرة خمسمائة وخمسون إنساناً في العذاب فنودي ارفعوا العذاب عنهم ببركة صلاة هذا الرجل. بصلاة رجل على محمد ﷺ أصابتهم المغفرة فمن يصلي عليه منه خمسين سنة أفلا يجد شفاعته يوم القيامة.

قال الله تعالى: ﴿ولا تكُونُوا﴾ أي في المعصية ﴿كالَّذين﴾ يعني المنافقين الذين ﴿نَسُوا الله﴾[1] يعني تركوا أمر الله وفعلوا خلافه وتلذذوا بشهوات الدنيا وركنوا إلى غرورها.

وسُئِلَ رسول الله ﷺ عن المؤمن والمنافق فقال: «إن المؤمن همُّه في الصلاة والصيام، والمنافق همُّه في الطعام والشراب» كالبهيمة وترك العبادة والصلاة، والمؤمن مشغول بالصدقة وطلب المغفرة، والمنافق مشغول بالحرص والأمل، والمؤمن آيسٌ من كل أحد إلا من الله، والمنافق راجٍ كلَّ أحدٍ إلا الله، والمؤمن يقدم ماله دون دينه، والمنافق يقدم دينه دون ماله، والمؤمن آمن من كلِّ أحد إلا من الله، والمنافق خائف من كل أحد إلا من الله، والمؤمن يحسن ويبكي، والمنافق يسيء ويضحك، والمؤمن يحب الوحدة والخلوة، والمنافق يحب الخلطة والملأ، والمؤمن يزرع ويخشى الفساد، والمنافق يقلع ويرجو الحصاد، والمؤمن يأمر وينهى سياسة دينية ويصلح، والمنافق يأمر وينهى رياسة ويفسد، بل يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف كما قال الله تعالى:

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٩.

﴿المُنَافِقُون والمُنَافِقَاتُ بعضُهُم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون* وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾[١]. وقال تعالى: **﴿إنَّ الله جامعُ المنافقين والكافرين في جهنَّم جميعاً﴾**[٢]. يعني إن ماتوا على كفرهم ونفاقهم، فبدأ بالمنافقين لأنهم شرٌّ من الكفار، وجعل مأواهم جميعاً النار وقال تعالى: **﴿إنَّ المُنَافقينَ في الدرك الأسفل من النَّار ولن تجد لهم نصيرا﴾**[٣].

والمنافق اشتقاقه في اللغة من نافقاء اليربوع. ويقال: إن لليربوع حجرتين إحداهما النافقاء والأخرى القاصعاء، فيظهر نفسه في إحداهما ويخرج من الأخرى، ولهذا سُمّي المنافق منافقاً لأنه يظهر من نفسه أنه مسلم، ويخرج من الإسلام إلى الكفر.

وفي الحديث: «مثل المنافق كمثل الشاة ترى بين قطيعين من الغنم» تارة تسير إلى هذا القطيع وتارة إلى هذا القطيع ولا تسكن لواحد منهما لأنها غريبة ليست منهما.

وكذلك المنافق لا يستقر مع المسلمين بالكلية ولا مع الكافرين.

إن الله خلق النار ولها سبعة أبواب كما قال الله تعالى: **﴿لها سبعَةُ أبْوَابٍ﴾**[٤] من حديد مطبقة باللعنة وعليها ظهارة النحاس وبطانة الرصاص، في أصلها العذاب، وفوقها السخط، وأرضها من نحاس وزجاج، وحديد ورصاص، النار من فوق أهلها، والنار من تحتهم، والنار عن أيمانهم، والنار عن شمائلهم، طبقاتها بعضها فوق بعض أُعِدّ للمنافقين منها الدرك الأسفل.

وجاء في الخبر أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يا جبريل صِفْ لي النار وحرها. فقال: إن الله عز وجل خَلَقَ النار فأوقدها ألف عام حتى احمرت، ثم أوقدها ألف عام حتى ابيضت، ثم أوقدها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة؛ والذي بعثك بالحق نبياً لو أن ثوباً من ثياب أهل النار ظهر لأهل الأرض لماتوا جميعاً، ولو أن دلواً

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٦٧ ، ٦٨ .
(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٠ .
(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٥ .
(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٤ .

من شرابها صُبّ على ماء الأرض جميعه لقتل من ذاقه، ولو أن ذراعاً من السلسلة التي ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿في سِلسِلةٍ ذَرعُها سبعُون ذِرَاعاً﴾[1] كل ذراع طوله من المشرق إلى المغرب، ولو وُضع على جبال الدنيا لذابت، ولو أن رجلاً دخل النار ثم أخرج منها لمات أهل الأرض من نتن ريحه».

وسأل ﷺ جبريل فقال: «يا جبريل صف لي أبواب جهنم، أهي كأبوابنا هذه؟ فقال: يا رسول الله، لا ولكنها طباق بعضها أسفل من بعض، من الباب إلى الباب مسيرة سبعين سنة، كلّ باب منها أشد حرّاً من الذي يليه بسبعين ضعفاً». وسأله أيضاً عن سُكان هذه الأبواب فقال: «أما الأسفل ففيه المنافقون، واسمه الهاوية، كما قال الله تعالى: ﴿إنَّ المُنَافقينَ في الدَّركِ الأسفَلِ من النَّار﴾[2] والباب الثاني فيه المشركون، واسمه الجحيم، والباب الثالث فيه الصابئون، واسمه سقر، والباب الرابع فيه إبليس عليه اللعنة، ومن تبعه من المجوس، واسمه لظى، والباب الخامس فيه اليهود، واسمه الحُطَمة، والباب السادس فيه النصارى، واسمه السعير». ثم أمسك جبريل عليه السلام، فقال له رسول الله ﷺ: «لم تخبرني عن سكان الباب السابع؟ فقال جبريل: يا محمد لا تسألني عنه. فقال له: أخبرني عنه. فقال: فيه أهل الكبائر من أمتك الذين ماتوا ولم يتوبوا».

روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وإن مِنكُم إلا وَارِدُهَا﴾[3] اشتد خوفه ﷺ على أمته وبكى بكاء شديداً.

فالعارف بالله وبشدة سطوته وقهره يخافه خوفاً شديداً ويبكي على نفسه وتفريطه قبل أن يرى هذه الشدائد ويَعاين هذه الدار المخوفة المهولة، وقبل أن تنتهك الأستار ويعرض على المنتقم الجبار ويؤمر به إلى النار، فكم من شيخ ينادي في النار: واشيبتاه! وكم من شاب ينادي: واشباباه! وكم من امرأة في النار تنادي: وافضيحتاه! واهتك ستراه! وقد اسودَّتْ وجوههم وأجسادهم، وانكسرت ظهورهم، فلا يكرم كبيرهم ولا يرحم صغيرهم، ولا تستر نساؤهم. اللهم أجرنا من النار، ومن عذاب النار، ومن كل

(١) سورة الحاقة، الآية: ٣٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٥.
(٣) سورة مريم، الآية: ٧١.

عمل يقربنا إلى النار، وأدخلنا الجنة مع الأبرار برحمتك يا عزيز يا غفار.

اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، وأقلنا من عثراتنا[١]، ولا تفضحنا بين يديك يا أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



(١) عثراتنا: جمع عثرة وهي الخطيئة.

٨ ـ باب: في التوبة[١]

التوبة واجبة على كل مسلم ومسلمة، قال الله تعالى: ﴿تُوبُوا إلى اللهِ تَوبةً نَصُوحاً﴾[٢] والأمر للوجوب. وقال تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله﴾ يعني عاهدوا الله ونبذوا كتابه وراء ظهورهم ﴿فأَنسَاهُم أنفُسَهمُ﴾[٣] يعني أنساهم حالهم حتى لم ينهوا أنفسهم ولم يقدموا لها خيراً.

وقال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُون﴾[٤] يعني العاصون الناقضون عهدهم، أي الخارجون عن طريق الهداية، والرحمة، والمغفرة.

والفاسق على نوعين: فاسق كافر، وفاسق فاجر. فالفاسق الكافر هو، من لم يؤمن بالله ورسوله، وخرج عن الهداية، ودخل في الضلالة، كما قال الله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عن أَمرِ رَبِهِ﴾[٥] يعني خرج عن طاعة أمر ربه بالإيمان، والفاسق الفاجر هو: الذي يشرب الخمر، ويأكل الحرام، ويزني، ويعصي الله تعالى، ويخرج من طريق العبادة، ويدخل في المعصية، ولا يأتي بالشرك.

والفرق بينهما: أن الفاسق الكافر لا يُرجى غفرانه إلا بالشهادة، والتوبة قبل موته، والفاسق الفاجر يُرجى غفرانه بالتوبة والندامة قبل الموت، فإنّ كل معصية أصلها من الشهوة النفسانية يرجى غفرانها، وكل معصية أصلها من الكِبْر لا يرجى غفرانها. ومعصية إبليس كان أصلها من الكِبْر.

---

(١) التوبة: الاعتراف والندم والإقلاع والعزم على أن لا يعاود الانسان ما اقترفه، من تاب توباً وتوبة: أي رجع عن المعصية.

(٢) سورة التحريم: الآية: ٨.

(٣) سورة الحشر، الآية: ١٩.

(٤) سورة الحشر، الآية: ١٩.

(٥) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

فينبغي لك أن تتوب من ذنوبك قبل الموت رجاء أن يقبلك الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذي يَقبلُ التَوبَة عن عِبادِهِ وَيَعفُو عن السَيئاتِ﴾[1] يعني يتجاوز عما عملوا بقبوله التوبة. وقال ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

حُكي أن رجلاً كان كلما أذنب يكتب ذنبه في ديوان: فأذنب يوماً ذنباً، فنشر ديوانه ليكتب فيه فلم يجد فيه إلا قوله تعالى: ﴿فأُولئِكَ يُبدِّل الله سَيئَاتِهم حَسَنات﴾[2] يعني يُبدِّل مكان الشرْك الإيمان، ومكان الذنب العفو، ومكان المعصية العصمة والطاعة.

وحُكي: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرّ وقتاً من الأوقات في سكك المدينة، فاستقبله شاب وهو حامل قارورة تحت ثيابه، فقال عمر: أيها الشاب! ما الذي تحمل تحت ثيابك؟ وكان خمراً، فخجل الشاب أن يقول خمراً، وقال في سره: إلهي لا تُخَجّلني عند عمر، ولا تفضحني واسترني عنده، فلا أشرب الخمر أبداً.

ثم قال: يا أمير المؤمنين الذي أحمل هو خَلّ. فقال: أرني حتى أراها. فكشف بين يديه فرآها عمر صارت خلاً.

فانظر إلى مخلوق تاب من خوف مخلوق، فبدّل الله سبحانه وتعالى خمره بالخل لما علم منه إخلاص التوبة.

فلو تاب العاصي المفلس عن الأعمال الفاسدة توبة نصوحاً، وندم على ذنبه بدّل الله سبحانه وتعالى، خمر سيئاته بخلٍّ الطاعة.

وذُكر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجت ذات ليلة بعدما صليت العشاء الآخرة مع رسول الله ﷺ، فإذا أنا بامرأة في الطريق، فقالت: يا أبا هريرة إني ارتكبت ذنباً فهل لي من توبة؟ فقلت: ما ذنبك؟ قالت: إني زنيت وقتلت ولدي من الزنا. فقلت لها: هلكت وأهلكت، والله مالك من توبة. فخرّت مغشياً عليها. فمضيت فقلت في نفسي: أفْتِي ورسول الله ﷺ بين أظهرنا! فرجعت إليه فأخبرته بذلك، فقال: «هلكتَ وأهلكتَ» فأين أنت من هذه الآية: ﴿والَّذين لاَ يَدعُونَ مَعَ الله إلهاً آخَرَ﴾ إلى قوله:

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

﴿فأُولئكَ يبدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِم حَسَناتٍ﴾[1] فخرجت وقلت: من يدلني على امرأة سألتني مسألة؟ والصبيان يقولون: جُنّ أبو هريرة، حتى أدركتها وأخبرتها بذلك، فشهقت شهقة من السرور وقالت: إن لي حديقة جعلتها صدقة لله ورسوله.

حكاية: عن عُتبة الغلام رحمه الله تعالى، وكان من أهل الفسق والفجور، مشهوراً بالفساد، وشرب الخمر، فدخل يوماً في مجلس الحسن البصري وهو يقرأ في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَم يَأنِ للَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخشَعَ قُلوبُهُم لذِكرِ الله﴾[2] يعني ألم يجيء وقت تخاف قلوبهم؟ فوعظ الشيخ في تفسيره هذه الآية وعظاً بليغاً حتى أبكى الناس، فقام من بينهم شاب فقال: يا تقيّ المؤمنين، أيقبل الله تعالى الفاسق الفاجر مثلي إذا تاب؟ فقال الشيخ: نعم يقبل الله توبة فسقك وفجورك.

فلما سمع عتبة الغلام هذا الكلام اصفرّ وجهُه، وارتعدت فرائصُه فصاح صيحة، فخرّ مغشياً عليه. فلما أفاق دنا منه الحسن وقال الأبيات:

أيا شبًا لرب العرش عاصي ... أتدري ما جزاء ذوي المعاصي
سعيرٌ للعصاة لها زفيرٌ ... وغيظٌ يوم يُؤخذ بالنواصي
فإن تصبر على النيران فاعصِهْ ... وإلا كنْ عن العصيان قاصي
وفيما قد كسبت من الخطايا ... رهنت النفس فاجهد في الخلاص

فصاح عتبة صيحة عظيمة، وخرّ مغشياً عليه. فلما أفاق قال: يا شيخ هل يقبل الرب الرحيم توبة مثلي اللئيم؟ فقال الشيخ: هل يقبل توبة العبد الجافي إلا الرب المعافي؟ ثم رفع رأسه ودعا ثلاث دعوات: الأولى قال: إلهي إن كنت قبلت توبتي، وغفرت ذنوبي فأكرمني بالفهم، والحفظ حتى أحفظ كلّ ما سمعت من العلم والقرآن، **والثانية قال**: إلهي أكرمني بحسن الصوت، حتى إنّ كلّ من سمع قراءتي يزداد رقة في قلبه، وإن كان قاسي القلب، **والثالثة قال**: إلهي أكرمني بالرزق الحلال، وارزقني من حيث لا أحتسب. فاستجاب الله جميع دعائه حتى زاد فهمه وحفظه، وكان إذا قرأ القرآن تاب كلُّ من سمع قراءته، وكان يوضع في بيته كل يوم قصعة من المرق، ورغيفان، ولا

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٨ ـ ٧٠.
(٢) سورة الحديد، الآية: ١٦.

يدري أحد من يضعها، وكان على هذه الحال حتى فارق الدنيا.

وهذا حال من أناب إلى الله تعالى، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وسئل بعض العلماء: هل يعرف العبد إذا تاب أن توبته قبلت أم ردت؟ فقال: لا حكم في ذلك، ولكن لذلك علامات: أن يرى نفسه معصومة من المعصية، ويرى الفرح عن قلبه غائباً، والرب شاهداً، ويقارب أهل الخير، ويباعد أهل الفسق، فيرى القليل من الدنيا كثيراً، والكثير من عمل الآخرة قليلاً، ويرى قلبه مشتغلاً بما فرض الله تعالى عليه، ويكون حافظاً للسانه، دائم الفكر ملازم الغم والندامة على ما فرط من ذنوبه.



٩ ـ باب: في المحبة

ذُكر أن رجلاً رأى صورة قبيحة في البادية فقال: من أنت؟ قالت: أنا عملك القبيح. قال: فما النجاة منك؟ قالت: الصلاة على النبي ﷺ كما قال ﷺ: «الصلاة عليّ نور على الصراط، ومَنْ صلّى علي يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين عاماً».

وحُكي: أن رجلاً كان غافلاً عن الصلاة على سيدنا محمد ﷺ، فرأى النبي ﷺ ليلة في المنام ولم يلتفت إليه، فقال: يا رسول الله أأنت عليّ غضبان؟ قال: لا. قال: فلم لا تنظر إليّ؟ قال: لأني لا أعرفك. فقال: كيف لا تعرفني وأنا رجل من أمتك، وقد روى العلماء أنك أعرف بأمتك من الوالدة بالولد؟ فقال: صدقوا، ولكن إنك لا تَذْكُرني بالصلاة، وإن معرفتي بأمتي بَقْدرِ صلاتهم عليّ.

ثم انتبه الرجل وأوجب على نفسه أن يصلي على النبي ﷺ كلّ يوم مِئَةَ مرّة، ففعل ذلك، ثم رآه بعد ذلك في المنام فقال: أعرفك الآن وأشفع لك. أي لأنه صار محباً لرسول الله.

قال الله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله﴾[١]. سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما دعا كعب بن الأعرف، وأصحابه إلى الإسلام قالوا: نحن في المنزلة أبناء الله، ولنحن أشدُّ حبّاً له. فقال الله تعالى لنبيه: ﴿قُل إن كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُونِي﴾ على ديني فإني رسول الله أؤدّي رسالته إليكم، وحجته عليكم ﴿يُحْبِبْكُمُ اللهُ ويَغفِرْ لكُم ذُنُوبَكُم واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٢].

وحُبّ المؤمنين لله اتّباعهم أمره، وإيثار طاعته، وابتغاء مرضاته، وحُبُّ الله للمؤمنين ثناؤه عليهم، وثوابه لهم، وعفوه عنهم، وإنعامه عليهم برحمته وعصمته وتوفيقه.

قال الإمام في (إحيائه): من ادّعى أربعاً من غير أربعٍ فهو كذّاب: من ادعى حُبَّ

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

الجنة، ولم يعمل بالطاعة فهو كذَّابٌ، ومن ادّعى حُبّ النبي ﷺ، ولم يُحب العلماءَ والفقراء فهو كذّاب، ومن ادّعى الخوف من النار، ولم يترك المعاصي فهو كذاب، ومن ادّعى حُبَّ الله تعالى، وشكا من البلوى فهو كذاب كما قالت رابعة:

تَعصي الإلهَ وأنتَ تُظهر حُبَّه ... هذا لعمري في القياس بديعُ

لو كان حُبك صادقاً لاطعتَهُ ... إن المحبَّ لمن يُحِبُّ مطيع

وعلامة المحبة مُوَافقة المحبوب، واجتناب خلافه.

حُكي: أن جماعة دخلوا على الشبلي رحمه الله تعالى فقال: مَنْ أنتم؟ قالوا: نحن أحبَاؤك، فأقبل ثم رماهم بالحجارة، فهربوا منه فقال: لم تهربون مني؟ لو كنتم أحبائي لما فررتم من بلائي.

ثم قال الشبلي رحمه الله: أهل المحبة شربوا بكأس الوداد، فضاقت عليهم الأرض والبلاد، وعرفوا الله حقَّ معرفته، وتاهوا في عظمته، وتحيّروا في قدرته، وشربوا بكأس حبّه، وغرقوا في بحر أُنسه، وتلذّذوا بمناجاته. ثم أنشد:

ذِكْرُ المحبّة يا مولاي أسكرني ... وهل رأيتُ محبّاً غَيْرَ سكران

ويقال: إن البعير إذا سكر لا يأكل العلف أربعين يوماً، ولو حمل عليه أضعاف ما يحمله لحمله، لأنه إذا هاج في قلبه ذكر محبوبه لا يحب العلف، ولا يعيا من الحمل الثقيل لاشتياقه إلى محبوبه. فإذا كان من شأن الإبل أن تترك شهوتها، وتحمل الحمل الثقيل لأجل محبوبها، فهل أنتم تركتم شهوة مُحرّمة لأجل الله تعالى؟ وهل تركتم طعاماً وشراباً لأجل الله تعالى؟ وهل حملتم على أنفسكم حملاً ثقيلاً لأجل الله تعالى؟ فإن لم تفعلوا شيئاً من الخيرات مما ذكرت فدعواكم اسم بلا معنى، لا تنفع في الدنيا ولا في العقبى، ولا عند الخلق ولا عند الخالق.

وعن عليّ كرّم الله وجهه قال: من إشتاق إلى الجنة سارعَ إلى الخيرات، ومن خاف النار نهى نفسه عن الشهوات، ومن تَيَقّن الموت هانت عليه اللّذات.

وسئل إبراهيم الخوّاص عن المحبة فقال: مَحْوَ الإرادات، وإحراق جميع الصفات والحاجات، وإغراق نفسه في بحر الإشارات.

١٠ ـ باب: في العشق(١)

الحَبُّ عبارة عن مَيْلَ الطبع إلى الشيء المُلذِّ. فإن تأكد ذلك الميل وقوي سُميَ عِشقاً، فيجاوز إلى أن يكون رقيقاً لمحبوبه، وينفق ما يملك لأجله.

ألا ترى إلى زليخا بلغ بها من محبة يوسف عليه السلام أن ذهب مالها وجمالها؟ وكان لها من الجواهر، والقلائد وِقْرُ سبعين جملاً، وقد أنفقتها كلّها في محبة يوسف، وكل من قال رأيت يوسف اليوم أعطته قلادة تغنيه، حتى لم يبق لها شيء، وكانت تسمّي كُلَّ شيء باسم يوسف، وقد نسيت كلَّ شيء سواه من فرط العشق، وإذا رفعت رأسها إلى السماء رأت اسم يوسف مكتوباً على الكواكب.

ورُوي أنها لمّا آمنت وتزوجت به عليه السلام انفردت عنه، وتخلّت للعبادة، وانقطعت إلى الله تعالى، فكان يدعوها إلى فراشه نهاراً فتدافعه إلى الليل، فإذا دعاها ليلاً سوّفت به إلى النهار وقالت: يا يوسف إنما كنت أحبك قبل أن أعرفه فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبةً لسواه، وما أريد به بدلاً.

حتى قال لها: إن الله جلّ ذكره أمرني بذلك، وأخبرني أنه مُخرج منك وَلَدين، وجاعلهما نبيَّين، فقالت: أما إذا كان الله تعالى أمرك بذلك، وجعلني طريقاً إليه فطاعة لأمر الله تعالى، فعندها سكنت إليه.

وحُكي: أن مجنون ليلى قيل له: ما اسمك؟ قال: ليلى. وقيل له يوماً: أوَ ماتت ليلى؟ قال: إن ليلى في قلبي لم تَمُتْ، أنا ليلى.

ومرّ يوماً على دار ليلى فنظر إلى السماء فقيل له: يا مجنون لا تنظر إلى السماء ولكن انظر إلى جدار ليلى لعلك تراها! قال: أنا أكتفي بنجم يقع ظِلُّهُ على دار ليلى.

---

(١) العِشْقُ: عشق يعشق فهو عاشق. أي تعلق قلبه بمحبوبه وأولع به بشدة.. وهي مرتبة من مراتب الحب.

وحُكي: عن منصور الحلاج رحمه الله تعالى: أنهم حبسوه ثمانية عشر يوماً، فجاءه الشبلي رضي الله عنه فقال: يا منصور! ما المحبة؟ فقال: لا تسألني اليوم واسألني غداً. فلما جاء الغد وأخرجوه من السجن ونصبوا النطع لأجل قتله، مرَّ الشبلي بين يديه فنادى: يا شبلي! المحبة أولها حرق وآخرها قتل.

إشارة: لما تحقق للحلاج رضي الله عنه في نظره أن كُلّ شيء ما خلا الله باطل، وعلِمَ أن الله هو الحق نسي عند تحقيق اسم الحق اسم نفسه، فسئل: من أنت؟ قال: أنا الحق.

روي أن صدق المحبة في ثلاث خصال: أن يختار كلام حبيبه على كلام غيره، ويختار مجالسة حبيبه على مجالسة غيره، ويختار رضا حبيبه على رضا غيره. كذا في (المنتهى).

وقيل: العشق: هتك الأستار وكشف الأسرار، والوجد، عجز الروح عن احتمال غلبة الشوق عند وجود حلاوة الذكر، حتى لو قطع عضو من أعضائه لا يحس ولا يشعر.

وحُكي: أنّ رجلاً كان يغتسل في الفرات فسمع رجلاً يقرأ **﴿وامتَازوا اليَومَ أيُّها المُجرِمُون﴾**[1] فلم يزل يضطرب حتى غرق ومات.

وعن محمد بن عبد الله البغدادي قال: رأيت في البصرة شاباً على سطح مرتفع قد أشرف على الناس، وهو يقول: من مات عاشقاً فليمت هكذا، لا خير في عشق بلا موت. ثم رمى بنفسه فحمل ميتاً.

قال الجنيد رحمه الله تعالى: التصوُّف ترك الاختيار.

وحُكي: أن ذا النون المصري رحمه الله دخل المسجد الحرام فرأى شاباً عرياناً مطروحاً مريضاً تحت أُسطوانة، وله أنين من قلب حزين. قال: فدنوت منه وسلّمت عليه وقلت له: من أنت يا غلام؟ قال: أنا غريب عاشق. فعلمت ما يقول. قلت: وأنا مثلك، فبكى وبكيت أنا ببكائه. قال: أتبكي أنت؟ فقلت: أنا مثلك. فبكى بأعلى صوته وصاح صيحة عظيمة عالية فخرجت روحه من ساعته، فطرحت عليه ثوبي وخرجت من عنده

---

(١) سورة يسٓ، الآية: ٥٩.

لطلب الكفن، فاشتريت الكفن ورجعت إليه فلم أجده في مكانه، فقلت: سبحان الله! فسمعت هاتفاً يقول: ياذا النون إن هذا الغريب طلبه الشيطان في الدنيا فما وجده، وطلبه مالك فلم يره، وطلبه رضوان في الجنة فما وجده. قلت: فأين هو؟ قال: فسمعت هاتفاً يقول: ﴿في مَقعَد صدقٍ عِندَ مَليكٍ مُقتدر﴾[1] بسبب محبته وكثرة طاعته وتعجيل توبته. كذا في (زهر الرياض).

وسئل بعض المشايخ عن المحب فقال: قليل الخِلْطة، كثير الخلوة، دَائِم الفِكْرَة، ظاهر الصمت، لا يُبصر إذا نظر، ولا يسمع إذا نودي، ولا يفهم إذا كُلّم، ولا يَحْزَن إذا أصيب بمصيبة، وإذا أصيب بجوع فلا يدري، ويعرى ولا يشعر، ويُشْتَم ولا يُخشى، ينظر إلى الله تعالى في خلوته، ويأنس به، ويناجيه، ولا ينازع أهلَ الدنيا في دنياهم. وقد قال أبو تراب النخشبي في علامات المحبة أبياتاً:

لا تُخدَعنَّ فللحبيب دلائلُ ولديه من تحفِ الحبيبِ وسائلُ
منها تنعمُه بمُرِّ بلائه وسرورهُ في كل ما هو فاعلُ
فالمنع منه عطية مقبولةٌ والفقر إكرامٌ وبِرٌّ عاجلُ
ومن الدلائل أن ترى من عزمه طوع الحبيب وإن ألحّ العاذلُ
ومن الدلائل أن يُرى متبسماً والقلبُ فيه من الحبيب بلابلُ
ومن الدلائل أن يُرى متفهماً لكلام من يحظى لديه السائلُ
ومن الدلائل أن يُرى متقشفاً متحفظاً من كل ما هو قائلُ

حكاية: مر عيسى عليه السلام بشاب يسقي بستاناً، فقال الشاب لعيسى: سل ربّك أن يرزقني من محبته مثقال ذرة. فقال عيسى: لا تطيق مقدار ذرة. فقال: نصف ذرة. فقال عيسى عليه السلام: يا رب ارزقه نصف ذرة من محبتك. فمضى عيسى عليه السلام، فلما كان بعد مدة طويلة مرّ بمحل ذلك الشاب، فسأل عنه فقالوا: جُنّ وذهب إلى الجبال. فدعا الله عيسى عليه السلام أن يريه إياه. فرآه بين الجبال، فوجده قائماً على صخرة شاخصاً طرفه إلى السماء، فسلّم عليه عيسى عليه السلام، فلم يرد عليه، فقال: أنا عيسى.

(١) سورة القمر، الآية: ٥٥.

فأوحى الله تعالى إلى عيسى: كيف يسمع كلام الآدميين من كان في قلبه مقدار نصف ذرة من محبتي؟ فوَ عزَّتي وجلالي لو قطعته بالمنشار لما علم بذلك.

من ادَّعى ثلاثة ولم يتطهر من ثلاثة فهو مغرور: **أولها**: من ادَّعى حلاوة ذكر الله، وهو يحب الدنيا. **وثانيها**: من ادَّعى محبَّة الإخلاص في العمل، ويحب تعظيم الناس له، **وثالثها**: من ادَّعى محبَّة خالقه من غير إسقاط نفسه.

وقال رسول الله ﷺ: «سيأتي زمان على أمتي يحبون خمساً وينسون خمساً: يحبون الدنيا، وينسون الآخرة، ويحبون المال، وينسون الحساب، ويحبون الخلق، وينسون الخالق، ويحبون الذنوب، ويَنْسَوْنَ التوبة، ويحبون القصور، وينسون المقبرة».

وقال منصور بن عمار لشاب يعظه: يا شابّ! لا يغررك شبابك، فكم من شاب أخَّر التوبة وأطال الأمل ولم يذكر موته، فقال: إني أتوب غداً أو بعد غد، فجاءه ملك الموت وهو غافل عن التوبة، فصار في جوف القبر لا ينفعه مال ولا عبد، ولا ولد ولا أب ولا أم. كما قال الله تعالى: ﴿يومَ لا يَنفَعُ مَالٌ ولا بَنُون* إلا من أتى الله بِقَلبٍ سليم﴾[1]. اللهم ارزقنا التوبة قبل الموت، ونبهنا عند الغفلة، وانفعنا بشفاعة نبينا خير المرسلين ﷺ.

صفة المؤمن أن يتوب من يومه وساعته، ويندم على ما فعل من ذنوبه، ويرضى بالقوت من الدنيا، ولا يشتغل بالدنيا بل يشتغل بعمل الآخرة، ويعبد الله تعالى بالإخلاص.

حكاية: كان رجل بخيل منافق حلف على زوجته بالطلاق أن لا تتصدق صدقة. فجاء سائل على باب داره وقال: يا أهل الدار بحق الله إلا أعطيتموني شيئاً. فأعطته المرأة ثلاثة أرغفة، فاستقبله المنافق وقال: من أعطاك هذه الأرغفة؟ قال: أعطوني من الدار الفلانية. فكانت داره، فدخل المنافق داره وقال لامرأته: ألست قد حلفت عليك أن لا تعطي أحداً شيئاً؟ فقالت: أعطيت لأجل الله عزّ وجلّ. فذهب المنافق وأوقد التنور حتى حمي ثم قال: قومي فألقي نفسك في التنور لأجل الله، فقامت المرأة وأخذت

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

حُلِيِّها، فقال المنافق: دعي الحُلِيّ، فقالت المرأة: الحبيب يتزين لحبيبه وأنا زائرة لحبيبي، ثم ألقت نفسها في التنور. فأطبق المنافق عليها ومضى. فلما تم لها ثلاثة أيام، جاء المنافق ففتح عليها رأس التنور، فرأى المرأة سالمة بقدرة الله تعالى، فتعجب الرجل من تلك الحال فهتف به هاتف يقول: أما علمت أن النار لا تحرق أحبابنا؟

وحُكي: أن آسية امرأة فرعون كانت تكتم إيمانها من فرعون، فلما اطّلع فرعون على إيمانها أمر بها أن تعذب، فعذبوها بأنواع العذاب وقال: ارتدّي. فلم ترتدّ، فأتى بأوتاد وضربوها على أعضائها ثم قال: ارتدّي. فقالت: إنك تغلب نفسي، وقلبي في عصمة ربي، لو قطعتني إرباً ما ازددت إلا حبّاً. فمرّ موسى عليه السلام بين يديها فنادت: موسى أخبرني أراض عنّي ربّي أم ساخط؟ قال موسى عليه السلام: يا آسية ملائكة السماوات في انتظارك ـ أي: مشتاقة إليك ـ والله يباهي بك، فاسأليني حاجتك فإنها مقضية. فقالت: ﴿ربِّ ابنِ لي عِندَكَ بيتاً في الجنَّة ونَجِّني من فِرعَونَ وَعَملِهِ ونَجِني من القَوَمِ الظَّالمِينَ﴾[1].

وعن سلمان رضي الله عنه قال: كانت امرأة فرعون تُعذّب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة.

وعن أبي هريرة أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد. وأضجعها وجعل على صدرها رحى، واستقبل بها عين الشمس. فرفعت رأسها إلى السماء فقالت: ﴿ربِّ ابن لي عندك بيتاً في الجنَّة﴾ قال الحسن: فنجّاها الله أكرم نجاة، ورفعها إلى الجنة، فهي تأكل وتشرب.

وفيه دليل على أن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ومسألة الخلاص منه عند المحن والنوازل من سير الصالحين وبدن المؤمنين.

---

(١) سورة التحريم، الآية: ١١.

١١ ـ باب: في طاعة الله ومحبته ومحبة رسوله ﷺ

قال الله تعالى: ﴿قُل إن كُنتُم تُحبِونَ الله فاتبعُوني يُحبِبكمُ الله﴾[١].

اعلم رحمك الله أن محبة العبد لله ولرسوله طاعته لهما واتباعه أمرهما، ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران.

قيل: العبد إذا علم أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله، وأن كل ما يراه كمالاً من نفسه أو من غيره فهو من الله وبالله، لم يكن حبه إلا لله وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته، والرغبة فيما يُقرِّبه إليه.

فلذلك فُسّرت المحبة بإرادة الطاعة، وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول ﷺ في عبادته والحث على طاعته.

وعن الحسن، قال أقوام على عهد رسول الله ﷺ: يا محمد إنا لنُحبُّ ربنا. فأنزل الله هذه الآية.

وعن بِشْر الحافي رضي الله عنه قال: رأيت النبي ﷺ في المنام فقال: يا بشر أتدري بِمَ رفعك الله من بين أقرانك؟ قلت: لا يا رسول الله. قال: بِخَدْمِتِكَ للصالحين، ونصيحتك لإخوانك، ومحبتك لأصحابك وأهل سنّتي، واتباعك لسنّتي.

قال ﷺ: «من أحيا سنّتي فقد أحبّني، ومن أحبّني كان معي يوم القيامة في الجنة».

وجاء في الآثار المشهورة أن المتمسّك بسنة سيد الخلائق والمرسلين عند فساد الخلق واختلاف المذاهب له أجر مئة شهيد. كذا في (شرعة الإسلام).

وقال: «كُلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى». قالوا: من يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى. كلُّ عمل ليس على سنّتي فهو معصية».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

وقال بعضهم: لو رأيتَ شيخاً يطير في الهواء، أو يمشي على البحر، أو يأكل النار، أو غير ذلك وهو يترك فرضاً من فرائض الله تعالى، أو سنة من السنن عامداً فاعلم أنه كذاب في دعواه، وليس فعله كرامة، بل هو استدراج، نعوذ بالله منه.

قال الجنيد رحمه الله: ما وصل أحد إلى الله إلا بالله. والسبيل إلى الوصول إلى الله متابعة المصطفى ﷺ.

وقال أحمد بن أبي الحواري رحمه الله: كلُّ عمل بغير اتباع السنة فباطل. كما قال ﷺ: «من ضيَّع سنتي حرمت عليه شفاعتي». كذا في (شرعة الإسلام».

حُكي: أن رجلاً رأى من بعض المجانين ما استجهله فيه، فأخبر بذلك معروفاً الكرخي رحمه الله، فتبسم ثم قال: يا أخي له محبون صغار وكبار وعقلاء ومجانين، فهذا الذي رأيته من مجانينهم.

وحُكي: عن الجنيد أنه قال: مرض أستاذنا السّري رحمه الله فلم نعرف لعلته دواءً، ولا عرفنا لها سبباً.

فوُصفَ لنا طبيبٌ حاذق، فأخذنا قارورة مائه، فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر ملياً ثم قال: أراه بول عاشق! قال الجنيد: فصعقت وغُشي علي ووقعت القارورة من يدي. ثم رجعت إلى السّري فأخبرته، فتبسم ثم قال: قاتله الله ما أبصره! قلت: يا أستاذ وتبين المحبة في البول؟ قال: نعم.

قال الفضيل رحمه الله: إذا قيل لك: أتحب الله؟ فاسكت، فإنك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، فليس وصفك وصف المحبين، فاحذر المقت.

وقال سفيان: من أحبَّ من يُحبُّ الله تعالى فإنما أحبَّ الله، ومن أكرمَ من يكرمُ الله تعالى فإنما يكرم اللهَ تعالى.

وقال سهل رحمه الله: علامةُ حُبِّ الله حُبُّ القرآن، وعلامة حبِّ الله وحبِّ القرآن حبُّ النبي ﷺ، وعلامة حبّه ﷺ حبُّ السنة، وعلامة حبِّ السنة حبُّ الآخرة، وعلامة حبِّ الآخرة بغضُ الدنيا، وعلامة بغضِ الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زاداً وبُلْغَةً إلى الآخرة.

قال أبو الحسن الزنجاني: أصلَ العبادة على ثلاثة أركان: العينُ والقلبُ واللسان،

فالعين بالعَبْرة، والقلب بالفِكرة، واللسان بالصدقِ، والتسبيح والذكر. كما قال الله تعالى: ﴿اذكرُوا الله ذِكْراً كَثِيراً* وسَبّحوُه بُكرَةً وأَصِيلا﴾[1]. يعني غُدواً وعشيا.

حُكي: أن عبد الله وأحمد بن حرب حضرا موضعاً، فقطع أحمد بن حرب قطعة من حشيش الأرض، فقال له عبد الله: حصل عليك خمسة أشياء: شُغِلَ قلبك به عن تسبيح مولاك، وعوّدت نفسك الاشتغال بغير ذكر الله تعالى، وجعلت ذلك طريقاً يقتدى بك فيه، ومنعته عن تسبيح ربه، وألزمت نفسك حجة الله عزّ وجلّ يوم القيامة. كذا في (رونق المجالس).

وعن السّري رضي الله عنه قال: رأيت مع الجرجاني سَويقاً يستفُّ منه، فقلت: لماذا لا تأكل طعاماً غيره؟ قال: إني حسبت ما بين المضغ والاستفاف تسعين تسبيحة، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة.

وكان سهل بن عبد الله يأكل في كل خمسة عشر يوماً، فإذا دخل رمضان لم يأكل إلا أكلة واحدة، ويصبر في بعض الأوقات عن الطعام سبعين يوماً. وكان إذا أكل ضُعف، وإذا جاع قوي.

وجاور أبو حماد الأسود في المسجد الحرام ثلاثين سنة، وما رُئي أنه أكل أو شرب، ولا يخلو ساعة من ذكر الله.

وحُكي: أن عمرو بن عبيد كان لا يخرج من منزله إلا لثلاث: للصلاة مع الجماعة، ولعيادة المريض، ولحضور الجنازة، ويقول: رأيت الناس سُرّاقاً وقطّاعاً للطريق.

العُمْرُ جوهر نفيس لا قيمة له، فينبغي أن تملأ منه خزانة باقية في الآخرة، واعلموا بأن طالب الآخرة لا بدَّ له من الزهد في الحياة الدنيا ليصير همُّه همّاً واحداً، ولا يفترق باطنه من ظاهره، ولا يمكن حفظ الحال إلا بضبط الظاهر والباطن.

وقال الشبلي رحمه الله: وكنت أول بدايتي إذا غلبني النوم اكتحلتُ بالملح، فإذا زاد عليَّ الأمر أحمي الميل فأكتحل به.

---

(١) سورة الأحزاب، الآيتان: ٤١، ٤٢.

وحُكي: عن إبراهيم بن الحاكم أنه قال: كان أبي إذا جاءه النوم دخل البحر فيسبح، فتجتمع إليه حيتان البحر يسبحون معه.

وحُكي: أن وهب بن منبه دعا الله أن يرفع عنه النوم بالليل، فذهب عنه النوم أربعين سنة.

وكان حسن الحلاج قَيّد نفسه من كعبه إلى ركبته بثلاثة عشر قيداً، وكان يصلي مع ذلك كل يوم وليلة ألف ركعة.

وكان الجنيد يأتي إلى السوق في بداية أمره، فيفتح حانوته، فيدخله ويسبل الستر فيصلي أربعمئة ركعة، ثم يرجع إلى بيته.

وصلى حبشي بن داود صلاة الغداة أربعين سنة على طُهر العشاء.

فينبغي للمؤمن أن يكون دائماً على الطهارة، وكلما أحدث يتطهر ويصلي ركعتين، ويجتهد أن يستقبل القبلة في كل مجلسه ويصوّر في نفسه أنه جالس بين يدي رسول الله ﷺ على قدر الحضور والمراقبة، حتى يلازم السكينة والوقار في الفعل، ويحتمل الأذى، ولا يقابل المسيء، ويستغفر لكل مسيء، ولا يعْجَب بنفسه ولا بعمله، فإن العُجْب من صفة الشيطان، وينظر إلى نفسه بعين الحقارة، ويرى الصالحين بعين الاحترام والتعظيم، فمن لم يعرف حُرْمة الصالحين حرَمه الله تعالى صحبتهم، ومن لم يعرف حُرْمة الطاعة نزع من قلبه حلاوتها.

سُئِل الفضيل بن عياض فقيل له: يا أبا علي، متى يكون الرجلُ صالحاً؟ قال: إذا كانت النصيحةَ في نِيَّته، والخوفَ في قلبه، والصدقُ في لسانه، والعمل الصالح في جوارحه.

قال الله تعالى في معراج النبي ﷺ: يا أحمد إن أحببت أن تكون أورع الناس فازهد في الدنيا وارغب في الآخرة.

فقال: إلهي كيف أزهد في الدنيا؟ فقال: خذ من الدنيا بقدر الطعام والشراب واللباس، ولا تدَّخر لغد، ودُم على ذكري. فقال: يا رب كيف أدوم على ذكرك؟ فقال: بالخلوة عن الناس، واجعل نومك الصلاة، وطعامك الجوع.

وقال ﷺ: «الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن، حب الدنيا رأس كل خطيئة، والزهد فيها رأس كل خير وطاعة».

وحُكي: أن بعض الصالحين مرَّ على جماعة فإذا بطبيب يصف الداء والدواء، فقال: يا معالج الأجسام، هل تعالج القلوب؟ فقال الطبيب: نعم، صِف لي داءه. فقال: قد أظلمته الذنوب فقسا وجفا، فهل له من علاج؟ فقال الطبيب: علاجه التضرع والابتهال والاستغفار آناء الليل وأطراف النهار، والمبادرة إلى طاعة العزيز الغفار، والاعتذار إلى الملك الجبار، فهذه معالجة القلوب، والشفاء من علّام الغيوب.

فصاح الرجل الصالح ومضى باكياً وقال: نِعْمَ الطبيب أنت، أصبت علاج قلبي. فقال الطبيب: هذا معالجة قلبٍ من تاب ورجع بقلبه إلى البَرِّ التوّاب.

وحُكي: أن رجلاً اشترى غلاماً، فقال الغلام: يا مولاي: إن لي معك ثلاثة شروط: أحدها: أن لا تمنعني عن الصلاة المكتوبة إذا جاء وقتها، والثاني: أن تأمرني بالنهار ما شئت ولا تأمرني بالليل، والثالث: أن تجعل لي منزلاً في بيتك لا يدخله غيري.

فقال له الرجل: لك هذه الشروط، ثم قال الرجل: انظر في البيوت، فطاف الغلام فوجد فيها بيتاً خراباً، فقال: أخذتُ هذا. فقال: يا غلام اخترت بيتاً خراباً! فقال الغلام: يا مولاي أما علمت أن الخراب مع الله بستان؟ فكان يخدم مولاه بالنهار ويتفرّغ بالليل لعبادة ربه سبحانه وتعالى.

فبينما هو كذلك إذ طاف مولاه ذات ليلة في الدار فبلغ حجرة الغلام، فإذا هي منورة والغلام ساجد وعلى رأسه قنديل من النور معلق بين السماء والأرض، والغلام يناجي ربه، ويتضرع ويقول: إلهي أوجبت عليّ حق مولاي وخدمته بالنهار، ولولا ذلك ما اشتغلت ليلي ولا نهاري إلا بخدمتك فاعذرني يا رب، ومولاه ينظر إليه حتى انفجر الصبح ورُدّ القِنْديل، وانضم سقف البيت. فرجع وأخبر امرأته بذلك.

فلما كانت الليلة الثانية أخذ بيد امرأته وجاء إلى باب الحجرة، فإذا الغلام في السجود، والقنديل على رأسه، فوقفا على الباب ينظران إليه ويبكيان حتى أصبحا. فدعا الغلام فقال له: أنت عتيق لوجه الله تعالى حتى تتفرغ لعبادة من كنت تعتذر إليه. فرفع

الغلامُ يديه إلى السماء وقال:

يـا صـاحـبَ السِـرِّ إن السـرَّ قـد ظهـرا ولا أريـد حيـاتـي بعـدمـا اشتهـرا

ثم قال: إلهي أسألك الموت. فخرَّ الغلام ميتاً.

هكذا أحوال الصالحين والعاشقين والطالبين. وفي (زهر الرياض) أن موسى عليه السلام كان له صديق يَأنس به، فقال له ذات يوم: يا موسى ادع الله أن يعرفني إياه حق معرفته.

فدعا موسى عليه السلام، فاستجيب له، فلحق صاحبه بالجبال مع الوحوش، وفقده موسى. فقال: يا رب أخي ومؤنسي فقدته، فقيل له: يا موسى من عرفني حقَّ معرفتي لا يصحب مخلوقاً أبداً.

وجاء في الأخبار: أن يحيى وعيسى عليهما السلام كانا يمشيان في السوق، فصدمتهما امرأة، فقال يحيى: والله ما شعرت بذلك، فقال عيسى: سبحان الله بدنك معي وقلبك أين؟ قال: يا ابن الخالة لو اطمأن قلبي إلى غير ربي طرفة عين لظننت أني ما عرفت الله.

ويقال: صِدْقُ المعرفة أن يطلّق الدنيا والعقبى ويتجرد للمولى، وأن يسكر من شراب المحبة، فلا يصحو إلا عند الرؤية، فهو على نور من ربه.

١٢ـ باب: في ذكر إبليس وعذابه

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوا﴾ أي: اعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿فإِنَّ الله لا يُحِبُّ الكَافرين﴾[1] يعني: لا يغفر لهم، ولا يقبل توبتهم، كما لم يقبل توبة إبليس لكفره واستكباره، وتاب على آدم عليه السلام وقبِل توبته؛ لأنه أقرَّ على نفسه بالذنب، وندم عليه ولام نفسه، وهذا وإن لم يكن ذنباً حقيقةً لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون لا تقع منهم المعصية أبداً لا قبل النبوة ولا بعدها على الصحيح، لكنه على صورة الذنب، ولذلك قال هو وحواء عليهما السلام: ﴿ربَّنا ظَلَمْنا أنفُسَنَا وإنْ لَّم تَغْفرْ لَنَا وترْحَمْنا لنكُونَنَّ من الخَاسِرين﴾[2] فندم عليه السلام وأسرع بالتوبة، ولم يقنط من رحمةِ الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿لا تَقْنَطُوا من رَحمَةِ الله﴾[3] وإبليس لم يُقِرّ على نفسه بالذنوب، ولم يندم عليها، ولم يلُم نفسه، ولم يُسرع بالتوبة، وقَنِطَ من رحمة الله تعالى وتكبّر.

فمن كان حاله مثل حال إبليس لم تقبل توبته، ومن كان حاله مثل حال آدم قبل الله توبته، لأن كلَّ معصية أصلها من الشهوة فإنه يُرجى غفرانها، وكلُّ معصية أصلها من الكِبْر فإنه لا يُرجى غفرانها، ومعصيةُ آدم أصلها من الشهوة، ومعصية إبليس أصلها من الكِبْر.

حُكي: أن إبليس جاء إلى موسى عليه السلام فقال له: أنت الذي اصطفاك الله برسالته وكلّمك تكليماً؟ فقال له موسى: نعم، فما الذي تريد يا هذا، ومن أنت؟ فقال إبليس: يا موسى، قل لربك: خَلْق من خلقك قد سألك التوبة. فأوحى الله إلى موسى قل له: إني قد استجبت لك فيما سألت، ومُرْه يا موسى أن يسجد لقبر آدم، فإذا سجد له قبلت توبته، وغفرت له ذنوبه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٣٢.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

فأخبره موسى، فغضب إبليس واستكبر وقال: يا موسى، أنا لم أسجد له في الجنة، فكيف أسجد له وهو ميت؟!

رُوي أن إبليس يشتَّد عليه العذاب في النار فيقال له: كيف وجدت عذاب الله؟ فيقول: أشدَّ ما يكون. فيقال له: إن آدم في رياض الجنة، فاسجد له واعتذر حتى يُغْفَر لك. فيأبى فيشتد عليه العذاب بقدر عذاب أهل النار سبعين ألف ضعف.

وجاء في الخبر أن الله تعالى يُخْرج إبليس من النار كلَّ مئة ألف سنة، ويخُرج آدم، ويأمره بالسجود له فيأبى، ثم يردّه إلى النار.

إخواني، إن أردتم النجاة من إبليس فاعتصموا بالمولى واستعيذوا به.

إذا كان يوم القيامة يُوضع كرسي من النار فيقعد عليه إبليس عليه اللعنة، فتجتمع الشياطين والكفار عنده، وله صوت كصوت الحمار ينهق ويقول: يا أهل النار، كيف وجدتم اليوم ما وعد ربكم؟ قالوا: حقاً. ثم يقول: هذا يوم أيست فيه من الرحمة. فيأمر الله تعالى الملائكة أن يضربوه ومن تبعه بمقامع من نار، فيهوون فيها أربعين سنة فلا يسمعون الأمر بالخروج أبدَ الأبد. نعوذ بالله منها.

وورد أنه يؤتى بإبليس يوم القيامة، فيُؤمر به أن يجلس على كرسي من نار، وعلى عنقه طوق اللعنة، ويأمر الله عز وجل الزبانية أن يجرُّوه عن الكرسي، ويلقوه في النار، فيتعلَّقون به ليلقوه فلا يقدرون، ثم يأمر الله تعالى جبريل مع ثمانين ألف ملك بذلك فلا يقدرون، ثم يأمر إسرافيل، ثم عزرائيل أيضاً ومع كل واحدٍ منهما ثمانون ألف ملك، فلا يقدرون. فيقول الله تعالى لهم: لو اجتمع عليه أضعاف ما خلقت من الملائكة لما قدروا على أن ينقلوه وطوق اللعنة على عنقه.

ورُوي أن إبليس كان اسمه في سماء الدنيا العابد، وفي الثانية الزاهد، وفي الثالثة العارف، وفي الرابعة الولي، وفي الخامسة التقي، وفي السادسة الخازن، وفي السابعة عزازيل، وفي اللوح المحفوظ إبليس وهو غافل عن عاقبة أمره.

فأمره الله أن يسجد لآدم فقال: أتفضّله عليَّ وأنا خير منه؟ خلقتني من نار، وخلقته من طين. فقال تعالى: أنا أفعل ما أشاء. فرأى لنفسه شرفاً، فولّى آدمَ ظهره أَنَفَةً وكِبْراً،

وانتصب قائماً إلى أن سجدتِ الملائكة المدَّة المارّة، فلما رفعوا رؤوسهم ورأوه لم يسجد، وهم قد وقفوا للسجود، سجدوا ثانياً شكراً، وهو قائم يُرى معرضاً عنهم غير عازم على الاتباع، ولا نادمٍ على الامتناع، فمسخه الله من الصورة البهيَّة، فنكسه كالخنزير، وجعل رأسه كرأس البعير، وصدره كسَنَام الجمل الكبير، ووجهه بينهما كوجه القِرَدة، وعينيه مشقوقتين في طول وجهه، ومنخريه مفتوحتين ككوز الحجَّام، وشفتيه كشفتي الثور، وأنيابه خارجةً كأنياب الخنزير، وفي لحيته سبع شعرات، وطرده من الجنة بل من السماء بل من الأرض إلى الجزائر، فلا يدخل الأرض إلا خُفْية، ولعنه إلى يوم الدِّين لأنه صار من الكافرين.

وانظر كان بهيَّ الصورة، رباعي الأجنحة، كثير العلم، كثير العبادة، طاووس الملائكة وأعظمهم، سيد الكَرُوبِيِّينَ[1] إلى غير ذلك فلم يغن عنه شيئاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾[2].

وفي الأثر لمّا مُكِرَ بإبليس، بكى جبرائيل وميكائيل. فقال الله لهما: ما يبكيكما؟ قالا: ربَّنا ما أمِنّا مكرك. فقال الله تعالى: هكذا كونا لا تأمنا مكري.

وروي أن إبليس قال: يا ربّ، أخرجتني من الجنة لأجل آدم، وأنا لا أقدر عليه إلا بتسليطك. قال: أنت مسلَّط عليه. أي على أولاده، لعصمة الأنبياء منه. قال: زدني. قال: لا يولد له وَلَدٌ إلا وُلِدَ لك مثلاه. قال: زدني. قال: صدورهم مساكن لك تجري فيها مجرى الدم. قال: زدني. قال: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي: استعن عليهم بأعوانك من راكبٍ وماشٍ ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾ أي: بحملهم على كسبها وصرفها في الحرام ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ أي: بالحثّ على التوصّل إليهم بالسبب المحرم كالوطء في الحيض، والإشراك فيهم بتسميتهم بنحو عبد العزى، والتضليل بالحمل على الأديان الباطلة، والحرف الذميمة، والأفعال القبيحة ﴿وَعِدْهُمْ﴾[3] المواعيد الباطلة كشفاعة الآلهة، والاتكال على كرامة الآباء، وتأخير التوبة بطول الأمل،

---

(١) الكَرُوبيِّين: هم الملائكة المقرَّبين الى حملة العرش ومنهم جبريل وميكائيل واسرافيل.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٢١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٤.

وهذا على طريق التهديد كـ ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ﴾[1].

فقال آدم: يا ربّ قد سلّطته عليّ فلا أمتنع منه إلا بك. قال: لا يولد لك ولد إلا وكلت به من يحفظه من الملائكة. قال: زدني. قال: الحسنة بعشر أمثالها، قال: زدني. قال: لا أنزع منهم التوبة ما دامت أرواحهم في أبدانهم. قال: زدني. قال: أغفر لهم ولا أُبالي. قال: اكتفيت.

فقال إبليس: يا ربّ، جعلت في بني آدم الرسل، وأنزلت عليهم الكتب، فما رسلي؟ قال: الكهان. قال: فما كتبي؟ قال: الوشم. قال: فما حديثي؟ قال: الكذب. قال: فما قرآني؟ قال: الشعر. قال: فما مؤذّني؟ قال: المزمار. قال: فما مسجدي؟ قال: الأسواق. قال: فما بيتي؟ قال: الحمام. قال: فما طعامي؟ قال: الذي لم يُذكر عليه اسمي. قال: فما شرابي؟ قال: السُّكْر. قال: فما مصايدي؟ قال: النساء.



(١) سورة فصّلت، الآية: ٤٠.

١٣ ـ باب: في الأمانة

قال الله تعالى: ﴿إنّا عَرَضْنَا الأَمانَة على السّماوَاتِ والأَرض والجِبالِ فأبَيْنَ أن يحملنَهَا﴾ أي: امتنعن عن قبولها ﴿وأشْفقَن منها﴾[1] أي: خِفْنَ من الأمانة أن لا يؤدِّينها فيلحقهن العقاب، أو خِفْنَ من الخيانة فيها. ومعنى الأمانة في هذه الآية الطاعة والفرائض التي يتعلّق بأدائها الثواب والعقاب.

قال القرطبي: الأمانة تعمُّ جميع وظائف الدِّين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور.

واختلف في تفاصيل بعضها. فقال ابن مسعود: هي في أمانة الأموال كالودائع وغيرها.

وروي عنه أنها في كلِّ الفرائض، وأشدُّها أمانةُ المال.

وقال أبو الدرداء: غسل الجنابة أمانة.

وقال ابن عمر: أولُ ما خلق الله من الإنسان فَرْجَهُ وقال: هذه أمانة استودعتُكَهَا فلا تلبسها إلا بحق، فإن حفظتها حفظتك.

فالفَرْج أمانة، والأذن أمانة، والعينَ أمانة، واللسان أمانة، والبطنُ أمانة، واليد والرجل أمانة، ولا إيمانَ لمن لا أمانة له.

قال الحسن: إن الأمانة عُرضت على السماوات والأرض والجبال فاضطربت وما فيها، فقال الله لها: إن أحسنتِ أجرتك، وإن أسأتِ عذبتك. فقالت: لا.

قال مجاهد: فلمّا خلق الله آدم عرضها عليه، وقال له ذلك فقال: قد تحمَّلْتُها. ولا يخفى أن عَرْضَ هذه الأمانة على السماوات والأرض والجبال عرضُ تخيير لا عرض

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

إلزام، ولو ألزمهن لم يمتنعن من حملها.

وقال القفّال وغيره: العرض في هذه الآية ضرْبُ مَثَل، أي أن السماوات والأرض والجبال على كِبَر أجرامها لو كانت بحيث يجوز تكليفها لَثَقُلَ عليها تقلُّد الشرائع لما فيها من الثواب والعقاب، أي أن التكليف أمر عظيم، حقُّه أن تعجز عنه السماوات والأرض والجبال، وقد كُلّفه الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الإنسَانُ﴾[1] أي: التزم بحقِّها آدم بعد عرضها عليه في عالم الذَّرِّ عند خروج ذُرِّيَته من ظهره، وأخذ الميثاق عليهم ﴿إنَّه كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[2] أي وهو في ذلك الحمل ظلومٌ لنفسه، جهول بقدر ما دخل فيه، أو جهول بأمر ربِّه.

وعن ابن عباس قال: عُرِضَت الأمانة على آدم فقيل: خذها بما فيها، فإن أطعتَ غفرتُ لك، وإن عصيتَ عذبتك. قال: قبلتها بما فيها. فما كان إلا ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أكل من الشجرة، لولا أن تداركه الله برحمته فتاب عليه وهدى.

والأمانة مشتقَّةٌ من الإيمان، فمن حفظ أمانة الله حفظ الله إيمانه.

قال ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له».

قال الشاعر:

تَبّاً لمن رضي الخِيانَةَ مُهيعاً[3] وازْوَرَّ[4] عن صَوْنِ الأمانة جانبُه
رَفَضَ الديانة والمروءة فاغتدى تترى عليه من الزمان مصائبُه

وقال آخر:

اخْلِقْ بمن رضي الخيانةَ شِيمَةً أن لا يُرى إلا صريعَ حوادثِ
ما زالتِ الأرزاءُ ينزل بؤسُها أبداً بغادرِ ذمَّةٍ أو ناكثِ

وقال رسول الله ﷺ: «يُطبع المؤمنُ على كلِّ خُلُقٍ ليس الخيانةَ والكذب».

وقال رسول الله ﷺ: «لا تزال أمَّتي بخير ما لم تر الأمانة مغنماً، والصدقة مغرماً».

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.
(٢) سورة الاحزاب، الآية: ٧٢.
(٣) مُهيعاً: طريقاً ومسلكاً.
(٤) ازْوَرَّ: ابتعد ومال.

وقال ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تَخُنْ مَنْ خانك».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «آية[١] المنافقِ ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان». أي إذا ائتمنه أحد بكلمة خانه فإفشائها للناس، أو بوديعة خانه بإنكارها وعدم حفظها واستعمالها بغير إذنه.

فحفظ الأمانة صفة الملائكة المقرَّبين، والأنبياء والمرسلين، وشيمة الأبرار المتقين.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إنَّ الله يأمُرُكُم أن تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلها﴾[٢] قال المفسِّرون: هذه الآية مُشْتَمِلَة على كثير من أمّهات الشرع، والمخاطبُ بها عموم المكلّفين الولاةُ وغيرهم.

فيجب على الولاة إنْصاف المظلوم، وإظهار حقِّه وذلك أمانة، وحفظ أموال المسلمين لا سيما اليتامى، ويجب على العلماء تعليم العوام أحكام دينهم فهي أمانة اختيرَ لحفظها العلماء. ويجب على الوالد رعاية ولده بحسن التأديب إذ هو أمانة عنده. قال ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيَّته».

وفي (زهر الرياض): يُؤتى بالعبد يوم القيامة فيُوقف بين يدي الله تعالى فيقول الله تعالى: أرَدَدْتَ أمانة فلان؟ فيقول: لا يا ربِّ. فيأمر الله تعالى ملَكاً فيأخذ بيده وينطلق به إلى جهنم، ويريه الأمانةَ بعينها في قعر[٣] جهنم، فيهوي فيها سبعين عاماً حتى ينتهيَ إلى قعرها، ثم يصعد بالأمانة، فإذا بلغ أعلى جهنم زلَّتْ قدمُه فيهوي فيها كذلك، ثم يصعد ثم يهبط، وهكذا حتى يدركَه لطفُ ربِّه بشفاعة المصطفى ﷺ فيرضى عنه صاحبُ الأمانة.

ورُوي عن سلمةَ قال: بينما نحن جلوس عند النبيِّ ﷺ إذ أُتي بجنازة ليصلِّيَ

(١) آية: علامة.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٨.

(٣) قعر: أسفل وعمق.

عليها: فقال: «هل عليه دين؟» قالوا: لا، فصلّى عليها. ثم أتي بجنازة أخرى، فقال: «هل عليه دين؟» قالوا: نعم. قال: «فهل ترك شيئاً؟» فقالوا: ثلاثة دنانير. فصلّى عليها. ثم أُتي بثالثةٍ، فقال: «هل عليه دين؟» قالوا: نعم. فقال ﷺ: «هل ترك شيئاً؟» قالوا: لا. قال: «صلُّوا على صاحبكم».

وعن قتادة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن قُتِلْتُ في سبيل الله صابراً مُحْتسباً مُقْبلاً غيرَ مُدْبر، يُكفِّر الله عني خطاياي؟ قال: «نعم» فلمّا أدبر الرجل ناداه فقال: «يَغفر الله للشهيد كلَّ ذنبٍ إلا الدَّيْن».



١٤ ـ باب: في إتمام الصلاة بالخضوع والخشوع

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[١]

اعلم أن الخشوع منهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة، ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات والعبث.

وقد اختلفوا في الخشوع هل هو من فرائض الصلاة أو من فضائلها على قولين؛ واستَدلَّ من قال بالأول بحديث: «ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل». وبقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾[٢] والغفلة تضاد الذكر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلا تَكُنْ مِنَ الغافِلِينَ﴾[٣].

أخرج البيهقي عن محمد بن سيرين قال: نُبِّئتُ أن رسول الله ﷺ كان إذا صلّى رفع بصره إلى السَّماء فنزلت الآية. وزاد عبد الرزاق عنه: فأمره بالخشوع، فرمى ببصره نحو مسجده.

وأخرج الحاكم، والبيهقي عن أبي هريرة كان ﷺ إذا صلّى رفع بصره إلى السماء فنزلت هذه الآية فطأطأ رأسه.

وروي: عن الحسن أن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الصلوات الخمس كَمثَلَ نهرٍ جارٍ على باب أحدكم كثيرِ الماء يَغْتَسِل فيه كلَّ يومٍ خمسَ مرَّات، فهل يبقى عليه من الدَّرَن شيء؟» يعني أن الصلوات تُطَهِّرُ من الذنوب، ولا تُبقي منها شيئاً فيما دون الكبائر، وهذا إذا صلّى بخشوع وحضور قلب، وإلا فهي مردودة عليه.

وقال ﷺ: «من صلّى ركعتين لم يُحدِّثْ نفسه فيهما بشيء من الدنيا غفر الله له ما

---

(١) سورة المؤمنون، الآيتان: ١، ٢.

(٢) سورة طه، الآية: ١٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

تقدَّم من ذنبه».

وقال ﷺ: «إنما فُرِضَتِ الصلاةُ، وأُمِرَ بالحج والطواف، وأُشْعِرَتِ المناسكُ لإقامة ذكر الله تعالى» فإذا لم يكن في قلبك للمذكور الذي هو المقصود والمبتغَى عظمةٌ ولا هيبةٌ فما قيمة ذكرك؟

وقال ﷺ: «من لم تَنهه صلاتُه عن الفحشاءِ والمنكر لم يَزْدَدَ من الله إلا بُعداً».

وقال بكر بن عبد الله: يا ابن آدم، إذا شئت أن تدخل على مولاك بغير إذن، وتكلّمه بلا ترجمان دخلت. قيل: وكيف ذلك؟ قال: تُسْبِغُ وضوءك، وتدخل محرابك، فإذا أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن، فتكلمه بغير ترجمان.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ، يُحدِّثنا ونَحدِّثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفْنا ولم نعرفْه، اشتغالاً بعظمة الله عز وجل.

وقال ﷺ: «لا ينظر الله إلى صلاةٍ لا يُحضر الرَّجلُ فيها قلبُه مع بدنه».

وكان إبراهيم الخليل إذا قام إلى الصلاة يُسمعُ وَجيْبُ قلبه على ميلين.

وكان سعيد التنوخي إذا صلّى لم تنقطعِ الدموع من خديه على لحيته.

ورأى رسول الله ﷺ رجلاً يعبث بلحيته في الصلاة فقال: «لو خشع قلبُ هذا لخشعت جوارحه».

وروي أن علياً كرّم الله وجهه كان إذا حضرتِ الصلاة يتزلزل، ويتلوّن وجهُه، فيُقال له: مالك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: جاء وقت أمانةٍ عَرَضَها اللهُ على السماوات والأرض والجبال فأبَيْن أن يحملْنها وأشْفَقْنَ منها وحملتها.

ويُروى: عن علي بن الحسن أنه كان إذا توضأ اصفرَّ لونه فيقول له أهله: ما هذا الذي يعتريك[1] عند الوضوء؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟.

ويُروى: عن حاتم الأصم أنه سُئل عن صلاته فقال: إذا حانتِ الصلاة أسبغتُ الوضوء، وأتيت الموضع الذي أريد الصلاة فيه، فأقعد فيه حتى تجتمعَ جوارحي، ثم

(١) يعتريك: يُصيبك.

أقومُ إلى الصلاة، وأجعلُ الكعبة بين حاجبيَّ، والصراطَ تحت قدميَّ، والجنة عن يميني، والنارَ عن شمالي، وملكَ الموت ورائي، وأظنُّها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء والخوف، وأكبِّر تكبيراً بتحقيق، وأقرأ قراءةً بترتيل، وأركع ركوعاً بتواضع، وأسجد سجوداً بتخشُّع، وأقعد على الوَرِك الأيسر، وأفرش ظهر قدمها، وأنصب القدم اليمنى على الإبهام، وأتبعها الإخلاص، ثم لا أدري أقبلتْ مني أم لا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ركعتان مُقْتَصدتان في تفكُّر خيرٌ من قيام ليلة والقلبُ ساه.

وقال ﷺ: «يأتي في آخر الزمان ناسٌ من أمتي يأتون المساجد، فيقعدون فيها حِلَقاً، ذكرهم الدنيا وحبُّ الدنيا. لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة».

وعن الحسن أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بأسوأ الناس سرقة؟» قالوا: مَنْ هو يا رسول الله؟ قال: «الذي يسرق من صلاته».

قالوا: وكيف يسرق من صلاته؟ قال: «لا يُتِمُّ ركوعها ولا سجودها».

وقال ﷺ: «أول ما يُحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن كان قد أتمَّها هوَّن الله عليه الحساب، وإن كان قد انتقص منها شيئاً، قال الله تعالى لملائكته: هل لعبدي من تطوُّعٍ؟ فأتمُّوا الفريضة منه».

وقال ﷺ: «ما أُعطي عبدٌ عطاءً خيراً من أن يؤذن له في ركعتين يُصليهما».

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أراد القيام الى الصلاة ترتعد فرائصه، وتصطك أسنانه. فقيل له: ما ذلك؟ قال: حان وقت أداء الأمانة، وقضاء الفريضة، ولا أدري كيف أؤديها.

حكي عن خلف بن أيوب: أنه كان قائماً في الصلاة فلدغه زنبور، فسال منه الدم، وهو لا يشعر، حتى خرج ابن سعيد فأعلمه بذلك، فغسل ثوبه. فقيل له: يلدغك زنبور، ويسيل منك الدم، ولم تشعر به! فقال: أيشعر بمثل هذا من يكون واقفاً بين يدي الملك الجبار، وملك الموت على قفاه، والنار عن شماله، والصراط تحت قدميه؟

ووقعت الأكلة في يد عمر بن ذر، وكان جليلاً في الزهد والعبادة، فقال له الأطباء: لا بد لك كم قطع هذه اليد. فقال اقطعوها. فقالوا: لا نقدر على قطعها إلا أن نشدك بالحبال. فقال: لا، ولكن إذا شرعت في الصلاة، فاقطعوها حينئذ. فلما دخل في الصلاة قطعت يده ولم يشعر بذلك.

١٥ - باب: في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ مرة، خلق الله تعالى من نفس المصلي غمامة بيضاء، ثم يأمرها الله تعالى أن تأخذ من بحر الرحمة فتأخذ، ثم يأمرها أن تمطر، فإذ أمطرت فأي قطرة قطرت على الأرض يخلق الله الذهب منها، وأي قطرة قطرت على الجبال يخلق الله تعالى منها الفضة، وأي قطرة قطرت على كافر، رزقه الله تعالى الإيمان».

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿كُنتُم خيرَ أُمّةٍ أُخرِجتْ للنَّاسِ﴾[1] قال الكلبي: هذه الآية تتضمن بيان حال هذه الأمة في الفضل على غيرها من الأمم، وفيها دليلٌ على أنَّ هذه الأُمّة الإسلامية خيرُ الأمم على الإطلاق، وأن هذه الخيريّةَ مشتركة بين أول هذه الأمة وآخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم، وإن كانت مُتفاضلةً في ذاتها، كما ورد في فضل الصحابة على غيرهم، ومعنى ﴿أُخرِجَتْ﴾ أُظهرت للناس، أي لنفعهم ومصالحهم في جميع الأعصار حتى تميّزت وعُرفت، وقوله تعالى: ﴿تَأمُرُونَ بالمَعروفِ وَتَنهونَ عَنِ المُنكرِ وتُؤمِنُونَ بالله﴾[2] كلام مُستأنف يتضمّن بيان كونهم خيراً مع ما يشتمل عليه من أنهم خير أمة ما أقاموا على ذلك واتّصفوا به. فإذا تركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر زال عنهم ذلك، فجعلهم الله خيرَ الناسِ للناس لأنّهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقاتلون الكفار ليُسلموا فترجح منفعتهم على غيرهم كما قال ﷺ: «خيرُ النَّاسِ من ينفع الناس، وشرُّ الناس من يضرُّ الناس» ﴿تؤمِنُون بالله﴾ أي: تصدّقون بتوحيد الله، وتثبتون على ذلك، وتُقِرّون أنَّ محمداً نبيُّ الله، لأنَّ من كفر بمحمد ﷺ لم يؤمن بالله، لأنه يزعم أن الآيات المعجزات التي أتى بها من عند نفسه.

وقال ﷺ: «من رأى منكم مُنكراً فليغيّرهُ بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». يعني أضعف فعل أهل الإيمان.

قال بعضهم: التغيير باليد للأُمراء، وباللسان للعلماء، وبالقلب للعوام.

وقال بعضهم: كلُّ من يقدر على ذلك فالواجب عليه أن يغيّره، كما قال الله تعالى: **﴿وَتَعاوَنُوا على البِرِّ والتَّقوى ولا تَعَاوَنُوا على الإثْمِ والعُدْوانِ﴾**[1]. ومن التعاون الحثُّ عليه، وتسهيل طرق الخير إليه، وسدّ سبيل الشرور والعُدوان بحسب الإمكان.

وقال ﷺ في حديث آخر: «مَن انتهرَ صاحبَ بِدْعةٍ ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً، ومَنْ أهانَ صاحب بدعةٍ أمّنه الله يوم الفزع الأكبر، ومَنْ أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة الله في الأرض، وخليفة كتابه، وخليفة رسوله».

عن حذيفة رضي الله عنه قال: يأتي على الناس زمانٌ لأن تكون فيهم جيفةُ حمار أحبَّ إليهم من مؤمنٍ يأمرهم وينهاهم.

قال موسى: يا ربِّ، ما جزاء من دعا أخاه، وأمره بالمعروف، ونهاه عن المنكر؟ قال: أكتبُ له بكلِّ كلمةٍ عبادة سنة، وأستحي أن أعذّبه بناري.

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «يا ابن آدم! لا تكن ممن يؤخّر التوبة، ويطوّل الأملَ، ويرجع إلى الآخرة بغير عمل. يقول قول العابدين، ويعمل عمل المنافقين. إن أُعطي لم يقنع، وإن مُنع لم يصبر، ويحبُّ الصالحين وليس منهم، ويُبغض المنافقين وهو منهم. يأمر بالخير ولا يفعله، وينهى عن الشرّ ولم ينته عنه».

وعن عليّ كرّم الله وجهه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «سيأتي قومٌ في آخر الزمان أحداث الأسنان، نواقص العقل، يقولون من قولِ خير البرية، لا يجاوز حناجرهم، يَمْرُقُون[2] من الدّين كما يَمْرُق السهم من الرَّمية».

وقال رسول الله ﷺ: «رأيتُ ليلةَ أُسري بي إلى السماء رجالاً تُقْرض شفاهُهم بمقاريضَ من النار. قلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، كما قال الله تعالى في حقّهم: **﴿أتأمرونَ النَّاسَ بالبِرِّ**

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٢) يمْرقون: يخرجون.

وتَنْسون أنفسَكُم وأنتم تتلون الكتابَ أفلا تَعقِلونُ﴾[١] يعني تتلون كتابَ الله، ولا تعملون بما فيه. فكانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدَّقون.

فيجب على المؤمنين أن يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، ولا ينسوا أنفسهم، كما قال الله تعالى: ﴿والمُؤمِنُونَ والمؤْمِنَاتِ بعضُهُم أولِيَاءُ بعَضٍ يأمُرُونَ بالمَعرُوفِ ويَنْهَون عن المُنكرِ ويُقيمُونَ الصَّلاَةَ﴾[٢] فقد نَعَتَ المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف. فالذي هَجَرَ الأمر بالمعروف خارجٌ عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية.

وقد ذم الله أقواماً بترك الأمر بالمعروف فقال: ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَونَ عن مُنْكرٍ فعلوه﴾ يعني لا ينهى بعضُهم بعضاً ﴿لَبِئسَ مَا كَانُوا يَفعلُونَ﴾[٣].

روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، أو ليسلِّطَنّ الله عليكم سُلطاناً ظالماً لا يُجلُّ كبيرَكُم. ولا يرحم صغيرَكُم، ويدعو خياركم فلا يُستجاب لهم، ويستنصرون فلا يُنصرون، ويستغفرون فلا يُغفر لهم.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «عذّب الله أهلَ قريةٍ فيها ثمانية عشر ألفاً، عملُهم عمل الأنبياء». قالوا: يا رسول الله كيف؟ قال: «لم يكونوا يغضبون لله، ولا يأمرون بالمعروف، ولا ينهون عن المنكر».

وقال أبو ذرٍّ الغفاري: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله! هل من جهادٍ غير قتالِ المشركين؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم يا أبا بكر، إن لله مجاهدين في الأرض أفضلُ من الشهداء، أحياءٌ مرزوقين، يمشون على الأرض، يُباهي اللهُ بهم ملائكة السماء، وتُزيّن لهم الجنة كما تزّينتْ أمُّ سلمة لرسول الله». فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله! ومن هم؟ قال: «الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والمحبّون في الله، والمُبغضون في الله» ثم قال: «والذي نفسي بيده إنّ العبدَ ليكون في الغُرفةِ فوق الغُرفات فوق غرفِ الشهداء، لكلِّ غرفةٍ منها ثلاثمئة باب، منها الياقوت والزُمرُّد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٧١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٧٩.

الأخضر، على كلِّ بابٍ نور، وإن الرجلَ منهم ليتزوَّجُ بثلاثمئة ألف حوراء، قاصرات الطرف عِيْن، كُلّما إلتفت إلى واحدة منهنَّ فنظر إليها تقول له: أتذكر يوم كذا وكذا أمرتَ فيه بالمعروف، ونهيتَ عن المنكر؟ وكُلّما إلتفت إلى واحدةٍ منهن ذكرتَ له مقاماً أمر فيه بالمعروف، ونهى عن المنكر».

وفي الخبر أن الله تعالى قال: يا موسى، هل عملتَ لي عملاً قطُّ؟ قال: إلهي صليت لك، وصمت لك، وتصدّقت لأجلك، وسجدت لك، وحمدت لك، وقرأت كتابك، وذكرتك.

قال الله تعالى: يا موسى! أمّا الصلاة فلك بُرهان، وأمّا الصوم فلك جُنَة، وأمّا الصدقة فلك ظِل، وأمّا التسبيح فلك أشجارٌ في الجنة، وأمّا قراءة كتابي فلك حورٌ وقصور، وأمّا الذكر فلك نورٌ. فأيّ عملٍ عملت لي؟.

قال موسى: دُلّني يا ربّ على عملٍ أعمله لك. قال: يا موسى، هل واليتَ لي وليًا قط؟ وهل عاديتَ لي عدواً قط؟ فعلم موسى أن أفضلَ الأعمال الحبُّ لله والبغض لله: لأعدائه.

وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: قلتُ يا رسول الله، أيّ الشهداء أكرمُ على الله عزّ وجل؟ قال: «رجل قام إلى والٍ جائرٍ فأمره بالمعروف، ونهاه عن المنكر، فقتله، فإنْ لم يقتله فإنَّ القلم لا يجري عليه بعد ذلك وإن عاش ما عاش».

وقال الحسن البصري رحمه الله: قال رسول الله ﷺ: «أفضل شهداءِ أمتي رجل قام إلى إمامٍ جائرٍ فأمره بالمعروف، ونهاه عن المنكر، فقتله على ذلك، فذلك الشهيد منزلته في الجنة بين حمزة وجعفر».

أوحى الله إلى يوشع بن نون عليه السلام أني مُهْلِكٌ من قومك أربعين ألفاً من خيارهم، وستين ألفاً من شرارهم. فقال: يا ربّ، هؤلاء الأشرار، فما بال الأخيار؟ قال: إنهم لم يغضبوا لغضبي، وواكلوهم وشاربوهم.

وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله! لا نأمر بالمعروف حتى نعملَ به كلّه، ولا ننهى عن المنكر حتى نجتنبه كلّه. فقال ﷺ: «بل مُروا بالمعروف وإن لم

تعملوا به كلّه، وانهوا عن المنكر وإن لم تجتنبوه كلّه».

وأوصى بعض السلف بنيه فقال: إذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف فليوطّن نفسه على الصبر، وليثق بالثواب من الله.

فمن وَثِقَ بالثواب من الله لم يجد مسّ الأذى.



١٦ـ باب: في عداوة الشيطان

يجب على المؤمن أن يحبَّ العلماء والصلحاء، ويلازم مجالستهم، ويسأل ما لا بدّ له، ويتّعِظ بنصحهم، ويجتنب الأعمال القبيحة، ويتّخذ الشيطان عدواً، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيطَانَ لَكُم عدُوٌّ فاتَّخِذوه عَدُواً﴾[١] أي: فعادوه بطاعة الله تعالى، ولا تطيعوه في معاصي الله تعالى، وكونوا على حذرٍ منه في جميع أحوالكم، وأفعالكم، وعقائدكم عن صميم قلوبكم، وإذا فعلتم فعلاً فتفطّنوا له فإنه ربما يُدْخل عليكم فيه الرياء، ويُزيّن لكم القبائح، واستعينوا عليه بربكم.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطاً وقال: «هذه سبيل الله» ثم خطَّ خطوطاً عن يمين الخطِّ وعن شماله، ثم قال: «هذه سُبُل على كلّ سبيلٍ منها شيطانٌ يدعو إليه» ثم تلا: ﴿وأَنَّ هَذَا صِرَاطي مُستَقيماً فاتَّبِعُوه ولا تَتَّبعُوا السُّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُم عَن سَبِيلِهِ﴾[٢] فبين لنا ﷺ كثرةَ طُرقِ الشيطان.

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «كان راهبٌ في بني إسرائيل، فعمد الشيطان إلى جاريةٍ فخنقها، وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب، فأتوا بها إليه، فأبى أن يقبلها، فلم يزالوا به حتى قبلها. فلمّا كانت عنده ليعالجها أتاه الشيطان فزيّن له مقاربتها، ولم يزل به حتى واقعها، فحملت منه، فوسوس إليه وقال: الآن تُفْتَضَح يأتيك أهلها، فاقتلها، فإن سألوك فقل: ماتت.

فقتلها ودفنها، فأتى الشيطان أهلها فوسوس إليهم، وألقى في قلوبهم أنّه أحبلها، ثم قتلها هو ودفنها. فأتاه أهلها فسألوه عنها فقال: ماتت. فأخذوه ليقتلوه بها، فأتاه الشيطان فقال: أنا الذي خنقتها، وأنا الذي ألقيت في قلوب أهلها، فأطِعني تنج، وأخلّصك منهم. قال: بماذا؟ قال: اسجد لي سجدتين. ففعل. فقال له الشيطان: إني

(١) سورة فاطر، الآية: ٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

بريء منك. فهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيطَانِ إذ قَالَ للإنسَانِ اكفُرْ فَلَمّا كَفَرَ قال إنّي بريءٌ مِنكَ﴾[1].

ورُوي أن إبليس سأل الشافعي رضي الله عنه: ما قولك فيمن خلقني كما اختارَ، واستعملني فيما اختارَ، وبعد ذلك إن شاء أدخلني الجنة، وإن شاء أدخلني النار، أعَدَلَ في ذلك أم جار[2]؟ فنظر في كلامه ثم قال: يا هذا إن كان خلقك لما تريد أنت فقد ظلمك، وإن كان خلقك لما يريد هو، فلا يُسأل عمّا يفعل. فاضمحل إلى أن صار لا شيء، ثم قال: والله يا شافعي لقد أخرجت بمسألتي هذه سبعين ألفَ عابدٍ من ديوان العبودية.

واعلم أن مثالَ القلب مثالُ حصن، والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله ومواضع ثلمه، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدريها. فحماية القلب عن وسواس الشيطان واجبٌ، وهو فرض عين على كلِّ مكلَّف، وما لا يُتوصل إلى الواجب إلا به فهو أيضاً واجب، ولا يُتوصل إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله، فصارت معرفة مداخله واجبة، ومداخله وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة:

منها الغضب والشهوة: فإنّ الغضب غول[3] العقل، وإذا ضعُف العقل هجم جند الشيطان، ومتى غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة.

وقد ذُكِرَ أن بعض الأولياء قال لإبليس: أرني كيف تغلب ابن آدم.

فقال: آخذه عند الغضب وعند الهوى.

ومنها الحسد والحرص: فمتى كان العبد حريصاً على كلّ شيء أعماه حرصه وأصمَّه، فحينئذ يجدُ الشيطان فرصةً فيحسّن عند الحريص كلَّ ما يُوصله إلى شهوته، وإن كان منكراً فاحشاً.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٦.

(٢) جَارَ: ظلم وابتعد عن الحق والعدل.

(٣) غول: قيد.

فقد روي أن نوحاً عليه السلام لما ركب السفينة حمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين كما أمره الله تعالى، فرأى في السفينة شيْخاً لم يعرفه، فقال له نوح: ما أدخلك؟ فقال: دخلت لأصيب قلوبَ أصحابك فتكون قلوبهم معي وأبدانهم معك.

فقال نوح: اخرج منها يا عدو الله فإنك لعين. فقال له إبليس: خمسٌ أُهلِك بهنّ الناس وسأحدّثك منهنّ بثلاث، ولا أحدّثك باثنتين. فأوحى الله إلى نوح أنّه لا حاجة لك بالثلاث، فليحدّثك بالاثنتين.

فقال له نوح: ما الاثنتان؟ فقال: هما اللتان لا تكذباني هما اللتان لا تخلفاني، بهما أهلك الناس: الحرص والحسد.

فبالحسد لُعِنْتُ وجُعِلْتُ رجيماً، وأمّا الحِرصُ فإنه أُبيح لآدم الجنةُ كلُّها إلا الشجرة، فأصبت حاجتي منه بالحرص.

ومنها الشبع من الطعام: وإن كان حلالاً صافياً، فإن الشبع يقوّي الشهوات، وهي أسلحة الشيطان.

فقد روي أن إبليس ظهر ليحيى عليه السلام، فرأى عليه معاليق من كل شيء، فقال له: يا إبليس ما هذه المعاليق؟ قال: هذه الشهوات التي أصبتُ بها ابنَ آدم. فقال: فهل لي فيها من شيء؟ قال: ربّما شبعتَ فثقّلناك عن الصلاة وعن الذكر.

قال: فهل غير ذلك؟ قال: لا. قال: لله عليّ أن لا أملأ بطني من الطعام أبداً. فقال له إبليس: ولله عليّ أن لا أنصح مسلماً أبداً.

ومنها حُبُّ التزيّن من الأثاث والثياب والدار: فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان باض فيه وفرّخ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار، وتزيين سقوفها وحيطانها، وتوسيع أبنيتها، ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب، ويستَسخرُه فيها طول عمره، فإذا أوقعه في ذلك فقد استغنى أن يعودَ إليه ثانيةً، فإن بعض ذلك يجُره إلى البعض، إلى أن يُساق إليه أجله فيموت وهو في سبيل الشيطان، واتّباع الهوى، ويُخشى من ذلك سوء العاقبة نعوذ بالله.

ومنها الطمع في الناس: فقد روى صفوان بن سُليم أن إبليس تمثّل لعبد الله بن

حنظلة فقال له: يا ابن حنظلة احفظ عني شيئاً أعلمك به. فقال له: لا حاجة لي به. قال: انظر، فإن كان خيراً أخذت، وإن كان شراً رددت.

يا ابن حنظلة لا تسأل أحداً غير الله سؤال رغبة، وانظر كيف تكون إذا غضبت، فإني أملكك إذا غضبت.

ومنها العجلة وترك التثبت في الأمور: قال ﷺ: «العَجَلَةُ من الشيطان، والتأنّي من الله تعالى» فعند الاستعجال يروّج الشيطان شرّه على الإنسان من حيث لا يدري.

فقد رُوي أنه لمّا وُلِد عيسى بن مريم عليه السلام، أتت الشياطين إبليس فقالوا له: أصبحتِ الأصنام قد نُكست رؤوسها، فقال: هذا حادث قد حدث، مكانكم، فطار حتى أتى خافقي الأرض فلم يجد شيئاً، فوجد عيسى عليه السلام قد وُلد، وإذا بالملائكة حافّين به، فرجع إليهم فقال: إن نبياً قد وُلدَ البارحة، ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا وأنا حاضرها إلا هذا، فايأسوا من أن تُعْبَدَ الأصنام بعد هذه الليلة، ولكن ائتوا بني آدم من قبل العجلة والخِفّة.

ومنها الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال: من العَروض والدواب والعقار؛ فإن كلَّ ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان.

قال ثابت البُنَاني لمّا بُعِثَ رسول الله ﷺ قال إبليس لشياطينه: لقد حدث أمرٌ فانظروا ما هو، فانطلقوا حتى أَعْيَوْا[1] ثم جاؤوه وقالوا: ما ندري. قال: أنا آتيكم بالخبر، فذهب، ثم جاء وقال: قد بَعثَ الله محمداً. قال: فجعل يُرسل شياطينه إلى أصحاب النبي ﷺ فينصرفون خائبين ويقولون: ما صحبنا يوماً قطُّ مثل هؤلاء، نصيب منهم ثم يقومون إلى صلاتهم فيُمحقُ ذلك، فقال لهم إبليس: رويداً عسى الله أن يفتحَ لهم الدُّنيا فنصيب منهم حاجتنا.

ورُوي أن عيسى عليه السلام توسَّدَ يوماً حجراً، فمرَّ به إبليس، فقال: يا عيسى، أرغبت في الدنيا؟ فأخذه عيسى عليه السلام فرمى به من تحت رأسه، وقال: هذا لك مع الدنيا.

---

(١) أَعْيَوْا: تعبوا.

ومنها البخل وخوف الفقر: فإن ذلك هو الذي يمنع من الإنفاق والتصدُّقِ، ويدعو إلى الادخار والكنز والعذاب الأليم.

ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال وهي معشش الشياطين.

ومنها التعصّب للمذاهب والأهواء: والحقد على الخصوم والنظر لهم بعين الاحتقار؛ وذلك مما يُهلك العُبّاد والفُسّاق جميعاً.

قال الحسن رضي الله عنه: بلغنا أن إبليس قال: سوّلْتُ لأمة محمد المعاصي فقصموا[1] ظهري بالاستغفار، فسوّلت لهم ذنوباً لا يستغفرون الله منها وهي الأهواء. وقد صدقَ الملعون فإنهم لا يعلمون أن في ذلك من الأسباب التي تجرُّ إلى المعاصي فكيف يستغفرون منها.

ومنها سوء الظنّ بالمسلمين: فيجب الاحتراز عنه وعن تهمة الأشرار فمتى رأيت إنساناً يُسيء الظنّ بالناس طلباً للعيوب فاعلم أنه خبيث باطناً، وأن ذلك خبثه يترشَّحُ منه.

فيجب على الإنسان قطع هذه الأبواب من القلب، ويُعينه عليها ذكرُ الله تعالى.

قال ابن إسحاق: لمّا رأى كفار قريش هجرة الصحابة، وعرفوا أنه صار له ﷺ أصحابٌ من غيرهم فحَذِرُوا خروجه، وعرفوا أنه أجمع لحربهم.

فاجتمعوا في دار الندوة، وهي دار قُصيّ بنِ كلاب، وسمّيت بذلك لاجتماع النديِّ فيها يتشاورون، وكانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها، ولا يُدخلون فيها غير قرشي إلى أن يبلغ أربعين سنة بخلاف القرشي، وقد أدخلوا أبا جهل، واجتمعوا يوم السبت، ولذا ورد: يومُ السبت يومُ مكرٍ وخديعة، ومعهم إبليس في صورة شيخ نجدي، وذلك أنه وقف على باب الدار في هيئة شيخٍ جليلٍ عليه بَتٌّ ـ قيل: كساء غليظ أو طيلسان من خز ـ فقالوا: ممَّن الشيخ؟ قال: من نَجْدَ، سمع بالذي اتَّعَدْتُم له فحضر ليسمع ما تقولون، وعسى أن لا يَعْدَمكم رأياً ونصحاً.

---

(١) فقصموا: قطعوا.

قالوا: ادخل، فدخل فتشاوروا في أمر النبي ﷺ، وكانوا مئة رجل، وقيل كانوا خمسة عشر رجلاً، فقال أبو البختريّ المقتول كافراً ببدر: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء قبله.

فقال النجدي: ما هذا برأي، والله لو حبستموه في الحديد ليخرجنّ أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا برأي، فانظروا في غيره.

فقال أبو الأسود بن ربيعة بن عمرو العامري: نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا فلا نبالي أين ذهب.

فقال النجدي لعنه الله: واللهِ ما هذا برأي، ألم تروا حُسْنَ حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنت أن يحلَّ على حيٍّ من العرب فيغلب بذلك عليهم من قوله حتى يتابعوه عليكم، ثم يسير بهم إليكم، فيأخذُ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد. أديروا فيه رأياً غير هذا.

فقال أبو جهل: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه، أرى أن تأخذوا من كلِّ قبيلة فتى شاباً جَلْداً نسيباً وسيطاً، ثم يُعطى كلُّ فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمِدوا إليه فيضربوه ضربةَ رجلٍ واحدٍ فيقتلوه، فنستريح منه، ويتفرّق دمُه في القبائل، فلا تقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فنعقله لهم.

فقال النجدي لعنه الله: القول ما قال، لا أرى غيره. فأجمع رأيهم على قتله ﷺ، وتفرّقوا على ذلك، ثم أتى جبريل النبيّ ﷺ فقال: لا تَبِتْ هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه.

فلمّا كان الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام، فيثبوا عليه، فأمر عليه السلام عليّاً، فنام مكانه، وغطّي بُبرد له ﷺ أخضر كان يشهد به الجمعة والعيدين بعد ذلك عند فعلهما، فكان عليٌّ أوّلَ من شرى نفسه في الله، ووقى بها رسول الله ﷺ وفي ذلك يقول عليٌّ رضي الله عنه:

وَقَيْتُ بنفسي خيرَ من وطىء الثرى ومن طاف بالبيت العتيقِ وبالحجر

رسولَ إلهٍ خاف أن يمكروا به فنجّاه ذو الطَّوْلِ الإلهُ من المكر
وبات رسولُ الله في الغار آمنا موقًّا وفي حفظِ الإله وفي ستر
وبتُّ أراعيهم وما يتهمونني وقد وطّنْتُ نفسي على القتل والأسر

ثم خرج ﷺ من الباب عليهم. وقد أخذ الله على أبصارهم، فلم يره أحدٌ منهم، ونثر على رؤوسهم كلّهم تراباً كان في يده وهو يتلو قوله تعالى: ﴿يسٓ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾[(١)] ثم انصرف حيث أراد، فأتاهم آتٍ ممّن لم يكن معهم، فقال: ما تنتظرون ههنا؟ قالوا: محمداً.

قال: قد خيّبكم الله، والله خرج عليكم، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته، فما ترون ما بكم؟ فوضع كلُّ رجل يده على رأسه فإذا عليه تراب، ثم جعلوا يطّلعون فيرون علياً على الفراش متسجّياً بُردة رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا لمحمدٌ نائم عليه بُرْده، فلم يزالوا كذلك حتى أصبحوا.

فقام عليٌّ من الفراش، فقالوا: لقد صدَقنا الذي كان حدّثنا. وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿وإذ يَمْكُرُ بك الذين كَفَروا لِيُثْبِتوك أو يَقتُلُوك﴾[(٢)].

لا تجزعنّ فَبَعدَ العُسرِ تيسيرٌ وكلُّ شيءٍ له وقتٌ وتقديرُ
وللمقدّر في أحوالنا نظرٌ وفوق تدبيرنا للهِ تدبيرُ

ثم أذنَ الله تعالى لنبيّه ﷺ في الهجرة.

قال ابن عباس بقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَّبِّ أدخِلني مُدْخَلَ صِدْقٍ وأخرجني مُخْرَجَ صِدْقٍ واجعلْ لي من لَدُنك سلطاناً نصيراً﴾[(٣)] وأمره جبريل أن يستصحب أبا بكر رضي الله عنه.

روى الحاكم عن عليّ رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال لجبريل: «مَن يهاجر معي؟» قال: أبو بكر الصديق.

---

(١) سورة يسٓ، الآيات: ١ ـ ٩.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.
(٣) سورة الاسراء، الآية: ٨٠.

وأخبر ﷺ علياً بِمَخْرِجِهِ، وأمره أن يتخلّف بعده حتى يُؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس.

وروى الطبراني في حديث أسماء: كان النبيّ ﷺ يأتينا بمكة كلّ يوم مرّتين بُكرة وعشية.

فلمّا كان يوم من ذلك جاءنا في الظهيرة، فقلت: يا أبت، هذا رسول الله ﷺ متقنعاً ـ أي: مغطيّاً رأسه ـ في ساعة لم يكن يأتينا فيها.

قال أبو بكر رضي الله عنه: فدى له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر. قالت عائشة رضي الله عنها: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له أبو بكر، فدخل فتنحّى أبو بكر عن سريره، وجلس عليه رسول الله ﷺ، فقال لأبي بكر: «أَخْرِجْ مَنْ عندك» فقال أبو بكر: إنما هم أهلك، يعني عائشة وأسماء، وفي روايةٍ: فقال أبو بكر: لا عين عليك، إنّما هما ابنتاي. فقال ﷺ: «فإنه قد أُذن لي في الخروج» فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال ﷺ: «نعم» قالت عائشة رضي الله عنها: فرأيتُ أبا بكر يبكي، وما كنت أحسب أن أحداً يبكي من الفرح. فقال أبو بكر: فخذ بأبي أنت وأمي يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين. قال ﷺ: «لا، بل بالثمن».

وفي رواية فقال: «بثمنها إن شئت». وإنما أخذها بالثمن لتكون هجرته ﷺ إلى الله تعالى بنفسه وماله رغبةً منه عليه السلام في استكماله فَضْلَ الهجرة إلى الله تعالى.

قالت عائشة: فجهزناهما أحثّ ـ أي أسرع ـ الجهاز وفي رواية ـ أحب الجهاز. وصنعنا لهما سُفرة، أي زاداً في جراب.

زاد الواقدي: إنه كان في السفرة شاةٌ مطبوخة. قالت: فقطعت أسماءُ قِطعة من نِطَاقها فربطت بها على فم الجراب، فبذلك سُمّيت ذاتَ النّطاقين تثنية نِطاق بكسر النون، ما يشدّ به في الوسط.

قالت عائشة رضي الله عنها: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار ثور، فكمنا فيه ثلاث ليال. وهو جبل بمكّة نزله ثور بن عبد مناة فنسب له.

ورُوي أنهما خرجا من خوخةٍ، أي: باب صغير لأبي بكر في ظهر بيته ليلاً إلى الغار.

ورُوي أن أبا جهل لقيهما، فأعمى الله بصره عنهما حتى مضيا، قالت أسماء بنت أبي بكر: وخرج أبو بكر بماله خمسة آلاف درهم، ولمّا فقدتْ قريش رسولَ الله ﷺ طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها وبعثوا القافة ـ جمع قائف، وهو الذي يعرف الأثر في كلّ وجه ـ فوجد الذي ذهب جهة ثور أثره هناك، فلم يزل يتبعه حتى انقطع الأثر لمّا انتهى إلى ثور.

وشقّ على قريش خروجه، وجزعوا لذلك، وجعلوا مئة ناقة لمن يردّه.

وروى القاضي عياض أنه ﷺ ناداه جبل ثبير: اهبط عني، فإني أخاف أن تقتل على ظهري فأُعذَّب. فناداه جبل ثور: إليَّ يا رسول الله.

ورُوي أنه لمّا دخل الغار، وأبو بكر معه أنبت الله على بابه الراءة، وهي شجرة معروفة بأم غيلان، فحجبت عن الغار أعين الكفار، وأنّ الله عزّ وجلّ أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأرسل حمامتين وحشيّتين فوقفتا على وجه الغار، فعشّشتا على بابه، وأن ذلك مما صدّ المشركين عنه، وأن حمام الحرم من نسل تينك الحمامتين، جزاءً وفاقاً لما حصل بهما الحماية جوزيتا بالنسل وحمايته في الحرم. فلا يُتعرَّض له.

ثم أقبل فتيان قريش من كلّ بطنٍ بعصيّهم وهراويهم وسيوفهم، فجعل بعضهم ينظر في الغار، فرأى حمامتين وحشيّتين بفم الغار، فرجع إلى أصحابه، فقالوا له: مالك؟ فقال: رأيت حمامتين وحشيّتين فعرفت أنه ليس فيه أحد. فسمع النبيُّ ﷺ ما قال، فعلم أن الله قد درأ عنه.

وقال آخر: ادخلوا الغار. فقال أمية بن خلف: وما أَرَبُكم ـ أي حاجتكم إلى الغار ـ إنّ فيه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد، لو دخلَ لكسر البيض وتفسّخ العنكبوت، وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود، فتأمل كيف أظلّت الشجرةُ المطلوبَ وأضلّت الطالبَ، وجاءت عنكبوت فسدّت باب الطلب، وحاكت وجه المكان، فحاكت ثوبَ نَسْجها حتى عمي على القائف الطلب، ولقد حصل لها بذلك الشرف. وما أحسن قول ابن النقيب:

ودود القزِّ إن نسجت حريرا يجمل لبسه في كل شيّ

فــإنّ العنكبــوت أجــلّ منهــا بمــا نسجــت علــى رأس النبــي

وروى الشيخان عن أنس قال: حدّثني أبو بكر قال: قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنا. فقال له رسول الله ﷺ: «ما ظنّك باثنين الله ثالثهما؟».

وذكر بعض أهل السّير أنّ أبا بكر لما قال ذلك قال له ﷺ: «لو جاؤونا من ههنا لذهبنا من ههنا». فنظر الصدّيق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذا البحر قد اتصل به وسفينة مشدودة إلى جانبه.

وعن الحسن البصري بلاغاً أنّ أبا بكر ليلة انطلق معه ﷺ إلى الغار كان يمشي بين يديه ساعةً، ومن خلفه ساعة، فسأله فقال: أذكر الطلب فأمشي خلفك، وأذكر الرّصَد فأمشي أمامك.

فقال: «لو كان شيءٌ أحببتَ أن تُقْتل دوني؟» قال: إي، والذي بعثك بالحق.

فلما انتهيا إلى الغار قال: مكانك يا رسول الله، حتى استبرىء لك الغار. فاستبرأه فجعل يلتمس بيده، فكلّما رأى جُحْراً قطع من ثوبه وألقمه الجُحْرَ حتى فعل ذلك بثوبه أجمع، فبقي جُحرٌ فوضع عقِبه عليه لئلا يخرج ما يؤذي رسول الله ﷺ. فدخل رسول الله ﷺ ووضع رأسه في حَجْر أبي بكر ونام، فلُدغ أبو بكر في رجله من الجُحْرِ، ولم يتحرّك لئلا يوقظ المصطفى ﷺ، فسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ فقال: «مالك يا أبا بكر؟» قال: لُدِغتُ، فداك أبي وأمي. فمسح رسول الله ﷺ بريقه مكان اللدغة فذهب ما يجده.

ولقد أحسن حسان بن ثابت رضي الله عنه حيث قال:

والثــانــي اثنيــن فــي الغــار المُنِيــفِ وقــد طــافَ العــدوُّ بــه إذ صَعَّــدَ الجبــلا
وكــان حِــبَّ رســول الله قــد عَلِمــوا مــن الخــلائــقِ لــم يعــدلْ بــه بــدلا

وكان خروجه ﷺ من مكّة يوم الخميس، وخرج من الغار ليلة الإثنين لأنه أقام فيه ثلاث ليال، وذلك من أول ربيع الأوّل، ودخل المدينة يوم الجمعة لثنتي عشرة ليلة خلت منه.

حُكي: أن زاهداً من الزُّهّاد اسمه زكريا مرض مرضاً شديداً، ودنا وقتُ أجله، فأتاه صديقه في سكرات الموت، ولقّنه لا إله إلا الله محمد رسول الله، فأعرض الزاهد بوجهه ولم يقل. فقال له ثانياً، فأعرض، فقال له ثالثاً فقال: لا أقول. فغُشي على صديقه.

فلمّا كان بعد ساعةٍ وجد الزاهد خِفّة ففتح عينيه فقال: هل قلتم لي شيئاً؟ قالوا: نعم عرضنا عليك الشهادة ثلاثاً فأعرضت في مرتين وقلت في الثالثة: لا أقول. فقال: أتاني إبليس عليه اللعنة، ومعه قدح من الماء ووقف عن يميني وهو يحرّك القدح فقال: أتحتاج إلى الماء؟ قلت: بلى. قال: قل عيسى ابن الله فأعرضت عنه، ثم أتاني من قِبَل رجلي فقال لي كذلك، فأعرضت عنه، وفي الثالثة قال لي كذلك فقلت: لا أقول، فضرب القدح على الأرض وولّى هارباً، فأنا رددتُ على إبليس لا عليكم، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وروي عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله قال: سأل بعضُهم ربّه أن يريه موضع الشيطان من قلب ابن آدم، فرأى في النوم جسد رجل شبه البلور يُرى داخله من خارجه، ورأى الشيطان في صورة ضفدع قاعد على منكبه الأيسر بين منكبه، وأذنه له خرطوم طويل دقيق أدخله من منكبه الأيسر إلى قلبه يوسوس إليه، فإذا ذكر الله تعالى خنس.

اللهم لا تسلّط علينا شيطاناً مَريداً، ولا إنساناً حسوداً، وأعِنّا على ذِكْرك وشُكرك بجاه خاتم أنبيائك ورسلك ﷺ.

١٧ ـ باب: في بيان الأمانة والتوبة

روي: عن محمد بن المنكدر أنه قال: سمعت أبي يقول: بينما سفيان الثوري يطوف إذ رأى رجلاً لا يرفع قدماً ولا يضع قدماً إلا وهو يصلي على النبي ﷺ قال: فقلت له: يا هذا إنك قد تركت التسبيح والتهليل وأقبلت بالصلاة على النبي ﷺ هل عندك في هذا شيء

قال: من أنت عافاك الله؟ فقلت: أنا سفيان الثوري قال: لولا أنك زاهد أهل زمانك ما أخبرتك عن حالي ولا أطلعتك على سري.

ثم قال لي: خرجت ووالدي حاجاً إلى بيت الله الحرام حتى إذا كنت في بعض المنازل، مرض والدي فقمت بشأنه حتى مات فاسودَّ وجهه، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون وغطَّيت وجهه فغلبتني عيناي فنمت حزيناً، فرأيت رجلاً لم أر أحسن منه وجهاً، ولا أنظف منه ثوباً، ولا أطيب منه ريحاً، يرفع قدماً ويضع أخرى حتى دنا من والدي، فكشف الازار عن وجهه فأمرَّ بيده على وجهه فابيضَّ، ثم ولّى راجعاً.

فتعلقت بثوبه فقلت: يا عبد الله، من أنت الذي منَّ الله على والدي بك في أرض الغربة؟ قال: أوما تعرفني؟ أنا محمد بن عبد الله صاحب القرآن، أما أن والدك كان مسرفاً على نفسه ولكن كان يكثر الصلاة عليَّ، فلما نزل به ما نزل استغاث بي، وأنا غياث لمن أكثر الصلاة عليَّ فانتبهت فإذا وجه أبي قد ابيضَّ.

وروي: عن عمرو بن دينار عن أبي جعفر عن النبي ﷺ أنه قال: «من نسي الصلاة عليَّ فقد أخطأ طريق الجنة».

اعلم: أن الأَمَانَةَ مأخوذةٌ من الأمن لأنه يؤمن معها من منع الحقّ، وضدُّها الخِيانة من الخَوْن وهو النقص، لأنك إذا خنْتَ أحداً في شيء فقد أدخلت عليه النقصان.

قال رسول الله ﷺ: المكرُ والخديعة والخِيانةُ في النار».

وقال ﷺ: «من عَامَل الناس فلم يظلمْهم، وحدّثهم فلم يَكْذِبْهم فهو ممن كمُلت مروءته، وظهرت عدالتُه، ووجبت أُخوَّته».

ومدح أعرابي قوماً فقال: شُغفوا برعي الأمانة فلا يغدرون بذمّة، ولا ينتهكون لمسلمٍ حُرمة، ولم تعلق بهم ذمَّة، فهم خير أمّة.

أقول: وهؤلاء الذين مدحهم الأعرابي قد انقرضوا فلم نرَ في هذه الأزمان إلا ذئاباً في ثياب كما قال:

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه[1] ومن أين للحرِّ الكريم صحابُ
وقد صار هذا الناسُ إلا أقلَّهم ذئاباً على أجسادهن ثيابُ

وكما قال آخر:

ذهب الذين يقال عند فراقهم ليت البلادَ وما بها تَتَصدَّعُ

وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الأمانة سترُفع، ويصبح الناس يتبايعون، وما يكاد أحدٌ منهم أن يؤدي الأمانة، وحتى يُقال: إنّ في بني فلان أميناً».

واعلم: أن التوبة واجبة بالأخبار والآيات، قال الله تعالى: **﴿وتُوبُوا إلى الله جميعاً أيُّهَ المُؤمِنُون لَعَلّكُم تُفْلِحُون﴾**[2] وهذا أمر على العموم.

وقال الله تعالى: **﴿يا أيُّها الّذين آمنُوا تُوبُوا إلى الله تَوبةً نَصُوحاً﴾**[3] ومعنى النصوح: الخالص لله تعالى خالياً من الشوائب مأخوذ من النّصح، ويدلُّ على فضل التوبة قوله تعالى: **﴿إن الله يُحبُّ التَّوّابِينَ ويُحبُّ المُتطَهِرِين﴾**[4].

وقوله ﷺ: «التائب حبيبُ الله، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له».

وقال رسول الله ﷺ: «للهُ أفرحُ بتوبة العبد المؤمن من رجلٍ نزل في أرض

---

(١) ينوبه: يصيبه.
(٢) سورة النور، الآية: ٣١.
(٣) سورة التحريم، الآية: ٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

دوِّيَّةٍ[1] مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومةً، فاستيقظ وقد ذهبتْ راحلته، فطلبها حتى إذا اشتدَّ عليه الحرُّ والعطشُ أو ما شاء الله قال: أرجع إلى مكاني الذي كنتُ فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلتُه عنده عليها زادُه وشرابُه، فاللهُ أشدُّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته».

ويُروى عن الحسن قال: لما تاب الله على آدم عليه السلام هنَّأته الملائكة، وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا: يا آدم، قَرَّت عينُك بتوبة الله عليك. فقال آدم عليه السلام: يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤالٌ فأين مقامي؟ فأوحى الله إليه: يا آدم ورَّثْتَ ذريتَك التعبَ والنصب، وورّثتهم التوبة، فمَن دعاني منهم لبَّيْتُه كما لبَّيْتُك، ومَنْ سألني المغفرة لم أبخل عليه لأني قريب مجيب، يا آدم وأحشرُ التائبين من القبور مُستبشرين ضاحكين ودعاؤهم مستجاب.

وقال ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ يَبْسط يَده بالتوبة لمسيء الليل إلى النهار، ولمسيء النهار إلى الليل حتى تطلعَ الشمس من مغربها» وبَسْطُ اليد كناية عن طلب التوبة، والطالب وراء القابل، فَرُبَّ قابل ليس بطالب، ولا طالب إلاّ هو قابل.

وقال ﷺ: «لو عملتم الخطايا حتى تبلغَ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم».

وقال ﷺ: «إن العبد ليذْنب فيدخل به الجنة» فقيل: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «يكون نُصْب عينه تائباً منه فارّاً حتى يدخل الجنة».

وقال ﷺ: «كفارة الذنب الندامة».

وقال ﷺ: «التائب من الذنب كمَن لا ذنب له».

ويُروى أن حبشياً قال: يا رسول الله، إنّي كنت أعمل الفواحش، فهل لي من توبةٍ؟ قال: «نعم» فولّى ثم رجع فقال: يا رسول الله، أكان يراني وأنا أعملها؟ قال: «نعم» فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه.

ويُروى أن الله عزّ وجلّ لما لعن إبليس سأله النَّظِرَة[2]، فأنظره إلى يوم القيامة،

---

(١) الدَّوِّيَّة: الفلاة الواسعة المستوية.

(٢) النَّظِرة: التأخير.

فقال: وعزّتك لاخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح. فقال الله تعالى: وعزّتي وجلالي لاحجبتُ عنه التوبة ما دام فيه الروح.

وقال ﷺ: «إن الحسنات يُذْهِبْن السيّئات كما يُذهب الماءُ الوسخ».

وعن سعيد بن المسيّب أُنزل قوله تعالى: ﴿فإنه كانَ للأوابين غفوراً﴾[1] في الرجل يُذنب ثم يتوب، ثمّ يُذنب ثم يتوب.

وقال الفُضيل: قال الله تعالى: بشِّر المذنبين بأنهم إن تابوا قبلتُ منهم، وحذِّر الصدّيقين أني إن وضعت عليهم عدلي عذّبتهم.

وقال عبد الله بن عمر: مَنْ ذكر خطيئةً ألمَّ بها فوَجِلَ منها قلْبه مُحِيتْ عنه في أمّ الكتاب.

ويُروى أن نبيّاً من الأنبياء أذنبَ، فأوحى الله إليه: وعزّتي لئن عُدت لأعذبنّك. فقال: يا ربِّ أنت أنت، وأنا أنا، وعزّتك إن لم تعصمني لأعودنَّ، فعصمه الله تعالى.

ويُروى أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب ألمّ به، هل له من توبة؟ فأعرض عنه ابن مسعود، ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرِفان فقال: إن للجنّة ثمانيةَ أبوابٍ كلّها تُفتح وتُغلق إلا بابَ التوبة، فإن عليه مَلَكاً موكّلاً به لا يُغلق، فاعمل ولا تيأس.

ويُروى أنه كان في بني إسرائيل شابٌ عبَدَ الله عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته، فساءه ذلك فقال: إلهي أطعتك عشرين سنة، ثم عصيتك عشرين سنة، فإن رجعتُ إليك أتقبلني؟ فسمع قائلاً يقول ولا يُرى شخصُه: أحببتَنا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قبلناك.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا تاب العبد تابَ الله عليه، وأنسى الحَفَظَة ما كانوا كتبوا من مساوىء عمله، وأنسى جوارحه ما عملت من الخطايا، وأنسى مكانه من الأرض، ومقامَه من السماء ليجيء يوم القيامة وليس شيء من الخلق يشهد عليه».

ورُوي عن عليٍّ كرّم الله وجهه عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «مكتوب حول العرش قبل أن

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٥.

يُخلق الخلق بأربعة آلاف عام ﴿وإنّي لغفارٌ لمن تابَ وآمن وعملَ صالحاً ثم اهتدى﴾[١].

واعلم أنّ التوبة فرضُ عينٍ من الذنوب الكبائر والصغائر فوراً، فإنّ الإصرار على الصغائر يُلحقها بالكبائر، قال الله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلمُوا أنفسَهُم﴾[٢].

والتوبة النصوح: أن يتوب العبد ظاهراً وباطناً نادماً غير عازم على العود. ومَثَلُ من تاب ظاهراً فقط كمثل مَزْبلةٍ بُسط عليها ديباج، والناس ينظرون إليها ويتعجّبون منها، فإذا كُشف عنها الغطاء أعرضوا عنها، فكذلك الخلق ينظرون إلى أهل الطاعة الظاهرة، فإذا كُشف الغطاء يوم القيامة ﴿يومَ تُبلى السَّرائر﴾[٣] أعرضتِ الملائكة عنهم، ولذا قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم».

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: كم من تائبٍ يجيء يوم القيامة يَظُنّ أنه تائب وليس بتائب، أي: لأنه لم يُحْكِم أبواب التوبة من الندم، والعزمِ على عدم العود، وردّ المظالم لأربابها إن أمكن، واستحلالهم منها إن تيسّر، وإلاّ أكثرَ من الاستغفار له ولهم عسى الله أن يُرضيهم عنه.

ونسيانُ الذنب من أقبح المصائب. فعلى العاقل أن يحاسب نفسه، ولا ينسى ذنبه كما قيل:

يا أيُّها المذنب المُحصي جرائمه	لا تنسَ ذنبك واذكر منه ما سَلَفا
وتُب إلى الله قبل الموتِ وانزجرا	يا عاصياً واعترفْ إن كنت معترفا

وروى الفقيه أبو الليث بسنده قال: دخل عمر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ باكياً، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يُبكيك يا عمر؟» فقال: يا رسول الله، بالباب شابٌ قد أحرقَ فؤادي وهو يبكي. فقال له رسول الله ﷺ: «أدخله يا عمر». قال: فدخل وهو يبكي. فقال له رسول الله ﷺ: «ما يُبكيك يا شاب؟» قال: يا رسول الله أبكتْني ذنوب كثيرة، وخفت من جبّارٍ غضبان عليّ. فقال رسول الله ﷺ: «أشركت بالله شيئاً؟» قال:

---

(١) سورة طه، الآية: ٨٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

(٣) سورة الطارق، الآية: ٩.

لا. قال: «أقتلت نفساً بغير حقٍّ؟» قال: لا. قال: «فإن الله يغفر ذنبك ولو كان مثلَ السماوات السبع والأرضين والجبال» قال: يا رسول الله، ذنبي أعظم من ذلك. قال: «ذنبك أعظم أم الكرسي؟» قال: ذنبي أعظم يا رسول الله. قال: «ذنبك أعظم أم العرش؟» قال: ذنبي أعظم. قال: «ذنبك أعظم أم إلهك؟» ـ يعني: عفو الله ـ قال: بل الله أعظم وأجلّ. قال: «فإنه لا يغفر الذنب العظيم إلا الربّ العظيم». ـ يعني: عظيم التجاوز ـ ثم قال له رسول الله ﷺ: «أخبرني عن ذنبك» قال: إني أستحي منك يا رسول الله.

قال: «بل أخبرني» قال: يا رسول الله، إني كنت أَنْبشُ القبور منذ سبع سنين حتى ماتت جاريةٌ من بنات الأنصار، فنبشت قبرها، وأخذت كفنها، ومضيت غير بعيد، فغلبَ الشيطان عليّ، فرجعت فجامعتها، ثم مضيت غير بعيد، وإذا بالجارية قامت وقالت: ويلَك يا شاب! أما تستحي من ديّانٍ يأخذ للمظلوم من الظالم، تركتني عريانة في عسكرِ الموتى، وأوقفتني جُنُباً بين يدي الله عز وجل. قال: فوثب رسول الله ﷺ وهو يدفع في قفاه ويقول: «يا فاسق ما أحوجك إلى النار، اخرج عنّي» فخرج الشاب تائباً إلى الله تعالى أربعين ليلة، فلما تمّ له أربعون ليلة رفع رأسه إلى السماء وقال: يا إله محمد وآدم وإبراهيم، إن كنتَ غفرتَ لي فأعلِمْ محمداً وأصحابه ﷺ، وإلا فأرسلْ ناراً من السماء فأحرقني بها، ونجّني من عذاب الآخرة. فهبط جبريل على النبي ﷺ وقال: يا محمد ربّك يقرئك السلام ويقول لك: أنت خلقت الخلق؟ فقال: «بل هو الذي خلقني وخلقهم، ورزقني ورزقهم» قال جبريل عليه السلام: يقول لك الله تعالى: إني تُبْتُ على الشاب.

فدعا النبيُّ ﷺ الشاب وبشّره بأن الله تعالى تاب عليه.

وحُكي أنه كان في زمن موسى عليه السلام رجلٌ لا يستقيم على التوبة، كلما تابَ أفسد. فمكث على ذلك عشرين سنة. فأوحى الله تعالى إلى موسى: قل لعبدي فلان: إني غضبتُ عليه. فبلّغ موسى عليه السلام الرسالةَ إلى ذلك الرجل، فحزنَ وذهب إلى الصحراء قائلاً: إلهي أنَفِدَتْ رحمتُك أم ضرّتْك معصيتي؟ أم نِفدَتْ خزائن عفوك، أم بَخِلْت على عبادك؟ أيُّ ذنب أعظم من عفوك؟ والكرم من صفاتك القديمة، واللؤم من صفاتي الحادثة، أفتغلب صفتي صفتَك؟ وإذا حجبت عبادَك عن رحمتك فمن يرجون؟

وإن طردتهم فإلى من يقصدون؟ إلهي إن كانت رحمتك قد نفِدت، وكان لا بدّ من عذابي فاحمل عليّ جميع عذاب عبادك، فإني قد فديتهم بنفسي.

فقال الله تعالى: يا موسى، اذهب إليه وقل له: لو كانت ذنوبك مِلء الأرض لغفرتها لك بعد ما عرفتني بكمال القدرة والعفو والرحمة.

وقال ﷺ: «ما من صوتٍ أحبّ إلى الله من صوت عبدٍ مذنب تائب يقول: يا ربّ. فيقول الرب: لبيك يا عبدي، سَلْ ما تريد، أنت عندي كبعض ملائكتي، أنا عن يمينك، وعن شمالك، وفوقك، وقريبٌ من ضمير قلبك. اشهدوا يا ملائكتي أني قد غفرت له».

قال ذو النون المصري رحمه الله: إن لله عباداً نصبوا أشجار الخطايا نصبَ روامق القلوب، وسقوها بماء التوبة، فأثمرتْ ندماً وحزناً، فجُنُّوا من غير جنون، وتبلَّدوا من غير عيٍّ ولا بَكَم، وإنهم هم البُلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله، ثم شربوا بكأس الصفاء، فورثوا الصبر على طول البلاء، ثم تولّهت[1] قلوبُهم في الملكوت، وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت، واستظلّوا تحت رُواقِ الندم، وقرؤوا صحيفة الخطايا، فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علوّ الزهد بسلّم الورع، فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا، واستلانوا خشونة المضجع، حتى ظفروا بحبل النجاة، وعُروة السلامة، وسرحت أرواحهم في العلا حتى أناخوا في رياض النعيم، وخاضوا في بحر الحياة، وردموا خنادق الجزع، وعبروا جُسور الهوى حتى نزلوا بفِناء العلم، واستقوا من غدير الحكمة، وركبوا سفينة الفطنة، وأقلعوا برياح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة، ومعدن العزّ والكرامة.

---

(١) تولّهت: أي تعلقت.

١٨ـ باب: في فضل التراحم

قال رسول الله ﷺ: «لا يدخلُ الجنة إلا رحيم» قالوا: يا رسول الله، كلنا رحيم. قال: «ليس الرحيم من يرحم نفسه خاصَّة، ولكنَّ الرحيم من يرحم نفسه وغيره».

ومعنى رحمته لنفسه أن يرحمها من عذاب الله تعالى بترك المعاصي والتوبة منها، وفعل الطاعات والإخلاص فيها، ومعنى رحمته لغيره أن لا يسعى في أذيَّة المسلم.

قال ﷺ: «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه».

ويرحم البهائم فلا يكلّفها ما لا تطيق. فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي في الطريق، فاشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل بها وشرب، ثم طلع فإذا كلبٌ يلهث من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلبَ من العطش مثلُ الذي بلغ مني، فملأ خفَّه ماء، ثم امسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكَر الله تعالى له فغفر له» قالوا: يا رسول الله، إن لنا في البهائم لأجراً؟ قال: «في كلِّ ذات كبد رطبة أجر».

وعن أنس بن مالك قال: بينما عمر رضي الله عنه يعسُّ ذات ليلة إذ مرّ برفقة قد نزلت، فخشي عليهم السرقة، فلقي عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، فقال: ما الذي جاء بك في هذه الساعة يا أمير المؤمنين؟ قال: مررت برفقة قد نزلت، فحدَّثتني نفسي أنهم إذا باتوا، ناموا فخشيت عليهم السارق، فانطلقْ بنا نحرسهم. قال: فانطلقا فقعدا قريباً من الرفقة يحرسان، حتى إذا طلع الفجر نادى عمر رضي الله عنه: يا أهل الرفقة الصلاة، حتى إذا رآهم تحرّكوا انصرف.

فعلينا أن نقتدي بالصحابة رضي الله عنهم، فقد مدحهم الله تعالى بقوله ﴿رحماءُ بينهم﴾[1] وكانوا رحماء على المسلمين وعلى جميع الخلق، وكانوا يرحمون أهل الذمة.

فقد رُوي عن عمر رضي الله عنه: أنه رأى رجلاً من أهل الذمّة يسألُ على أبواب الناس، وهو شيخٌ كبير، فقال له عمر رضي الله عنه: ما أنصفناك، أخذنا منك الجزية ما

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

دمت شاباً، ثم ضيّعْناك اليوم، وأمَرَ بأن يُجرى عليه قوته من بيت مال المسلمين.

ورُوي: عن عليّ رضي الله عنه قال: رأيت عمر رضي الله عنه على قَتَبٍ وهو يغدو بالأبطح[١]، فقلتُ له: يا أمير المؤمنين! أين تصير؟ قال: بعيرٌ نَدَّ من الصدقة فأنا أطلبه. فقلت له: لقد أذلَلْت الخُلفاءَ من بعدك. فقال: لا تلمْني يا أبا الحسن، فوالذي بعث محمداً ﷺ بالنبوة، لو أن عَنَاقاً[٢] ذهب بشاطىء الفرات لأخذ بها عمر يوم القيامة، لأنّه لا حُرمةَ لوالٍ ضيّع المسلمين، ولا لفاسقٍ روّع المؤمنين.

وعن الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بُدلاء أمتي لا يدخلون الجنة بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن يدخلونها بسلامة الصدور، وسخاوة النفوس، والرحمة لجميع المسلمين».

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء».

وعنه ﷺ: «من لا يَرْحَم لا يُرحَم، ومَنْ لا يغفِر لا يُغفر له».

وقال مالك بن أنس: قال رسول الله ﷺ: «أربعٌ من حقّ المسلمين عليك: أن تُعين محسنهم، وأن تستغفرَ لمذنبهم، وأن تعُودَ[٣] مريضَهم، وأن تُحِبّ تائبهم».

ورُوي أن موسى عليه السلام قال: يا ربّ، بأي شيء اتخذتني صفيّاً؟ قال: برحمتك على خلقي.

وعن أبي الدَّرداء رضي الله عنه: أنه كان يَتْبَعُ الصبيان، فيشتري منهم العصافيرَ، فيرسلها ويقول: اذهبي فعيشي.

وقال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنين في تراحمهم وتوادِّهم وتواصلهم كمَثَل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر».

حكاية: مرَّ عابد من بني إسرائيل على كثيبٍ من رمل، وقد أصابت بني إسرائيل

---

(١) الأبطح: سهل بين مكة ومنى.
(٢) عناق: ولد الانثى من المعز التي لم تُتم السنة.
(٣) تعود: تزور.

مجاعةٌ عظيمة، فتمنّى في نفسه أن هذا لو كان دقيقاً لأشبع به بني إسرائيل. فأوحى الله إلى نبيٍّ بني إسرائيل أن قل لفلان: إن الله تعالى قد أوجبَ لك من الأجر ما لو كان دقيقاً وأشبعت به الناس، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «نيّة المؤمن خيرٌ من عمله».

حُكي: أن عيسى عليه السلام خرج يوماً، فلقي إبليس وبيده عسل، وفي الأخرى رمادٌ فقال: ما تفعل يا عدوّ الله بهذا العسل والرماد؟ قال: أمّا العسل فأجعله على شفاه المُغتابين حتى يبلغوا منها، وأمّا الرماد فأضعه على وجوه اليتامى حتى يُبغضهم الناس.

وقال ﷺ: «إن اليتيم إذا ضُرب اهتزّ عرشُ الرحمن لبكائه فيقول الله عز وجل: يا ملائكتي، مَن أبكى هذا الصبي الذي غيّبْتُ أباه في التراب؟».

وقال ﷺ: «مَن آوى[1] يتيماً إلى طعامه وشرابه أوجب الله له الجنة».

وفي «روضة العلماء» كان إبراهيم عليه السلام إذا أراد أن يأكلَ طعاماً مشى الميل والميلين يَطلُب من يأكل معه.

وبكى عليٌّ كرّم الله وجهه يوماً فقيل: ما يُبكيك؟ قال: لم يأتني ضيفٌ منذ سبعة أيام، فأخاف أن يكون اللهُ قد أهانني.

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أطعم جائعاً يُريد به وجهَ الله وجبت له الجنة، ومَنْ منع الطعامَ عن الجائع، منع الله عنه فضلَهُ يوم القيامة، وعذّبه في النار».

وقال رسول الله ﷺ: «السخيُّ قريب من الله، قريب من الجنة، قريب من الناس، بَعيدٌ من النار، والبخيل بَعيدٌ من الله، بعيد من الجنّة، بعيد من الناس، قريب من النار».

وقال ﷺ: «الجاهل السخيُّ أحبُّ إلى الله من العابد البخيل».

وقال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة يدخل الجنةَ أربعةٌ بغير حساب: العالم الذي يعمل بعلمه، ومَن حجّ ولم يَرفُث ولم يفسق حتى مات، والشهيد الذي قُتل في المعركة لإعلاء كلمة الإسلام، والسخيُّ الذي اكتسب مالاً من الحلال، وأنفقه في سبيل الله بغير رياء، فهؤلاء ينازع بعضهم بعضاً أيُّهم يدخل الجنة أولاً».

---

(١) آوى: أي أنزله عنده

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عباداً يختصُّهم بالنّعم لمنافع العباد، فمن بخل بتلك المنافع على العباد نقلها الله تعالى عنه وحوَّلها إلى غيره».

وقال ﷺ: «السخاءُ شجرةٌ من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن أخذ بغصن منها قاده ذلك الغصن إلى الجنة».

وعن جابر رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «الصبر والسماحة».

وروى المِقْدام بن شُريح عن أبيه عن جده قال: قلتُ: يا رسول الله دُلّني على عملٍ يُدخلني الجنة. قال: «إنّ من موجبات المغفرة بذل الطعام، وإفشاء السلام، وحُسن الكلام».



١٩ ـ باب: في بيان الخشوع[١] في الصلاة

جاء في الخبر: أن جبريل عليه السلام جاء يوماً إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله كنت رأيت ملكاً في السماء على سرير وحوله سبعون ألف ملك صفوفاً يخدمونه، وكل نَفَس يتنفس ذلك الملك يخلق الله من نَفَسه ملكاً والآن رأيت ذلك الملك على جبل قافٍ منكسر الجناح وهو يبكي، فلما رآني قال: أشفع لي؟ قلت: ما جرمك؟ قال: كنت على السرير ليلة المعراج فمر بي محمد ﷺ فما قمت له فعاقبني الله بهذه العقوبة وجعلني في هذا المكان كما ترى، قال: فتضرعت إلى الله فشفعت له: فقال الله تعالى: يا جبريل قل له حتى يصلي على محمد، فصلى ذلك الملك عليك فعفا الله عنه وأنبت جناحيه.

اعلم أنّه ورد أنَّ أول ما يُنْظَرُ فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة، فإنْ وُجدتْ تامةً قُبلت منه وسائرُ عمله، وإن وُجدت ناقصةً رُدّت إليه وسائرُ عمله.

وقال ﷺ: «مَثَلُ الصلاة المكتوبة كَمَثَل الميزان، مَنْ أوفى استوفى».

وقال يزيد الرقاشي: كانت صلاة رسول الله ﷺ مستوية كأنَّها موزونة.

وقال ﷺ: «إنّ الرجلين من أمتي ليقومان إلى الصلاة وركوعُهما وسجودُهما واحد، وإنّ ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض» وأشار إلى الخشوع.

وقال ﷺ: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى العبد لا يُقيم صُلبه بين ركوعه وسجوده».

وقال ﷺ: «مَن صلّى صلاةً لوقتها، وأسبغ[٢] وضوءها، وأتمَّ ركوعها وسجودها وخشوعها، عرجتْ وهي بيضاءُ مسفرة تقول: حفظك الله كما حفظتني، ومَنْ صلّى صلاة لغير وقتها، ولم يُسبغ وضوءها، ولم يتمَّ ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها، عرجت وهي سوداءُ مظلمة تقول: ضيّعك الله كما ضيّعتني. حتى إذا كانت حيث شاء الله لُفّت

---

(١) الخشوع: الخضوع.
(٢) أسْبَغَ: من سَبَغَ، سُبوغاً: أتم الوضوء وأعطى كل عضو حقه في الغسل.

كما يُلفُّ الثوب الخَلق، فيضرب بها وجهه».

وقال ﷺ: «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الصلاة مكيال، فمن أوفى استوفى، ومن طفّف فقد علم ما قال الله: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾[1].

وقال بعض العلماء: مَثَلُ المصلّي مَثَلُ التاجر الذي لا يحصل له الربح حتى يخلصَ له رأس المال، وكذلك المصلّي لا تُقبل له نافلة حتى يؤديَ الفريضة.

وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول إذا حضرت الصلاة: قوموا إلى نارِ ربكم التي أوقدتموها فأطفئوها.

وقال ﷺ: «إنَّما الصلاة تمسكُنٌ وتواضع».

وقال ﷺ: «من لم تنهه صلاتُه عن الفحشاء[2] والمنكر لم يزدد من الله إلا بُعداً» وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء والمنكر.

وقال ﷺ: «كم من قائم وليس له من قيامه إلا التعبُ والنصب». وما أراد به إلاّ الغافل.

وقال ﷺ: «ليس للعبد من صلاته إلا ما عَقَلَ منها».

وقال أهل المعرفة: الصلاةُ أربعة أشياء: الشروع مع العلم، والقيامُ مع الحياء، والأداء مع التعظيم، والخروج مع الخوف.

وقال بعض المشايخ: من لم يجمع قلبه على الحقيقة فسدت صلاته.

وقال رسول الله ﷺ: «في الجنة نهر يُقال له الأفيح فيه جواري خلقهن الله من الزعفران، يلعبن بالدرّ والياقوت، يُسبحن الله بسبعين ألف لغة، أصواتهن أطيبُ من صوت داود عليه السلام، ويقلْنَ: نحن لمن صلّى صلاته بالخشوع والحضور، فيقول الله تعالى: لأُسْكِنَنّه داري، ولأجعلنّه من زوّاري».

---

(١) سورة المطففين، الآية: ١.

(٢) الفحشاء: القول القبيح والشنيع.

ورُوي: أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: يا موسى إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تنتفض أعضاؤك، وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً، وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك، وإذا قُمتَ بين يدي فَقُم قيامَ العبد الذليل، وناجني بقلب وَجِلٍ، ولسانٍ صادق.

ورُوي: أنّ الله تعالى أوحى إليه: قل لعصاة أمتك لا يذكروني، فإني آليت[1] على نفسي أنّ مَنْ ذكرني ذكرته، فإذا ذكروني ذكرتهم باللعنة.

هذا في عاصٍ غير غافل في ذكره، فكيف إذا اجتمعت الغفلة والعصيان.

قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: يُحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء، ومن وجود النعيم بها واللذة.

ورأى النبي ﷺ رجلاً يعبث[2] بلحيته في صلاته فقال «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه».

وقال: «من لم يَخْشَعْ قلبه رُدّت صلاته».

واعلم أنّ الله مدح الخاشعين المتواضعين في الصلاة في غير آية فقال: ﴿في صَلاَتِهم خَاشِعُونَ﴾[3]، ﴿على صَلوتِهِم يُحافِظُون﴾[4]، ﴿على صَلاَتِهِم دَائِمُونَ﴾[5].

قيل: إن المصلّين كثير والخاشعين في الصلاة قليل، والحاجُّ كثير، والبارّ قليل، والطير كثير، والعندليب قليل، والعالِم كثير، والعامل قليل، والصلاة محلُّ الخضوع، ومعدن التواضع والخشوع، وهذا علامة القبول فإن للجواز شرطاً، وللقبول شرطاً. فشرط الجواز: أداء فرضها، وشرط القبول: الخشوع، قال تعالى: ﴿قد أفلحَ المؤمنون * الذين هم في صلاتِهم خَاشعون﴾[6] والتقوى، قال الله تعالى: ﴿إنما يتقبَّلُ

---

(١) آليت: أقسمت.

(٢) يعبث: يحرك.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٢.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٩.

(٥) سورة المعارج، الآية: ٢٣.

(٦) سورة المؤمنون، الآيتان: ١ ، ٢.

الله من المتَّقين﴾[١].

وقال ﷺ: «مَنْ صلّى ركعتين مُقْبلاً فيهما على الله بقلبه، خرجَ من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

واعلم أنه لا يُلهي[٢] عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة، فلا بدّ من دفعها. ودفعها قد يكون بالصلاة في مُظلمٍ أو خالٍ عن الشواغل من الأصوات والفُرُش المنقوشة، والتجرّد عن الملابس المزيّنة، بحيث تلهيه إذا نظر إليها في الصلاة، كما رُوي أنّه ﷺ لما لبس الخَمِيْصَةَ[٣] التي أتاه بها أبو جهم، وعليها عَلَمٌ، وصلّى بها نزعها بعد صلاته وقال: «اذهبوا بها إلى أبي جهم فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي» وأمر ﷺ بتجديد شِراك نعله، ثم نظر إليه في صلاته إذ كان جديداً، فأمرَ أن يُنْزع منها، ويردّ الشّراك الخَلق.

وكان ﷺ في يده خاتم من ذهب قبل التحريم، وكان على المنبر، فرماه وقال: «شغلني هذا، نظرة إليه ونظرة إليكم».

ورُوي أن أبا طلحة صلّى في حائطٍ[٤] له، فيه شجر، فأعجبه دبسيٌّ طار في الشجر يلتمس مخرجاً، فأتبعه بصره ساعة، ثم لم يَدْرِ كم صلّى. فذكر لرسول الله ﷺ ما أصابه من الفِتْنة، ثم قال: يا رسول الله هو صدقة فضَعْه كيف شئت.

وعن رجل آخر أنّه صلّى في حائطٍ له، والنخيل مطوَّقة بثمرها، فنظر إليها فأعجبته، ولم يَدْرِ كم صلي، فذكر ذلك لعثمان رضي الله عنه وقال: هو صدقة، فاجعله في سبيل الله عز وجلّ، فباعه بخمسين ألفاً.

وقال بعض السلف: أربعة في الصلاة من الجفاء[٥]: الالتفاتُ، ومسح الوجه، وتسوية الحصى، وأن تصلي بطريق من يمرُّ بين يديك.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٧.
(٢) يُلهي: يُشغل.
(٣) الخميصة: هي ثوب خزٍّ أو صوف مُعْلَم.
(٤) حائط: الحائط: هو البستان من النخيل.
(٥) الجفاء: ذهاب الخير من الصلاة أو ذهاب الثواب.

قال ﷺ: «إن الله عزَّ وجل مقبلٌ على المُصلي ما لم يلتفت».

وكان الصدِّيق رضي الله عنه في صلاته كأنَّه وَتِد.

وبعضهم كان يسَكُنْ في ركوعه بحيث تقع العصافير عليه كأنه جماد، وكلُّ ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظَّم من أبناء الدنيا، فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك؟.

وفي التوراة مكتوب: يا ابن آدم لا تعجز أن تقوم بين يديَّ مصلّياً باكياً، فأنا الله الذي اقتربتُ من قلبك، وبالغيب رأيتَ نوري.

ورُوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال على المنبر: إنَّ الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام، وما أكمل لله تعالى صلاةً. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يُتمُّ خشوعَها ولا تواضعَها وإقباله على الله عزَّ وجل فيها.

وسُئل أبو العالية عن قوله تعالى: ﴿الَّذين هِمْ عن صَلاتِهِم سَاهُونَ﴾.[1] قال: هو الذي يسهو في صلاته فلا يدري على كم ينصرف، أعلى شفعٍ أم على وتْرٍ.

وقال الحسن: هو الذي يسهو عن وقت الصلاة حتى تخرج.

وقال ﷺ: «قال الله تعالى: لا ينجو مني عبدي إلا بأداء ما افترضته عليه».

(١) سورة الماعون، الآية: ٥.

٢٠ ـ باب: في بيان الغيبة والنميمة[١]

اعلم أنَّ الله سبحانه وتعالى نصَّ على ذمِّ الغيبة في كتابه، وشبَّه صاحبَها بآكل لحم الميتة فقال تعالى: ﴿ولا يَغتَبْ بَعضُكُم بَعضاً أيُحِبُّ أحدُكُم أن يأكُلَ لحمَ أخِيهِ ميتاً فَكَرِهتُمُوه﴾[٢].

وقال ﷺ: «كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه».

وقال ﷺ: «إيَّاكم والغيبة، فإنَّ الغيبة أشدُّ من الزنا، فإن الرجل قد يزني ويتوب فيتوب الله عليه، وإنَّ صاحب الغيبة لا يُغفر له حتى يعفو له صاحبها».

وقالوا: مَثَلُ من يغتاب الناس كمَثَلِ من نصب منجنيقاً، فهو يرمي بها يميناً وشمالاً، فهو يرمي بحسناته كذلك.

وقال ﷺ: «من رمى أخاه بغيبة يريدُ بها شينَهُ أوقفه الله تعالى على جسرِ جهنم يوم القيامة حتى يخرجَ ممَّا قال».

وقال رسول الله ﷺ: «الغيبة ذكرك أخاك بما يكره» أي سواء ذكرته بنقصان بدنه، أو نسبه، أو فعله، أو قوله، أو دينه، أو دنياه، حتى في ثوبه وردائه ودابته، حتى ذكر بعض المتقدمين: لو قلتَ: إن فلاناً ثوبه طويل أو قصير يكون ذلك غيبة، فكيف ذكرك ما يكره من نفسه؟.

ورُوي أن امرأةً قصيرةً دخلت على النبيِّ ﷺ في بعض حاجاتها، فلما خرجت قالت عائشة رضي الله عنها: ما أقصرها! فقال النبي ﷺ: «اغتبتها يا عائشة».

وقال ﷺ: «إيَّاكم والغيبةَ، فإنّ فيها ثلاثَ آفات: لا يُستجاب لصاحبها دُعاء، ولا تُقبل له حسنة، وتتراكم عليه السيئات».

---

(١) النميمة: الوشاية بين الناس لإيقاع الفتنة.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

وقال ﷺ في ذمّ النميمة «شرُّ الناس يوم القيامة ذو وجهين، النمّام الذي يأتي هؤلاء بوجهٍ وهؤلاء بوجه. من كان ذا وجهين في الدنيا، كان له يوم القيامة لسانان من نار».

وعن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة نمّام».

فإن قيل: ما الحكمة في أنّ الله تعالى خلق كلَّ مخلوقٍ ذا لسان ناطق وغير ناطقٍ، وليس للسمك لسانٌ أصلاً؟

فقيل: لأنّ الله تعالى لمّا خلق آدم أمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا كلُّهم إلا إبليس، فلعنه الله، وأخرجه من الجنة، ومسخه، فأُهبط إلى الأرض، فجاء إلى البحار، فأوّل ما رآه السمك، فأخبره بخلق آدم وقال: إنه يصطاد ويأخذ دواب البحر والبر، فبلّغ السمكُ دوابَ البحر بخبر آدم، فأذهب الله لسانه.

حُكي عن عمرو بن دينار أنه قال: كان رجل من أهل المدينة له أخت في ناحية المدينة، فاشتكت، فكان يأتيها يعودها، ثم ماتت، وجهّزها وحملها إلى القبر، فلما دُفنتْ رجع إلى أهلها.

ثم ذكر أنّ له كيساً كان معه فضيّعه في القبر، فاستعان برجلٍ من أصحابه، فأتيا القبر فنبشاه، فوجدا الكيس. فقال للرجل: تنحَّ عنّي حتى أنظر على أيِّ حالٍ هي. فرفع بعض ما على اللحد، فإذا القبرُ يشتعل ناراً، فرجع إلى أمه فقال: أخبريني علامَ كانت أختي؟ فقالت: كانت أختك تأتي أبوابَ الجيران فتلقي أذنها إلى أبوابهم حتى تستمعَ الحديث لكي تمشي بالنميمة. فعلم أنّ هذا سبب عذاب القبر.

فمن أراد أن ينجو من عذاب القبر فليحترز من النميمة والغيبة.

وحُكي: عن أبي الليث البخاري أنه خرج حاجّاً، فجعل في جيبه درهمين، وحَلف: إن اغتبتُ أحداً في طريق مكّة ذاهباً أو آيباً فللّه عليّ أن أتصدّق بهما. فذهب إلى مكة ورجع إلى منزله والدرهمان في جيبه. فقيل له في ذلك، قال: لأنْ أزني مئة مرّةٍ أحبُّ إليّ أنْ أغتاب مرّةً واحدة.

قال أبو حفص الكبير: لو لم أصم رمضان أحبُّ إليّ من أن أغتاب إنساناً، ثم قال: من اغتاب فقيهاً جاء يوم القيامة مكتوباً على وجهه: هذا آيسٌ من رحمة الله.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أُسري بي على أقوامٍ يخمشون وجوهَهم بأظافيرهم، ويأكلون الجيفة، فقلت: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس في الدنيا».

وقال الحسن رضي الله عنه: واللهِ لِلْغيبةُ أسرعُ في دين الرجل المؤمن من الأكَلَةِ في الجسد.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: يُبْصِر أحدُكم القذى في عين أخيه، ولا يُبْصر الجِذْع في عين نفسه.

ورُوي: أن سلمان كان في سفرٍ مع أبي بكر وعمر، وكان يطبخ لهما، فنزلوا منزلاً، فلم يتهيّأ أنْ يُصلحَ لهم من الطعام، فبعثاه إلى النبي ﷺ لينظر عنده شيئاً من الطعام، فلم يجد، فرجع إليهما فقالا: إنه لو ذهب إلى بئر كذا ليبس ماؤها، فنزلت هذه الآية: **﴿ولا يَغْتَبْ بَعضُكُم بعضاً أيُحِبُّ أحَدُكُم أن يأكلَ لَحم أخِيهِ مَيتاً فَكَرِهتُمُوه﴾**[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكلَ لحم أخيه في الدنيا قُدِّمَ إليه لحمُه يوم القيامة، ويُقال: كُله ميتاً فإنّك أكلته حيّاً فيأكله»، ثم تلا قوله تعالى: **﴿أيحُبُّ أحَدُكُم أن يأكُلَ لَحمَ أخيهِ ميتاً﴾**.

ورُوي عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه أنّ ريحَ الغيبة كانت تبين في عهد رسول الله ﷺ وذلك لقلّتِها.

وأمّا في هذه الأزمان فقد كثُرت الغيبة، وامتلأتِ الأنوف منها، فلا تتميز رائحتها، ومَثَل ذلك كمَثَل رجل دخل دار الدبّاغين، فلم يقدر على القرار فيها من شدّة الرائحة ونتنها، وأهلها المقيمون فيها يأكلون الطعام ويشربون فيها ولا تتبيّن لهم تلك الرائحة المنتنة لأنها ملأت أنوفهم، فكذلك أمر الغيبة في أيامنا هذه.

قال كعب رضي الله عنه: قرأت في بعض الكتب أنّ من مات تائباً من الغيبة كان آخر من يدخل الجنة، ومن مات مُصرّاً عليها كان أوّلَ من يدخل النار.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

وقال الله تعالى: ﴿وَيلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [(١)] أي: أشدُّ العذاب للهُمَزة الذي يعيبك في الغيب، واللّمَزة الذي يعيبك في وجهك. والآية نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان يغتاب النبيّ ﷺ والمسلمين في وجوههم، ويجوز أن يكون السبب خاصّاً والوعيد عاماً.

وقال رسول الله ﷺ: «إيّاكم والغيبة، فإنها أشدُّ من الزنا» قالوا: كيف تكون الغيبة أشدَّ من الزنا؟ قال: «إنّ الرجل يزني ثم يتوب، فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يُغفر له حتى يعفو عنه صاحبه».

فالواجب على المُغتاب أن يندم ويتوبَ ليخرجَ من حقِّ الله، ثم يستحلَّ المُغتاب لُيحلَّه، فيخرج من مظلمته.

وقال ﷺ: «من اغتاب أخاه المسلم حوّل الله وجهَه إلى دُبُره يوم القيامة».

وينبغي لصاحب الغيبة أن يستغفر الله تعالى قبل القيام من المجلس، وقبل أن تصلَ إلى المُغتاب، لأنه إذا تاب صاحب الغيبة قَبْل وصولها المغتاب تُقْبلُ توبته، أمّا إذا بلغته، فلا يرتفع عنه الإثم بالتوبة ما لم يجعله في حِلّ، وكذلك إذا زنى بامرأة لها زوج فبلغه الخبر لا يرتفع بالتوبة ما لم يجعله في حِلّ.

وأما ترك الصلاة والزكاة والصوم والحجّ فلا يرتفع بالتوبة، بل بقضاء الفائتِ من ذلك والله أعلم.

(١) سورة الهمزة، الآية: ١.

٢١ ـ باب: في بيان الزكاة

قال الله تعالى: ﴿والَّذينَ هُم للزَّكاة فاعِلوُنَ﴾[١] يعني يؤدُّون.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهبٍ ولا فضّة لا يُؤدي منها حقّها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأُحمي عليها في نار جهنم فيُكوى بها جنبهُ وظهره» أي: ويوسع جسمه لها كلّها، وإن كثُرت «كلما بردت أُعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيله إمّا إلى الجنة، وإمّا إلى النار». الحديث.

وقال تعالى: ﴿والَّذين يكنزُون الذَّهبَ والفضَّة ولا يُنفقونَهَا في سَبِيلِ الله فبشّرهُم بعذاب أليم * يَوَم يُحمى عليها في نار جهنّم فتُكوى بها جباهُهم وجنوبُهم وظهورُهم هذا ما كنزْتُم لأنفسِكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون: ظلمونا حقوقنا التي فُرضَت عليهم. فيقول الله تعالى: وعزّتي وجلالي لأُدنينّكم ولأُباعدنّهم» ثم تلا رسول الله: ﴿والَّذين في أمْوالهِم حقٌّ مَّعلُومٌ * للسائِلِ والمَحرُوم﴾[٣].

ورُوي أنّه ﷺ مرّ ليلةَ أُسْري به على قوم على أدبارهم رقاع، وعلى أقبالهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام إلى الضريع[٤] والزقّوم[٥] ورضْفِ جهنم[٦]. قال: «مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدُّون صدقات أموالهم، وما ظلمهم الله وما الله

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٤.
(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٣٤، ٣٥.
(٣) سورة المعارج، الآيتان: ٢٤، ٢٥.
(٤) الضريع: نبات له شوك.
(٥) الزقوم: شجرة في جهنم.
(٦) الرضف: الحجارة المحماة على النار.

بظلاّمٍ للعبيد».

وحُكي أنّ جماعة من التابعين خرجوا لزيارة أبي سنان، فلمّا دخلوا عليه وجلسوا عنده قال: قوموا بنا نزور جاراً لنا مات أخوه، ونعزّيه فيه.

قال محمد بن يوسف القِرياني: فقمنا معه، ودخلنا على ذلك الرجل، فوجدناه كثيرَ البكاء والجزع على أخيه، فجعلنا نعزّيه ونسليه، وهو لا يقبل تسليةً ولا عزاء.

فقلنا له: أما تعلم أنّ الموت سبيلٌ لا بدّ منه؟ قال: بلى، ولكنْ أبكي على ما أصبح وأمسى فيه أخي من العذاب. فقلنا له: قد أطلعك الله على الغيب؟ قال: لا، ولكن لما دفنته وسوّيت عليه التراب، وانصرف الناس جلست عند قبره، وإذا صوتٌ من قبره يقول: آه، أفردوني وحيداً أُقاسي العذاب، قد كنت أصوم، قد كنت أُصلي. قال فأبكاني كلامه.

فنبشت عنه التراب لأنظر ما حاله، وإذا القبر يلمع عليه ناراً، وفي عنقه طوقٌ من نار، فحملتني شفقةُ الأُخوّة، ومددتُ يدي لأرفع الطوق من رقبته، فاحترقت أصابعي ويدي، ثم أخرج إلينا يده، فإذا هي سوداء مُحترقة.

قال: فرددت عليه التراب وانصرفت، فكيف لا أبكي على حاله وأحزن عليه؟ فقلنا: فما كان أخوك يعمل في الدنيا؟ قال: كان لا يؤدي الزكاة من ماله. قال: فقلنا: هذا تصديق قوله تعالى: **﴿ولا يَحسَبنَّ الذّين يَبخَلُون بما آتاهُمُ اللهُ من فَضلِهِ هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم سَيُطَوّقُونَ ما بَخِلُوا به يَوْمَ القيامة﴾**[1].

وأخوكَ عُجّل له العذاب في قبره إلى القيامة. قال: ثم خرجنا من عنده، وأتينا أبا ذر صاحبَ رسول الله ﷺ، وذكرنا له قضيّة الرجل، وقلنا له: يموت اليهودي والنصراني ولا نرى فيهم ذلك! فقال: أولئك لا شكّ أنهم في النار، وإنما يُريكم الله في أهل الإيمان لتعتبروا. قال الله تعالى: **﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيهَا وَمَا أنا عليْكم بِحَفِيظٍ﴾**[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.

(٢) سورة الانعام، الآية: ١٠٤.

وجاء في الخبر عن النبي ﷺ أنه قال: «مانعُ الزكاة عند الله بمنزلة اليهود والنصارى، ومانع العُشر عند الله تعالى بمنزلة المجوس».

ومَنْ يمنع الزكاة والعشر من ماله ملعون على لسان الملائكة والنبيّ ﷺ، ولا تُقبل شهادته.

وقال: «طوبى له إن أدّى الزكاة والعُشر، وطوبى لمن ليس عليه عذاب الزكاة وعذاب يوم القيامة، ومن أدّى الزكاة من ماله رفع الله عنه عذابَ القبر، وحرّم الله لحمه على النار، وأوجب له الجنة بغير حساب، ولا يصله عطشٌ يوم القيامة».



٢٢ ـ باب: في بيان الزنا

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿والَّذِينَ هُم لفُروجِهِم حَافِظُون﴾[١] أي: عن الفواحش وعمّا لا يحلُّ لهم.

كما قال الله تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿ولا تَقرَبُوا الفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ﴾[٢] يعني ما كُبر، وهو الزنا، وما صَغُرَ، وهو القُبلة واللمس والنَظر.

كما جاء في الخبر عن سيد البشر ﷺ أنه قال: «اليدان تزنيان والرِّجلان تزنيان، والعينان تزنيان، قال الله تعالى: ﴿قُل للمؤْمِنينَ يَغُضُّوا من أبصَارِهِم وَيحفَظُوا فُرُوجَهُم ذَلِكَ أزْكَى لهَمُ﴾[٣].

قد أمر الله تعالى الرجال والنساء بغضِّ البصر عن الحرام، ويحفظ الفرج عن الحرام، وقد حرَّم الله الزنا في آيات كثيرة، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَفعَلْ ذَلكَ يَلقَ أثاماً﴾[٤] يعني عقاباً في النار، ويقال: وادياً في النار، ويقال: جُبٌّ في النار إذا فتح فمه صاح أهلُ جهنم من خُبث رائحته.

ورُوي عن بعض الصحابة أنه قال: إيّاكم والزنا، فإن فيه ستَّ خصالٍ، ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة؛ فأمّا التي في الدنيا: فنُقصان الرزق، وقطع الأجل، وسواد الوجه، وأمّا التي في الآخرة: فغضب الله، وشدَّة الحساب، ودخول النار.

ورُوي أنّ موسى عليه السلام قال: يا ربِّ، ما لمن زنى؟ قال الله تعالى: ألبسه دِرْعاً من النار لو وُضع على جبلٍ شاهقٍ لأصبح رماداً.

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥.
(٢) سورة الإنعام، الآية: ١٥١.
(٣) سورة النور، الآية: ٣٠.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٦٨.

وورد أن امرأةً فاجرة أحبُّ إلى إبليس من ألف فاجر.

وفي «المصابيح» قال رسول الله ﷺ: «إذا زنى العبد خرج منه الإيمان، وكان فوق رأسه كالظلَّةِ، فإذا خرج من ذلك العمل رجع إليه الإيمان».

وفي كتاب «الإقناع» قال النبي ﷺ «ما من ذنبٍ أعظم عند الله من نطفة يضعها الرجل في رحمٍ من لا تحِلُّ له».

واللواط أشدُّ من الزنا لما رُوي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من لاطَ لا يجد رائحة الجنة، وإن رائحتها لتوجد من مسيرة خمسمائة عام».

وحُكي: أن عبد الله بن عمر كان جالساً على باب داره، فرأى غلاماً جميلاً، فدخل عبد الله داره هارباً، وأغلق بابه. فلمّا مكث ساعة قال: هل ذهبت هذه الفِتْنة أم لا؟ فقالوا: ذهبت. فخرج من الدار. فقيل له: يا عبد الله! ما فعل هذا في نفسك؟ أسمعت فيه شيئاً من رسول الله ﷺ؟ قال: النظر إليهم حرام، والكلام معهم حرام، ومجالستهم حرام.

قال القاضي الإمام رحمه الله: سمعت بعض المشايخ يقول: إنّ مع كلّ امرأة شيطاناً، ومع كلّ غلام ثمانية عشر شيطاناً.

ورُوي: مَنْ قبّل غلاماً بشهوةٍ عذّبه الله تعالى في النار خمسمائة عام، ومن قبّل امرأة بشهوة، فكأنما زنى بسبعين بكراً، ومن زنى بالبكر، فكأنما زنى بسبعين ألف ثيب.

وفي «رونق التفاسير» قال الكلبي: إن أوّل من عمل عمل قوم لوط إبليس لعنه الله، فتصوَّر لهم في صورة غلام أمردٍ جميلٍ، ثم دعاهم إلى نفسه، فنكحوه، فصار ذلك عادةً لهم في كلّ غريب، فأُرسِل لهم لوط عليه السلام، فنهاهم عن ذلك، ودعاهم إلى عبادة الله، وتوعَّدهم على إصرار المعصية بعذاب الله، فقالوا له: ﴿ائتنا بعذابِ اللهِ إنْ كنتَ من الصَّادقين﴾[1] فسأل لوط ربّه أنْ ينصره عليهم فقال: ﴿ربِّ انصرني على القومِ المُفسدين﴾[2] فأمر الله السماءَ أن تُمْطر عليهم الحجارة، مكتوبٌ على كلِّ حجر اسم من

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٢٩.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٣٠.

رُمي به، وهو معنى قوله: ﴿مُسوَّمة عِندَ رَبكَ﴾[١] أي مُعلَّمة، أي عليها علامةٌ في خزائن الله، أو في حكمه.

وحُكي: أنّ رجلاً تاجراً من قوم لوط كان بمكَّة، فجاء حجر ليصيبه في الحرم، فقالت الملائكة للحجر: ارجع من حيث جِئْتَ، فإن الرجل في حرم الله، فرجع الحجر، فوقف خارج الحرم أربعين يوماً بين السماء والأرض، حتى قضى الرجل تجارته، فلمَّا خرج أصابه الحجرُ خارجاً عن الحرم فأهلكه.

وكان لوط قد أخرج امرأته معه ونهى من تبعه أن لا يتلفتَ خلفه، إلا امرأة لوط، فإنها لمّا سمعتْ هذا العذاب التفتت وقالت: واقوماه! فأدركها حجر، فوقع على رأسها فقتلها.

قال مجاهد: لمّا أصبحوا غدا جبريل على قريتهم، وقلعها من أركانها، ثم أدخل جناحه، ثم حملها على خوافي جناحه بما فيها، ثُمَّ صعِدَ بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء صياح دِيَكَتهمْ، ونباح كلابهم، ثم قلبها، فكان أوّل ما سقط منها سُرادقها، فلم يُصِبْ قوماً ما أصابهم.

ثم إن الله طمس على أعينهم، ثم قُلبت قريتهم، وهي خمس مدائن أكبرها سدوم، وهي المؤتفكات المذكورة في سورة براءة[٢]. يقال: كان فيها أربعة آلاف ألف.

(١) سورة هود، الآية: ٨٣.

(٢) سورة التوبة. الآية: ٧٠. وهي قوله تعالى: ﴿ألَم يَأتِهم نَبأُ الَّذينَ مُن قَبلِهِم قوم نُوحٍ وَعَاد وَثَمُودِ وقوم إبراهِيمَ وأصحَاب مَديَنَ والمُؤتَفكاتِ أتَتهُم رُسُلُهُم بَالبيّناتِ فما كان الله ليظلمهُم ولَكن كَانُوا أنفُسَهم يَظلمُونَ﴾.

٢٣ ـ باب: في صلة الرحم وحقوق الوالدين

قال الله تعالى: ﴿واتَّقوا الله الَّذي تَسَاءَلون بِهِ الأرحَام﴾[١] أي: واتَّقوا الأرحام أن تقطعوها.

وقال تعالى: ﴿فَهل عَسَيتم إن تولَّيتم أن تُفسدوا في الأرضِ وتُقَطِّعوا أرحَامَكمْ * أولَئك الذين لَعَنَهُم اللهُ فأصمَّهم وأعمى أبصَارَهُم﴾[٢].

وقال الله تعالى: ﴿والذين ينقُضُونَ عهدَ اللهِ من بعد مِيثَاقه ويَقطعونَ ما أمرَ اللهُ بِهِ أن يوصلَ ويُفسِدُون في الأرضِ أولئكَ هُم الخَاسِرونَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿والذين ينقضون عهدَ اللهِ من بعد ميثاقِه ويقطعون ما أمرَ اللهُ به أن يُوصلَ ويُفسدُون في الأرضِ أولئكَ لهم اللعنة ولهم سوء الدَّار﴾[٤].

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى خلقَ الخلق حتى إذا فرَغَ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: نعم، أما ترضَين أن أصلَ من وصلك وأقطع مَنْ قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاك لك» ثم قال رسول الله ﷺ: «اقرؤوا إن شئتم ﴿فهل عَسَيتم إن تولَّيتم أن تُفسدوا في الأرضِ وتقطِّعوا أرحامَكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمَّهم وأعمى أبصارَهم﴾».

والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١.

(٢) سورة محمد، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٢٥.

عن أبي بَكْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من ذنبٍ أجدرُ» أي أحقُّ «أن يُعجِّلَ الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدَّخر له في الآخرة من البغي وقطيعةِ الرَّحِم».

والشيخان: «لا يدخل الجنَّة قاطع» قال سفيان: يعني قاطع رحم.

وأحمد بسندٍ رواتُه ثقات: «إن أعمالَ بني آدم تُعرض كلَّ خميس وليلةِ جمعة، فلا يُقبل عملُ قاطعِ الرحم».

والبيهقي: «إنه أتاني جبريل عليه السلام فقال: هذه ليلةُ النصف من شعبان، ولله فيها عتقاء من النار بعدد شعر غنم كلب[1]، لا ينظر الله فيها إلى مشركٍ، ولا إلى مُشاحنٍ، ولا إلى قاطع رحم، ولا إلى مُسبلٍ» أي إزاره خُيلاء. «ولا إلى عاق لوالديه، ولا إلى مُدمن خمر» الحديث.

وابن حِبّان وغيره: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مُدْمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدِّقٌ بالسحر».

وأحمد مختصراً، وابن أبي الدنيا، والبيهقي: «يبيت قومٌ من هذه الأمَّة على طُعم وشُرب ولهوٍ ولعب، فيصبحوا قد مُسخوا قِرَدةً وخنازيرَ، وليصيبنَّهم خَسْفٌ وقَذْفٌ حتى يُصبحَ الناس فيقولون: خُسف الليلة ببني فلان، وخُسف الليلة بدار فلان خواص، ولتُرْسلنَّ عليهم حجارةٌ من السماء كما أُرسلت على قوم لوط، على قبائل فيها، وعلى دور، ولتُرْسلنَّ عليهم الريحُ العقيم التي أهلكت عاداً، على قبائلَ فيها، وعلى دورٍ، بشربهم الخمر، ولبسهم الحرير، واتخاذهم القينات[2]، وأكلهم الربا، وقطيعتهم الرحم» وخصلة نسيها جعفر.

والطبراني في «الأوسط» عن جابر رضي الله عنه قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ ونحن مجتمعون فقال: «يا معشر المسلمين، اتقوا الله وصلِوا أرحامكم، فإنّه ليس من ثوابٍ أسرع من صلة الرحم، وإيّاكم والبغي فإنه ليس من عقوبةٍ أسرع من عقوبة بغي،

(١) غنم كلب: قبيلة عربية اشتهرت بكثرة أغنامها.
(٢) القينات: المغنيات.

وإيّاكم وعقوقَ الوالدين، فإن ريح الجنة يُوجد من مسيرة ألف عام، والله لا يجدها عاقٌ ولا قاطع رحم، ولا شيخ زان، ولا جارٌ إزارَه خُيَلاء، إنما الكبرياء لله رب العالمين».

والأصبهاني: كُنّا جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال: «لا يُجالسنا اليوم قاطع رحم» فقام فتىً من الحلقة فأتى خالة له قد كان بينهما بعض الشيء، فاستغفرَ لها، فاستغفرت له، ثم عاد إلى المجلس فقال النبي ﷺ: «إن الرحمةَ لا تنزلُ على قومٍ فيهم قاطع رحم».

وهذا مؤيّد لما رُوي أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يحدِّث عن رسول الله ﷺ فقال: أُحَرِّجُ على كلِّ قاطع رحم إلا قام من عندنا. فقام شاب إلى عمّة له قد صارمها[1] منذ سنين فصالحها، فسألته عن السبب فذكره لها، فقالت: ارجع واسأله لِمَ ذاك؟ فرجع فسأله فقال: لأنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الرحمةَ لا تنزل على قومٍ فيهم قاطعُ رحم».

والطبراني: «إن الملائكة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم».

والطبراني بسندٍ صحيح عن الأعمش قال: كان ابنُ مسعود رضي الله عنه جالساً بعد الصُّبح في حلقة فقال: أنشد الله قاطع رحمٍ لمّا قام عنّا، فإنّا نريد أن ندعو ربّنا، وإنَّ أبواب السماء مُرتَجة ـ أي: بضم ففتح، والجيم مخففة، مغلقة ـ دون قاطع رحم.

والشيخان: «الرحم معلّقةٌ بالعرش تقول: مَنْ وصلني، وصله الله، ومَنْ قطعني، قطعه الله».

وأبو داوود، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، واعترض تصحيحه بأنه منقطع، ورواية وصله، قال البخاري: خطأ.

عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عزّ وجلّ: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقتُ الرّحِم، وشققت لها اسماً من اسمي، فمَن وصلها وصلته، ومَنْ قطعها قطعته» أو قال: «بتتُّه أي: قطعته.

وأحمد بإسناد صحيح: «إن من أربى الرِّبا الاستطالة في عِرض المسلم بغير حقٍّ،

(١) صارمها: قاطعها.

وإنَّ هذه الرحم شِجْنة من الرحمن عزّ وجل فمن قطعها حرَّم الله عليه الجنة».

وأحمد بإسنادٍ جيّدٍ قوي، وابن حِبّان في «صحيحه»: «إن الرحم شِجْنة من الرحمن تقول: يا ربِّ إنّي قُطعت، يا ربِّ إنّي أسيءَ إليّ، يا ربِّ إني ظُلمت، يا رب يا رب، فيجيبها: ألا ترضين أن أصِلَ مَنْ وصلَك، وأقطع مَنْ قطعك».

و «الشِّجْنة»: بكسر أوله المعجم وضمه وإسكان الجيم: القرابة المشتبكة كاشتباك العروق.

ومعنى «من الرحمن»: أي مشتقٌ لفظها من لفظ اسمه «الرحمن» كما يأتي في الحديث على الأثر.

والبزّار بإسنادٍ حسن: «الرحم حَجَنة متمسّكة بالعرش تكلّم بلسان ذلق: اللهم صِلْ مَنْ وصلني، واقطع مَنْ قطعني، فيقول الله تبارك وتعالى: أنا الرحمن الرحيم، وإني شققت الرَّحم من اسمي، فمَنْ وصلها وصلته، ومَنْ بَتَكها بَتَكْتُهُ».

«الحَجَنة» بفتح الحاء المهملة، والجيم، وتخفيف النون: صنارة المغزل أي الحديدة العقفاء التي يُعلّق بها الخيط ثم يُفتل الغزل. والبَتْك: القطع.

والبزّار: «ثلاث متعلّقاتٌ بالعرش: الرَّحِم تقول: اللهم إنّي بك فلا أُقطع، والأمانةُ تقول: اللهم إنّي بك فلا أُخان، والنعمة تقول: اللهم إنّي بك فلا أُكفر».

والبزار، واللفظ له، والبيهقي: «الطابع[1] مُعَلّق بقائمة العرش، فإذا اشتكت الرحم، وعُمِل بالمعاصي، واجتُرِىء على الله تعالى، بَعث الله الطابع فيطبع على قلبه، فلا يعقلُ بعد ذلك شيئاً».

وأخرج الشيخان: «مَنْ كان يؤمن بالله، واليوم الآخر فليُكرم ضيفه، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رَحِمَه، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت».

وأخرجا أيضاً: «مَنْ أحبَّ أن يُبسط له في رزقه، ويُنسأ ـ أي: يؤخّر وهو بضم

---

(١) الطابع: الخاتم.

أوله، وتشديد ثالثه المهمل، وبالهمز ـ له في أثره ـ أي: أجله ـ فليَصل رحمه».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ سرَّه أن يُبسط له في رزقه، أو يُنسأ له في أثره فليصل رحمه».

رواه البخاري والترمذي ولفظه قال: «تعلَّموا من أنسابكم ما تصلونَ به أرحامكم، فإن صِلةَ الرَّحم محبَّةٌ في الأهل، مَثْراةٌ في المال، مَنسَأةٌ في الأثر». أي: بها الزيادة في العمر.

وعبد الله ابن الإمام أحمد في زوائد المسند، والبزّار بإسناد جيِّد، والحاكم: «مَنْ سرَّه أن يُمدَّ له في عمره، ويوسَّع له في رزقه، ويُدفع عنه مِيْتة السوء فليتّق الله وليَصِل رحمه».

والبزّار بإسناد لا بأس به، والحاكم وصحّحه أنه ﷺ قال: «مكتوبٌ في التوراة: مَنْ أحبَّ أن يُزادَ عُمرُه وفي رزقه فلْيَصِل رحِمه».

وأبو يعلى: «إنَّ الصَّدقةَ وَصِلَةَ الرَّحِم يزيد اللهُ بهما في العمر، ويدفع بهما مِيْتة السوء، ويدفع بهما المكروه والمَحذور».

وأبو يعلى بإسنادٍ جيِّد، عن رجلٍ من خَثْعم قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو في نفرٍ من أصحابه فقلت: أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟ قال: «نعم»، قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال: «الإيمان بالله» قلت: يا رسول الله ثم مه؟ قال: «صلة الرَّحِم» قلت: يا رسول الله أيُّ الأعمال أبغضُ إلى الله؟ قال: «الإشراك بالله» قلت: يا رسول الله ثم مه؟ قال: «قطيعة الرحم» قلت: ثم مه؟ قال: «ثم الأمر بالمُنْكر والنهي عن المعروف».

والبخاري ومسلم، واللفظ له: عَرَض أعرابيٌّ لرسول الله ﷺ وهو في سفر، فأخذ بخِطام ناقته، أو بزمامها ثم قال: يا رسول الله، أو يا محمد أخبرني بما يقرِّبني من الجنّة، ويُباعدني من النار؟ فكفَّ النبيُّ ﷺ ثم نظرَ في أصحابه ثم قال: «لقد وُفق هذا، أو لقد هُدي» قال: «كيف قلت؟» فأعادها، فقال النبيُّ ﷺ «تعبدُ الله لا تُشركُ به شيئاً، وتُقيم الصلاة، وتُؤتي الزكاة، وتصل الرحم، دعِ الناقة» وفي رواية: «وتصل ذا رحمك». فلمّا أدبر، قال رسول الله ﷺ: «إن تمسّك بما أمرته به دخل الجنة».

والطبراني بإسناد حسن: «إن الله ليعمر بالقوم الديار، ويُنمي لهم الأموال، وما نظر إليهم منذ خلقهم بغضاً لهم» قيل: وكيف ذاك يا رسول الله؟ قال: «بصلتهم أرحامهم».

وأحمد بسندٍ رواتُه ثقات، إلا أنَّ فيه انقطاعاً: «إنه من أعطي الرفق فقد أُعطي حظَّه من خيرِ الدنيا والآخرة، وصلةُ الرَّحم، وحسن الجوار، وحسن الخلق يَعْمرن الديار، ويزدنَ في الأعمار».

وأبو الشيخ، وابن حِبّان والبيهقي: يا رسول الله، مَنْ خير الناس؟ قال: «أتقاهم للربِّ، وأوصلهم للرحم، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر».

والطبراني، وابن حِبّان في «صحيحه»، واللفظ له: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: أوصاني خليلي ﷺ بخصالٍ من الخير: أوصاني أن لا أنظرَ إلى من هو فوقي، وأن أنظرَ إلى من هو دوني، وأوصاني بحبِّ المساكين والدنوِّ منهم، وأوصاني أن أصِلَ رحمي وإن أدبرتْ، وأوصاني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأوصاني أن أقولَ الحقَّ وإن كان مُرّاً، وأوصاني أن أُكثر من لا حول ولا قوّة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة.

والشيخان، وغيرهما: عن ميمونة رضي الله عنها أنها أعتقت وليدةً لها ولم تستأذنِ النبيَّ ﷺ، فلما كان يومها الذي يدور عليها فيه قالت: أشعرتَ يا رسول الله أني أعتقتُ وليدتي؟ قال: «أوَ فعلتِ؟» فقالت: نعم. قال: «أما إنَّكِ لو أعطيتها أخوالك كان أعظمَ لأجرك».

وابن حبّان والحاكم: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: إنّي أذنبتُ ذنباً عظيماً فهل لي من توبة؟ قال: «هل لك من أمٍّ؟» قال: لا. قال: «وهل لك من خالةٍ؟» قال: نعم. قال: «فبِرَّها».

والبخاري، وغيره: «ليس الواصلُ بالمكافىء، ولكنَّ الواصلَ الذي إذا قَطعت رحِمُه وصلها».

والترمذي، وقال: حسن «لا تكونوا إمَّعَةً تقولون: إن أحسن الناس أحسنَّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطِّنوا أنفسَكم إن أحسن الناسُ أن تُحسنوا، وإن أساؤوا أن لا

تظلموا».

و «الإمَّعة»: بكسر ففتح، وتشديد، فمهملةٍ: هو الذي لا رأيَ له، فهو يتَّبع كلَّ واحدٍ على رأيه.

وفي مسلم: يا رسولَ الله، إنَّ لي قرابةً أصِلُهم ويقطعوني، وأُحْسن إليهم ويُسيؤون إليَّ، وأحلُم عليهم، ويجهلون عليّ. فقال: «إن كنتَ كما قلت فكأنَّما تُسفُّهم المَلّ ـ أي: بفتح وتشديدٍ، الرَّماد الحار ـ ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمت على ذلك».

والطبراني، وابن خزيمة في «صحيحه»، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم: «أفضلُ الصدقة صدقةٌ على ذي الرَّحِم الكاشح» أي الذي يُضمر عداوته في كشحه، أي: خصره، كناية عن باطنه. وهو معنى قوله ﷺ «وتصل من قطعك».

والبزَّار والطبراني والحاكم وصححه، واعتُرِضَ بأن فيه واهياً: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه حاسبه الله حساباً يسيراً، وأدخله الجنَّة برحمته» قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «تُعطي مَنْ حَرَمك، وتصِلُ مَنْ قطعك، وتعفو عمَّن ظلمك، فإذا فعلت ذلك يُدْخلك الجنة».

وأحمد بإسنادين أحدُهما رواته ثقات، عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيتُ رسولَ الله ﷺ فأخذت بيده فقلتُ: يا رسولَ الله أخبرني بفواضل الأعمال؟ فقال: «يا عقبة، صل من قطعك، وأعط من حرمك، واعفُ عمَّن ظلمك».

زاد الحاكم «ألا ومَن أراد أن يُمدَّ في عُمره، ويُبْسطَ في رزقه فليَصِل رحمه».

والطبراني بسندٍ محتجٍ به: «ألا أدلُّك على أكرمِ أخلاق الدنيا والآخرة؟ أن تصل مَنْ قطعك، وتُعطي مَنْ حَرَمَك، وأن تعفو عمَّن ظلمك».

والطبراني: «إن أفضلَ الفضائل أن تصلَ مَنْ قطعك، وتُعطيَ مَنْ حَرَمك، وتصفحَ عمَّن شتمك».

والبزَّار: «ألا أدلُكم على ما يرفع الله به الدرجات ـ وفي رواية للطبراني ـ ألا أنبئكم بما يُشرِّف الله به البنيان، ويرفع به الدرجات؟» قالوا: نعم يا رسول الله. قال:

«تحلُم على من جهلَ عليك، وتعفو عمَّن ظلمك، وتُعطي مَنْ حرمك، وتصِل مَنْ قطعك».

وابن ماجه: «أسرعُ الخير ثواباً البِرُّ وصِلةُ الرَّحِم، وأسرع الشرِّ عقوبةَ البغي وقطيعة الرَّحم».

والطبراني: «ما من ذنبٍ أجدرُ أن يعجِّل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدَّخر له في الآخرة من قطيعة الرَّحِم، والخيانة، والكذب، وإن أعْجَلَ البِرِّ ثواباً لصلةُ الرَّحِم، حتى إنَّ أهلَ البيت ليكونون فَجَرةً فتنمو أموالهم، ويكثر عددهم إذا تواصلوا».



٢٤ ـ باب: في برّ الوالدين

أخرج الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: «الصلاة لوقتها» قلت: ثم أيّ؟ قال: «بِرُّ الوالدين» قلتُ: ثم أيّ؟ قال: «الجهاد في سبيل الله».

ومسلم وغيره: «لا يجزي ولد والده إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيَعْتِقَه».

ومسلم: أقبل رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: أبايعك على الهجرة والجهاد، أبتغي الأجر من الله تعالى. قال: «فهل من والديك أحدٌ حيٌّ؟» قال: نعم، بل كلاهما حيٌّ. قال: «فتبتغي الأجر من الله؟» قال: نعم. قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما».

وأبو يعلى، والطبراني بسندٍ جيد: أتى رجلٌ رسول الله ﷺ فقال: إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه. قال: «هل بقي من والديك أحد؟» قال: أمي. قال: «فاسأل الله في برّها، فإذا فعلت ذلك فأنت حاجٌّ ومعتمرٌ ومجاهدٌ».

والطبراني: يا رسولَ الله إنيّ أريد الجهاد في سبيل الله. قال: «أمُّك حيَّةٌ؟». قال: نعم. قال ﷺ: «الزم رجلها فثمَّ الجنة».

وابن ماجه: يا رسول الله ما حقُّ الوالدين على ولدهما؟ قال: «هما جنتُك ونارك».

وابن ماجه، والنسائي واللفظ له، والحاكم وصحّحه: يا رسول الله، أردت أن أغزو، وقد جئتُ أستشيرك. فقال: «هل لك من أمّ؟» قال: نعم. قال: «الزمها فإنَّ الجنة عند رجليها».

وفي روايةٍ صحيحةٍ: «ألك والدان؟» قال: نعم. قال: «الزمهما، فإنّ الجنة تحت أرجلهما».

والترمذي وصححه عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنَّ رجلاً أتاه فقال: إن لي امرأة،

وإنّ أمي تأمرني بطلاقها. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوالد أوسط أبواب الجنة، فإن شئتَ فأضعْ ذلك الباب، أو احفظه».

وابن حِبّان في «صحيحه» أنَّ رجلاً أتى أبا الدرداء فقال: إن أبي لم يزل بي حتى زوَّجني، وإنه الآن يأمرني بطلاقها. قال: ما أنا بالذي آمرك أن تعقَّ والديك، ولا بالذي آمرك أن تطلق زوجتك، غير أنك إن شئتَ حدَّثتُك بما سمعت من رسول الله ﷺ سمعته يقول: «الوالد أوسط أبواب الجنة، فحافظ على ذلك إن شئت أو دع».

قال: وأحسب عطاء قال: فطلَّقَها.

وأصحاب السنن الأربعة، وابن حِبّان في «صحيحه» وقال الترمذي: حديث حسن صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان تحتي امرأة أحبُّها، وكان عمر يكرهها فقال لي: طلّقها، فأبيت. فأتى عمر رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، فقال لي رسول الله ﷺ: «طلِّقْها».

وأحمد بسندٍ صحيح: «من سرَّه أن يُمدَّ له في عمره، ويُزادَ في رزقه فليبرَّ والديه، وليصِل رحمه».

وأبو يعلى، وغيره وصحَّحه الحاكم: «مَنْ برَّ والديه طوبى له، زاد الله في عمره».

وابن ماجه، وابن حِبّان في «صحيحه»، واللفظ له، والحاكم وصحَّحه «إن الرجل ليُحْرم الرزقَ بالذنب يُصيبه، ولا يردُّ القدرَ إلا الدُّعاء، ولا يزيد في العمر إلا البرُّ».

وفي رواية للترمذي وقال: حسن غريب «لا يردُّ القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البرّ».

والحاكم وصحَّحه: «عُفُّوا[1] عن نساء الناس، تعفّ نساؤكم، وبرُّوا آباءكم تبرُّكم أبناؤكم، ومن أتاه أخوه متنصِّلاً فليقبل ذلك محقاً كان أو مبطلاً، فإنْ لم يفعل، لم يَرِد عليَّ الحوض».

والطبراني بإسناد حسن: «برُّوا آباءكم تبرّكم أبناؤكم، وعُفُّوا تعفّ نساؤكم».

---

(١) عُفُّوا: جمع عفّ: وهو كف عما لا يحل له من قول أو فعل، وهو عفّ وعفيف.

ومسلم: «رَغِم أنفُه، ثم رَغِم أنفُه، ثم رَغِم أنفُه» ـ أي: لصق بالرغام، وهو التراب من الذل ـ قيل: مَنْ يا رسول الله؟ قال: «مَنْ أدركَ والديه عند الكِبَر أو أحدَهما ثم لم يدخل الجنة» أو «لا يُدخلانه الجنة».

والطبراني بأسانيد أحدها حسن: صعِدَ النبيُّ ﷺ المنبر فقال: «آمين، آمين، آمين» ثم قال: «أتاني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، مَنْ أدرك أحد أبويه ثم لم يبرّهما فمات فدخل النار فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين. فقال: يا محمد مَنْ أدرك شهر رمضان فمات فلم يُغفر له فأدخل النار، فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين. قال: ومَنْ ذُكرتَ عنده فلم يصلِّ عليك فمات فدخل النار، فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين».

ورواه ابن حبان في «صحيحه» إلا أنه قال فيه: «من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل النار، فأبعده الله، قل: آمين، فقلت: آمين».

ورواه الحاكم وغيره وقال في آخره: «فلما رقيت الثالثة قال: بَعُدَ مَنْ أدرك أبويه الكِبَر عنده أو أحدهما فلم يُدخلاه الجنَّة، قلت: آمين».

ورواه الطبراني وفيه «مَنْ أدركَ والديه أو أحدَهما فلم يبرَّهما دخل النار، فأبعده الله وأسحقه، قلت: آمين».

وأحمد من طرق أحدها حسن: «مَنْ أعتق رقبةً مسلمةً فهي فداؤه من النار، ومَنْ أدرك أحدَ والديه ثم لم يُغفر له فأبعده الله».

زاد في رواية: «وأسحقه».

والشيخان: يا رسولَ الله، مَنْ أحقُّ الناس بحُسْن صحابتي؟ قال: «أمُّك» قال: ثم مَنْ؟ قال: «أمُّك» قال: ثم مَنْ؟ قال: «أمُّك» قال: ثم مَنْ؟ قال: «أبوك».

والشيخان عن أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدِمتْ عليَّ أمي وهي مُشركة في عهدِ رسول الله ﷺ، فاستفتيتُ رسولَ الله ﷺ فقلت: قدِمتْ عليَّ أمي وهي راغبة ـ أي عن الإسلام، أو فيما عندي ـ أفأصِلُ أمّي؟ قال: «نعم، صلي أمَّك».

وابن حبَّان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم: «رضا الله في رضا الوالد» أو قال: «الوالدين، وسخط الله في سخط الوالد» أو قال: «الوالدين».

وفي رواية للطبراني: «طاعة الله في طاعة الوالد» أو قال: «الوالدين، ومعصيته في معصية الوالد» أو قال: «الوالدين».

وفي أخرى للبزّار: «رضا الربّ تبارك وتعالى في رضا الوالدين، وسخط الربّ تبارك وتعالى في سخط الوالدين».

والترمذي واللفظ له، وابن حِبّان في «صحيحه»، والحاكم وقال: صحيح على شرطهما: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: إني أذنبت ذنباً عظيماً، فهل لي من توبة؟ قال: «هل لك من أمٍّ؟» قال: لا. قال: «فهل لك من خالة؟» قال: نعم. قال: «فبرَّها».

وأبو داود، وابن ماجه: يا رسول الله هل بقي من برِّ أبويَّ شيء أبرُّهما به بعد موتهما؟ قال: «نعم، الصلاة عليهما» ـ أي: الدُّعاء لهما، والاستغفار لهما ـ وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصِلَة الرَّحِم التي لا تُوصَلُ إلا بهما، وإكرام صديقهما».

ورواه ابن حِبّان في «صحيحه» بزيادة: قال الرجل: ما أكثرَ هذا يا رسولَ الله وأطيبه! قال: «فاعمل به».

ومسلم: أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لقيه رجلٌ من الأعراب بطريق مكّةَ، فسلم عليه عبد الله بن عمر، وحمله على حمارٍ كان يركبه، وأعطاه عمامةً كانت على رأسه. قال ابن دينار: فقلنا: أصلحك الله، إنّهم الأعرابُ، وهم يرضون باليسير. فقال عبد الله بن عمر: إن أبا هذا كان ودوداً لعمر بن الخطاب، وإنّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إن أبرَّ البِرِّ صِلة الولد أهل ودِّ أبيه».

وابن حِبّان في «صحيحه»، عن أبي بُردة رضي الله عنه قال: قدمت المدينة، فأتاني عبد الله بن عمر فقال: أتدري لمَ أتيتك؟ قلت: لا. قال: فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أحبَّ أن يَصِلَ أباه في قبره، فليصل إخوان أبيه بعده» وإنه كان بين أبي عمر وبين أبيك إخاءٌ وودٌّ، فأحببت أن أصلِ ذلك.

وفي حديث الصحيحين وغيرهما المشهور بروايات متعدّدة: «أنَّ ثلاثة نفر ممَّن كان قبلنا خرجوا يتماشون ويرتادون لأهليهم، فأخذهم المطر حتى أووا إلى غارٍ في الجبل، فانحدرت على فمه صخرة فسدَّته، فقالوا: إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن

تدعوا بصالح أعمالكم».

وفي رواية: «فقال بضعهم لبعضٍ: انظروا أعمالاً عملتموها لله عزّ وجلّ صالحةً فادعوا الله بها لعلّه يفرّجها».

وفي أخرى: «فقال بعضهم لبعض: عفى الأثرُ، ووقع الحجر، ولا يعلم بمكانكم إلا الله، فادعوا الله بأوثق أعمالكم، فقال أحدهم: اللهم، إنّه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طلب شجرٍ يوماً، فلم أرُح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، فكرهتُ أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثتُ والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهك ففرّج عنّا ما نحن فيه من الصخرة. ففرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج».

وفي رواية: «ولي صِبيةٌ صغار كنت أرعى، فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالديَّ أسقيهما قبل ولدي، وأنه نأى بي طلبُ شجرةٍ يوماً، فما أتيت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحِلاب، فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدأ بالصِّبية قبلهما، والصِّبية يتضاغون[1] عند قدميَّ، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهما حتى طلع الفجر، فإن كنتَ تعلم أني قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء. ففرج الله لهم فرجة حتى رأوا منها السماء». وذكر الآخر عِفَّته عن الزنا بابنة عمّه، والآخر تنميته لمالِ أجيرٍ، فانفرجت عنهم كلُّها، وخرجوا يتماشون.

---

(١) يتضاغون: يتصايحون ويبكون.

٢٥ ـ باب: في الزكاة والبُخْل

قال الله تعالى: ﴿ولا يَحْسبنَّ الَّذين يَبْخَلون بما آتاهم اللهُ من فضلِهِ هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم سيُطوَّقون ما بَخِلوا به يومَ القيامة﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَوَيلٌ للمُشرِكِينَ * الَّذين لا يُؤتُون الزَّكَاة﴾[٢]. سمَّاهم المشركين.

وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحدٍ لا يُؤدي زكاة ماله إلاَّ مُثِّل له يوم القيامة شجاعاً أقرعَ حتى يطوَّق به عنقه».

وقال رسول الله ﷺ: «يا معشر المهاجرين خمس خصالٍ إن ابتليتم بهن، ونزلت بكم، أعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشةُ في قوم قطُّ حتى يُعلنوا بها إلا فشا[٣] فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، ولم يُنقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدَّة المؤنة، وجَوْر السلطان، ولم يمنعوا زكاةَ أموالهم إلا مُنِعوا المطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطروا، ولا نقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سُلِّط عليهم عدوٌّ من غيرهم فيأخذ بعضَ ما في أيديهم، وما لم يحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم[٤] بينهم».

وقال ﷺ: «إن الله يُبغض البخيلَ في حياته السخيَّ عند موته».

وقال ﷺ: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن: البخلُ وسوءُ الخُلق».

وقال ﷺ: «أقسم الله تعالى أن لا يُدخل الجنة بخيل».

وقال ﷺ: «إيَّاكم والبخلَ فإن البخل دعا قوماً فمنعوا زكاتهم، ودعاهم فقطعوا أرحامهم، ودعاهم فسفكوا دماءهم».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.
(٢) سورة فصلت، الآيتان: ٦ ، ٧.
(٣) فشا: إنتشر.
(٤) البأس: الشدة في الحرب.

وقال ﷺ: «خَلَقَ الله اللؤم فحفَّه بالبخل والمال».

وسئل الحسن رضي الله عنه عن البخل فقال: هو أن يرى الرجل ما أنفق تلفاً، وما أمسكَ شرفاً.

وأصل البخل حُبُّ المال، وطول الأمل، وخوف الفقر، وحُبُّ الولد.. ففي الحديث «الولد مَجْبنة مَبْخلة».

ومن الناس من لا يسمح بأداء زكاة ماله، ولا بالإحسان إلى نفسه وعياله، وإنما لذَّته ورغبته في رؤية دنانيره، وكونها في قبضته، وهو عالم أنه يموت. وفي مثله يقول الشاعر:

أأخَيَّ إنَّ من الرجالِ بهيمةً ... في صورةِ الرجل اللبيب المُبصر
فَطِنٌ بكلِّ مُصيبةٍ في ماله ... فإذا أُصيب بدينه لم يَشعُرِ

وقال آخر:

البخل داءٌ قويٌّ لا يليق بذي ... مروءةٍ لا ولا عقلٍ ولا دين
من آثرَ البخلَ عن وفرٍ وعن جِدَةٍ ... فقد لعَمري أضحى وهو مغبون
يا بؤسَ من منع الداريىن حقَّهما ... فباعَ دُنياه بعد الدين بالدون

وقال آخر:

إذا المال لم ينفع صديقاً ولم يُصِب ... قريباً ولم يُجْبَر به حالُ مُعْدَمِ
فعقباه أن تحتازه كفُّ وارثٍ ... وللباخل الموروث عُقبي التندُّمِ

وقال بشر: لقاء البخيل كربٌ[1]، والنظر إليه يُقسِّي القلب.

وكانت العرب تتعاير بالبخل والجبن، وقال الشاعر:

أنفقْ ولا تخشَ إقلالاً فقد قُسمت ... على العباد من الرَّحمنِ أرزاقُ
لا ينفعُ البخلُ مع دنيا مولية ... ولا يضرُّ مع الإقبالِ إنفاقُ

وقال آخر:

(١) كَرْبٌ: الكرب هو الهمّ والحزن والغَمُّ يأخذ بالنفس.

أرى الناسَ خلّانَ[1] الجوادِ ولا أرى بخيلاً له في العالمين خليلُ
وإني رأيتُ البخلَ يُزري بأهله فأكرمتُ نفسي أن يُقال بخيلُ

وكفى بالبخيل خِسةً[2] أن يجمع لغيره، ويحتمل معرّة ضيره، ولا ينال لذّة وفره وخيره. وفي مثله يقول وكيع:

لئيمٌ لا يزال يلم وِفرا لوارثه ويدفع عن حماه
ككلبِ الصيد يمسك وهو طاوٍ فريسته ليأكلها سواه

وفي الحكم المنثورة: بشِّر مال البخيل بحادثٍ أو وارث.

وقال أبو حنيفة رحمه الله: لا أرى أن أُعدِّلَ بخيلاً، لأنَّ البخل يحمله على الاستقصاء، فيأخذ فوق حقّه خيفةً من أن يُغْبَن. فمن كان هكذا لا يكون مأمونَ الأمانة.

ولقي يحيى عليه السلام إبليسَ فقال له: يا إبليس، أخبرني بأحبِّ الناس إليك، وأبغضِ الناس إليك. قال: أحَبُّ الناس إليّ المؤمن البخيل، وأبغضُ الناس إليَّ الفاسق السخيّ. قال له: لماذا؟ قال: لأنَّ البخيل قد كفاني بخله، والفاسق السخي أتخوَّف أن يطّلعَ الله عليه في سخائه فيقبله، ثم ولّى وهو يقول: لولا أنك يحيى لما أخبرتك.

---

(١) خلّانَ: تثنية خلّ: وهو الصاحب الوفيّ.
(٢) خِسّة: وخساسة: احتقر وفعل الخسيس.

٣٦ ـ باب: في طول الأمل

قال ﷺ: «أخوفُ ما أخاف عليكم اثنتان: طُول الأمل، واتِّباع الهوى، وإن طُول الأمل يُنسي الآخرة، واتِّباع الهوى يصدُّ عن الحقِّ».

وقال ﷺ: «أنا زَعيم[1] لثلاثةٍ بثلاثة للمكِبِّ على الدنيا، والحريص عليها، والشحيح[2] بها بفقرٍ لاغنى بعده، وشُغلٍ لا فراغ منه، وهمٍّ لا فرج معه».

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه أشرفَ على أهل حمص فقال: ألا تستحيون؟ تبنون ما لا تسكنون، وتأملون ما لا تدركون، وتجمعون ما لا تأكلون. إن الذين كانوا قبلكم بنوا شديداً، وجمعوا كثيراً، وأمّلوا بعيداً، فأصبحت مساكنهم قبوراً، وآمالهم غروراً، وجمعهم بوراً.

وقال علي بن أبي طالب لعمر رضي الله عنهما: إذا أردتَ أن تلقى صاحبيك فارقع قميصك، واخصِفْ نعلك، واقصر أملك، وكُلْ دون الشّبَع.

وأوصى آدم ابنه شيثا عليهما السلام بخمسة أشياء، وأمره أن يُوصيَ أولادَه من بعده.

أوّلها: قال له: قل لأولادك: لا تطمئنوا للدنيا فإني اطمأننت بالجنة الباقية، فأخرجني الله منها.

والثاني: قل لهم: لا تعملوا بهوى نسائكم، فإني عملت بهوى امرأتي، وأكلت من الشجرة، فلحقتني الندامة.

والثالث: قل لهم: كُلُّ عمل تريدونه فانظروا عاقبته، فإنِّي لو نظرتُ عاقبةَ الأمرِ لم يُصبني ما أصابني.

---

(١) زعيم: كفيل.
(٢) الشحيح: البخيل.

والرابع: إذا اضطربتْ قلوبُكم بشيء فاجتنبوه، فإني حين أكلتُ من الشجرة اضطربَ قلبي فلم أرجع، فلحقني الندم.

والخامس: استشيروا في الأمور، فإني لو شاورتُ الملائكة لم يصبني ما أصابني.

وقال مجاهد: قال لي عبد الله بن عمر: إذا أصبحتَ فلا تُحدِّث نفسك بالمساء، وإذا أمسيتَ فلا تُحدِّث نفسك بالصباح، وخُذْ من حياتك قبل موتك، ومن صِحَّتك قبل سقمك[1]، فإنك لا تدري ما اسمك غداً.

وقال ﷺ لأصحابه: «أيريد كلُّكم أن يدخل الجنة؟» قالوا: نعم يا رسول الله. قال: «قصِّروا الأملَ، واستحيوا من الله حقَّ الحياء» قالوا: كلُّنا نستحي من الله تعالى. قال: «ليس ذلك بالحياء ولكن الحياء من الله تعالى أن تذكروا المقابر والبِلى، وتحفظوا الجوف وما وعى، والرأسَ وما حوى» ومن يشتهي كرامة الآخرة، يدع زينةَ الدنيا، فهنالك استحياءُ العبد من الله حقَّ الحياء، وبها يُصيب العبد ولاية الله تعالى.

وقال ﷺ: «صلاح أوّل هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخرها بالبخل والأمل».

ورُوي عن أم المنذر أنها قالت: طلع رسول الله ﷺ ذات عشيةٍ إلى الناس فقال: «أيُّها الناس! أما تستحيون من الله؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «تجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، وتبنون ما لا تسكنون»..

وعن أبي سعيد الخدري قال: اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدةً بمائة دينار إلى شهر، فسمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر؟ إنَّ أسامةَ لطويلُ الأمل.

والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفويَّ لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي، ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعه حتى أُقبض، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أني لا أسيغها حتى أغصَّ بها من الموت» ثم قال: «يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدُّوا أنفسكم من الموتى، والذي نفسي بيده إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين».

---

(١) السَقَمُ: هو المرض.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ كان يخرج يهريق الماء فيتمسَّح بالتراب، فأقول له: يا رسول الله، إن الماء منك قريب. فيقول: «ما يُدريني؟ لعلي لا أبلغه».

ورُوي أنه ﷺ أخذ ثلاثة أعواد، فغرز عوداً بين يديه، والآخر إلى جنبه، وأما الثالث فأبعده، فقال: «هل تدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا الإنسان، وهذا الأجل، وذاك الأمل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل».

وقيل بينما عيسى عليه السلام جالس، وشيخ يعمل بمسحاةٍ يثير بها الأرض فقال عيسى: اللهم انزع منه الأمل، فوضع الشيخ المِسحاة واضطجع، فلبث ساعة.

فقال عيسى: اللهم ازدُد عليه الأمل. فقام فجعل يعمل. فسأله عيسى عن ذلك فقال: بينما أنا أعمل إذ قالت لي نفسي: إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير؟ فألقيت المسحاة واضطجعت، ثم قالت لي نفسي: والله لا بد لك من عيش ما بقيت، فقمت إلى مِسحاتي.

٢٧ ـ باب: في ملازمة الطاعة وترك الحرام

معنى الطاعة: القيام بفروض الله تعالى، والاجتناب لمحارمه، والوقوف عند حدوده.

قال مجاهد في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ولا تنسَ نصيبَكَ من الدُّنيا﴾[١] هو أن يعمل العبد بطاعة الله تعالى.

واعلم أن أصل الطاعة العلم بالله، والخوف من الله، والرجاء في الله، والمراقبة لله. فإذا تجرّد العبد عن هذه الخصال لم يدرك حقيقة الإيمان، لأنّه لا تصحُّ الطاعة لله إلا بعد العلم به، والإيمان بوجوده خالقاً عالماً قادراً لا يُحيط به علم، ولا يتصوَّره وهم ﴿ليسَ كمثله شيءٌ وهو السَّميع البَصير﴾[٢].

قال أعرابي لمحمد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم: هل رأيتَ الله حين عبدته؟ قال: لم أكن أعبد من لم أره. قال: كيف رأيته؟ قال: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، لكن رأته القلوب بحقيقة الإيمان، لا يُدْرَك بالحواس، ولا يُشبَّه بالناس، معروف بالآيات، منعوت بالعلامات، لا يجور في القضيات، ذلك الله لا إله إلا هو ربُّ الأرض والسماوات. فقال الأعرابي: الله أعلم حيث يجعل رسالاته.

سُئِل بعض العارفين عن علم الباطن فقال: هو سرٌّ من أسرار الله يقذفه في قلوب أحبابه، لم يطلع عليه ملَكاً ولا بشراً.

سئل بعض العارفين عن علم الباطن فقال، هو سر من أسرار الله يقذفه في قلوب أحبابه لم يطلع عليه ملكاً ولا بشراً.

رُوي أن كعب الأحبار قال: لو أنَّ بني آدم بلغوا من اليقين مثقال حبَّةٍ من عظمة الله

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٧.

(٢) سورة الشورى: الآية: ١١.

عزَّ وجلَّ لمشوا على الماء والريح.

فسبحان من جعل الإقرار بالعجز عن إدراك معرفته إيماناً، كما جعل إقرار المنعَمِ عليه بالعجز عن إدراك شكره شكراً. قال محمود الورّاق:

إذا كان شُكري نعمةَ الله نعمةً ... عليَّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتَّصل العمر
إذا مسَّ بالسَّراء عمَّ سرورُها ... وإن مسَّ بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلاّ له فيه نعمةٌ ... تضيقُ لها الأوهامُ والبَرُّ والبحر

وإذا ثبت العلم بالربوبية تعيَّن الإقرارُ بالعبودية، وإذا تقرَّر الإيمان في القلب وجبت الطاعة للربِّ.

والإيمان نوعان: ظاهر وباطن. فالظاهر النطق باللسان، والباطن الاعتقاد بالقلب.

والمؤمنون متباينون في منازل القرب، متفاوتون في درجات الطاعة. والإيمان جامع لهم بقدر حظِّ كلِّ واحدٍ منهم من الموهبة، وتمكُّنه من عُلوِّ المرتبة في الإخلاص لله، والتوكُّل عليه، والرضا بحُكمه.

فأمّا الإخلاص: فألا يطلب العبد بما يعمل جزاءً من الخالق **﴿والله خلقكم وما تعملون﴾**[١] فإن كانت الطاعة رجاءً للمثوبة، وخوفاً من العقوبة فذلك العبدُ لا يكون كاملَ الإخلاص، فإنه لنفسه سعى.

رُوي أنه ﷺ قال: «لا يكنْ أحدُكم كالكلب السوء، إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء، إن لم يُعط أجراً لم يعمل».

وقال تعالى: **﴿ومن الناسِ من يعبدُ الله على حَرْفٍ فإنْ أصابَهُ خيرٌ اطمأنَّ به وإن أصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقلبَ على وجهه خسرَ الدُّنيا والآخرة﴾**[٢].

وإنّما تعيَّنت علينا عبادته، ووجبت طاعته بما سبق له من الفضل علينا، وتقدَّم له

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٩٦.

(٢) سورة الحج، الآية: ١١.

من الإحسان إلينا، فضلاً عن كونه أمرنا بها ليرتِّب الجزاء عليها فضلاً ويجازي من ضلَّ عنها عدلاً.

وأمَّا التوكُّل فهو الاعتماد على الله سبحانه عند الحاجة، والاستناد إليه مع الضرورة، والثقة به عند النازلة، مع سكون النفس، وطمأنينة القلب. فالمتوكِّلون على ربِّهم علموا أنَّه المُقدِّر، والأسباب تحت حُكم الخالق المدبِّر، لا يركنون لآباء ولا أبناء، ولا أموالٍ ولا صنائع، بل صرفوا بهَدْيه جميع الأمور إليه، ولم يعتمدوا في حالٍ من الأحوال إلا عليه ﴿ومن يتوكَّل على اللهِ فهو حسبُهُ﴾[1].

وأمَّا الرِّضا: فهو طِيْب النفس بما يجري به المقدور.

قال بعض العلماء: أقربُ الناس إلى الله أرضاهم بما قَسَمَ لهم.

ومن كلام الحكماء: رُبَّ مَسَرَّةٍ هي الداء، ومرضٍ هو الشفاء. كما قال:

كم نعمةٍ مطويةٍ لك بين أنيابِ النوائب
ومَسَرَّةٍ قد أقبلتْ من حيث تُرتقبُ المصائب
فاصبرْ على حِدْثَانِ دهرك فالأمورُ لها عواقب
ولكلِّ كربٍ فرجةٌ ولكلِّ خالصةٍ شوائب

وحسبنا قول الله عزّ وجل: ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم﴾[2].

واعلم أنه لن يستكملَ العبدُ طاعةَ ربِّه إلا برفضِ الدنيا.

وفي بعض الحكم: أبلغ المواعظ ما لم يحجبها عن القلب حاجب، وهذه الحجب إنَّما هي عوارضُ الدنيا.

ومن كلامهم: الدنيا ساعة فاجعلها طاعة.

قال أبو الوليد الباجي:

إذا كنتُ أعلمُ علماً يقيناً بأن جميعَ حياتي كسَاعهْ
فلِمْ لا أكونُ ضنيناً بها وأجعلها في صلاحٍ وطاعهْ

---

(١) سورة الطلاق، الآية: ٣.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

وقال رجلٌ لرسول الله ﷺ: إنّي أكره الموت. قال: «ألك مال؟» قال: نعم قال: «قدِّم مالك، فإن المرءَ عند ماله».

ورُوي عن عيسى عليه السلام أنه قال: البِرُّ في ثلاثة: في النطق والنظر والصمت، فمن كان منطقه في غير ذكر الله فقد لغا، ومن كان نظرُهُ في غير اعتبارٍ فقد سها، ومن كان صمته في غيرِ فكرٍ فقد لها.

وترك الدنيا يكون باطِّراح الفكرةِ في أحوالها، وترك التمنِّي بلذاتها، فإن الفكرة تبعثُ الإرادة لتعلُّق النفس بالفِكْرة.

وليحذر من إرسال النظر فيما لا يحلّ، فإنه سهمٌ صائب، وسلطان غالب.

قال عليه الصلاة والسلام: «النظرةُ سهمٌ من سهام إبليس، فمن تركها مخافةَ الله تعالى أعقبه إيماناً يجدُ طعمَه في قلبه».

ومن كلام الحُكماء: مَنْ أطلقَ طرفَه[1] كثر أسفه.

إدمان النظر يكشف الخبر، ويفضح البشر، ويطول به المُكْث في سقر.

احفظ عينيك فإنك إن أطلقتهما أوقَعَتَاك في مكروهٍ، وإن ملكتهما ملكتَ سائرَ جوارحك.

قيل لأفلاطون: أيُّهما أشدُّ ضرراً بالقلب السمع أم البصر؟ قال: هما للقب كالجناحين للطائر لا يستقل إلا بهما، ولا ينهض إلا بقوتهما، وربما قُصَّ أحدهما فنهض الآخر على تعب ومشقة.

وقال محمد بن ضوء: كفى بالعبد نُقصاناً عند الله، وضَعةً عند ذوي العقول أن ينظر إلى كُلِّ ما يُسْنحَ له.

رأى بعض الزهّاد رجلاً يضحك إلى غلامٍ فقال له: يا خَرِب العقل والقلب، ويا خَرِب الطرْف! أما تستحي من كرامٍ كاتبين، وملائكةٍ حافظين، يحفظون الأفعال، ويكتبون الأعمال، وينظرون إليك، ويشهدون عليك بالبلاء الظاهر،

---

(١) الطرف: هو البصر.

والغِلّ[١] الدخيل المُخامر الذي أقمت نفسك فيه مقام من لا يبالي من وقفَ عليه، ونظر من الخلق إليه.

وللقاضي الأرجاني:

تمتعتما يا ناظريَّ بنظرةٍ فأوردتما قلبي أشرَّ الموارد
أعينايَ كُفَّا عن فؤادي فإنّه من البغي سعيُ اثنين في قتل واحد

وقال عليٌّ كرَّم الله وجهه: العيونُ مصائد الشيطان، والعين أنفذُ الجوارح سرعةً، وأشدُّها صَرعة، فمَنْ أتبع جوارحه نفسه في طاعة ربِّه فقد وصل أمله، ومَنْ أتبع جوارحه نفسه في نيل لذَّته فقد أحبط عمله. وأنشدوا:

إذا ما صفت نفس المُريد لطاعةٍ ولمَّا تَشُبْها للمعاصي شوائب
وأتبعها فعل الجوارح كلّها فتلك عليه أنعمٌ ومواهب
تلقته في دار الخلود كرامةٌ إذا جُبَّ للعاصي سنام[٢] وغارب[٣]

قال عبد الله بن المبارك: أصلُ الإيمان التصديق بما جاءت به الرسل، فمَنْ صدَّق القرآن خرج إلى العمل به، ونجا من الخلود في النار، ومَنِ اجتنب المحارم خرج إلى التوبة، ومَنْ أخذ القوت من حِلِّه خرج إلى الورع، ومَنْ أدَّى الفرائضَ صحَّ إسلامه، ومَنْ صدَق لسانُهُ سلم من التبعات، ومَنْ ردَّ المظالم نجا من القِصاص، ومَنْ أتى بالسنَن زَكَتْ أعماله، ومَنْ أخلص لله قُبل عمله.

ورُوي عن أبي الدرداء أنّه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أوصني. قال له: «اكتسبْ طيباً، واعمل صالحاً، وسَلِ الله رزقَ يومٍ ليوم، وعُدَّ نفسك من الموتى».

وليُحْذَرْ من الإعجاب بالعمل فإنّه من أعظم الآفات، وأحبطِ الأعمال. فإن المُعْجَب بعمله ممتنٌّ على ربّه، وما يدريه أقُبِل منه أم ردّ عليه.

ربَّ معصيةٍ أورثت ذُلاً وانكساراً خيرٌ من طاعة أورثت عِزّاً واستكباراً.

---

(١) الغِلّ: العداوة والحقد الكامن.
(٢) سنام: ما ارتفع عن الشيء.
(٣) غارب: هو الكاهل.

وليُحذر أيضاً من الرِّياء. قيل في قوله تعالى: **﴿وبَدا لُهم من اللهِ ما لَم يُكونُوا يَحْتَسِبون﴾**[١].

قيل: عملوا أعمالاً كانوا يرونها في الدنيا من الحسنات، فبدت لهم يوم القيامة من السيئات.

وكان بعض السلف إذا قرأ هذه الآية قال: ويل لأهل الرياء.

وقيل أيضاً في قوله تعالى: **﴿ولا يُشركُ بعبادةِ ربِّه أحداً﴾**[٢] أي: لا يظهرها رياءً، ولا يخفيها حياءً.

رُوي عن ابن مسعودٍ أنَّ آخر ما نزل من القرآن: **﴿واتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى اللهِ ثم تُوَفَّى كلُّ نفسٍ ما كَسبَتْ وهم لا يُظلَمُون﴾**[٣].

قال محمد بن بشير:

مضى أمسُك الأدنى شهيداً معدلاً ... ويومُك هذا بالفعال شهيدُ
فإن تكُ بالأمس اقترفت إساءةً ... فثنِّ بإحسانٍ وأنت حميد
ولا تُرْجِ فعلَ الخير منك إلى غد ... لعل غداً يأتي وأنت فقيد

وقال غيره:

تُعجِّلُ الذنبَ بما تشتهي ... وتأملُ التوبة في قابلِ
والموت يأتي بعد ذا غفلة ... ما ذاك فِعْلُ الحازم العاقلِ

وقال داود لسليمان عليهما السلام: يُسْتَدَلُّ على تقوى المؤمن بثلاث: حُسن التوكُّل فيما لم ينل، وحُسن الرضا فيما نال، وحُسن الصبر على ما قد فات.

وفي بعض الحِكم المنثورة: مَنْ صبر على البلاء، وصل إلى الوفاء. قال:

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٧.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١١٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

عليك بالصبر إن نابتك[1] نائبةٌ[2] من الزمان ولا تركنْ إلى الجزع
وإنْ تعرّضتِ الدنيا بزينتها فالصبرُ عنها دليلُ الخيرِ والورع
فجاهدِ النفسَ قسراً فيهما أبداً تلقَ الذي ترتجيه غيرَ مُمتنع

وقال آخر:

الصبر مفتاح ما يُرجَّى ولم يزل دائماً يعينُ
فاصبرْ وإن طالت الليالي فربَّما ساعدَ الحزون
وربَّما نِيلَ باصطبارِ ما قيل هيهاتَ لا يكون

وقال آخر:

الصبر أوثق عروةِ الإيمان ومَجنَّةٌ من نزغةِ الشيطانِ
الصبر فيه عواقبٌ محمودةٌ والطيشُ فيه عواقبُ الخسران
فإذا لقيتَ من الزمان ملمَّةً وكذاك فينا عادةُ الأزمان
فتدرَّع الصبرَ الجميلَ تيقّنا إن التصبُّر رائدُ الرضوان

والصبر له فروع: صبرٌ على الفرائض بالمواظبة عليها بكمالها في أحبِّ أوقاتها، وصبر على النوافل، وصبرٌ على أذى الأصحاب والجار، وصبرٌ على الأمراض، وصبرٌ على الفقر، والصبر عن المعاصي، وعن الشهوات، وعن الشبُهات، وعن فضول جميع جوارح البدن وغير ذلك.

(١) نابتك: أصابتك.
(٢) نائبة: مُصيبة أو همٌّ.

٢٨ ـ باب: في بيان ذكر الموت

قال رسول الله ﷺ: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات». معناه نغِّصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها، فتُقبلوا على الله تعالى.

وقال ﷺ: «لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابنُ آدم ما أكلتم منها سميناً».

وقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، هل يُحشر مع الشهداء أحد؟ قال: «نعم، مَنْ يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرّة».

وإنما سببُ هذه الفضيلة كلِّها أنَّ ذِكْر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور، ويتقاضى الاستعداد للآخرة. والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا.

وقال ﷺ: «تحفةُ المؤمن الموت». وإنّما قال هذا لأن الدنيا سجنُ المؤمن، إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه، ورياضة شهواته، ومُدافعة شيطانه. فالموت إطلاقٌ له من هذا العذاب، والإطلاق تحفةٌ في حقِّه.

وقال ﷺ: «الموتُ كفَّارة لكلِّ مسلم». وأراد بهذا المسلم حقاً، المؤمن صدقاً، الذي يَسْلَمُ المسلمون من لسانه ويده، ويتحقَّق فيه أخلاق المؤمنين، ولم يتدنَّس من المعاصي إلا باللَّمم[١] والصغائر، فالموت يطهِّره منها، ويكفِّرها بعد اجتنابه الكبائر، وإقامته الفرائض.

قال عطاء الخراساني: مرَّ رسول الله ﷺ بمجلس قد استعلى فيه الضحكُ فقال: «شوبوا[٢] مجلسَكم بذكر مكدِّر اللذّات» قالوا: وما مكدِّر اللذات؟ قال: «الموت».

وقال أنس رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «أكثروا من ذكر الموت فإنه يُمَحِّص الذنوب، ويزهِّد في الدنيا».

---

(١) اللَّمم: صغار الذنوب.
(٢) شُوبوا: اخلطوا.

وقال ﷺ: «كفى بالموت مفرّقاً».

وقال عليه السلام: «كفى بالموت واعظاً».

وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد، فإذا قومٌ يتحدَّثون ويضحكون فقال: «اذكروا الموت، أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً».

وذُكِر عند رسول الله ﷺ رجلٌ فأحسنوا الثناء عليه فقال: «كيف ذِكْرُ صاحبكم للموت؟» قالوا: ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت. قال: «فإن صاحبكم ليس هنالك».

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: أتيت النبيَّ ﷺ عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار: مَنْ أكْيَسُ الناس وأكرمُ الناس يا رسول الله؟ فقال: «أكثرهم ذِكْراً للموت، وأشدُّهم استعداداً له، أولئك هم الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا، وكرامة الآخرة».

وقال الحسن رحمه الله تعالى: فضحَ الموتُ الدنيا، فلم يترك لذي لُبٍّ فرحاً.

وقال الربيع بن خُثَيم: ما غائب ينتظره المؤمن خيراً له من الموت.

وكان يقول: لا تُشْعِروا بي أحداً، وسلُّوني إلى ربي سَلاً.

وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه: يا أخي، احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنَّى فيها الموت فلا تجده.

وكان ابن سيرين إذا ذُكِرَ عنده الموت، مات[1] كلُّ عضو منه.

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كلَّ ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة، ثم يبكون حتى كأنَّ بين أيديهم جنازة.

قال إبراهيم التيمي: شيئان قَطَعَا عنِّي لذّة الدنيا؛ ذِكْر الموت، والوقوف بين يدي الله عزّ وجلّ.

وقال كعب: مَنْ عَرَفَ الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها.

وقال مطرِّف: رأيت فيما يرى النائم كأنَّ قائلاً يقول في وسط مسجد البصرة: قطع ذِكْرُ الموت قلوب الخائفين، فوالله ما تراهم إلا والهين.

(١) مات كل عضو منه: بمعنى فتر عن العمل لشدة الخوف منه.

وقال أشعث: كُنّا ندخل على الحسن فإنما هو يذكر النار، وأمْرَ الآخرة، ويذكر الموت.

وقالت صفية رضي الله عنها: إنَّ امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت: أكثري ذكْر الموت يرقُّ قلبك، ففعلت، فرقَّ قلبها، فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها.

وكان عيسى عليه السلام: إذا ذُكر الموت عنده يقطر جلده دماً.

وكان داود عليه السلام إذا ذَكَر الموت والقيامة يبكي حتى تنخلَع أوصاله[1]، فإذا ذَكَر الرحمة رجعت إليه نفسُه.

وقال الحسن: ما رأيت عاقلاً قطُّ إلا أصبتُه من الموت حَذِراً، وعليه حزيناً.

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء: عِظْني. فقال: ما أنت أوّل خليفة تموت. قال: زدني. قال: ليس من آبائك أحد إلى آدم إلاّ ذاق الموت، وقد جاءت نوبتك. فبكى عمر لذلك..

وكان الربيع بن خيثم قد حفر قبراً في داره، فكان ينام فيه كلَّ يوم مرّات يستديم بذلك ذِكْرَ الموت، وكان يقول: لو فارق ذِكْرُ الموت قلبي ساعةً واحدةً لفسد.

وقال مطرِّف بن عبد الله بن الشخِّير: إن هذا الموت قد نغَّص[2] على أهل النعيم نعيمَهم، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه.

وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة: أكثر ذِكْرَ الموت، فإن كنتَ واسع العيش ضيَّقه عليك، وإن كنتَ ضيِّق العيش وسَّعه عليك.

وقال أبو سُليمان الداراني: قلت لأمّ هارون: أتحبِّين الموت؟ قالت: لا. قلتُ: لِمَ؟ قالت: لو عَصيتُ آدمياً ما اشتهيتُ لقاءَه، فكيف أحبُّ لقاءَهُ وقد عصيته؟

قال أبو موسى التميمي: توفِّيت امرأة الفرزدق، فخرج في جنازتها وجوه البصرة،

---

(١) أوصاله: أعضاؤه.

(٢) نغَّص: كدَّر عَيْشه.

وفيهم الحسن رضي الله عنه.

فقال الحسن: يا أبا فراس! ماذا أعددت لهذا اليوم؟ فقال: شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله منذ ستين سنة. فلمّا دُفنت، قام الفرزدق على قبرها فقال:

أخاف وراءَ القبر إن لم تُعافني أشدَّ من القبر التهاباً وأضيقا
إذا جاءني يومَ القيامة قائدٌ عنيفٌ[١] وسوّاقٌ يسوق الفرزدقا
لقد خابَ من أولادِ آدم من مشى إلى النار مغلولَ[٢] القِلادة أزرقا

وقد أنشدوا في أهل القبور:

قف بالقبور وقُلْ على ساحاتها من منكم المغمورُ في ظلماتها
ومَن المُكرَّم منكمُ في قعرها وقد ذاق برد الأمن من روعاتها[٣]
أما السكونُ لذي العيون فواحدٌ لا يستبين الفضل في درجاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسنٍ تصفُ الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل في روضة يُفضي إلى ما شاءَ من دوحاتها
والمجرمُ الطاغي بها متقلِّبٌ في حُفْرةٍ يأوي إلى حيَّاتها
وعقارب تسعى إليه فروحُهُ في شدّةِ التعذيب من لدغاتها

وقال مالك بن دينار: مررت بالمقبرة فأنشأت أقول:

أتيتُ القبور فناديتها فأين المعظَّم والمحتقر
وأين المُذِلُّ بسلطانه وأين المزكّى إذا ما افتخر

قال: فنوديت من بينها أسمع صوتاً ولا أرى شخصاً، وهو يقول:

تفانَوا جميعاً فما مخبرٌ وماتوا جميعاً ومات الخبرْ
تروح وتغدو بناتُ الثَّرى[٤] فتمحو محاسنَ تلك الصورْ

---

(١) عنيف: عنف به وعليه: أخذه بشدة وقسوة.
(٢) مغلول: أي مقيد من يده إلى عنقه.
(٣) روعاتها: جمالها وحسنها.
(٤) الثّري: الأرْض وهنا دودة القبر.

فيا سائلي عن أناسٍ مضَوا أما لك فيما ترى معتبرْ

وجدَ مكتوب على قبر:

تناجيك أجداثٌ[1] وهنَّ صُموت وسكَّانُها تحت الترابِ خفوتُ
أيا جامعَ الدنيا لغير بلاغةٍ لمن تجمع الدنيا وأنت تموتُ

وقال ابن السمَّاك: مررت على المقابر فإذا على قبرٍ مكتوب:

يمرُّ أقاربي جنباتِ قبري كأنَّ أقاربي لم يَعرفوني
ذوو الميراثِ يقتسمون مالي وما يألون إن جَحدوا ديوني
وقد أخذوا سهامَهم وعاشوا فيالله أسرعَ ما نسوني

ووجد على قبرٍ مكتوب:

إن الحبيبَ من الأحباب مُختلَس لا يمنع الموتَ بوابٌ ولا حرسُ
فكيف تفرحُ بالدنيا ولذّتها يا من يُعدّ عليه اللفظ والنَّفَسُ
أصبحت يا غافلاً في النقص مُنغمساً وأنت دهرَك في اللّذات مُنغمسُ
لا يرحم الموتُ ذا جهلٍ لغرَّته ولا الذي كان منه العلمُ يُقتبسُ
كم أخرسَ الموتُ في قبرٍ وقفتُ به عن الجوابِ لساناً ما به خرسُ
قد كان قصرُك معموراً له شرفٌ فقبرُك اليومَ في الأجداثِ مُندرسُ

ووجد على قبرٍ مكتوب:

وقفتُ على الأحبَّةِ حين صُفَّتْ قبورُهم كأفراسِ الرِّهانِ
فلما أن بكيتُ وفاض دمعي رأت عيناي بينهم مكاني

ووجد على قبر طبيبٍ مكتوب:

قد قلتُ لما قالَ لي قائلٌ قد صارَ لقمانُ إلى رمسه
فأين من يُوصف من طبِّه وحذقه في الماء مع جسِّه
هيهات لا يدفع عن غيره من كان لا يَدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوب:

---

(١) أجداث: جمع جدث وهو القبر.

يـا أيُّهـا النـاس كـان لـي أمـلُ قصَّـر بـي عـن بلـوغـه الأجـلُ
فليتـقِ الله ربَّـه رجـلٌ أمكنـه فـي حيـاتـه العمـلُ
مـا أنـا وحـدي نُقلـت حيـث تـرى كـلٌّ إلـى مثلـه سينتقـلُ



٢٩ ـ باب: في ذكر السماوات والأجناس المختلفة

رُوي: أوَّل ما خلقَ اللهُ جوهرةً، فنظر إليها بنظر الهيبة، فذابت وارتعدت من خوف ربِّها فصارت ماءً، ثم نظرَ إليها بنظر الرحمة، فجمدَ نصفُها، فخلق منه العرش، فارتعد العرش فكتب الله عليه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فسكن العرش، وتُرك الماء على حاله يرتعد إلى يوم القيامة.

وذلك قوله تعالى: ﴿**وكان عرشُه على الماء**﴾[1] ثم تلاطم وتموَّج، وصعِدت منه أدخنةٌ، وارتفع بعضها متراكماً على بعض، وكان له زبد، فخلق الله تعالى منه السماوات والأرض طباقاً فكانتا رتقاً، فخلق الريح فيها، ففتَّق بين أطباق السماء وأطباق الأرض كما أخبر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**ثم استوى إلى السَّماءِ وهي دخان**﴾[2].

قال أهل الحكمة: إنّما خلق الله تعالى السماء من دخان، ولم يخلقها من بخار لأن الدخان خلق مُتماسك الأجزاء يستقرُّ منتهاه، والبخار مُتراجعٌ، وذلك من كمال علمه سبحانه وحكمته. ثم نظرَ تعالى إلى الماء بعين الرحمة فجمد كما جاء في الحديث.

فائدة: بين سماء الدنيا والأرض، وكذا بين كلِّ سماء وسماء خمسمائة عام، وغلظ كلِّ سماء كذلك.

وقيل: إن السماء الدنيا أشدُّ بياضاً من اللبن، وإنَّما اخضرَّت من خضرة جبل قاف، واسم تلك السماء رقيعة، **والثانية**: من حديدٍ تتلألأ نوراً واسمها فيدوم، أو ماعون، **والثالثة**: من نحاس يقال لها: ملكوت، أو هاريون، **والرابعة**: من فِضَّة بيضاء يكاد نورُها يَخْطَف[3] الأبصار واسمها الزاهرة، **والخامسة**: من ذهبٍ أحمر يقال لها المزينة، أو المسهرة، **والسادسة**: من جوهرة تتلألأ نوراً واسمها الخالصة، **والسابعة**:

---

(١) سورة هود، الآية: ٧.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١١.

(٣) يخطف الابصار: يُذهب الأبصار.

من ياقوتة حمراء واسمها اللابية أو الدامعة، وفيها البيتُ المعمور له أربعة أركان: ركن من ياقوتة حمراء، وركن من زبرجدة خضراء، وركن من فِضَّة بيضاء، وركن من ذهب أحمر.

وورد أنَّ البيت المعمور من العقيق يدخله كلَّ يوم سبعون ألفاً من الملائكة لا يعودون إليه إلي يوم القيامة.

والمعتمد أنَّ الأرض أفضلُ من السماء لأن الأنبياء خُلقوا منها، ودُفنوا فيها، وأفضل طبقات الأرض أعلاها لما ذُكر، ولأنه محلُّ انتفاع العالم.

وعن ابن عباس: أفضل السماوات هي التي يلي سقفها عرش الرحمن، وهي الكرسي لقربها من العرش، ولأنّ جميع النجوم المنتفع بها مثبتة فيها غير السبعة السيَّارة، أما هي فمثبتة في السماوات السبع، فزحل في السابعة وهو ليوم السبت، والمشتري في السادسة وهو ليوم الخميس، والمرِّيخ في الخامسة وهو ليوم الثلاثاء، والشمس في الرابعة وهي ليوم الأحد، والزُّهرة في الثالثة وهي ليوم الجمعة، وعُطارد في الثانية وهو ليوم الأربعاء، والقمر في الأولى وهو ليوم الاثنين.

نكتة لطيفة: ومن عجيب صنع الباري تبارك وتعالى أن خلق السموات السبع من دخان، مع كون كلِّ سماء لا تُشبه صاحبتها، وأنزل من السماء ماءً، فأخرج به من أنواع النبات والأثمار المختلفة اللون والطعم.

كما قال تعالى: **﴿ونفضِّلُ بعضَها على بعض في الأُكُل﴾**[1]، وخلق أولاد آدم على طبقاتٍ شتى منهم الأبيض والأسود، والسهل والحَزْنُ، والمؤمن والكافر، والعالم والجاهل، مع أن الأصل آدم. فسبحان من أتقن كلَّ شيء خلقه.

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٤.

٣٠ ـ باب: في بيان الكرسي والعرش وبيان الملائكة المقربين والأرزاق والتوكُّل

قال الله تعالى: ﴿وسعَ كرسيُّهُ السماوات والأرضَ﴾[1] قيل: كرسيُّه مجاز عن علمه، وقيل: مُلْكه وقيل: الفلك المعروف.

رُوي عن عليٍّ كرَّم الله وجهه أنَّ الكُرْسي لؤلؤة، وطوله لا يعلمه إلا الله تعالى.

وفي الخبر: ما السماوات والأرضون السبع مع الكرسي إلا كحلقةٍ في فلاة.

وأخرج ابن ماجه: «أنَّ السماوات في جوفِ الكرسي، والكرسي بين يدي العرش».

وعن عكرمة قال: الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، والعرشُ جزء من سبعين جزءاً من نور الستور ـ يعني بها الحُجُب.

وورد أنَّ بين حملة العرش وحملة الكرسي سبعين حجاباً من ظلمة وسَبعين حجاباً من نورَ كلُّ حجاب مسيرة خمسمائة عام، ولولا ذلك لاحترق حَمَلة الكرسيّ من نورهم.

والعرش جسم نورانيّ عُلْويّ فوق الكرسي، فهو غيره، خلافاً للحسن البصري، قيل: من ياقوتةٍ حمراء، وقيل: من جوهرة خضراء، وقيل: من دُرَّة بيضاء، وقيل: من نور. والأولى الإمساك عن القطع بحقيقته، ويسميه الفلكيون بالفلك التاسع، والفلك الأعلى، وفلك الأفلاك، والفلك الأطلس، أي الخالي من الكواكب، إذ كلُّها على ما قال قدماء أهل الهيئة ثوابت في الفلك الثامن المسمَّى عندهم بفلك البروج.

وعند أهل الشرع بالكرسي، والعرش سقف المخلوقات فلا شيء يخرج عن دائرته، فهو مُنتهى علم العباد لا مجال للإدراك وراءه، ولا مطلب لطالب فوقه. قال الله

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

تعالى: ﴿فإن تولَّوا فقلْ حسبيَ اللهُ لا إله إلا هو عليه توكَّلتُ وهو ربُّ العرشِ العَظِيم﴾[١]. وصفه بالعِظَم لأنَّه أعظم المخلوقات، وقد تحقق ﷺ بالتوكُّل كما أُمِر، ولذا سُمي في التوراة وغيرها بالمتوكِّل.

كيف والتوكُّل فرعُ التوحيد والمعرفة، وهو ﷺ سيِّد الموحِّدين، ورأس العارفين، ولا يُنافي التوكُّلَ الأخذُ في الأسباب كما قد يُتوهَّم، بل هو أيضاً مأمور به. فقد قال له ﷺ أعرابي: أأعْقِل[٢] ناقتي أم أتركها وأتوكَّل؟ فقال: «اعقلها وتوكَّل».

وقال ﷺ: «لو توكَّلتُم على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصاً» أي جياعاً «وتروح بِطاناً» أي شِباعاً. فأشار بقوله: «تغدو» إلى التسبب.

حكاية: التقى إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخي بمكة، فقال له إبراهيم: ما بدءُ أمرك الذي بلَّغك هذا؟ قال: مررتُ ببعض الفَلَوات[٣] فرأيت طيراً مكسورَ الجناحين في فلاةٍ من الأرض، فقلت: أنظر من أين يُرْزَق هذا؟ فقعدت بحذائه، فإذا أنا بطيرٍ قد أقبل في منقاره جرادةٌ فوضعها في منقار الطير المكسور الجناحين، فقلت لنفسي: إن الذي قَيَّض[٤] هذا الطير لهذا الطير قادرٌ أن يرزقني حيث كنت، فتركتُ التكسُّب، واشتغلت بالعبادة، فقال إبراهيم: ولم لا تكون أنت الطيرَ الصحيح الذي أطعم الطير العليل حتى تكونَ أفضل منه؟ أما سمعت عن النبي ﷺ «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»؟ ومن علامة المؤمن أن يطلب أعلى الدرجتين في أموره كلِّها حتى يبلغ منازل الأبرار. فأخذ شقيق بيد إبراهيم فقبَّلها وقال: أنت أستاذنا يا أبا إسحاق.

ثم إذا تسبَّب الإنسان فليجتهد أن لا ينظرَ إلى أسبابه، ولا يقف عندها، بل يجعل مولاه مطمحَ نظره، ومرمى[٥] قصده، كالسائل يقصد الناس بوعاءٍ في يده، ولا ينظر إليه، وإنَّما ينظر إلى الذين يُعطونه.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٩.
(٢) أأعقل: أربط ناقتي من عناقها.
(٣) الفَلَوات: جمع فلوة وهي الارض الخالية من الناس.
(٤) قَيَّض: قدَّر وهيأ.
(٥) مرمى: هدفه ومطلبه.

وفي الحديث: «من سرَّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثقَ منه بما في يديه».

وقد قيل لحذيفة المرعشي، وكان قد خدمَ إبراهيم بن أدهم: ما أعجبَ ما رأيتَ منه؟

فقال: بقينا في طريق مكة أياماً لم نجد طعاماً، ثم دخلنا الكوفةَ، فأوينا إلى مسجد خراب، فنظر إليَّ إبراهيم وقال: يا حذيفة! أرى بك الجوع. فقلت: هو ما رأى الشيخ، فقال: عليَّ بدواةٍ وقرطاس، فجئت به، فكتب بعد البسملة، أنت المقصود بكلِّ حال، والمُشار إليه بكلِّ معنى، وكتب:

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عاري
هي ستَّةٌ وأنا الضمين لنصفها فكنِ الضمينَ لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهبُ نار خضتُها فأجِرْ عُبيدك من دخول النار

ثم دفع إليَّ الرقعة[1] فقال: أخرج ولا تعلِّق قلبك بغير الله تعالى، وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك.

فخرجت فأوَّل مَنْ لقيني كان رجلاً على بغلةٍ، فناولته الرقعة، فأخذها، فلمَّا وقف عليها بكى وقال: ما فعل صاحب هذه الرقعة؟ فقلت: هو في المسجد الفلاني. فدفع إليَّ بصرَّة فيها ستمائة دينار، ثم لقيت رجلاً آخر، فسألته عن راكب البلغة، فقال: هذا نصراني. فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال: لا تمسَّها فإنه يجيء الساعة. فلما كان بعد ساعة دخل النصراني وأكبَّ على رأس إبراهيم يقبِّله وأسلم.

فائدة: قال ابن عباس لمَّا خلق الله تعالى حَمَلة العرش قال لهم: احملوا عرشي، فلم يطيقوا. فخلق مع كلِّ واحد منهم مِثْل مَنْ في السماوات السبع من الملائكة، فقال: احملوا عرشي، فلم يطيقوا. فخلق مع كلِّ منهم مثل مَنْ في السماوات السبع من الملائكة ومَنْ في الأرض من الخلق وقال: احملوا عرشي، فلم يطيقوا.

فقال: قولوا: لا حول لاو قوّة إلا بالله، فلمَّا قالوها حملوه فنفِذت أقدامُهم في

(١) الرقعة: سعف النخل أو الجريد كان يكتب عليها.

الأرض السابعة على متن الريح، فلمّا لم تستقرَّ أقدامهم على شيء تمسّكوا بالعرش، ولم يفتروا عن قولهم: لا حول ولا قوّة إلا بالله خِيفة أن ينقلب أحدهم فلا يعرف أين يهوي، فهم حاملون للعرشِ وهو حاملهم، والكلُّ محمولٌ بالقدرة.

ورُوي: مَنْ قال إذا أصبح وإذا أمسى: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكَّلْت وهو ربُّ العرش العظيم سبع مرات، كفاه الله تعالى ما أهمَّه صادقاً كان بها، أو كاذباً.

وفي رواية: كفاه الله ما أهمَّه من أمر آخرته ودنياه.



٣١ ـ باب: في ترك الدنيا وذمّها

الآيات الواردة في ذمِّ الدنيا وأمثلتها كثيرة، وأكثر القرآن مشتمل على ذمِّ الدنيا، وصرفِ الخلقِ عنها، ودعوتهم إلى الآخرة، بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولم يُبْعثوا إلاّ لذلك، فلا حاجةَ إلى الاستشهاد بآياتِ القرآن لظهورها، وإنَّما نورد بعضَ الأخبار الواردة فيها.

فقد رُوي أنَّ رسولَ الله ﷺ مرَّ على شاةٍ ميتة فقال: «أترون هذه الشاة هيِّنة على أهلها؟» قالوا: من هوانها ألقَوها. قال: «والذي نفسي بيده للدُّنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها، ولو كانتِ الدنيا تعْدِل[1] عند الله جناحَ بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء».

وقال ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنَّة الكافر».

وقال رسول الله ﷺ: «الدنيا معلونة[2]، ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها».

وقال أبو موسى الأشعري: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أحبَّ دنياه أضرَّ بآخرته، ومَنْ أحبَّ آخرته أضرَّ بدنياه، فآثروا ما يبقى على ما يفنى».

وقال ﷺ: «حُبُّ الدنيا رأس كلِّ خطيئة».

وقال زيد بن أرقم: كنَّا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فدعا بشرابٍ، فأُتي بماء وعسل، فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه، وسكتوا وسكت، ثم عاد وبكى حتى ظنُّوا أنهم لا يقدرون على مساءلته، قال: ثم مسح عينيه، فقالوا: يا خليفة رسول الله، ما أبكاك؟ قال: كنتُ مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ولم أرَ معه أحداً، فقلت: يا رسول الله، ما الذي تدفع عن نفسك؟ قال: «هذه الدنيا مُثِّلت لي،

---

(١) تعدِل: تزِنُ.

(٢) ملعونة: مطرودة من رحمة الله تعالى.

فقلت لها: إليك عنِّي، ثم رجعت فقال: إنك إن أُفلتُّ منِّي لم يفلت منِّي مَنْ بعدك».

وقال ﷺ: «يا عجباً كلَّ العَجَب للمصدقِّ بدار الخلود، وهو يسعى لدار الغرور».

ورُوي أنَّ رسولَ الله ﷺ وقف على مَزْبَلة فقال: «هلُّموا إلى الدنيا» وأخذ خِرَقاً قد بليت على تلك المزبلة، وعظاماً قد نخرت، فقال: «هذه الدنيا».

وهذه إشارةٌ إلى أن زينة الدنيا ستَخْلَق مثل تلك الخِرق، وأنَّ الأجسام التي تُرى بها ستصير عظاماً بالية.

وقال ﷺ: «إنَّ الدنيا حُلوةٌ خَضِرة، وإنَّ الله مستخلفكم[١] فيها فناظرٌ كيف تعملون. إنَّ بني إسرائيل لمَّا بُسطت[٢] لهم الدنيا ومُهِّدت تاهوا[٣] في الحِلْية والنساء والطيب والثياب».

وقال عيسى عليه السلام: لا تتخذوا الدنيا ربّاً فتتَّخذَكم عبيداً، اكنزوا كنزَكم عند مَنْ لا يضيعه، فإنَّ صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة[٤]، وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة.

وقال عليه أفضل الصلاة والسلام أيضاً: يا معشر الحواريين إنِّي قد كببت لكم الدنيا على وجهها، فلا تنعشوها بعدي، فإنَّ من خُبْث الدنيا أن عُصيَ الله فيها، وإن من خُبث الدنيا أنَّ الآخرة لا تُدْرك إلا بتركها، ألا فاعبروا الدنيا ولا تعمروها، واعلموا إنَّ أصل كلِّ خطيئة حُبُّ الدنيا، ورُبَّ شهوةِ ساعةٍ أورثت أهلها حزناً طويلاً.

وقال أيضاً: بُطحت لكم الدنيا، وجَلستم على ظهرها، فلا ينازعكم فيها الملوك والنساء؛ فأمَّا الملوك فلا تنازعوهم الدنيا، فإنَّهم لن يعرضوا لكم ما تركتموهم ودنياهم، وأمّا النساء فاتقوهن[٥] بالصوم والصلاة.

وقال أيضاً: الدُّنيا طالبةٌ ومطلوبة، فطالب الآخرة، تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها

---

(١) مستخلفكم: أي جاعلكم خلفاء في الأرض.

(٢) بُسطت: نُشرت لهم النعم.

(٣) تاهوا: ضاعوا.

(٤) الآفة: المصيبة.

(٥) اتقوهن: من التقوى وهي الوقاية.

رزقه، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذ بعنقه.

وقال موسى بن يسار: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يخلق خلقاً أبغض إليه من الدنيا، وإنه منذ خلقها لم ينظر إليها».

ورُوي أن سليمان بن داود عليهما السلام مرَّ في موكبه، والطير تظلُّه، والجِنُّ والإنس عن يمينه وشماله، قال: فمرَّ بعابدٍ من بني إسرائيل فقال: والله يا ابن داود لقد آتاك الله مُلْكاً عظيماً. قال: فسمع سليمانُ وقال: لتسبيحةٌ في صحيفة مؤمنٍ خيرٌ مما أعطي ابن داود، فإنَّ ما أُعطي ابن داود يذهب، والتسبيحة تبقى.

وقال ﷺ: «ألهاكم التكاثر، يقول ابنُ آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيت[١]، أو لبست فأبليت، أو تصدَّقت فأبقيت؟».

وقال ﷺ: «الدنيا دار مَنْ لا دار له، ومال مَنْ لا مال له، ولها يجمع مَنْ لا عقل له، وعليها يُعادي مَنْ لا علمَ له، وعليها يحسد مَنْ لا فِقْه له، ولها يسعى مَنْ لا يقين له».

وقال ﷺ: «مَنْ أصبح والدنيا أكبر همِّه فليس من الله في شيء، وألزم الله قلبه أربع خصالٍ: همّاً لا ينقطع عنه أبداً، وشُغلاً لا يتفرَّغ منه أبداً، وفقراً لا يبلغ غناه أبداً، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً».

وقال أبو هريرة: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا أبا هريرة، ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها؟» فقلت: بلى يا رسول الله. فأخذ بيدي وأتى بي وادياً من أودية المدينة، فإذا مزبلة فيها رؤوس أناس، وعَذِرات، وخِرق، وعظام، ثم قال: «يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم، وتأمل كأملكم، ثم هي اليوم عظام بلا جلد، ثم هي صائرة رماداً، وهذه العذرات هي ألوان أطعمتهم، اكتسبوها من حيث اكتسبوها، ثم قذفوها في بطونهم، فأصبحت والناس يتحامونها، وهذه الخِرقُ البالية كانت رياشهم ولباسهم، فأصبحت والرياح تصفقها، وهذه العظام عظام دوابِّهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد، فمن كان باكياً على الدنيا فليبك». قال: فما برحنا حتى اشتدَّ بكاؤنا.

---

(١) أفنيت: من الفناء وهو الزوال.

ويروى أنَّ الله عزَّ وجلَّ لمَّا أهبط آدم إلى الأرض قال له: ابنِ للخراب، ولِدْ للفناء.

وقال داود بن هلال: مكتوب في صُحفِ إبراهيم عليه السلام: يا دنيا ما أهونك على الأبرار الذين تصنَّعتِ وتزيَّنتِ لهم، إنِّي قذفت في قلوبهم بغضك، والصُّدودَ عنك، وما خلقتُ خلقاً أهونَ عليَّ منك، كلُّ شأنك صغير، وإلى الفناء يصير، قضيتُ عليكِ يومِ خلقتك أن لا تدومي لأحد، ولا يَدوم لك أحد، وإن بخل بك صاحبك، وشحَّ عليك.

طوبى للأبرار الذين أطلعوني من قلوبهم على الرضا، ومن ضميرهم على الصدق والاستقامة، طوبى لهم ما لهم عندي من الجزاء إذا وفدوا إليَّ من قبورهم إلا النور يسعى أمامهم، والملائكة حافُّون بهم حتى أبلِّغهم ما يرجون من رحمتي.

وقال رسول الله ﷺ: «الدنيا موقوفة بين السماء والأرض، منذ خلقها الله تعالى لم ينظر إليها، وتقول يوم القيامة: يا ربِّ اجعلني لأدنى أوليائك اليوم نصيباً، فيقول: اسكتي يا لا شيء، إنِّي لم أرْضك لهم في الدنيا، أأرضاك لهم اليوم؟».

وروي في أخبار آدم عليه السلام أنّه لمَّا أكل من الشجرة تحرَّكت معدته لخروج الثقل، ولم يكن ذلك مجعولاً في شيء من أطعمة الجنة إلاّ في هذه الشجرة، فلذلك نُهيا عن أكلها.

قال: فجعل يدور في الجنة، فأمرَ اللهُ تعالى مَلَكاً يخاطبه فقال له: قل له: أيَّ شيء تريد؟ قال آدم: أريد أن أضع ما في بطني من الأذى.

فقيل للمَلَك: قل له: في أيِّ مكان تريدُ أن تضعه؟ أعلى الفُرُش، أم على السُّرُر، أم على الأنهار، أم تحت ظلال الأشجار، هل ترى ههنا مكاناً يصلح لذلك؟ اهبط إلى الدنيا.

وقال ﷺ: «ليجيئنَّ أقوامٌ يوم القيامة وأعمالهم كجبال تِهامة، فيؤمر بهم إلى النار» قالوا: يا رسول الله، مصلِّين؟ قال: «نعم، كانوا يصلُّون ويصومون ويأخذون هنةً من الليل، فإذا عـرَض لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه».

وقال ﷺ في بعض خطبه «المؤمن بين مخافتين، بين أَجَلٍ قد مضى، لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أَجَلٍ قد بقي، لا يدري ما الله قاض فيه، فليتزَّود العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن حياته لموته، ومن شبابه لهرمه، فإنَّ الدنيا خُلِقَت لكم، وأنتم خلقتم للآخرة، والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مُسْتَعتب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنَّة أو النار».

وقال عيسى عليه السلام: لا يستقيم حُبُّ الدنيا والآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد.

وروي أنَّ جبريل عليه السلام قال لنوح عليه السلام: يا أطول الأنبياء عمراً، كيف وجدت الدنيا؟ فقال: كدار لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر.

وقيل لعيسى عليه السلام: لو اتَّخذتَ بيتاً يُكِنُّك! قال: يكفينا خلقان من كان قبلنا.

وقال نبينا ﷺ: «احذروا الدنيا، فإنها أسحر من هاروت وماروت».

وعن الحسن قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يومٍ على أصحابه فقال: «هل منكم من يريد أن يُذهبَ الله عنه العمى، ويجعله بصيراً؟ ألا إنه من رغب[1] في الدنيا، وطال أمله فيها أعمى الله قلبه على قدر ذلك، ومَنْ زهد في الدنيا وقصَّر فيها أمله أعطاه الله علماً بغير تعلُّم، وهُدى بغير هداية.

ألا إنه سيكون بعدكم قوم لا يستقيم لهم المُلك إلا بالقتل والتجبُّر، ولا الغنى إلا بالفخر والبخل، ولا المحبَّة إلا باتباع الهوى، ألا فمن أدرك ذلك الزمان منكم فصبر على الفقر، وهو يقدر على الغنى، وصبر على البغضاء[2] وهو يقدر على المحبَّةِ، وصبر على الذُّل وهو يقدر على العزِّ لا يريد بذلك إلا وجه الله تعالى أعطاه الله ثواب خمسين صدِّيقاً».

ورُوي أنَّ عيسى عليه السلام اشتدَّ عليه المطرُ والرعد والبرق يوماً، فجعل يطلب

---

(١) رغب: طمع وحرِصَ على الشيء.
(٢) البغضاء: الصبر على المقت والكره.

شيئاً يلجأ إليه، فوقعت عينه على خيمة من بعيد، فأتاها، فإذا فيها امرأة، فحادَ[١] عنها، فإذا هو بكهفٍ في جبل، فأتاه فإذا فيه أسدٌ، فوضع يده عليه وقال: إلهي جعلت لكلِّ شيءٍ مأوى[٢]، ولم تجعل لي مأوى.

فأوحى الله تعالى إليه: مأواك في مستقر رحمتي، لأزوجنَّك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيديَّ، ولأُطْعِمنَّ في عرسِك أربعة آلاف عام، يومٌ منها كعُمُر الدنيا، ولآمرنَّ مُنادياً يُنادي: أين الزهَّاد في الدنيا؟ زوروا عُرْس الزاهد في الدنيا عيسى ابنَ مريم.

وقال عيسى بن مريم عليه السلام: ويلٌ لصاحبِ الدنيا كيف يموت ويتركها وما فيها؟ وتَغُرُّه ويأمنها؟ ويَثِقُ بها وتخذله؟ وويل للمغترِّين كيف أرتهم ما يكرهون، وفارقهم ما يحبُّون وجاءهم ما يُوعدون، وويلٌ لمن الدنيا هَمُّه، والخطايا عملُه، كيف يُفْتَضح[٣] غداً بذنبه؟!

وقيل: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى، مالَكَ ولدار الظالمين؟ إنها ليست لك بدار، أخرج منها همَّك، وفارقها بعقلك، فبِئستِ الدارُ هي إلا لعاملٍ يعمل، فنعمت الدارُ هي.

يا موسى إنّي مرصدٌ[٤] للظالم حتى آخذَ منه للمظلوم.

ورُوي أنَّ رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح، فجاءه بمالٍ من البحرين، فسمعتِ الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ. فلما صلَّى رسول الله ﷺ انصرف، فتعرَّضوا له، فتبسَّم رسول الله ﷺ حين رآهم.

ثم قال: «أظنُّكم سمعتم أنَّ أبا عبيدة قدِم بشيء؟» قالوا: أجل يا رسول الله. قال: «فأبشروا وأمِّلوا ما يسرُّكم، فوالله ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكنِّي أخشى عليكم أن تُبْسَط عليكم الدنيا كما بُسِطت على مَنْ كان قبلكم، فتَنافَسوها[٥] كما تنافَسوها، فتُهلكَكم كما أهلكتهم».

---

(١) حاد: ابتعد.

(٢) مأوى: مكان يأوي إليه أو ينزل فيه.

(٣) الفضيحة: الشهرة بما يعاب به الانسان.

(٤) مُرصد: مراقب له.

(٥) تنافسوها: أي تتسابقوا فيها وتبادروا إليها.

وقال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «إن أكثر ما أخاف عليكم ما يُخرج الله لكم من بركات الأرض» فقيل: ما بركات الأرض؟ قال «زهرة الدنيا».

وقال ﷺ: «لا تشغلوا قلوبكم بذكر الدنيا».

فنهى عن ذكرها فضلاً عن إصابة عينها.

وقال عمّار بن سعيد: مرَّ عيسى عليه السلام بقريةٍ، فإذا أهلها موتى في الأفنية والطرق.

فقال: يا معشر الحواريين! إن هؤلاء ماتوا عن سَخْطَةٍ، ولو ماتوا عن غيرِ ذلك لتدافنوا. فقالوا: يا روح الله، ودِدْنا أنّا لو علمنا خبرهم.

فسأل الله تعالى، فأوحى إليه: إذا كان الليل فنادهم يجيبوك. فلمّا كان الليلُ أشرفَ على نشز[1]، ثم نادى: يا أهل القرية! فأجابه مجيب: لبَّيك يا روح الله.

فقال: ما حالكم، وما قصَّتكم؟ قالوا: بِتْنا في عافية، وأصبحنا في الهاوية. قال: وكيف ذاك؟ قالوا: بحُبِّنا الدنيا، وطاعتنا أهلَ المعاصي. قال: وكيف كان حبُّكم للدنيا؟ قالوا: حُبَّ الصبيِّ لأمِّه، إذا أقبلت فرحنا بها، وإذا أدبرت حزِنًا وبكينا عليها. قال: فما بال أصحابك لم يجيبوني؟ قال: لأنهم مُلْجمون[2] بلُجُم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد. قال: فكيف أجبتني أنت من بينهم؟ قال: لأنّي كنت فيهم ولم أكن منهم، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم، فأنا معلّقٌ على شفير[3] جهنم لا أدري أنجو منها أم أكبكب[4] فيها؟ فقال المسيح للحواريين: لأكْلُ خبزِ الشعير بالملح الجريش، ولِبْس المسوح، والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة.

وقال أنس: كانت ناقةُ رسول الله ﷺ العضباء لا تُسْبَق. فجاء أعرابيٌّ بناقة فسبقها، فشقَّ ذلك على المسلمين، فقال ﷺ: «إنّه حقٌّ على الله أن لا يرفع شيء من الدنيا إلا وضعه».

---

(١) نشز: النَّشْزُ: هو المكان المرتفع.

(٢) اللجام: هي الحديدة التي توضع على فم الفرس.

(٣) شفير: الشفير هو الحرف والجانب والناحية.

(٤) اكبكب: ألقى فيها.

وقال عيسى عليه السلام: مَنْ الذي يبني على موج البحر داراً، تلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً.

وقيل لعيسى عليه السلام: علِّمْنا عِلْماً واحداً يحبُّنا الله عليه. قال: أبغضوا الدنيا يحبُّكم الله تعالى.

وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولهانت عليكم الدنيا، ولآثرتم الآخرة».

ثم قال أبو الدرداء من قبلِ نفسه: لو تعلمون ما أعلم لخرجتم إلى الصُّعدات تجأرُون وتبكون على أنفسكم، ولتركتم أموالكم لا حارسَ لها، ولا راجع إليها، إلا ما لا بدّ لكم منه، ولكن غَيَّب عن قلوبكم ذِكْرَ الآخرة الأمل، فصارتِ الدنيا أملكَ بأعمِّكم، وصِرْتم كالذين لا يعلمون، فبعضكم شرٌّ من البهائم التي لا تدع هواها مخافةَ مما في عاقبته.

ما لكم لا تحابُّون، ولا تناصحون وأنتم إخوان على دين الله؟ ما فرّق بين أهوائكم إلا خُبثُ سرائركم، ولو اجتمعتم على البِرّ لتحاببتم، مالكم تناصحون في أمر الدنيا، ولا تناصحون في أمر الآخرة؟ ولا يملك أحدكم النصيحة لمن يحبّه ويعينه على أمر آخرته؟ ما هذا إلاّ من قلّةِ الإيمان في قلوبكم، لو كنتم توقنون بخير الآخرة وشرّها كما توقنون بالدنيا لآثرتم طلب الآخرة، لأنها أملك لأموركم.

فإن قلتم: حُبُّ العاجلة غالب، فإنّا نراكم تَدَعون العاجل من الدنيا للآجل منها، تكدُّون أنفسكم بالمشقة والاحتراف في طلب أمرٍ، لعلّكم لا تدركونه، فبئس القوم أنتم، ما حقَّقتم إيمانكم بما يعرف به الإيمان البالغ فيكم، فإن كنتم في شكٍّ مما جاء به محمد ﷺ فأتونا لنبيّنَ لكم، ولنريكم من النور ما تطمئنُّ إليه قلوبكم. والله ما أنتم بالمنقوصة عقولُكم فنعذركم، إنكم تستبينون صواب الرأي في دنياكم، وتأخذون بالحزمِ[1] في أموركم.

---

(١) الحزم: القوة.

ما لكم تفرحون باليسير من الدنيا تصيبونه، وتحزنون على اليسير منها يفوتكم حتى يتبيَّن ذلك في وجوهكم، ويظهرَ على ألسنتكم وتسمُّونها المصائب، وتقيمون فيها المآتم، وعامَّتكم قد تركوا كثيراً من دينهم، ثم لا يتبيَّن ذلك في وجوهكم، ولا يتغيَّر حالُكم؟

إنّي لأرى الله قد تبرَّأ منكم، يلقى بعضكم بعضاً بالسرور، وكلُّكم يكره أن يستقبل صاحبه بما يكره، مخافة أن يستقبله صاحبه بمثله، فأصبحتم على الغِلّ[1] ونبتت مراعيكم على الأمل، وتصافيتم على رفض الأجل، ولودِدت أنَّ الله تعالى أراحني منكم، وألحقني بمن أحبُّ رؤيته، ولو كان حيّاً لم يصابركم، فإن كان فيكم خيرٌ فقد أسمعتكم، وإن تطلبوا ما عند الله تجدوه يسيراً، وبالله أستعين على نفسي وعليكم.

وقال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين، ارضوا بدنيء[2] الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بدنيء الدين مع سلامة الدنيا.

وفي معناه قيل:

أرى رجالاً بأدنى الدين قد قنعوا   وما أراهم رضوا في العيش بالدون

فاستغنِ بالدين عن دنيا الملوك كما   استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال عيسى عليه السلام:

يا طالب الدنيا لِتبَر   تركُك الدنيا أبرّ

وقال نبينا ﷺ: «لتأتيَنّكم بعدي دنيا تأكل إيمانكم، كما تأكل النار الحطب».

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى لا تركننَّ إلى حُبِّ الدنيا، فلن تأتيني بكبيرة هي أشدّ منها.

ومرَّ موسى عليه السلام برجلٍ وهو يبكي، ورجع وهو يبكي، فقال موسى: يا ربِّ عبدك يبكي من مخافتك، فقال: يا ابن عِمران لو سال دماغه مع دمع عينيه، ورفع يديه

---

(١) الغِلّ: الحقد والحسد.

(٢) بدنيء: من الدناءة وهي القلة.

حتى يسقطا، لم أغفر له، وهو يحبُ الدنيا.

وفي الآثار: قال عليٌّ رضي الله عنه: مَنْ جُمع فيه ستُّ خِصال لم يدع للجنَّة مطلباً، ولا عن النار مهرباً، من عَرَف الله فأطاعه، وعَرَف الشيطان فعصاه، وعَرَف الحقَّ فاتَّبعه، وعَرَف الباطل فاتَّقاه، وعَرَف الدنيا فرفضها، وعَرَف الآخرة فطلبها.

وقال الحسن: رحم الله أقواماً كانتِ الدنيا عندهم وديعة[١]، فأدَّوها إلى من ائتمنهم عليها، ثم راحوا خفافاً.

وقال أيضاً رحمه الله: مَنْ نافسك في دينك فنافسه، ومَنْ نافسك في دنياك فألقها في نحره[٢].

وقال لقمان عليه السلام لابنه: يا بني، إنَّ الدنيا بحرٌ عميق، وقد غرق فيه ناسٌ كثير، فلتكن سفينتك فيها تقوى الله عزّ وجلّ، وحشوها الإيمانَ بالله تعالى، وشراعها التوكُّلَ على الله عزّ وجل، لعلك تنجو، وما أراك ناجياً.

وقال الفضيل: طالت فكرتي في هذه الآية: **﴿إنَّا جَعلنَا ما علىَ الأرضِ زينَةً لَها لنَبلُوهم أيُّهم أحسَنُ عمَلاً * وإنَّا لجاعِلونَ ما علَيْها صَعِيداً جُرُزاً﴾**[٣].

وقال بعض الحكماء: إنك لن تصبح في شيءٍ من الدنيا إلاّ وقد كان له أهلٌ قبلك، وسيكون له أهلٌ بعدك، وليس لك من الدنيا إلاّ عَشَاء ليلةٍ، وغداء يوم، فلا تهلك في أكلة، وصُم عن الدُّنيا، وأفطر على الآخرة، وإنَّ رأس مالِ الدنيا الهوى، وربحها النار.

وقيل لبعض الرُّهبان: كيف ترى الدَّهرَ؟ قال يُخلق[٤] الأبدان، ويجدِّد الآمال، ويقرِّب المنيَّة[٥] ويُبعد الأمنيَّة. قيل: فما حال أهله؟ قال: من ظَفِرَ به تَعِبْ، ومن فاته نَصِبْ. وفي ذلك قيل:

---

(١) وديعة: أمانة.

(٢) نحره: النَّحْر هو أعلى الصدر.

(٣) سورة الكهف، الآيتان: ٧، ٨.

(٤) يُخلق: يُبلي ويُفني الأبدان.

(٥) المنيَّة: الموت.

ومن يَحِمَدُ الدنيا لعيشٍ سرَّه فسوف لعمري عن قليلٍ يلومُها
إذا أدبرتْ كانت على المرءِ حَسرةً وإن أقبلت كانت كثيراً هُمومها

وقال بعض الحكماء: كانت الدنيا، ولم أكن فيها، وتذهب الدنيا ولا أكون فيها، فلا أسكن إليها، فإن عيشها نَكَد[1]، وصفوها كدر، وأهلها منها على وَجَلَ، إمَّا بنعمة زائلة، أو بليَّة نازلة، أو منيّة قاضية.

وقال بعضهم: من عيبِ الدُّنيا أنها لا تعطي أحداً ما يستحقُّ، لكنَّها إمّا أن تزيد، وإمَّا أن تنقص.

وقال سفيان: أما ترى النعم كأنها مغضوب عليها، قد وضعت في غير أهلها.

وقال أبو سُليمان الداراني: مَنْ طلب الدنيا على المحبَّة لها لم يُعْط منها شيئاً إلا أراد أكثر، ومَنْ طلب الآخرة على المحبَّةِ لها لم يُعط منها شيئاً إلاّ أراد أكثر، وليس لهذا غاية ولا لهذا غاية.

وقال رجلٌ لأبي حازم: أشكو إليك حُبَّ الدنيا، وليست لي بدار. فقال: انظر ما آتاكه الله عزَّ وجلَّ منها فلا تأخذه إلاّ من حِلّه، ولا تضعْه إلاّ في حقِّه، ولا يضرُّك حبُّ الدنيا. وإنما قال هذا لأنَّه لو آخذ نفسه بذلك لأتعبه حتى يتبرَّمَ بالدنيا، ويطلب الخروج منها.

وقال يحيى بن معاذ: الدنيا حانوتُ الشيطان، فلا تسرق من حانوته شيئاً، فيجيءُ في طلبه فيأخذك.

وقال الفُضيل: لو كانتِ الدنيا من ذهبٍ يفنى، والآخرة من خَزَفٍ يبقى. لكان ينبغي لنا أن نختارَ خزفاً يبقى على ذهبٍ يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهبٍ يبقى؟

وقال أبو حازم: إيَّاكم والدنيا فإنَّه بلغني أنه يوقف العبدُ يوم القيامة إذا كان مُعظِّماً للدنيا فيُقال: هذا عظَّم ما حقَّره الله.

---

(١) النكد: هو كل فعل جرّ على صاحبه شراً.

وقال ابنُ مسعود: ما أصبح أحدٌ من الناس إلا وهو ضيف، وماله عارية، فالضَّيف مرتحلٌ، والعارية مردودة. وفي ذلك قيل:

وما المال والأهلون إلا وديعةٌ ولا بُدَّ يوماً أن تُردَّ الودائع

وزار رابعةَ أصحابُها، فذكروا الدُّنيا، فأقبلوا على ذمِّها فقالت: اسكتوا عن ذكرها، فلولا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها. ألا من أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره.

وقيل لإبراهيم بن أدهم: كيف أنت؟ فقال:

نُرقِّع دنيانا بتمزيقِ ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرقِّع
فطوبى لعبدٍ آثر اللهَ ربَّه وجاد بدنياه لما يتوقَّع

وقيل أيضاً في ذلك:

أرى طالبَ الدُّنيا وإن طالَ عمرُه ونالَ من الدنيا سروراً وأنعُما
كبانٍ بنى بُنيانه فأقامَه فلما استوى ما قد بناه تهدَّما

وقيل أيضاً في ذلك:

هبِ الدنيا تُساقُ إليك عفواً أليسَ مصيرُ ذاك إلى انتقال
وما دنياك إلاّ مثلُ فيءٍ[1] أظلَّك ثم آذنَ بالزوال

وقال لقمان لابنه: يا بُني بعْ دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبعْ آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً.

وقال مطرِّف بن الشِّخِّير: لا تنظر إلى خَفْضِ عيش الملوك، ولين رياشهم، ولكن انظر إلى سُرعة ظَعْنهم، وسوء منقلبهم.

وقال ابن عبَّاس: إنّ الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزءٌ للمؤمن، وجزءٌ للمنافق، وجزءٌ للكافر. فالمؤمن يتزوَّد، والمنافق يتزيَّن، والكافر يتمتَّع.

وقال بعضهم: الدنيا جيفةٌ، فمَنْ أراد منها شيئاً فليصبرْ على معاشرةِ الكلاب. وفي ذلك قيل:

(١) فيء: مكان يُستظل به.

يا خاطبَ الدُّنيا إلى نفسها ... تنحَّ عن خطبتِها تسلمِ
إنَّ التي تَخْطبُ غدَّارةٌ ... قريبةُ العُرسِ من المأتمِ

وقال أبو الدَّرداء: من هوان الدنيا على الله أنَّه لا يُعصى إلاّ فيها، ولا يُنال ما عنده إلا بتركها. وفي ذلك قيل:

إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تكشَّفتْ ... له عن عدوٌ في ثيابِ صديق

وقيل أيضاً:

يا راقدَ الليلِ مسروراً بأوَّله ... إن الحوادثَ قد يطرقنَ أسحارا
أفنى القرونَ التي كانتْ منعَّمةً ... كرُّ الجديدين[1] إقبالاً وإدبارا
كم قد أبادتْ صروفُ الدَّهرِ من ملِكٍ ... قد كان في الدَّهرِ نفَّاعاً وضرَّارا
يا من يُعانقُ دنيا لا بقاءَ له ... يُمسي ويُصبح في دنياه سفَّارا
هلاّ تركتَ من الدُّنيا معانقةً ... حتى تُعانقَ في الفردوسِ أبكارا
إن كنتَ تبغي جنانَ الخُلدِ تسكنها ... فينبغي لك أنْ لا تأمنِ النارا

وقال أبو أُمامة الباهلي رضي الله عنه: لمّا بُعث محمَّد ﷺ أتت إبليسَ جنودُه فقالوا: قد بُعث نبيٌّ، وأُخرجت أمَّة. قال: يحبُّون الدنيا؟ قالوا: نعم. قال: لئن كانوا يحبُّون الدنيا ما أبالي أن لا يعبدوا الأوثان، وإنما أغدو عليهم وأروحُ بثلاث: أخذ المال من غير حقِّه. وإنفاقه في غير حقِّه، وإمساكه عن حقِّه، والشرُّ كلُّه من هذا نبع.

وقال رجلٌ لعليٍّ كرَّم الله وجهه: يا أميرَ المؤمنين، صف لنا الدنيا؟ قال: وما أصفُ لك من دارٍ مَنْ صحَّ فيها سَقِم، ومَنْ أمن فيها ندم، ومَنِ افتقر فيها حزِن، ومَنِ استغني فيها افتُتن. في حلالها الحساب، وفي حِرامها العقاب، وفي مُتشابهها العتاب.

وقيل له ذلك مرَّة أخرى فقال: أُطوِّلُ أم أُقصِّر؟ فقيل: قصِّر. فقال: حلالها حساب، وحرامها عذاب.

وقال مالك بن دينار: اتقوا السحَّارة، فإنها تَسْحر قلوب العلماء. يعني الدنيا.

وقال أبو سُليمان الداراني: إذا كانتِ الآخرة في القلب، جاءت الدُّنيا تُزاحمها،

---

(١) الجديدين: الليل والنهار.

فإذا كانتِ الدنيا في القلب، لم تزاحمها الآخرة، لأنَّ الآخرة كريمةٌ، والدنيا لئيمة.

وهذا تشديد عظيم، ونرجو أن يكون ما ذكره سيَّار بن الحكم أصحُّ إذ قال: الدنيا والآخرةُ يجتمعان في القلب، فأيُّهما غلبَ كان الآخر تَبَعاً له.

وقال مالك بن دينار: بقدرِ ما تحزن للدنيا، يخرج همُّ الآخرة من قلبك، وبقدر ما تحزن للآخرة، يخرج همُّ الدنيا من قلبك.

وهذا اقتباسٌ مما قاله عليٌّ كرَّم الله وجهه حيثُ قال: الدُّنيا والآخرة ضَرَّتان، فبقدر ما تُرضي إحداهما تُسْخِط الأخرى.

وقال الحسن: والله لقد أدركتُ أقواماً كانتِ الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه، ما يُبالون أشرَّقت الدُّنيا أم غرَّبت، ذهبت إلى ذا، أو ذهبت إلى ذا؛

وقال رجلٌ للحسن: ما تقولُ في رجلٍ آتاه الله مالاً فهو يتصدَّق منه، ويصل منه، أيحسنُ له أن يتعيَّش فيه؟ يعني يتنعَّم. فقال: لا، لو كانت له الدنيا كلُّها ما كان له منها إلاّ الكفاف، ويقدِّم ذلك ليوم فقره.

وقال الفُضيل: لو أنَّ الدُّنيا بحذافيرها عُرِضتْ عليَّ حلالاً لا أُحاسب عليها في الآخرة، لكنت أتقذَّرها كما يتقذَّرُ أحدُكم الجيفةَ إذا مرَّ بها أن تصيب ثوبه.

وقيل: لمّا قدِم عمر رضي الله عنه الشام، فاستقبله أبو عُبيدة بن الجراح على ناقةٍ مخطومة بحبلٍ، فسلَّم وسأله، ثم أتى منزلَه، فلم يرَ فيه إلا سيفَه وترسَه ورحله، فقال له عمر رضي الله عنه: لو اتَّخذتَ متاعاً! فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ هذا يُبلِّغنا المقيل.

وقال سفيان: خُذ من الدنيا لبدنك، وخُذ من الآخرة لقلبك.

وقال الحسن: والله، لقد عبَدتْ بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم الرحمن بحبِّهم للدنيا.

وقال وهب: قرأتُ في بعض الكتب: الدنيا غنيمة الأكياس[1]، وغفلة الجُهَّال، لم يعرفوها حتى خرجوا منها، فسألوا الرَّجعةَ، فلم يرجعوا.

---

(١) الأكياس: جمع كيِّس وهو العاقل.

وقال لقمان لابنه: يا بُنَيَّ، إنك استدبرت الدنيا من يوم نزلتها، واستقبلت الآخرة، فأنت إلى دارٍ تُقرِّبُ منها، أقرب من دار تباعدت عنها.

وقال سعيد بن مسعود: إذا رأيتَ العبد تزداد دنياه، وتنقص آخرته، وهو به راضٍ، فذلك المغبون الذي يُلْعَب بوجهه وهو لا يشعر.

وقال عمرو بن العاص على المنبر: والله، ما رأيت قوماً قطُّ أرغب فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه منكم، والله ما مرَّ برسول الله ﷺ ثلاثٌ إلا والذي عليه أكثر من الذي له.

وقال الحسن بعد أن تلا قوله تعالى: ﴿فلا تغرنّكم الحياةُ الدنيا﴾[1] مَنْ قال ذا؟ قاله مَنْ خلقها، ومن هو أعلم بها.

إيّاكم وما شغَلَ من الدنيا، فإنَّ الدنيا كثيرة الأشغال، لا يفتح رجلٌ على نفسه باب شغل إلاّ أوشك ذلك الباب أن يَفتحَ عليه عشرةَ أبواب.

وقال أيضاً: مسكينٌ ابن آدم، رضي بدارٍ حلالها حساب، وحرامها عذاب، إنْ أخذه من حِلِّه حُوسب به، وإنْ أخذه من حرام عُذِّب به.

ابنُ آدم يستقلُّ ماله، ولا يستقلّ عمله، يفرح بمصيبته في دينه، ويجزع من مُصيبته في دنياه.

وكتب الحسن إلى عمرَ بنِ عبد العزيز: سلامٌ عليك، أما بعد، فكأنَّك بآخر من كُتِبَ عليه الموت قد مات. فأجابه عمر: سلامٌ عليك، كأنَّك بالدنيا ولم تكن، وكأنَّك بالآخرة لم تزل.

وقال الفُضيل بن عياض: الدخولُ في الدُّنيا هيِّن[2]، ولكنّ الخروجَ منها شديد.

وقال بعضهم: عجباً لمن يعرف أن الموتَ حقٌّ كيف يفرح! وعجباً لمن يعرف أنَّ النار حقٌّ كيف يضحك! وعجباً لمن رأى تقلُّبَ الدنيا بأهلها كيف يطمئنُّ إليها! وعجباً

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٣.

(٢) هيِّن: سهل ليس فيه صعوبة.

لمن يعلمُ أنَّ القدر حقٌّ كيف ينصب[١]!

وقدم على معاوية رضي الله عنه رجلٌ من نجران عُمره مئتا سنة، فسأله عن الدنيا كيف وجدها؟ فقال: سُنيَّاتُ بلاء، وسُنيَّات رخاء، يوم فيوم، وليلة فليلة، يولد ولد، ويهلك هالك، فلولا المولود لباد[٢] الخلق، ولولا الهالك لضاقت الدنيا بمن فيها. فقال له: سل ما شئت. قال: عمر مضى فتردَّه، أو أجَلٌ حضر فتدفعه. قال: لا أملك ذلك. قال: لا حاجة لي إليك.

وقال داود الطائي رحمه الله: يا ابنَ آدم فرحت ببلوغ أملك، وإنَّما بلغته بانقضاءِ أجلك، ثم سوَّفْتَ[٣] بعملك كأنَّ منفعته لغيرك.

وقال بِشر: مَنْ سأل الله الدنيا، فإنَّما يَسأله طولَ الوقوف بين يديه.

وقال أبو حازم: ما في الدُّنيا شيءٌ يَسرُّك إلا وقد ألصق الله إليه شيئاً يسوؤك.

وقال الحسن: لا تخرجُ نفسُ ابنِ آدم من الدنيا إلا بحسراتٍ ثلاث: أنَّه لم يشبع مما جمع، ولم يُدرك ما أمل، ولم يُحسِنِ الزاد لما قدم عليه.

وقيل لبعض العُبَّاد: قد نِلْتَ الغِنى. فقال: إنَّما نال الغِنى مَنْ عُتِقَ من رِقِّ الدنيا.

وقال أبو سُليمان: لا يصبر عن شهوات الدُّنيا إلاَّ مَنْ كان في قلبه ما يَشغله بالآخرة.

وقال مالك بن دينار: اصطلحنا على حُبِّ الدنيا، فلا يأمر بعضُنا بعضاً، ولا ينهى بعضنا بعضاً، ولا يدعنا الله على هذا. فليت شعري أيّ عذابِ الله ينزل علينا!؟

وقال أبو حازم: يسير[٤] الدنيا يشغل عن كثير الآخرة.

وقال الحسن: أهينوا الدنيا، فوالله ما هي لأحدٍ بأهنأ منها لمن أهانها.

---

(١) ينصب: يتعب.
(٢) باد: فني وانتهى.
(٣) سوَّفت: أخرَّت.
(٤) يسير: قليل.

وقال أيضاً: إذا أرادَ الله بعبدٍ خيراً، أعطاه من الدنيا عطيةً، ثم يُمسك، فإذا نفد أعاد عليه، وإذا هان عليه عبد، بسطَ له الدُّنيا بسطاً.

وكان بعضهم يقول في دعائه: يا مُمسكَ السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنك، أمسك الدنيـا عنّي.

وقال محمد بن المُنكدر: أرأيت لو أنَّ رجلاً صام الدهر لا يفطر، وقام الليل لا ينام، وتصدَّق بماله، وجاهدَ في سبيل الله، واجتنب محارم الله، غير أنَّه يُؤتى به يوم القيامة فيقال: إنَّ هذا عَظُم في عينه ما صغَّره الله، وصَغُر في عينه ما عظَّمه الله، كيف ترى يكون حاله؟ فمَنْ مِنّا ليس هكذا الدنيا عظيمة عنده، مع ما اقترفنا من الذنوب والخطايا؟

وقال أبو حازم: اشتدَّت مؤنة الدنيا والآخرة، فأمّا مؤنة الآخرة فإنَّك لا تجد عليها أعواناً، وأمّا مؤنة الدنيا فإنَّك لا تضرب بيدك إلى شيء منها إلا وجدتَ فاجراً قد سبقك إليه.

وقال أبو هريرة: الدُّنيا موقوفة بين السماء والأرض كالشَّنِّ[١] البالي تُنادي ربَّها منذ خلقها إلى يومٍ يفنيها: يا ربِّ، يا ربِّ لم تُبغضني؟ فيقول لها: اسكتي يا لا شيء.

وقال عبد الله بن المبارك: حُبُّ الدنيا والذنوب في القلب قد احتوشته[٢]، فمتى يَصلُ الخير إليه؟.

وقال وهب بن منبّه: مَنْ فرح قلبه بشيءٍ من الدنيا فقد أخطأ الحكمة، ومَنْ جعل شهوته تحت قدميه فرِق[٣] الشيطان من ظلِّه، ومَنْ غلب علمه هواه فهو الغالب.

وقيل لبِشر: مات فلان. فقال: جمع الدنيا، وذهب إلى الآخرة، وضيَّع نفسَه. قيل له: إنَّه كان يفعل ويفعل، وذكروا أبواباً من البِرِّ فقال: وما ينفعُ هذا وهو يجمع الدنيا؟

---

(١) الشَّن: القربة.

(٢) احتوشته: أحاطت به.

(٣) فرِق: خاف.

وقال بعضهم: الدنيا تبغَّض إلينا نفسَها، ونحن نحبُّها، فكيف لو تحببَّت إلينا؟.

وقيل لحكيم: الدُّنيا لمن هي؟ قال: لمن تركها. فقيل: الآخرة لمن هي؟ قال: لمن طلبها.

وقال حكيم: الدنيا دارُ خرابٍ، وأخربُ منها قلب من يعمُرُها، والجنَّة دارُ عِمْران، وأعمرُ منها قلبُ من يطلبها.

وقال الجُنيد: كان الشَّافعي رحمه الله من المُريدين الناطقين بلسان الحقِّ في الدنيا، وعظَ أخاً له في الله وخوَّفه بالله فقال: يا أخي، إنَّ الدنيا دحضُ مزلَّة، ودار مَذلَّة، عِمْرانها إلى الخراب صائر، وساكنها إلى القبور زائر، شملها على الفرقة موقوف، وغناها إلى الفقر مصروف، الإكثار فيها إعسار، والإعسار فيها يسار، فافزع إلى الله، وارْضَ برزق الله، لا تتسلَّف من دار فنائك إلى دار بقائك، فإنَّ عيشَك فيءٌ زائل، وجدار مائل، أكْثِرْ من عملك، وأقْصِرْ من أملك.

وقال إبراهيم بن أدهم لرجلٍ: أدِرْهمٌ في المنام أحبُّ إليك، أم دينار في اليقظة؟ فقال: دينار في اليقظة، فقال: كذبت، لأنَّ الذي تُحبُّه في الدنيا كأنَّك تحبُّه في المنام، والذي لا تُحبُّه في الآخرة كأنَّك لا تُحبُّه في اليقظة.

وعن إسماعيل بن عيَّاش قال: كان أصحابُنا يسمُّون الدنيا خنِزيرة فيقولون: إليكِ عنّا يا خنِزيرة، فلو وجدوا لها اسماً أقبح من هذا لسمُّوها به.

وقال كعب: لتُحبَّبنَّ إليكم الدنيا حتى تعبدوها وأهلَها.

وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله: العقلاء ثلاثة: مَنْ ترك الدنيا قَبْل أن تتركه، وبنى قبره قبل أنْ يدخله، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه.

وقال أيضاً في الدُّنيا: بلَغَ من شؤمها أنْ تَمَنِّيَكَ لها يُلهيك عن طاعة الله، فكيف الوقوع فيها؟.

وقال بكر بن عبد الله: مَنْ أراد أن يستغنيَ عن الدُّنيا بالدنيا كان كمطفىء النار بالتبن.

وقال بُندار: إذا رأيت أبناء الدنيا يتكلّمون في الزهد، فاعلم أنّهم في سُخْرة[1] الشيطان.

وقال أيضاً: مَنْ أقبل على الدُّنيا أحرقته نِيْرانها، يعني الحرص، حتى يصيرَ رماداً، ومَنْ أقبل على الآخرة صفَّته بنيرانها فصار سبيكةَ ذهب يُنتفع به، ومَنْ أقبل على الله عزّ وجلّ أحرقته نيرانُ التوحيد فصار جوهراً لاحدَّ لقيمته.

وقال عليٌّ كرّم الله وجهه: إنّما الدنيا سِتَّة أشياء: مطعوم، ومشروب، وملبوس، ومركوب، ومنكوح، ومشموم، فأشرف المطعومات العسل وهو مَذْقَةُ ذبابٍ، وأشرفُ المشروبات الماء ويستوي فيه البَرُّ والفاجر، وأشرفُ الملبوسات الحرير وهو نَسْجُ دودةٍ، وأشرف المركوبات الفرس وعليه يُقْتَل الرِّجال، وأشرف المنكوحات المرأةُ وهي مبال في مبال، وإنَّ المرأة لتزيِّن أحسنَ شيءٍ منها، ويُراد أقبحُ شيءٍ منها، وأشرفُ المشمومات المسك وهو دَمٌ.

---

(١) سُخْرة: خدمة.

٣٢ ـ باب: في ذمّ الدنيا أيضاً

قال بعضهم: يا أيُّها الناس، اعملوا على مهل، وكونوا من الله على وَجَل[١]، ولا تغترُّوا بالأمل، ونسيان الأجل، ولا تَرْكنوا إلى الدنيا، فإنَّها غدَّارة خدَّاعة، قد تزخرفت لكم بغرورها، وفتنتكم بأمانيِّها، وتزيَّنت لخُطَّابها، فأصبحت كالعروس المجليَّة، العيونُ إليها ناظرة، والقلوب عليها عاكفة، والنفوس لها عاشقة، فكم من عاشقٍ لها قتلت، ومُطمئنٍ إليها خذلت، فانظروا إليها بعين الحقيقة، فإنَّها دارٌ كثير بوائقها[٢]، وذمَّها خالقها، جديدها يبلى، وملْكُها يفنى، وعزيزها يذلُّ، وكثيرها يقلُّ، ودُّها يموت، وخيرُها يفوت.

فاستيقظوا رحمكم الله من غفلتكم، وانتبهوا من رقدتكم، قبل أن يُقال: فلان عليل[٣]، مُدنفٌ ثقيل، فهل على الدواء من دليل؟ أو هل إلى الطبيب من سبيل؟ فتُدعى لك الأطباء، ولا يُرجى لك الشفاء، ثم يُقال: فلان أوصى، ولماله أحصى، ثم يُقال: قد ثقل لسانه، فما يكلِّم إخوانَه، ولا يعرف جيرانه، وعَرِق عند ذلك جبينك، وتتابع أنينك، وثبت يقينك، وطمحت جفونك، وصدقت ظنونك، وتلجلج لسانك، وبكى إخوانك، وقيل لك: هذا ابنك فلان، وهذا أخوك فلان، ومُنِعْتَ من الكلام فلا تنطق، وخُتِم على لسانك فلا ينطلق، ثم حلَّ بك القضاء، وانْتُزِعت نفسك من الأعضاء، ثم عُرِج بها إلى السماء، فاجتمع عند ذلك إخوانك، وأُحضرت أكفانك، فغسَّلوك، وكفَّنوك، فانقطع عُوَّادك[٤]، واستراح حُسَّادك، وانصرف أهلُك إلى مالك، وبقيت مُرْتَهناً بأعمالك.

---

(١) وجل: حذر.
(٢) بوائقها: مصائبها.
(٣) عليل: مريض.
(٤) عُوّادكُ: زوارك.

وقال بعضهم لبعض الملوك: إنَّ أحقَّ النَّاس بذمِّ الدنيا وقِلاها[١] مَنْ بُسِط له فيها، وأُعطي حاجته منها، لأنَّه يتوقَّع آفةً تعدو على ماله فتجتاحه، أو على جمعه فتفرِّقه، أو تأتي سلطانه فتهدمه من القواعد، أو تدِبُّ إلى جسمه فتُسْقِمه، أو تَفْجَعه بشيء هو ضنين به بين أحبابه.

فالدنيا أحقُّ بالذمِّ. هي الآخذة ما تُعطي، الراجعة فيما تَهَب. بينا هي تُضْحِك صاحبها، إذا أضحكت منه غيره، وبينا هي تَبكي له، إذ أبكت عليه، وبينا هي تبسط كفَّها بالإعطاء، إذ بسطتها بالاسترداد، فتعقد التاج على رأس صاحبها اليوم، وتعفِّره في التراب غداً، سواءٌ عليها ذهاب ما ذهب، وبقاء ما بقي. تجد في الباقي من الذاهب خلفاً، وترضى بكلٍّ من كلٍّ بدلاً.

وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز: أمّا بعد، فإنَّ الدنيا دارُ ظَعْنٍ[٢] ليست بدار إقامة، وإنّما أُنزل آدم عليه السلام من الجنَّة إليها عقوبةً، فاحذرها يا أمير المؤمنين، فإنَّ الزادَ منها تركها، والغِنى منها فقرها. لها في كلِّ حين قتيل، تُذِلُّ مَنْ أعزَّها، وتفقر مَنْ جمعها.

هي كالسُّمِّ يأكله مَنْ لا يعرفه، وفيه حتفه[٣]، فكُن فيها كالمُداوي جراحَه، يحتمي قليلاً مخافة ما يكره طويلاً، ويصبر على شدَّة الدواء مخافةَ طولِ الدَّاء.

فاحذر هذه الدار الغدَّارة الختَّالة الخدَّاعة التي قد تزيَّنت بخدعها، وفتنت بغرورها وحلَّت بآمالها، وسوَّفت بخُطَّابها، فأصبحت كالعروس المجليَّة، العيونُ إليها ناظرة، والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها كلِّهم قالية، فلا الباقي بالماضي مُعْتَبِر، ولا الآخِر بالأوَّل مُزْدَجِر، ولا العارف بالله عزَّ وجلَّ حين أخبره عنها مُذَّكر، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته، فاغترَّ وطغى ونسي المعاد، فشُغِل فيها لُبه، حتى زلَّت به قدمه، فعظمت ندامته، وكثرت حسرته، واجتمعت عليه سكرات الموت وتألُّمُه، وحسرات الفوت بغصَّته.

---

(١) وقلاها: بغضها.

(٢) ظعن: سفر.

(٣) حتفه: موته.

وراغبٌ فيها لم يدرك منها ما طلب، ولم يُرَوِّح نفسه من التعب، فخرج بغير زاد، وقدم على غيرِ مهاد، فاحذرها يا أمير المؤمنين، وكُنْ أسرَّ ما تكون فيها أحذرَ ما تكون لها، فإنَّ صاحب الدُّنيا كلَّما اطمأنَّ منها إلى سرور، أشخصته إلى مكروه، الضارُّ في أهلها غار، والنافع فيها غدَّار ضار، وقد وُصِلَ الرخاء منها بالبلاء، وجُعِلَ البقاء فيها إلى فناء، فسرورها مشوب بالأحزان، لا يرجع منها ما ولَّى وأدبر، ولا يُدْرَى ما هو آتٍ فيُنتَظر، أمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كَدَر، وعيشها نكَد، وابن آدم فيها على خطر.

إن عقل ونظر، فهو من النَّعْمَاء على خطر، ومن البلاء على حذر، فلو كان الخالقُ لم يُخبر عنها خبراً، ولم يضرِب لها مثلاً، لكانت الدُّنيا قد أيقظت النائم، ونبَّهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله عزَّ وجلَّ عنها زاجر[١]، وفيها واعظ؟ فما لها عند الله جلَّ ثناؤه قدر، وما نظر إليها منذ خلقها، ولقد عُرِضت على نبيِّك ﷺ بمفاتيحها وخزائنها، لا ينقصه ذلك عند الله جناح بعوضة، فأبى أن يقبلها، إذ كره أن يُخالف على الله أمره، أو يُحبَّ ما أبغضه خالقه، أو يرفع ما وضعه مليكه، فزواها[٢] عن الصَّالحين اختباراً، وبسطها لأعدائه اغتراراً، فيظنُّ المغرورُ بها، المقتدر عليها أنَّه أُكْرِم بها، ونسي ما صنع الله عزَّ وجلَّ بمحمد ﷺ حين شدَّ الحجر على بطنه.

ولقد جاءت الروايةُ عنه عن ربِّه جلَّ وعزّ أنَّه قال لموسى عليه السلام: إذا رأيت الغِنى مُقْبلاً فقل: ذنبٌ عُجِّلتْ عقوبته، وإذا رأيت الفقر مُقْبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين.

وإن شئتَ اقتديت بصاحب الرُّوح والكلمة، عيسى ابن مريم عليه السلام، فإنَّه كان يقول: إدامي الجوع، وشعاري الخوف، ولباسي الصُّوف، وسراجي القمر، ودابَّتي رجلاي، وطعامي وفاكهتي ما أنبتتِ الأرض، أبيْت وليس لي شيء، وأصبح وليس لي شيء، وليس على الأرضِ أحدٌ أغنى منِّي.

وقال وهب بن منبِّه: لمَّا بعث الله عزَّ وجلَّ موسى وهارون عليهما السلام إلى

---

(١) زاجر: رادع.
(٢) زواها: نحّاها، وطواها.

فرعون، قال: لا يَرُوِّعَنّكما[١] لباسه الذي لبس من الدنيا، فإنَّ ناصيته بيدي، ليس ينطق، ولا يطرف، ولا يتنفّس إلاّ بإذني.

ولا يعجبنّكما ما تمتّع به منها، فإنّما هو زهرةُ الحياة الدنيا، وزينة المترفين، فلو شئت أن أزينكما بزينة من الدنيا يعرف فرعونُ حين يراها أن قدرته تعجز عما أوتيتما لفعلت، ولكني أرغب بكما عن ذلك، فأزوي ذلك عنكما، وكذلك أفعل بأوليائي، إني لأذودهم عن نعيمها، كما يذود الراعي الشفيق غنمه من مراتع الهلكة، وإني لأجنبهم ملاذها كما يجنب الراعي الشفيق إبلهِ عن منازل الغِرَّة، وما ذاك لهوانهم عليَّ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي، سالماً موفَّراً.

إنّما يتَزيّنُ لي أوليائي بالذُّلِ والخوف والخضوع، والتقوى تنبُت في قلوبهم، وتظهرُ على أجسادهم، فهي ثيابهم التي يلبسون، ودِثارهم الذي يظهرون، وضميرهم الذي يستشعرون، ونجاتهم التي بها يفوزون، ورجاؤهم الذي إيّاه يأملون، ومجدُهم الذي به يفخرون، وسيماهم التي بها يُعرفون، فإذا لقيتهم، فاخفضْ لهم جناحك، وذلّلْ لهم قلبك ولسانك، واعلم أنّه من أخاف لي وليّاً فقد بارزني بالمُحاربة، ثم أنا الثّائرُ له يوم القيامة.

وخطب عليٌّ كرّم الله وجهه يوماً خُطبة فقال فيها: إعلموا أنّكم ميّتون، ومبعوثون من بعد الموت، وموقوفون على أعمالكم، ومجزيُّون بها، فلا تغرَّنّكم الحياة الدنيا، فإنّها بالبَلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة، وكلُّ ما فيها إلى زوال، وهي بين أهلها دولٌ وسجال، لا تدوم أحوالُها، ولا يَسلم من شرِّها نُزَّالُها. بينا أهلها منها في رخاءٍ وسرور، إذا هم منها في بلاءٍ وغرور، أحوالٌ مختلفة، وتاراتٌ منصرفة، العيش فيها مذموم، والرَّخاء فيها لا يدوم، وإنّما أهلها فيها أغراضٌ مُسْتَهدفة، ترميهم بسهامها، وتُقصيهم[٢] بحِمامِها، وكلٌّ حتفه فيها مقدور، وحظُّه فيها موفور.

واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى، ممَّن كان أطولَ منكم أعماراً، وأشدَّ منكم بطشاً، وأعمر دياراً، وأبعد آثاراً.

---

(١) لا يروعّنكما: لا يُخيفنكما.

(٢) تقصيهم: تُبعدهم.

فأصبحت أصواتُهم هامدةً خامدة، من بعد طول تقلُّبها، وأجسادهم بالية، وديارهم على عروشها خاوية، وآثارهم عافية، واستُبدلوا بالقصورِ المشيَّدة، والسُّرر والنمارق الممهَّدة الصخور، والأحجار المُسنَّدة في القبور، اللاطِية المُلحدة، فمحلها مُقْترب، وساكنها مغترب، بين أهل عمارة موحشين، وأهل محلَّةٍ مُتشاغلين، لا يستأنسون بالعمران، ولا يتواصلون تواصل الجيران والإخوان، على ما بينهم من قُرْب المكان والجوار، ودنوِّ الدار، وكيف يكون بينهم تواصلٌ؟ وقد أكلتهم الجنادل والثرى، وأصبحوا بعد الحياة أمواتاً، وبعد نضارةِ العيش رُفاتاً، فُجع بهم الأحباب، وسكنوا تحت التراب، وظعنوا فليس لهم إياب؟ هيهات هيهات، ﴿كلاَّ إنَّها كلمةٌ هو قائلها ومِنْ وَرَائهمْ بَرْزَخٌ إلى يوم يُبعثون﴾[١] فكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البِلاء والوحدة في دار المثوى، وارْتُهِنتُم في ذاك المضجع، وضمَّكم ذاك المستودع، فكيف بكم لو عاينتم الأمور، وبُعْثِرت القبور، وحصِّلَ ما في الصدور، وأوقفتم للتحصيل بين يدي الملك الجليل، فطارت القلوب لأشفاقها من سالف الذنوب، وهُتكت عنكم الحُجُب والأستار، وظهرت منكم العيوب والأسرار؟ هنالك تُجزى كلُّ نفس بما كسبت.

إن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤوا بما عَمِلوا وَيَجْزِيَ الَّذينَ أحسنُوا بالحُسنى﴾[٢] وقال تعالى: ﴿ووُضِعَ الكتابُ فترى المُجرمينَ مُشفقينَ ممَّا فيه﴾[٣].

جعلنا الله وإيَّاكم عاملين بكتابه، متَّبعين لأوليائه، حتى يُحِلَّنا وإيَّاكم دارَ المقُامة من فضله، إنّه حميد مجيد.

وقال بعض الحكماء: الأيام سهام، والناس أغراض، والدهر يرميك كلَّ يوم بسهامه، ويخترمك بلياليه وأيامه، حتى يستغرقَ جميع أجزائك، فكيف بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك، وسرعة الليالي في بدنك؟ لو كُشف لك عمَّا أحدثتِ الأيام فيك، من النقص، لاستوحشت من كلِّ يومٍ يأتي عليك، واستثقلت ممرَّ الساعات بك، ولكنَّ تدبير الله فوق تدبير الاعتبار، وبالسلوِّ عن غوائل الدنيا وجد طعمُ لذاتها، وإنَّها لأمَرُّ من

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.
(٢) سورة النجم، الآية: ٣١.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

العلقم إذا عجنها الحكيم، وقد أعيت الواصفَ لعيوبها بظاهر أفعالها، وما تأتي به من العجائب أكثر مما يحيط به الواعظ.

اللهم أرشدنا إلى الصواب.

وقال بعض الحكماء وقد استُوصِفَ الدُّنيا وقدرَ بقائها فقال: الدنيا وقتك الذي يرجع إليك فيه طرفك، لأنَّ ما مضى عنك فقد فاتك إدراكه، وما لم يأت فلا علمَ لك به، والدهر يوم مقبلٌ تنعاه ليلته، وتطويه ساعاته، وأحداث تتوالى على الإنسان بالتغيير والنقصان، والدَّهر موكَّل بتشتيت الجماعات وانخرامِ الشَّمل، وتنقُّل الدُّول، والأمل طويل، والعمر قصير، وإلى الله تصير الأمور.

وخطب عمرُ بن عبد العزيز رحمة الله عليه فقال: يا أيُّها الناس إنَّكم خُلِقتم لأمرٍ إن كنتم تصدّقون به فإنكم حمقىٰ، وإن كنتم تُكذِّبون به فإنكم هلكى، فما خلقتم للأبد، ولكنكم من دارٍ إلى دار تنقلون.

عبادَ الله إنَّكم في دارٍ لكم فيها من طعامكم غُصص، ومن شرابكم شَرَق، لا تصفو لكم نعمةٌ تُسرُّون بها، إلا بفراقِ أخرى تكرهون فِرَاقها، فاعلموا لما أنتم صائرون إليه، وخالدون فيه. ثم غلبه البكاء ونزل.

وقال عليٌّ كرَّم الله وجهه في خُطبته: أوصيكم بتقوى الله، والتَّرْك للدنيا التاركة لكم، وإن كنتم لا تُحبُّون تركها، المُبْلية أجسامَكم، وأنتم تريدون تجديدها، فإنَّما مَثَلُكم ومثلُها كمثلِ قومٍ في سفر سلكوا طريقاً، وكأنَّهم قد قطعوه، وأفضوا إلى علمٍ فكأنَّهم بلغوه، وكم عسى أن يجري المجرى حتى ينتهي إلى الغاية؟ وكم عسى أن يبقى من له يوم في الدنيا، وطالب حثيث يطلبه حتى يفارقها؟

فلا تجزعوا لبؤسها وضرَّائها، فإنَّه إلى انقطاع، ولا تفرحوا بمتاعها ونَعْمائها، فإنه إلى زوال. عجبتُ لطالبِ الدنيا والموتُ يطلبه، وغافلٍ وليس بمغفول عنه.

وقال محمد بن الحسين: لمَّا علمَ أهلُ الفضل والعلم والمعرفة والأدب أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أهان الدنيا، وأنَّه لم يرضها لأوليائه، وأنَّها عنده حقيرةٌ ذليلة، وأنَّ رسولَ الله ﷺ زهد فيها، وحذَّر أصحابه فِتْنَتَها، أكلوا منها قَصداً، وقدَّموا فضلاً، وأخذوا منها ما يكفي، وتركوا ما يلهي، لبسوا من الثياب ما ستر العورة، وأكلوا من الطعام أدناه،

ممَّا سدَّ الجَوعة، ونظروا إلى الدنيا بعين أنَّها فانية، وإلى الآخرة أنَّها باقية، فتزوَّدوا من الدنيا كزادِ الرَّاكبِ، فخرَّبوا الدنيا، وعمروا بها الآخرة، ونظروا إلى الآخرة بقلوبهم، فعلموا أنَّهم سينظرون إليها بأعينهم، فارتحلوا إليها بقلوبهم، لمّا علموا أنهم سيرتحلون إليها بأبدانهم، تعبوا قليلاً، وتنعَّموا طويلاً. كلُّ ذلك بتوفيق مولاهم الكريم، أحبُّوا ما أحبَّ لهم، وكرهوا ما كره لهم.



٣٣ ـ باب: في فضل القناعة[١]

اعلم أنَّه ينبغي أن يكون الفقيرُ قانعاً منقطعَ الطمع عن الخلق، غيرٌ ملتفت إلى ما في أيديهم، ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان، ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة من المطعم والملبس والمسكن، ويقتصر على أقلِّه قدراً، وأخسِّه نوعاً، ويردُّ أمله إلى يومه، أو شُهْره، ولا يشغل قلبه بما بعد شهر، فإن تشوَّق إلى الكثير، أو طوَّل أمله، فاته عزُّ القناعة، وتدنَّس لا محالة بالطمع وذلِّ الحرص، وجرَّه الحرص والطمع إلى مساوىء الأخلاق، وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات، وقد جُبِل الآدمي على الحرص والطمع، وقِلَّة القناعة.

قال رسولُ الله ﷺ: «لو كان لابن آدم واديان من ذهبٍ لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب».

وعن أبي واقدٍ الليثي قال: كان رسول الله ﷺ إذا أُوحي إليه أتيناه يعلِّمنا ممّا أُوحي إليه، فجئته ذات يوم فقال: «إن الله عزَّ وجلَّ يقول: إنَّا أنزلنا المالَ لإقامِ الصلاة، وإيتاء الزكاة، ولو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لأحبَّ أن يكون له ثانٍ، وإن كان له الثاني لأحبَّ أن يكون لهما ثالث، ولا يملأُ جوفَ ابن آدم إلاّ التراب، ويتوب الله على من تاب».

وقال أبو موسى الأشعري: نزلت سورةٌ نحو براءة ثم رفعت، وحُفظ منها: إنَّ الله يؤيد هذا الدين بأقوامٍ لا خَلاق لهم، ولو أنَّ لابن آدم واديين من مالٍ لتمنّى وادياً ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب.

وقال ﷺ: «منهومان لا يشبعان: منهوم العلم، ومنهوم المال».

وقال ﷺ: يهرَمُ ابن آدم، ويَشِبُّ معه اثنتان: الأمل وحبُّ المال» أو كما قال.

ولمَّا كانت هذه جِبلَّةٌ[٢] للآدمي مُضلَّة، وغريزة مُهلكة، أثنى الله تعالى ورسولُه

---

(١) القناعة: من قَنِعَ قَنَعا، وقناعة: رضي بما أعطي، فهو قانع.
(٢) جبلَّةٌ: خلِقة.

على القناعة، فقال ﷺ: «طُوبى لمن هُدي للإسلام، وكان عيشُه كفافاً، وقنع به».

وقال ﷺ: «ما من أحدٍ فقير ولا غنيٍّ إلا ودَّ يوم القيامة أنه كان أُوتي قوتاً في الدنيا».

وقال ﷺ: «ليس الغِنى عن كثرة العَرَض[1]، إنَّما الغنى غنى النفس».

ونهى عن شدَّة الحرص، والمبالغة في الطَّلب فقال: «ألا أيُّها الناس أجملوا في الطلب، فإنَّه ليس لعبدٍ إلاّ ما كُتِب له، ولن يذهب عبدٌ من الدنيا حتى يأتيه ما كُتب له من الدُّنيا وهي راغمة».

ورُوي أنَّ موسى عليه السلام سأل ربَّه تعالى فقال: أيُّ عبادك أغنى؟ قال: أقنعهم بِمَا أعطيته. قال: فأيُّهم أعدل؟ قال: من أنصف من نفسه.

وقال ابنُ مسعود: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ روحَ القُدُسِ نفث[2] في رَوْعي أن نفساً لن تموت حتى تستكملَ رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب».

وقال أبو هريرة: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا أبا هريرة، إذا اشتدَّ بك الجوعُ فعليك برغيفٍ وكوزٍ من ماء، وعلى الدُّنيا الدَّمار».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «كُن ورِعاً تكنْ أعبدَ النَّاس، وكُن قنعاً تكن أشكرَ الناس، وأحِبَّ للناس ما تحبُّ لنفسك تكن مؤمناً».

ونهى رسول الله ﷺ عن الطمع.

فيما رواه أبو أيوب الأنصاري: أنَّ أعرابيّاً أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، عِظني وأوجز فقال: «إذا صلَّيتَ فصلِّ صلاة مودِّع، ولا تحدثنَّ بحديث تعتذر منه غداً، واجمعِ اليأس ممّا في أيدي الناس».

وقال عوف بن مالك الأشجعي: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «ألا تبايعون رسول الله!» قلنا: أو ليس قد بايعناك يا رسول الله؟ ثم قال: «ألا

---

(١) العرض: المال.
(٢) نفث: نفخ.

تبايعون رسول الله!» فبسطنا أيدينا فبايعناه، فقال قائل منّا: قد بايعناك، فعلى ماذا نبايعك؟

قال: «أن تعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئاً، وتصلّوا الخمس، وأن تسمعوا وتُطيعوا، وأسرَّ كلمة خفيَّة، ولا تسألوا الناس شيئاً». قال: فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه، فلا يسأل أحداً أن يناوله أيّاه.

وقال عمر رضي الله عنه: إنَّ الطمع فقر وإنّ اليأس غنى، وإنه من ييأس عمّا في أيدي الناس استغنى عنهم.

وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قلَّة تمنيّك، ورضاك بما يكفيك. وفي ذلك قيل:

العيـش سـاعـاتٌ تمُـرْ وخطـوب أيّـامٍ تَكُـرْ
اقنـع بعيشـك تـرضـه واتـركْ هـواك تعيـش حـرْ
فلـربَّ حتـفٍ سـاقـه ذهـبٌ ويـاقـوت ودرْ

وكان محمد بن واسع يبلُّ الخبز اليابس بالماء ويأكله ويقول: من قنع بهذا لم يحتجْ إلى أحدٍ.

وقال سُفيان: خير دنياكم ما لم تُبتلوا به(١)، وخير ما ابتليتم به ما خرج من أيديكم.

وقال ابن مسعود: ما من يومٍ إلاّ ومَلكٌ ينادي: يا ابن آدم قليل يكفيك خيرٌ من كثيرَ يطغيك(٢).

وقال سميط بن عجلان: إنما بطنك يا ابن آدم شبر في شبر، فلم يدخلك النار؟

وقيل لحكيم: ما ملك؟ قال: التجمُّل في الظاهر، والقصد في الباطن، واليأس مّما في أيدي الناس.

ويروى أنَّ الله عزَّوجلَّ قال: يا ابن آدم، لو كانتِ الدنيا لك كلُّها لم يكن لك منها

---

(١) تُبْتلوا: من الابتلاء وهو الإمتحان.
(٢) يطغيك: يفسدك.

إلاّ القوت، وإذا أعطيتك منها القوت، وجعلتُ حسابها على غيرك، فأنا إليك محسن.

وقال ابن مسعود: إذا طلب أحدكُم الحاجة فليطلبها طلباً يسيراً، ولا يأتي الرجل فيقول: إنك وإنك فيقطع ظهره، فإنّما يأتيه ما قُسم له من الرزق، أو ما رُزِق.

وكتب بعض بني أميّة إلى أبي حازم يعزم عليه إلاّ رفع إليه حوائجه، فكتب إليه: قد رفعت حوائجي الى مولاي، فما أعطاني منها قبلت، وما أمسك عنّي قنعت.

وقيل لبعض الحكماء: أيُّ شيء أسرُّ[1] للعاقل؟ وأيّما شيء أعون[2] على دفع الحزن؟ فقال: أسرُّها إليه ما قدَّم من صالح العمل، وأعونها له على دفع الحزن الرضا بمحتوم القضاء.

وقال بعض الحكماء: وجدتُ أطولَ النّاس غمّاً الحسود، وأهنأهنم عيشاً القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع، وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدنيا، وأعظمهم ندامةً العالم المفرّط.

وفي ذلك قيل:

أرفه ببالِ فتى أمسى على ثقةٍ ... أنَّ الذي قسم الأرزاقَ يرزقه

فالعرضُ منه مصونٌ لا يدنسه ... والوجه منه جديدٌ ليس يخلقه

إن القناعة من يحلل بساحتها ... لم يلق في دهره شيئاً يؤرّقه

وقد قيل أيضاً:

حتّى متى أنا في حلٍّ وترحال ... وطول سعي وإدبار وإقبال

ونازح الدار لا أنفك مغترباً ... عن الأحبة لا يدرون ما حالي

بمشرق الارضِ طوراً ثم مغربها ... لا يخطر الموتُ من حرصي على بالي

ولو قنعت أتاني الرّزق في دعة ... إنَّ القنوع الغِنَى لا كثرة المال

وقال عمر رضي الله عنه: ألا أخبركم بما أستحِلُّ من مال الله تعالى: حُلَّتان لشتائي

(١) أسرُّ: أفرح، أي يدخل السرور والفرح على قلب العاقل.

(٢) أعون: من المعونة وهي المساعدة.

وقيظي[١]، وما يسعني من الظَّهر[٢] لحجِّي وعمرتي، وقوتي بعد ذلك كقوت رجلٍ من قريش، ليس بأرفعهم، ولا بأوضعهم، فوالله ما أدري أيحل ذلك أم لا؟ كأنَّه شكَّ في أنَّ هذا القدر هل هو زيادة على الكفاية التي تجب القناعة بها؟.

وعاتب أعرابيٌّ أخاه على الحرص، فقال: يا أخي، أنت طالب ومطلوب، يطلبك من لا تفوته، وتطلب أنت ما قد كُفيته، وكأنَّ ما غاب عنك قد كُشِف لك، وما أنت فيه قد نُقلت عنه، كأنَّك يا أخي لم تر حريصاً محروماً، وزاهداً مرزوقاً، وفي ذلك قيل:

أراك يـزيـدك الإثـراء[٣] حـرصـاً   علـى الـدنيـا كـأنـك لا تمـوتُ
فهـل لـك غـايـةٌ إن صـرتَ يـومـاً   إليهـا قلـت: حسبـي قـد رضيـتُ

وقال الشعبي: حكي أنَّ رجلاً صاد قُنبرةً فقالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك وآكلك. قالت: والله ما أشفي من قرم[٤]، ولا أشبع من جوع، ولكن أعلمك ثلاث خصال هنَّ خيرٌ لك من أكلي: أمَّا واحدة فأعلمك وأنا في يدك، وأمَّا الثانية فإذا صِرْتُ على الشجرة، وأما الثالثة فإذا صرت على الجبل.

قال: هاتِ الأولى. قالت: لا تلهفنَّ على ما فاتك. فخلاّها، فلما صارت على الشجرة قال: هات الثانية. قالت: لا تُصدقنَّ بما لا يكون أنَّه يكون، ثم طارت على الجبل تقول: يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتي دُرَّتين زُنَةَ كلِّ درَّة عشرون مثقالاً. قال: فعضَّ على شفتيه وتلهَّف، وقال هات الثالثة، قالت: أنت قد نسيت اثنتين فكيف أخبرك بالثالثة؟ ألم أقل لك: لا تلهفنَّ على ما فاتك، ولا تُصدقنَّ بما لا يكون؟ أنا لحمي ودمي وريشي لا يكون عشرين مثقالاً، فكيف يكون في حوصلتي درّتان كلُّ واحدةٍ عشرون مثقالاً؟ ثم طارت فذهبت.

وهذا مثالٌ لفرط طمع الآدمي، فإنَّه يُعميه عن درك الحقِّ حتى يقدِّر ما لا يكون أنَّه يكون.

---

(١) قيظي: من القيظ وهو شدة الحر في الصيف.
(٢) الظَّهر: الدواب التي تركب.
(٣) الاثراء: كثرة المال.
(٤) قرم: اشتهاء أكل اللحم.

وقال ابن السمَّاك: أنَّ الرجاء حبلٌ في قلبك، وقيدٌ في رجْلك، فأخرج الرجاء من قلبك، يخرج القيد من رجلك.

وقال أبو محمد اليزيدي: دخلتُ على الرشيد فوجدته ينظر في ورقةٍ مكتوب فيها بالذهب، فلمَّا رآني تبسَّم، فقلت: فائدة أصلح الله أمير المؤمنين؟ قال: نعم، وجدت هذين البيتين في بعض خزائن بني أميَّة، فاستحسنتهما، وقد أضفت إليهما ثالثاً وأنشدني:

إذا سُدَّ بابٌ عنك من دون حاجةٍ ... فدعه لأُخرى ينفتح لك بابها
فإنَّ قراب البطن يكفيك ملؤه ... ويكفيك سوآت الأمور اجتنابها
ولاتكُ مبذالاً لعرضك واجتنب ... ركوب المعاصي يجتنبك عقابها

وقال عبدالله بن سلام لكعب: ما يُذهب العلومَ من قلوب العلماء بعد إذ وعوها وعقلوها؟ قال: الطمع، وشَرَه النفس، وطلب الحوائج.

وقال رجلٌ للفُضيل: فسِّر لي قول كعب. قال: يطمع الرجل في الشيء يطلبه. فيُذهب عليه دينه، وأمَّا الشَّره، فَشَرَهَ النفس في هذا وفي هذا، حتى لا تحبَّ أن يفوتها شيءٌ، ويكون لك إلى هذا حاجة، وإلى هذا حاجة، فإذا قضاها لك خَرَم أنفك، وقادك حيث شاء، واستمكن منك وخضعت له.

فمنْ أحبَّك للدُّنيا سلَّمْت عليه إذا مررت به، وعُدتَه إذا مرض، لم تسلِّم عليه لله عزَّوجل، ولم تَعُدْه لله، فلو لم يكن لك إليه حاجة كان خيراً لك.

٣٤ ـ باب: في فضل الفقراء

قال ﷺ: «خيرُ هذه الأمةِ فقراؤها، وأسرعها تضجُّعاً في الجنة ضعفاؤها».

وقال ﷺ: «إنَّ لي حِرْفتين اثنتين، فمَنْ أحبَّهما فقد أحبَّني، ومَنْ أبغضهما فقد أبغضني: الفقر والجهاد».

ورُوي أنَّ جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال: «يا محمد! إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقرأ عليك السلام ويقول: أتحبُّ أن أجعل هذه الجبال ذهباً وتكون معك أينما كنت؟

فأطرق رسول الله ﷺ ساعة ثم قال: يا جبريل، إنَّ الدنيا دارُ من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له. فقال له جبريل: يا محمد ثبّتك الله بالقول الثابت».

ورُوي أنَّ المسيح عليه السلام مرَّ في سياحته[١] برجل نائم ملتفٍّ في عباءة، فأيقظه، وقال: يا نائم قم فاذكر الله تعالى، فقال: ما تُريد مني؟ إنّي قد تركت الدنيا لأهلها، فقال له: فنم إذا يا حبيبي.

ومرَّ موسى عليه السلام برجلٍ نائم على التراب، وتحت رأسه لِبنَة، ووجهه ولحيته في التراب، وهو متَّزر بعباءة، فقال: يا ربِّ عبدك هذا في الدنيا ضائع، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى أما علمتَ أنّي إذا نظرتُ إلى عبد بوجهي كلِّه زَوَيت[٢] عنه الدنيا كلَّها.

وعن أبي رافع أنّه قال: ورد على رسول الله ﷺ ضيفٌ، فلم يجد عنده ما يصلحه، فأرسلني إلى رجلٍ من يهود خيبر وقال: «قل له: يقولُ لك محمد: أسلفني أو بِعْني دقيقاً

(١) سياحته: من السياحة وهي: السفر والتجوال بين البلدان.
(٢) زويت: أبعدت.

إلى هلال رجب» قال: فأتيته، فقال: لا والله إلاّ بِرَهْن. فأخبرتُ رسول الله ﷺ بذلك، فقال: «أما والله إنّي لأمين في أهل السماء، أمينٌ في أهل الأرض، ولو باعني أو أسلفني لأدّيت إليه. اذهب بدِرْعي هذا إليه فارهنه». فلمّا خرجت، نزلت هذه الآية: ﴿**ولا تمدَّنَّ عينيك إلى ما متَّعْنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا**﴾[1] وهذه الآية تعزيةٌ لرسول الله ﷺ عن الدنيا.

وقال ﷺ: «الفقرُ أزْيَنُ للمؤمن من العِذَار[2] الحَسَنِ على خدِّ الفرس».

وقال ﷺ: «مَنْ أصبح منكم معافىً في جسمه، آمناً في سِربه، عنده قوتُ يومه، فكأنّما حِيزت له الدنيا بحذافيرها».

وقال كعب الأحبار: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: يا موسى، إذا رأيت الفقر مُقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين.

وقال عطاء الخراساني: مرَّ نبيٌّ من الأنبياء بساحلٍ، فإذا برجل يصطاد حيتاناً، فقال: باسم الله، وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيءٌ، ثم مرَّ بآخر فقال: باسم الشيطان، وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها.

فقال النبيُّ عليه السلام: يا ربِّ! ما هذا وقد علمتُ أنَّ كلَّ ذلك بيدك؟ فقال الله تعالى للملائكة: اكشفوا لعبدي عن منزلتيهما. فلمّا رأى ما أعدَّ الله تعالى لهذا من الكرامة، ولذلك من الهوان قال: رضيت يا ربِّ.

وقال نبينا ﷺ: «اطّلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطّلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء».

وفي لفظٍ آخر: «فقلت: أين الأغنياء؟ فقيل: حبسهم الجَدّ[3]».

وفي حديث آخر: «فرأيت أكثر أهل النار النساء، فقلت: ما شأنهن؟ فقيل: شغلَهن الأحمران، الذهب والزعفران».

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣١.

(٢) العِذار: مفرد عِذاران وهما من الفرس كالعارضين من وجه الانسان.

(٣) الجَدُّ: الغنى والعظمة في الدنيا.

وقال ﷺ: «تحفة المؤمن في الدنيا الفقر».

وفي الخبر: «آخرُ الأنبياء دخولاً الجنَّة سليمان بن داود عليهما السلام، لمكان مُلكه، وآخر أصحابي دخولاً الجنَّة عبد الرحمن بن عوف لأجلِ غناه».

وفي حديث آخر: «رأيتُه دخلَ الجنَّة زحفاً».

وقال المسيح عليه السلام: بشدَّةٍ يدخل الغنيُّ الجنة.

وفي خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم أنّه ﷺ قال: «إذا أحبَّ الله عبداً ابتلاه، فإذا أحبَّه الحُبَّ البالغ اقتناه». قيل: ما اقتناه؟ قال: «لم يترك له أهلاً ولا مالاً».

وفي الخبر: إذا رأيتَ الفقر مُقبلاً فقل: مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغِنى مقبلاً فقل: ذنبٌ عُجِّلت عقوبته.

وقال موسى عليه السَّلام: يا ربِّ مَنْ أحِبَّاؤك من خلقك حتى أحبَّهم لأجلك؟ فقال: كلُّ فقير فقير. فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد، ويمكن أن يُراد به الشديد الضرِّ.

وقال المسيح عليه السلام: إنّي لأحبُّ المسكنة، وأُبغض النَّعْماء وكان أحبُّ الأسامي إليه صلوات الله عليه أن يُقال له: يا مسكين.

ولمّا قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبيِّ ﷺ اجعل لنا يوماً، ولهم يوماً يجيئون إليك ولا نجيء، ونجيء إليك ولا يجيئون، يعنون بذلك الفقراء مثل بلال، وسلمان، وصُهيب، وأبي ذر، وخبَّاب بن الأرت، وعمّار بن ياسر، وأبي هُريرة وأصحاب الصُّفَّة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين، أجابهم النبي ﷺ إلى ذلك، وذلك لأنهم شكوا إليه التأذِّي برائحتهم، وكان لباس القومِ الصوف في شِدَّة الحرِّ، فإذا عـرِقوا فاحت الروائح من ثيابهم، فاشتد ذلك على الأغنياء، منهم الأقرعُ بن حابس التميمي، وعُيَيْنة بن حصن الفَزَاري، وعبَّاس بن مِرْداس السّلمي وغيرهم، فأجابهم رسول الله أن لا يجمعهم وإيّاهم مجلس واحد، فنزل عليه قوله تعالى: **﴿واصْبِرْ نَفْسَكَ معَ الَّذينَ يَدعونَ ربَّهم بالغَداةِ والعَشيِّ يُريدون وجهَه ولا تَعْدُ عَيناكَ عَنهُمْ﴾** يعني الفقراء **﴿تُريدُ زِينَةَ الحياةِ الدُّنيا﴾** يعني الأغنياء **﴿ولا تُطِعْ مَنْ أغفلنا قلبَه عَنْ ذِكْرِنا﴾** يعني الأغنياء **﴿وقُلِ الحقُّ من ربِّكم فَمَنْ**

شَاءَ فليؤمن ومَنْ شَاءَ فلْيكفُر﴾[١].

واستأذن ابنُ أمِّ مكتوم على النبيِّ ﷺ وعنده رجلٌ من أشراف قريش، فشقَّ ذلك على النبيِّ ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿عَبسَ وتولّى * أن جَاءَه الأعمى * وما يُدريك لعلَّه يزكّى * أو يذَّكَّر فَتَنفَعَه الذِّكرى﴾ يعني ابن أمِّ مكتوم ﴿أمّا مَنِ استَغْنى * فأنتَ لَهُ تَصَدَّى﴾[٢] يعني هذا الشريف.

وعن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «يُؤتى بالعبد يوم القيامة، فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل في الدنيا فيقول: وعزّتي وجلالي ما زَويتُ الدنيا عنك لهوانك عليَّ، ولكن لما أعددتُ لك من الكرامة والفضيلة، اخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف، فمن أطعمك فيَّ[٣]، أو كَسَاكَ فيَّ يريد بذلك وجهي، فخذ بيده، فهو لك ـ والناس يومئذٍ قد ألْجمهم العرق ـ فيتخلَّلُ الصفوف، وينظر مَنْ فعل ذلك به، فيأخذ بيده، ويُدْخله الجنَّة».

وقال عليه السلام: «أكثروا معرفة الفقراء، واتَّخذوا عندهم الأيادي، فإنَّ لهم دولةً» قالوا: يا رسول الله، وما دولتهم؟ قال: «إذا كان يوم القيامة قيل لهم: انظروا من أطعمكم كِسْرة[٤]، أو سقاكم شَربة، أو كساكم ثوباً، فخذوا بيده، ثم امضوا به إلى الجنَّة».

وقال ﷺ: «دخلتُ الجنَّة فسمعتُ حركةً أمامي، فنظرت فإذا بلال، ونظرت في أعلاها فإذا فقراءُ أمتي وأولادهم، ونظرت في أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء قليل، فقلت: يا ربِّ ما شأنهم؟ قال: أمّا النساء فأضرَّ بهنَّ الأحمران، الذهب والحرير، وأمّا الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب.

وتفقَّدت أصحابي فلم أرَ عبد الرحمن بن عوف، ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكي، فقلت: ما خلَّفك عنّي؟.

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ٢٨، ٢٩.
(٢) سورة عبس، الآيات: ١ ـ ٦.
(٣) فيَّ: أي من أجلي.
(٤) كِسْرة: قطعة من الخبز.

قال: يا رسولَ الله، والله ما وصلتُ إليك حتى لقيت المشيِّبات، وظننت أنّي لا أراك. فقلت: ولِمَ؟ قال: كنتُ أحاسَب بمالي».

فانظر إلى هذا، وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسولِ الله ﷺ: وهو من العشرة المخصوصين بأنّهم من أهل الجنّة، وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «إلاّ مَنْ قال بالمال هكذا وهكذا» ومع هذا فقد استضرَّ بالغنى إلى هذا الحدِّ.

ودخل رسول الله ﷺ على رجل فقير فلم ير له شيئاً فقال: «لو قُسِم نور هذا على أهل الأرض لوَسِعهم».

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بملوك أهل الجنة؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «كلُّ ضعيف مُستضعف، أغبَر أشعث ذي طِمْرَين[1] لا يُؤبه[2] له، لو أقسم على الله لأبرَّه»[3].

وقال عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه، فقال: «يا عِمْران إنَّ لك عندنا منزلةً وجاهاً، فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ؟» قلت: نعم، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فقام وقمتُ معه حتى وقف باب فاطمة، فقرع الباب وقال: «السَّلام عليكم أأدخل؟» فقالت: ادخل يا رسول الله. قال: «ومَنْ معي؟» قالت: مَنْ معك يا رسول الله؟ قال: «عمران» فقالت فاطمة: والذي بعثك بالحقِّ نبياً ما عليَّ إلا عباءة. قال: «اصنعي بها هكذا وهكذا» وأشار بيده.

فقالت: هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي؟ فألقى إليها ملاءة كانت عليه خَلِقة فقال: «شُدِّي بها رأسك» ثم أذنت له، فدخل فقال: «السَّلام عليكم يا ابنتاه، كيف أصبحت؟» قالت: أصبحتُ والله وجِعة[4]، وزادني وجعاً على ما بي أنّي لست أقدر على طعام آكله، فقد أضرَّ بي الجوعُ، فبكى رسول الله ﷺ وقال: «لا تجزعي يا ابنتاه، فوالله ما ذقت طعاماً منذ ثلاث، وإني لأكرم على الله منك، ولو سألت ربِّي لأطعمني ولكن

---

(١) طِمرين: تثنية طمر وهو الثوب الخَلَقَ والبالي.

(٢) لا يُؤبه: لا يُنظر إليه.

(٣) لأبرَّة: أي لنفذَ له قسمه.

(٤) وجعَة: من الوجع وهو الألم.

آثرت الآخرة على الدنيا» ثم ضرب بيده على مَنْكِبها وقال لها: «أبشري، فوالله إنَّك لسيِّدة نساء أهل الجنة» قالت: فأين آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران؟ قال: «آسية سيِّدةُ نساء عالمها، ومريم سيِّدة نساء عالمها، وأنت سيِّدة نساء عالمك، إنَّكن في بيوت من قصب، لا أذى فيها ولا صخب[١] ولا نصب[٢]» ثم قال لها: «اقنعي بابن عمِّك، فوالله لقد زوَّجْتُك سيِّداً في الدنيا، سيِّداً في الآخرة».

ورُوي عن عليٍّ كرَّم الله وجهه أنَّ رسول الله ﷺ قال: إذا أبغض الناس فقراءهم، وأظهروا عِمارة الدنيا، وتكالبوا على جمع الدراهم، رماهم الله بأربع خصال: بالقحط من الزمان، والجَوْر من السلطان، والخيانة من وُلاة الأحكام، والشوكة من الأعداء.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: ذو الدرهمين أشدُّ حبساً، أو قال أشدُّ حساباً من ذي الدرهم.

وأرسل عمر رضي الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار، فجاء حزيناً كئيباً، فقالت امرأته: أحدث أمر؟ قال: أشدُّ من ذلك؟ ثم قال: أريني درعك الخَلِق[٣]، فشقَّه وجعله صُرراً، وفرَّقه، ثم قام يصلّي ويبكي إلى الغداة[٤]، ثم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، حتى إنَّ الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم[٥] فيؤخذ بيده فيُستخرج».

وقال أبو هريرة: ثلاثة يدخلون الجنَّة بغير حساب: رجل يريد أن يغسل ثوبه، فلم يكن له خَلَق يَلْبسُه، ورجل لم يُنْصِبْ على مستوقد قِدْرَين، ورجل دعا بشرابه فلا يُقال له: أيها تريد؟.

وقيل: جاء فقير إلى مجلس الثوريِّ رحمه الله فقال له: تخطَّ[٦]، لو كنتَ غنيّاً لما قرَّبْتُك. وكان الأغنياء من أصحابه يودُّون أنَّهم فقراء لكثرة تقريبه

---

(١) صَخب: الصَّخبَ: هو الصوت المرتفع أو الضجيج.
(٢) نصب: تعب.
(٣) درعك الخَلِق: أي قميصك البالي.
(٤) الغداة: الصباح.
(٥) في غمارهم: في زحمتهم وجماعتهم الكثيرة.
(٦) تخطَّ: أي جاوز الناس واجلس بجانبي.

للفقراء، وإعراضه عن الأغنياء.

وقال المُؤمّل: ما رأيت الغنيَّ أذلَّ منه في مجلس الثوريِّ، ولا رأيت الفقيرَ أعزَّ منه في مجلس الثوريّ رحمه الله.

وقال بعض الحكماء: مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعاً، ولو رغب في الجنَّة كما يرغب في الغنَى لفاز بهما جميعاً، ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خَلْقَهُ في الظاهر لسعُد في الدارين جميعاً.

وقال ابن عباس: ملعون[١] من أكرم بالغنى وأهان بالفقر.

وقال لقمان عليه السلام لابنه: لا تحقرن[٢] أحداً لخُلْقان ثيابه، فإنَّ ربّك وربّه واحد.

وقال يحيى بن معاذ: حُبُّك للفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين، وفِرارك من صحبتهم من علامة المنافقين.

وفي الأخبار عن الكتب السالفة[٣]، أنَّ الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام: احذرْ أن أمقُتك فتسقط من عيني فأصبُّ عليك الدنيا صبّاً.

ولقد كانت عائشة رضي الله عنها تفرِّق مائة ألف درهم في يومٍ واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما، وإنَّ دِرعها لمرقوع، وتقول لها الجارية: لو اشتريت لك بدرهم لحماً تفطرين عليه، وكانت صائمة، فقالت: لو ذكَّرتِني لفعلت.

وكان قد أوصاها رسول الله ﷺ وقال: «إن أردتِ اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء، وإيّاكِ ومُجالسة الأغنياء، ولا تنزعي درعك حتى ترقعيه».

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم، فأبى عليه أن يقبلها، فألحَّ عليه الرَّجل، فقال له إبراهيم: أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم، لا أفعل ذلك أبداً. رضي الله عنه.

---

(١) ملعون: مطرود من رحمة الله تعالى.

(٢) لا تحقرنَّ: لا تصغرَنّ أحداً من الناس.

(٣) الكتب السالفة: أي الكتب التي أنزلها الله على الأنبياء كالتوراة والزبور والإنجيل.

وقال رسول الله ﷺ: «طُوبى لمن هُدي إلى الإسلام، وكان عيشه كَفافاً، وقنع به».

وقال ﷺ: «يا معشرَ الفقراء، أعطوا الله الرِّضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم، وإلاّ فلا». فالأول القانع، وهذا الراضي.

ويكاد يُشعر هذا بمفهومه أنَّ الحريص لا ثواب له على فقره، ولكنَّ العمومات الواردة في فضل الفقر تدل على أنَّ له ثواباً كما سيأتي تحقيقه. فلعلَّ المراد بعدم الرضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدنيا عنه، ورُبَّ راغبٍ في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى، ولا كراهةَ في فعله، فتلك الكراهةُ هي التي تُحْبطُ ثواب الفقر.

ورُوي عن عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إن لكلِّ شيء مِفتاحاً، ومِفْتاح الجنَّة حبُّ المساكين والفقراء لصبرهم، هم جُلساء الله تعالى يوم القيامة».

ورُوي عن عليٍّ كرّم الله وجهه عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «أحَبُّ العبادِ إلى الله تعالى الفقيرُ القانع برزقه، الراضي عن الله تعالى».

وقال ﷺ: «اللهم اجعل قوتَ آل محمد كَفافاً».

وقال: «ما من أحدٍ غنيٍّ ولا فقير إلا ودَّ يوم القيامة أنّه كان أُوتي قوتاً في الدنيا».

وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبُهم. قال: ومَنْ هم؟ قال: الفقراء الصابرون.

وقال ﷺ: «لا أحدَ أفضل من الفقير إذا كان راضياً».

وقال ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي؟ فتقول الملائكة: ومَنْ هم يا ربَّنا؟ فيقول: فقراء المسلمين، القانعون لعطائي، الراضون بقدري، أدخلوهم الجنة، فيدخلونها ويأكلون ويشربون، والناس في الحساب يتردَّدون».

فهذا في القانع والراضي، وأمّا الزاهد[1] فسنذكر فضله إن شاء الله تعالى.

---

(١) الزاهد: العابد.

وأما الآثار في الرضا والقناعة فكثيرة، ولا يخفى أنَّ القناعة يضادُّها[1] الطمع، وقد قال عمر رضي الله عنه: إنَّ الطمع فقرٌ، واليأس غنًى، وإنه مَنْ يئس عمَّا في أيدي الناس، وقنع استغنى عنهم.

وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: ما من يومٍ إلاّ وملَك يُنادي من تحت العرش: يا ابن آدم، قليل يكفيك، خير من كثير يُطغيك[2].

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: ما من أحدٍ إلاّ وفي عقله نقص، وذلك أنَّه إذا أتته الدنيا بالزيادة ظلَّ فَرِحاً مسروراً، والليل والنهار دائبان[3] في هدم عمره، ثم لا يُحزنه ذلك، ويح ابن آدم! ما ينفع مال يزيد، وعُمُرٌ ينقص؟

وقيل لبعض الحكماء: ما الغنى؟ قال: قِلَّة تمنِّيك، ورضاك بما يكفيك.

وقيل: كان إبراهيم بن أدهم من أهل النِّعمَ بخراسان، فبينما هو يُشرف من قصرٍ له ذات يوم، إذ نظر إلى رجل في فِناء القصر، وفي يده رغيفٌ يأكله، فلمَّا أكل نام، فقال لبعض غلمانه: إذا قام فجئني به، فلمَّا قام جاء به إليه فقال إبراهيم: أيُّها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع؟ قال: نعم. قال: فشبعت؟ قال: نعم. قال: ثم نمت طيِّباً؟ قال: نعم. فقال إبراهيم في نفسه: فما أصنع أنا بالدنيا، والنفس تقنع بهذا القدر؟.

ومرَّ رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل مِلْحاً وبقلاً فقال له: يا عبد الله أرضيت من الدنيا بهذا؟ فقال: ألا أدلُّك على مَنْ رضي بِشَرٍّ من هذا؟ قال: بلى. قال: مَنْ رضي بالدنيا عِوضاً عن الآخرة.

وكان محمد بن واسع رحمة الله عليه يُخرج خُبزاً يابساً فيبلُّه بالماء، ويأكله بالملح ويقول: مَنْ رضي من الدنيا بهذا، لم يحتَج إلى أحد.

---

(١) يضادُّها: من الضد وهو العكس.

(٢) يطغيك: يُفسدك.

(٣) دائبان: متواظبان.

وقال الحسن رحمه الله: لعن الله أقواماً أقسم الله تعالى ثم لم يصدِّقوه ثم قرأ: ﴿وفي السَّماءِ رزقُكم وما تُوعدون * فَوَرَبِّ السَّماءِ والأرضِ إنه لَحَقٌّ﴾[١].

وكان أبو ذرٍّ رضي الله عنه يوماً جالساً في الناس، فأتته امرأته فقالت له: أتجلس بين هؤلاء؟ والله ما في البيت هُفَّة[٢] ولا سُفَّة[٣]، فقال: يا هذه، إنَّ بين أيدينا عقبةً[٤] كؤوداً لا ينجو منها إلاَّ كلُّ مُخِفٍّ. فرجعت وهي راضية.

وقال ذو النون رحمه الله: أقرب النَّاس إلى الكفر ذو فاقة لا صبر له.

وقيل لبعض الحكماء: ما مالك؟ فقال: التجمُّل في الظاهر، والقصد في الباطن، واليأس ممّا في أيدي الناس.

ويُروى أنَّ الله عزَّ وجلَّ قال في بعض الكتب السالفة المُنزلة.

يا ابنَ آدم، لو كانت الدنيا كلُّها لك، لم يكن لك منها إلاَّ القوت، فإذا أنا أعطيتك منها القوت، وجعلت حسابَها على غيرك، فأنا محسنٌ إليك.

وقد قيل في القناعة:

إضرع[٥] إلى الله لا تضرع إلى الناس ... واقنع بيأس فإنَّ العزَّ في الياس
واستغنينَّ عن القربى وذي رَحِمٍ ... إن الغنيَّ مَنِ استغنى عن الناس

وقد قيل في هذا المعنى أيضاً:

يا جامعاً مانعاً والدهرُ يرمقه[٦] ... مقدِّراً أيّ باب منه يغلقه
مفكِّراً كيف تأتيه منيَّتُه ... أغادياً أم بها يسري فتطرقه
جمعتَ مالاً فقل لي: هل جمعتَ له ... يا جامعَ المال أيّاماً تفرِّقه

(١) سورة الذاريات، الآيتان: ٢٢، ٢٣.
(٢) هفة: الهفة هي: السحاب التي لا ماء فيه.
(٣) ولا سفَّة: ما ينسج من الخوص كالزبيل، والمعنى لا يوجد شراب ولا طعام في بيتها.
(٤) عقبة: هي المرقى الصعب من الجبال.
(٥) إضرع: تذلل وابتهل الى الله.
(٦) يرمقه: من رمقه: أي ينظر إليه مُديماً النظر.

المــالُ عنــدك مخــزون لــوارثــه ما المــالُ مــالــك إلاّ يــوم تنفقــه
أرفــه بيــال فتــىً يغــدو علــى ثقــة أن الــذي قَسَــمَ الأرزاق يــرزقــه
فــالعِـرْض منــه مصــون مــا يــدنّسه والــوجــه منــه جــديــدٌ ليــس يُخلِقــه
إن القنــاعــة مــن يَحْلُـل بســاحتهــا لــم يلــق فــي ظلِّهــا همــاً يــؤرِّقــه



٣٥ ـ باب: في اتخاذ وليٍّ من دون الله سبحانه وتعالى وفي بيان العَرَصات[١]

قال الله تعالى: ﴿ولا تَرْكَنوا إلى الذين ظَلموا فتمسَّكمُ النَّارُ﴾[٢].

قال بعضُ المفسِّرين: أجمع أهل اللغة على أنَّ الرُّكون: مطلق الميلِ، والسكون يسيراً أو كثيراً.

وقال عبد الرحمن بن زيد: الرُّكون هنا الإدْهان، وذلك أن لا يُنكرَ عليم كفرهم.

وعن عكرمة لا تصطنعوهم.

والظاهر من الآية عموم النَّهي عن الرُّكون إلى المشركين، وفَسَقة المسلمين.

وقال النيسابوري في تفسيره: قال المحقِّقون: الرُّكون المنهيُّ عنه هو الرِّضا بما عليه الظَّلمة، أو تزيين طريقتهم وتحسينها عند غيرهم، ومشاركتهم في شيء من أبواب المظالم، فأمَّا مُداخلتهم لدفع شيء من الضرر، أو اجتلابِ منفعةٍ عاجلة فغير داخلة في الركون.

قال: وأقولُ هذا من طريق المعاش والرُّخصة، ومقتضى التقوى هو الاجتناب عنهم بالكُلِّيَّة. ﴿أليسَ الله بكافٍ عبده﴾[٣].

قلت: ولقد صدقَ، فحسمُ مادة الرُّكون إليهم أولى، ولا سيَّما في هذه الأزمان التي لا يُمكن فيها إنكار المُنكر والأمر بالمعروف مع ما في الرُّكون إليهم من الغُرور[٤]، والغرورُ إذا كان حالَ الميل في الجملة إلى مَنْ وُجِدَ منه ظلم مع ما في الإفضاء إلى

(١) العرصات: جمع عرصة: وهي ساحات يوم القيامة.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٣.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٣٦.
(٤) الغُرور: هو كل ما غرَّ الإنسان من مال أو جاه أو شهوة، أو انسان، أو شيطان.

مساس النار هكذا، فما ظنُّك بمن يميلُ إلى الرَّاسخين في الظلم والعدوان ميلاً عظيماً!

ويتهالك على صحبتهم ومنادمتهم، ويلقى شرًّا على مؤانستهم ومعاشرتهم ويبتهج بالتزيُّن بزيِّهم، ويمدُّ عينيه إلى زهرتهم الفانية، ويغبطهم بما أُوتوا من القطوف الدانية[١]، وهو في الحقيقة من الحبَّة طفيف، ومن جناح البعوضة خفيف، بِمَعزل عن أن تميل إليه القلوب، ضعف الطالب والمطلوب.

قال ﷺ: «المرءُ على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[٢].

ورُوي: «مَثَلُ الجليس الصالح مَثَل حامل المسك، إن لم يعطك، أصابك من ريحه، ومثل الجليس السُّوء كمثل صاحب الكِيْر، إن لم يحرقك أصابك من دخانه».

قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الذين اتَّخذوا من دون الله أولياء كَمَثَل العنكبوت اتَّخذت بيتاً﴾[٣].

وقال ﷺ: «من عظَّم غنياً لغناه، فقد ذهب ثُلُثَا دينه».

وقال ﷺ: «إذا مُدحَ الفاسقُ غضبَ الربُّ، واهتزَّ لذلك العرش».

وقال الله تعالى: ﴿يوم نَدعوا كلَّ أُناسٍ بإمامهم﴾[٤] يعني في عَرَصات القيامة.

وقد اختلف المفسرون في تعيين الإمام الذي يُدعى كلُّ أُناسٍ به.

فقال ابن عبَّاس وغيره: إنَّه كتابُ كلِّ إنسان الذي فيه عمله، أي يُدعى كلُّ إنسان بكتاب عمله، ويؤيِّد هذا قوله تعالى: ﴿فأمَّا من أُوتي كتابَه بيمينه﴾[٥].

وقال ابن زيد: الإمام هو الكتاب المنزل، فيقال: يا أهل التوراة، يا أهل الإنجيل، يا أهل القرآن.

وقال مُجاهد وقتادة: إمامهم نبيُّهم، فيقال: هاتوا متَّبعي إبراهيم، هاتوا متَّبعي

---

(١) الدانية: القريبة.

(٢) يخالل: يصاحب.

(٣) سورة العنكبوت، الآية: ٤١.

(٤) سورة الاسراء، الآية: ٧١.

(٥) سورة الحاقة، الآية: ١٩.

موسى، هاتوا متَّبعي عيسى، هاتوا متَّبعي محمد ﷺ وعليهم.

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: المُراد بالإمام إمام عصرهم، فيُدْعى أهل كلِّ عصر بإمامهم الذي كانوا يأتمرون بأمره، وينتهون بنهيه.

وفي الحديث الصحيح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جمع الله الأوَّلين والآخرين يوم القيامة رُفع لكلِّ غادرٍ لواء، فيُقال: هذه غدرة فلان بن فلان».

وروى الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في تفسير هذه الآية: «يُدعى أحدهم فيُعطى كتابه بيمينه، ويُمدُّ له في جسمه ستون ذراعاً، ويُبيَّض وجهه، ويُجعل على رأسه تاج من لؤلؤ يتلألأ، فينطلق إلى أصحابه، فيرونه من بعيد فيقولون: اللهم ائتنا بهذا، وبارك لنا في هذا، حتى يأتيهم فيقول: أبشروا لكلِّ رجلٍ منكم مثل هذا، وأمَّا الكافر فيسوَّد وجهه، ويُمدُّ له في جسمه ستون ذراعاً على صورة آدم، ويُلبس تاجاً، فيراه أصحابه فيقولون: نعوذ بالله من شرِّ هذا، اللهم لا تأتنا بهذا، قال: فيأتيهم فيقولون: اللهم اخزه، فيقول: أبعدكم الله، فإنَّ لكلِّ رجل منكم مثلَ هذا».

وقال الله تعالى: ﴿إذا زُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزالها * وأخرجتِ الأرض أثقالها﴾[1].

قال ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أي تحرَّكت من أسفلها، وأخرجت ما في جوفها من الأموات والدفائن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿يومئذ تُحَدِّثُ أخبارها﴾[2] قال: «أتدرون ما أخبارها؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنَّ أخبارها أن تشهد على كلِّ عبدٍ وأمة بكل عَمَلٍ عُمِلَ على ظهرها».

وعن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «تحفَّظوا من الأرض، فإنَّها أمّكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شرًا إلا وهي مُخْبرة». أخرجه الطبراني.

---

(١) سورة الزلزلة، الآيتان: ١، ٢.

(٢) سورة الزلزلة، الآية: ٤.

٣٦ ـ باب: في النّفخُ[١] والفزع[٢] والحشر من المقابر

قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن، وحنى الجبهة، وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ؟».

قال مقاتل: الصُّور هو القرن، وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن، كهيئة البوق، ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض، وهو شاخصٌ ببصره نحو العرش، ينتظرُ متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى، فإذا نفخ صَعِق[٣] مَنْ في السماوات ومَنْ في الأرض، أي مات كلُّ حيوان من شدَّة الفزع، إلا مَنْ شاء الله، وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت.

ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل، ثم روح ميكائيل، ثم روح إسرافيل، ثم يأمر ملك الموت فيموت، ثم يلبث الخلقُ بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة، ثم يُحيي الله إسرافيل، فيأمره أن ينفخ في الثانية فذلك قوله تعالى: **﴿ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيامٌ ينظرون﴾**[٤] على أرجلهم ينظرون إلى البعث.

وقال ﷺ: «حين بُعِثتُ أتى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه، وقدَّم رِجلاً وأخَّر أخرى، ينتظر متى يُؤمر بالنفخ، ألا فاتَّقوا النفخة».

فتفكَّر في الخلائق وذلِّهم وانكسارهم واستكانتهم[٥] عند الانبعاث خوفاً من هذه الصعقة، وانتظاراً لما يُقضى عليهم من سعادةٍ أو شقاوة، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم، متحيِّرٌ كتَحَيُّرهم، بل إن كنت في الدنيا من المترفين، والأغنياء المتنعِّمين فملوك الأرض في ذلك اليوم أذلُّ أهل أرض الجمع، وأصغرهم وأحقرهم، يوطؤون

---

(١) النَّفْخُ: بعث الريحَ من الفم لاحداث الصوت وهذا ما يقوم به إسرافيل عليه السلام.
(٢) الفزع: تقول: فَزَعَ فلان فزعاً: نقبض ونفر من شيء مخيف، وفزع بكسر الراء: خاف وذُعِرَ.
(٣) صَعِقَ: هلك كل من في السموات والأرض من الانس والجن والحيوان.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٦٨.
(٥) استكانتهم: ضعفهم وذلهم.

بالأقدام مثل الذَرّ[١].

وعند ذلك تُقبل الوحوش من البراري والجبال منكّسة رؤوسها، مختلطة بالخلائق بعد توحُّشها، ذليلة ليوم النشور، من غير خطيئة تدنَّست بها، ولكنْ حَشَرَتْهم شِدَّة الصعقة، وهول النفخة، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق، والتوحُّش منهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الوحُوشُ حُشِرَت﴾[٢] ثم أقبلتِ الشياطين والمَرَدة بعد تمرُّدها وعتوِّها، وأذْعنت خاشعةً من هيبة العرضِ على الله تعالى، تصديقاً لقوله: ﴿فوربّك لنحشرنَّهم والشَّياطين ثم لَنُحضِرَنَّهم حول جهنَّم جِثيّاً﴾[٣].

فتفكَّر في حالك، وحال قلبك هنالك. ثم انظر كيف يُساقون بعد البعث والنشور حُفاةً عُراة غُرْلاً[٤] إلى أرض المحشر، أرضٍ بيضاء، قاعٍ صَفْصَف[٥]، لا ترى فيها عِوَجاً ولا أمتا[٦]، ولا ترى عليها ربوةً يختفي الإنسان وراءها، ولا وَهْدَةً ينخفض عن الأعين فيها، بل هو صعيدٌ واحد بسيط لا تفاوت فيه، يُساقون إليه زُمَراً.

فسبحان مَنْ جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض، إذ ساقهم بالراجفة تَتْبَعها الرادفة، والرَّاجفة هي النَّفخة الأولى، والرَّادفة هي الثانية.

وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة، ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة.

قال رسول الله ﷺ: «يُحْشر الناس يوم القيامة على أرضٍ بيضاء عَفْراء كقرص النقيّ، ليس فيها مَعْلَمٌ لأحد».

قال الراوي: والعُفْرَة: بياض ليس بالناصع، والنقي: هو النقي عن القشر والنخالة، ومعْلَم: أي لا بناء يستر، ولا تفاوت يردُّ البصر. ولا تظنَّنَّ أنَّ تلك الأرض مثل الدنيا، بل لا تُساويها إلا في الاسم.

---

(١) الذَرّ: النمل. أو كالذرة لشدة صغرها وهوانها.
(٢) سورة التكوير، الآية: ٥.
(٣) سورة مريم، الآية: ٦٨.
(٤) غرلاً: الغرل هو: سفير مختون (غير مقطوع القلفة).
(٥) قاع صفصف: القاع الأرض الواسعة السهلة، والصفف: الأرض المستوية.
(٦) أمتا: الأمت: الانخفاض والارتفاع.

قال تعالى: ﴿يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرض والسماوات﴾[١].

قال ابن عبَّاس: يُزاد فيها وينقص، وتذهب أشجارها وجبالُها وأوديتها وما فيها، وتُمدُّ مدَّ الأديم العكاظي[٢]، أرض بيضاء مثل الفِضَّة، لم يُسفَك عليها دم، ولم يُعمل عليها خطيئة، والسماوات تذهب شمسها وقمرها ونجومها.

فانظر يا مسكين في هول ذلك اليوم وشدَّته! فإنَّه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد[٣]، تناثرت من فوقهم نجومِ السماء، وطُمِس الشمس والقمر، وأظلمتِ الأرض لخمود سراجها، فبينما هم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤوسهم، وانشقَّت مع غِلظها وشدَّتها خمسمائة عام، والملائكة قيام على حافَّاتها وأرجائها، فيا هول صوت انشقاقها في سمعك! ويا هيبة ليوم تنشقُّ فيه السماء مع صلابتها وشدَّتها، ثم تنهار وتسيل كالفضة المُذابة، تخالطها صُفرة، فصارت وردة كالدِّهان[٤]، وصارت السماء كالمُهْل[٥]، وصارت الجبال كالعِهْن[٦]، وانتشر الناس كالفراش المبثوث، وهم حُفاة عُراة مُشاة.

قال رسول الله ﷺ: «يُبعث الناس حُفاة عُراة غُرلاً، قد ألجمهم العرق، وبلغ شُحوم الآذان». قالت سودة زوج النبيُّ ﷺ راوية الحديث: قلت: يا رسول الله! واسوأتاه، ينظر بعضنا إلى بعض؟ فقال: «شُغل الناسُ عن ذلك بهمٌ» ﴿لِكُلِّ امرىءٍ منهم يومئذ شأنٌ يُغنيه﴾[٧].

فأعظِم بيومٍ تنكشف فيه العورات، ويُؤمَن فيه مع ذلك النظر والالتفات، كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم، فلا قُدْرة لهم على الالتفات إلى غيرهم؟.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يُحشر النَّاس يوم القيامة ثلاثة

---

(١) سورة ابراهيم، الآية: ٤٨.
(٢) الأديم العكاظي: أي الجلد العكاظي، والعكاظي نسبة الى سوق عكاظ بمكة.
(٣) الصعيد: الأرض.
(٤) كالدهان: هو اللون الأحمر الصرف.
(٥) كالمهل: النحاس المذاب قيل الزيت المغلي العكر.
(٦) العهن: هو الصوف المصبوغ ألواناً متعددة.
(٧) سورة عبس، الآية: ٣٧.

أصناف: رُكْباناً، ومُشاة، وعلى وجوههم»، فقال رجل: يا رسولَ الله، وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «الذي أمشاهم على أقدامهم قادرٌ على أن يُمشيهم على وجوههم».

في طبع الآدمي إنكار كلِّ ما لم يأنس به، ولو لم يشاهد الإنسان الحيَّة وهي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصوُّر المشي على غير رِجْلٍ، والمشي بالرجل أيضاً مُستَبعد عند مَن لم يشاهد ذلك.

فإيّاك أن تُنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدنيا، فإنَّك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عُرِضت عليك قبل المشاهدة، لكُنت أشدَّ إنكاراً لها، فأخضِر في قلبك صورتك وأنت واقف عارياً مكشوفاً ذليلاً مدحوراً[1] متحيِّراً مبهوتاً، مُنتظراً لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاء، وأعظِم هذه الحال فإنَّها عظيمة.

ثمَّ تفكَّر في ازدحام الخلائق واجتماعهم، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع، من مَلَكٍ وجنٍّ وإنسٍ وشيطانٍ ووحشٍ وسَبُعٍ وطير، فأشرقت عليهم الشمس، وقد تضاعف حرُّها، وتبدَّلت عمّا كانت عليه من خِفَّة أمرها، ثم أدنيت من رؤوس العالمين كَقَاب قوسين، فلم يبق على الأرض ظِلٌّ إلا ظِلُّ عرش ربِّ العالمين، ولم يُمكَّن من الاستظلال به إلا المقرّبون، فمن بين مستظلٌّ بالعرش، وبين مُضحٍ لحرِّ الشمس قد صهرتْه بحرِّها، واشتدَّ كربُه وغمُّه من وهجها.

ثم تدافعتِ الخلائق، ودفع بعضهم بعضاً لشدَّة الزحام، واختلاف الأقدام، وانضاف إليه شِدَّة الخجلة والحياء من الافتضاح والاختزاء عند العرض على جبَّار السماء، فاجتمع وهج الشمس، وحرُّ الأنفاس، واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف، ففاض العَرَق من أصل كلِّ شعرة، حتى سال على صعيد القيامة، ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله، فبعضهم بلغ العَرَق رُكبتيه، وبعضهم حَقويه[2]، وبعضهم إلى شحمة أذنيه، وبعضهم كاد يغيب فيه.

قال ابنُ عمر: قال رسول الله ﷺ: «يوم يقوم الناس لربِّ العالمين حتى يغيب

---

(١) مدحوراً: أي مخذولاً.

(٢) حقويه: الحقو هو: معقد الإزار.

أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه».

وقال أبو هريرة: قال رسولُ الله ﷺ: «يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عَرَقُهم في الأرض سبعين باعاً، ويُلجمهم، ويبلغ آذانهم».. كذا رواه البخاري ومسلم في الصحيح.

وفي حديثٍ آخر: «قياماً شاخصة[١] أبصارهم أربعين سنة إلى السماء، فيلجمهم العَرَق من شِدَّة الكرب».

وقال عقبة بن عامر: قال رسول الله ﷺ: «تدنو[٢] الشمس من الأرض يوم القيامة، فيعرق الناس، فمن الناس مَنْ يبلغ عَرَقه عَقِبه[٣]، ومنهم مَنْ يبلغ نصف ساقه، ومنهم من يبلغ ركبته، ومنهم مَنْ يبلغ فخذه، ومنهم مَنْ يبلغ خاصرته، ومنهم مَنْ يبلغ فاه» وأشار بيده، فألجمها فاه «ومنهم مَن يغطِّيه العَرَق» وضرب بيده على رأسه هكذا.

فتأمَّل يا مسكين في عَرَق أهل المحشر، وشِدَّة كربهم، وفيهم مَنْ ينادي فيقول: ربِّ أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار، وكلُّ ذلك ولم يَلْقَوا بعدُ حِساباً ولا عقاباً، فإنك واحد منهم، ولا تدري إلى أين يبلغ بك العَرَق؟.

واعلم أنَّ كلَّ عَرَق لم يخرجه التعب في سبيل الله، من حجٍّ وجهادٍ وصيام وقيام وتردُّد في قضاء حاجة مسلم، وتحمُّل مشقةٍ في أمرٍ بمعروف ونَهْيٍ عن منكر، فسيخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لَعَلِم أن تعب العَرَق في تحمُّل مصاعب الطاعات أهون أمراً، وأقصر[٤] زماناً من عَرَق الكرب والانتظار في القيامة، فإنَّه يوم عظيمة شدَّتُه، طويلة مُدَّتُه.

(١) شاخصة: مرفوعة الى الاعلى.
(٢) تدنو: تقترب.
(٣) عقبه: العقب هو عَظم مؤخر القدم وهو أكبر عظامها.
(٤) أقصر: أقل.

٣٧ ـ باب: في بيان القضاء بين الخلائق

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون من المُفْلِس؟» قلنا: المُفْلس فينا يا رسول الله مَنْ لا دِرهم له ولا دينار ولا متاع. قال: «المفلس من أمتي مَنْ يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيُعطى هذا من حسناته، وهذا مِن حسناته، فإن فَنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أُخذ من خطاياهم، فطُرِحت عليه، ثم طُرِح في النار».

فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم، إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرِّياء، ومكائد الشيطان، فإن سَلِمت حسنة واحدة في كلٍّ مُدَّة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها، ولعلك لو حاسبت نفسك، وأنت مواظب على صيام النهار، وقيام الليل، لعلمت أنَّه لا ينقضي عنك يومٌ إلا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك، فكيف ببقية السيئات، من أكل الحرام والشبهات، والتقصير في الطاعات؟ وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يومٍ يُقْتَصُّ فيه للجمَّاء[1] من القرناء؟.

فقد روى أبو ذرٍّ أنَّ رسول الله ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: «يا أبا ذر، أتدري فيم ينتطحان؟» قلت: لا. قال: «ولكنَّ الله يدري، وسيقضي بينهما يوم القيامة».

وقال أبو هريرة في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وما من دابَّةٍ في الأرضِ ولا طائرٍ يطيرُ بجناحيه إلا أُمَمٌ أمثالكم﴾[2] إنه يحشر الخلق كلَّهم يوم القيامة، البهائم والدوابّ والطير وكلَّ شيء فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجمَّاء من القرناء ثم يقول: كوني تُراباً فذلك حين يقول الكافر: ﴿يا ليتني كُنتُ تُرَاباً﴾[3].

فكيف أنت-يا مسكين في يومٍ ترى صحيفتك خالية عن حسناتٍ طال فيها تعبك؟

---

(١) الجماء: هي التي لا قرن لها.

(٢) سورة الانعام، الآية: ٣٨.

(٣) سورة النبأ، الآية: ٤٠.

فتقول: أين حسناتي؟ فيُقال: نُقلت إلى صحيفة خصمائك، وترى صحيفتك مشحونة[١] بسيِّئاتٍ طال في الصبر عنها نَصَبُك، واشتدَّ بسبب الكفِّ عنها عناؤك، فتقول: يا ربِّ هذه سيئاتٌ ما قارفتها قطُّ، فيُقال: هذه سيِّئاتُ القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسُّوء، وظلمتهم في المبايعة والمجاورة، والمخاطبة والمناظرة، والمذاكرة والمدارسة، وسائر أصناف المعاملة.

قال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قد يئس أن تُعْبَد الأصنام بأرض العرب، ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقَّرات. وهي الموبقات، فاتَّقوا الظلم ما استطعتم، فإنَّ العبد ليجيء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات، فيرى أنَّهن سينجينه، فما يزال عبد يجيء فيقول: ربِّ إن فلاناً ظلمني بمظلمة، فيقول: امح من حسناته، فما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شيء، وإن مَثَل ذلك مَثَل سَفْرٍ نزلوا بفلاةٍ من الأرض ليس معهم حطب، فتفرَّق القوم فحطبوا، فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم، وصنعوا ما أرادوا، وكذلك الذنوب».

ولما نزل قوله تعالى: ﴿إنَّك مَيِّت وإنَّهم ميِّتون * ثم إنَّكم يومَ القيامة عند ربِّكم تختصمون﴾[٢].

قال الزبير: يا رسول الله، أيكرَّر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواصِّ الذنوب؟ قال: «نعم، ليكررنَّ عليكم حتى تؤدُّوا إلى كلِّ ذي حقٍّ حقَّه». قال الزبير: والله إن الأمر لشديد.

فأعظِم بشدَّة يوم لا يُسامَح فيه بخطرةٍ، ولا يُتجاوز فيه عن لطمة، ولا عن كلمة، حتى يُنْتَقم للمظلوم من الظالم.

قال أنسٌ: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «يَحشر الله العباد عُراة غُبْراً بُهْماً» قال: قلنا: ما بُهماً؟ قال: «ليس معهم شيء، ثم يناديهم ربُّهم تعالى بصوت يسمعه مَنْ بَعُد، كما يسمعه من قَرُب: أنا الملك، أنا الدَّيَّان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنَّة ولأحدٍ من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصَّه منه، ولا لأحدٍ من أهل النار أن

---

(١) مشحونة: مليئة.

(٢) سورة الزمر، الآيتان: ٣٠، ٣١.

يدخل النار ولأحدٍ من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصّه منه، حتى اللطْمة» قلنا: وكيف؟ وإنما نأتي الله عزَّ وجلَّ عُراة غُبراً بُهما؟ فقال: «بالحسنات والسيئات»..

فاتقوا الله عباد الله، ومظالمَ العباد بأخذ أموالهم والتعرُّض لأعراضهم، وتضييق قلوبهم، وإساءة الخُلُق في معاشرتهم، فإنَّ ما بين العبد وبين الله خاصَّة، فالمغفرة إليه أسرع، ومَن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها، وعَسُر عليه استحلال أرباب المظالم، فلْيُكثر من حسناته ليوم القصاص، وليُسِرَّ ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص، بحيث لا يطَّلع عليه إلا الله، فعساه يقرِّبه ذلك إلى الله تعالى، فينال به لطفه الذي ادّخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم.

كما رُوي عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثناياه، فقال عمر: ما يضحكك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي؟ قال: «رجلان من أمتي جثيا[1] بين يدي ربِّ العزَّة، فقال أحدهما: يا ربّ خذ لي مظلمتي[2] من أخي. فقال الله تعالى: أعط أخاك مظلمته، فقال: يا ربّ لم يبق من حسناتي شيء.

فقال الله تعالى للطالب: كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء؟ قال: يا رب يتحمَّل عنِّي من أوزاري» قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: «إنَّ ذلك ليومٌ عظيم، يوم يحتاج الناس إلى أن يُحمل عنهم من أوزارهم».

قال: «فقال الله للطالب: ارفع رأسك، وانظر في الجِنان، فرفع رأسه فقال: يا ربِّ أرى مدائن من فِضَّة مرتفعة، وقصوراً من ذهب مكلَّلة باللؤلؤ، لأيِّ نبيٍّ هذا؟، أو لأيِّ صِدِّيق هذا؟، أو لأيِّ شهيد؟، قال: لمن أعطاني الثمن.

قال: يا ربِّ ومن يملك ثمنه؟ قال: أنت تملكه. قال: وما هو؟ قال: عفُوك عن أخيك. قال: يا ربِّ أنِّي قد عفوت عنه.

قال الله تعالى: خُذ بيد أخيك، فأدخله الجنة». ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «اتَّقوا الله، وأصلحوا ذات بينكم، فإنَّ الله يُصْلِح بين المؤمنين».

---

(١) جثيا: قعدا.
(٢) مظلمتي: حقي.

وهذا تنبيه على أنَّ ذلك إنَّما يُنال بالتخلُّق بأخلاق الله، وهو إصلاح ذاتِ البَيْن، وسائر الأخلاق.

فتفكَّر الآن في نفسك إن خَلَت صحيفتك عن المظالم، أو تلطَّف لك حتَّى عفا عنك، وأيقنت بسعادة الأبد، كيف يكون سرورك في مُنْصَرفِك من مفصل القضاء، وقد خلع عليك خلعة الرِّضاء، وعدت بسعادةٍ ليس بعدها شقاء، وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء؟ وعند ذلك طار قلبك سروراً وفرحاً، وابْيَضَّ وجهك واستنار وأشرق كما يُشرق القمر ليلة البَدْر، فتوهَّم تُبَخْتُرَك[1] بين الخلائق رافعاً رأسك، خالياً عن الأوزار ظهرُك، ونَضْرة نسيم النعيم، وبَرْد الرِّضا يتلألأ من جبينك، وخَلْق الأوَّلين والآخرين ينظرون إليك، وإلى حالك، ويغبطونك في حُسنك وجمالك، والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك، وينادون على رؤوس الأشهاد: هذا فلان بن فلان رضي الله عنه وأرضاه، وقد سَعِد سعادةً لا يشقى بعدها أبداً.

أفترى أنَّ هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التي تنالها في قلوب الخَلْق في الدنيا بريائك ومداهنتك، وتصنُّعك وتزيُّنك؟.

فإن كنت تعلم أنَّه خير منه، بل لا نسبة له إليه، فتوسَّل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافي، والنيَّة الصادقة في معاملتك مع الله، فلن تُدرك ذلك إلا به، وإن تكن الأخرى والعياذ بالله بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هيِّنة، وهي عند الله عظيمة، فمَقَتَك لأجلها، فقال: عليك لعنتي يا عبد السوء، لا أتقبَّل منك عبادتك، فلا تسمع هذا النداء إلاَّ ويَسْوَدُّ وجهك، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى، فيقولون: وعليك لعنتنا، ولعنةُ الخلائق أجمعين، وعند ذلك تنثال[2] إليك الزبانية، وقد غضبت لغضب خالقها، فأقدمت عليك بفظاظتها وزعارتها[3] وصورها النكرة، فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ الخلائق، وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك، وإلى ظهور خِزْيك وأنت تنادي بالويل والثبور، وهم يقولون لك: لا تدعُ اليوم ثبوراً[4] واحداً وادعُ

---

(١) تبخترك: تكبّرك.
(٢) تنثال: تنصب.
(٣) زعارتها: شراستها.
(٤) ثبوراً: هلاكاً.

ثبوراً كثيراً.

وتنادي الملائكة ويقولون: هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه، ولعنه بقبائح مساويه، فشقي شقاوةً لا يسعد بعدها أبداً، وربّما يكون ذلك بذنبٍ أذنبته خُفْيَة من عباد الله أو طلباً للمكانة في قلوبهم، أو خوفاً من الافتضاح عندهم، فما أعظمَ جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا المنقرضة، ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملأ العظيم، مع التعرُّض لسخط الله وعقابه الأليم، والسَّياق بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم، فهذه أحوالك، وأنت لم تشعر بالخطر.



٣٨ ـ باب: في بيان ذمّ[1] المال

قال الله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تُلْهِكُم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذكرِ الله ومَنْ يفعل ذلك فأولئك هم الخَاسرون﴾[2].

وقال تعالى: ﴿إنَّما أموالُكم وأولادُكم فِتْنَة والله عنده أجرٌ عظيم﴾[3].

فمن اختار ماله وولده على ما عند الله فقد خسر وغُبِن خُسراناً عظيماً.

وقال عزّ وجلّ: ﴿مَنْ كان يريدُ الحياةَ الدُّنيا وزينتَها﴾[4].

وقال: ﴿كلاّ إنّ الإنسان ليَطْغى * أن رآه استغنى﴾[5] فلا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

وقال تعالى: ﴿ألهاكُمُ التَكاثُر﴾[6].

وقال رسول الله ﷺ: «حُبُّ المال والشَّرف[7] يُنْبتان النِّفاق في القلب كما يُنْبِت الماء البَقْل».

وقال ﷺ: «ما ذئبان ضاريان أُرْسلا في زَريبة غنم بأكثر إفساداً فيها من حُبّ الشَّرف والمال والجاه في دين الرجل المسلم».

وقال ﷺ: «هلك المكثرون إلا مَنْ قال به في عباد الله هكذا وهكذا وقليل ما هم».

---

(١) ذمّ: ذمة ذَمّاً ومَذَمّة: عابه ولامه.
(٢) سورة المنافقون، الآية: ٩.
(٣) سورة التغابن، الآية: ١٥.
(٤) سورة هود، الآية ١٥.
(٥) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.
(٦) سورة التكاثر، الآية: ١.
(٧) الشَّرف: التطلع الى العظمة والكبر.

وقيل: يا رسول الله، أيُّ أُمَّتك شرٌّ؟ قال: «الأغنياء».

وقال ﷺ: «سيأتي بعدكم قومٌ يأكلون أطايب الدنيا وألوانها، ويَلْبَسون أجمل الثياب وألوانها، لهم بُطون من القليل لا تشبع، وأنفسٌ بالكثير لا تقنع، عاكفين على الدنيا، يغدون ويروحون إليها، اتَّخذوها آلهةً من دون إلههم، ورَبّاً دون ربِّهم، إلى أمرها ينتهون، ولهواهم يتَّبعون».

فعزيمة من محمَّد بن عبد الله لمن أدركه ذلك الزَّمان، من عَقِب عَقِبكم، وخَلَف خَلَفكم أن لا يُسلِّم عليهم، ولا يعودَ مرضاهم، ولا يتَّبع جنائزهم، ولا يوقِّر كبيرهم، فمَن فعل ذلك فقد أعان على هدمِ الإسلام».

وقال ﷺ: «دعوا الدنيا لأهلها، مَنْ أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه، أخذ حتفه[1]، وهو لا يشعر».

وقال ﷺ: «يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك من مالك إلاّ ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدَّقت فأمضيت؟».

وقال رجل: يا رسولَ الله، مالي لا أحبُّ الموت؟ فقال: «هل معك من مال؟» قال: نعم يا رسول الله. قال: «قدِّم مالك، فإن قلب المرء مع ماله، إن قدَّمه أحبَّ أن يلحقه، وإن خلَّفه أحبَّ أن يتخلَّف معه».

وقال ﷺ: «أخلاء[2] ابنِ آدم ثلاثة: واحد يتبعه إلى قبض روحه، والثاني إلى قبره، والثالث إلى محشره، فالذي يتبعه إلى قبض روحه فهو ماله، والذي يتبعه إلى قبره فهو أهله، والذي يتبعه إلى محشره فهو عمله».

وقال الحواريُّون لعيسى عليه السلام: مالَك تمشي على الماء ولا نقدر على ذلك؟ فقال لهم: ما منزلة الدينار والدِّرهم عندكم؟ قالوا: حسنة. قال: لكنهما والمدر عندي سواء.

---

(١) حتفه: هلاكه، وموته.

(٢) أخلاء: أصحاب.

وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء رضي الله عنهما: يا أخي إيّاك أن تجمع من الدنيا ما لا تؤدّي شُكره، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بصاحب الدنيا الذي أطاع الله فيها، وماله بين يديه، كلّما تكفّأ[١] به الصراط قال له: امض، فقد أدّيْت حقّ الله فيّ، ثم يُجاء بصاحب الدنيا الذي لم يُطع الله فيها، وماله بين كتفيه، كلّما تكفّأ به الصراط قال له ماله: ويلك ألا أدّيْت حقّ الله فيّ! فما يزال كذلك حتى يدعو بالويل والثبور».

وقال ﷺ: «إذا مات العبد قالت الملائكة: ما قدّم؟ وقال الناس: ما خلّف؟».

وقال ﷺ: «لا تتّخذوا الضيعة فتحبّوا الدنيا».

ورُوي أنّ رجلاً نال[٢] من أبي الدرداء وأراه سوءاً، فقال: اللهم مَنْ فعل بي سوءاً فأصحّ جسمه، وأطِلْ عُمُره، وأكثر ماله.

فانظر كيف رأى كثرة المال غاية البلاء مع صِحّة الجسم، وطول العُمُر، لأنّه لا بدّ وأن يُفضي[٣] إلى الطغيان.

ووضع عليٌّ كرّم الله وجهه درهماً على كفّه ثم قال: أما إنك ما لم تخرج عنّي لا تنفعني.

ورُوي أنّ عمر رضي الله عنه أرسل إلى زينب بنت جحش بعطائها فقالت: ما هذا؟ قالوا: أرسله إليك عمر بن الخطاب. قالت: غفر الله له، ثمّ حلّت سِتْراً كان لها، فقطعته وجعلته صُرراً، وقسمته في أهل بيتها ورحمها وأيتامها، ثم رفعت يديها وقالت: اللهم لا يدركني عطاء عمر بعد عامي هذا. فكانت أوّل نساء رسول الله ﷺ لُحوقاً به.

وقال الحسن: والله ما أعزّ الدرهم أحدٌ إلاّ أذلّه الله.

وقيل: إنّ أوّل ما ضُرب الدينار والدرهم رفعهما إبليس، ثم وضعهما على جبهته، ثم قبّلها وقال: مَنْ أحبّكما فهو عبدي حقّاً.

---

(١) تكفأ: تمايل.

(٢) نال: صب، وطعن.

(٣) يفضي: أي يوصل.

وقال سُميط بن عجلان: إنَّ الدراهم والدنانير أزِمّةُ المنافقين يُقادون بها إلى النار.

وقال يحيى بن معاذ: الدرهم عقرب، فإن لم تُحسِن رقيته فلا تأخذه، فإنّه إن لدغك قتلك سُمُّه. قيل: وما رُقيتُه؟ قال: أخذه من حِلِّه، ووضعه في حقِّه.

وقال العلاء بن زياد: تمثّلتْ لي الدنيا، وعليها من كلّ زينة، فقلت: أعوذ بالله من شرّك. فقالت: إن سرّك أن يُعيذك الله مني فأبغض الدرهم والدينار.

وذلك لأنّ الدرهم والدينار همّا الدنيا كلها إذ يُتوصّل بهما إلى جميع أصنافها، فمن صبر عنهما صبر عن الدنيا. وفي ذلك قيل:

إنـي وجـدتُ فـلا تظنُّـوا غيـره أنّ التـورُّع عنـد هـذا الـدرهـم
فـإذا قـدرتَ عليـه ثـم تـركتـه فـاعلـم بـأن تُقَـاكَ تقـوَى المسلـم

وفي ذلك قيل أيضاً:

لا يغـرّنـكَ مـن المـر ء قميـصٌ رقّعَـهْ
أو إزارٌ فـوق عظـم السّـ ـاق منـه رفعَـهْ
أو جبيـنٌ لاح فيـه أثـر قـد خلعَـهْ
أره الـدرهـمَ تعـرِفْ حُبَّـه أو ورَعَـه

ويروى عن مَسلمة بن عبد الملك أنّه دخل على عمر بن عبد العزيز رحمه الله عند موته، فقال: يا أمير المؤمنين، صنعت صنيعاً لم يصنعه أحدٌ قبلك. تركت ولدك ليس لهم درهم ولا دينار، وكان له ثلاثة عشر من الولد، فقال عمر: أقعدوني، فأقعدوه فقال: أمّا قولك: لم أدع لهم ديناراً ولا درهماً. فإني لم أمنعهم حقّاً لهم، ولم أعطهم حقّاً لغيرهم، وإنّما ولدي أحد رجلين.

إما مطيع لله، فالله كافيه، والله يتولّى الصالحين، وإمّا عاصٍ لله، فلا أبالي على ما وقع.

ورُوي أنَّ محمد بن كعب القرظي أصاب مالاً كثيراً فقيل له: لو ادّخرته لولدك من

بعدك! قال: لا، ولكنّي أدخره[١] لنفسي عند ربّي، وأدّخر ربّي لولدي.

ورُوي أنّ رجلاً قال لأبي عبد ربّه: يا أخي، لا تذهب بشرّ، وتترُك أولادَك بخير. فأخرج أبو عبد ربّه من ماله مائة ألف درهم.

وقال يحيى بن معاذ: مصيبتان لم يسمع الأوّلون والآخرون بمثلهما للعبد في ماله عند موته. قيل: وما هما؟ قال: يؤخذ منه كله، ويُسأل عنه كلُّه.



(١) أدخره: أحتفظه.

٣٩ ـ باب: في الأعمال والميزان وعذاب النار

يا أخي لا تغفل عن الفِكر[١] في الميزان، وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل، فإنَّ الناس بعد السؤال ثلاث فرق:

فِرقة ليس لهم حسنة، فيخرج من النار عنق أسود فيَلْقَطهم لقط الطير الحبَّ، وينطوي عليهم، ويُلقيهم في النار، فتبتلعهم النار، ويُنادىٰ عليهم: شقاوة لا سعادة بعدها.

وقسم آخر لا سيئة لهم، فيُنادي منادٍ: ليقم الحمَّادون لله على كلِّ حال، فيقومون ويسرحون إلى الجنَّة، ثم يُفعل ذلك بأهل قيام الليل، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى، ويُنادى عليهم: سعادة لا شقاوة بعدها.

ويبقى قسم ثالث وهم الأكثرون، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وقد يخفى عليهم، ولا يخفى على الله تعالى، أنَّ الغالب حسناتهم أو سيئاتهم، ولكن يأبى الله أنْ يعرِّفهم ذلك ليبيِّن فضله عند العفو، وعدله عند العقاب، فتتطاير الصُّحُف، والكُتب منطوية على الحسنات والسيِّئات، ويُنْصَبُ[٢] الميزان، وتَشْخَص[٣] الأبصار إلى الكتب، أتقع في اليمين؟ أو في الشمال؟ ثم إلى لسان الميزان، أيميل إلى جانب السيِّئات، أو إلى جانب الحسنات، وهذه حالة هائلة، تطيش فيها عقول الخلائق.

وروى الحسن أنَّ رسولَ الله ﷺ كان رأسُه في حَجْر عائشة رضي الله عنها فنعس، فذكرت الآخرة، فبكت حتى سال دمعها، فنقط على خدِّ رسول الله ﷺ، فانتبه فقال: «ما يُبكيك يا عائشة؟» قالت: ذكرت الآخرة، هل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ قال: «والذي نفسي بيده في ثلاثِ مواطن، فإنَّ أحداً لا يذكر إلاّ نفسه:

---

(١) الفِكر: التفكر.
(٢) يُنْصَبُ: يوضع.
(٣) تشخص: ترتفع.

إذا وُضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخفُّ ميزانه أم يثقُل؛ وعند الصُّحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أو بشماله؛ وعند الصراط».

وعن أنس قال: يُؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يُوقف بين كِفَّتي الميزان، ويُوكَل به ملَك، فإن ثقُل ميزانه، نادى الملك بصوت يُسمع الخلائق: سَعِدَ فلان سعادةً لا يشقى بعدها أبداً، وإن خفَّ ميزانه، نادى بصوت يُسمع الخلائق: شَقِيَ فلان شقاوةً لا يسعد بعدها أبداً، وعند خِفَّة كفَّة الحسنات، تُقْبِل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد، عليهم ثيابٌ من نار، فيأخذون نصيب النار إلى النار.

وقال رسول الله ﷺ في يوم القيامة: «إنّه يومٌ يُنادي الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له: قم يا آدم فابعث بعثَ النار، فيقول: وكم بعث النار؟ فيقول: من كلّ ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون». فلمّا سمع الصحابة ذلك أبْلَسوا[1] حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلمّا رأى رسول الله ﷺ ما عند أصحابه، قال: «إعلموا وأبشروا، فوالذي نفسُ محمَّدٍ بيده إنَّ معكم لخليقتين ما كانتا مع أحدٍ قطُّ إلاّ كثَّرتاه مع مَن هلك من بني آدم وبني إبليس». قالوا: وما هما يا رسول الله؟ قال: «يأجوج ومأجوج» قال: فسُرِّي عن القوم، فقال: «إعملوا وأبشروا، الذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس يوم القيامة إلا كالشَّامة في جنب البعير، أو كالرَّقمة في ذراع الدابة».

يا أيُّها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغلِ هذه الدُّنيا المشرفة على الانقضاء والزوال، دع التفكُّر فيما أنت مرتحل عنه، واصرف الفِكْر إلى موردك، فإنك أُخبرتَ بأنَّ النار مورد للجميع لقوله تعالى: ﴿**وإنْ منكم إلاّ واردُها كان على ربّك حتماً مَقْضياً * ثم ننجّي الَّذين اتّقوا ونَذَرُ الظالمين فيها جثيّاً**﴾[2].

فأنت من الورود على يقين، ومن النجاة في شكٍّ، فاستشعر في قلبك هولَ ذلك المورد، فعساك تستعدُّ للنجاة منه، وتأمَّل في حال الخلائق، وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفاً ينتظرون حقيقة أنبائها، وتشفيع شُفعائها، إذ أحاطت بالمجرمين ظُلماتٌ ذاتُ شُعَب، وأظلّت عليهم نارٌ ذات لهب،

---

(١) أبلسوا: سكتوا لحيرتهم وخوفهم.
(٢) سورة مريم، الآيتان: ٧١، ٧٢.

وسمعوا لها زفيراً وجَرْجرة تُفصح عن شِدَّة الغيظ والغضب.

فعند ذلك أيقن المجرمون بالعَطَب، وجثت الأمم على الرُّكَب، حتى أشفق[١] البُرآء من سوء المُنْقلب، وخرج المُنادي من الزَّبانية قائلاً: أين فلان بن فلان المُسَوِّف نفسه في الدنيا بطول الأمل، المضيّع عمرَهُ في سوء العمل؟ فيبادرونه بمقامع من حديد، ويستقبلونه بعظائم التهديد، ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكّسونه في قعر[٢] الجحيم، ويقولون له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيزُ الكريم﴾[٣].

فأُسكنوا داراً ضيِّقة الأرجاء، مُظلمة المسالك، مُبْهمة المهالك، يخلد فيها الأسير، ويوقد فيها السَّعير، شرابهم فيها الحميم، ومستقرُّهم الجحيم، الزبانية تقمعهم، والهاوية تجمعهم، أمانيهم فيها الهلاك، ومالهم فيها فِكاك، قد شُدّت أقدامهم إلى النواصي، واسودَّت وجوههم من ظُلمة المعاصي، يُنادون من أكنافها، ويصيحون في نواحيها وأطرافها:

يا مالك قد حقّ علينا الوعيد، يا مالك قد أثقلنا الحديد، يا مالك قد نضِجت مِنّا الجلود، يا مالك أخرجنا منها فإنّا لا نعود.

فتقول الزبانية: هيهات لات حين أمان، ولا خروج لكم من دار الهوان، فاخسؤوا فيها ولا تكلمون، ولو أُخرِجتُم منها لكنتم إلى ما نُهيتم عنه تعودون، فعند ذلك يقنطون، وعلى ما فرَّطوا في جنب الله يتأسّفون، ولا ينجّيهم الندم، ولا يغنيهم الأسَف، بل يُكبُّون على وجوههم مغلولين، النار من فوقهم، والنار من تحتهم، والنار عن أيمانهم، والنار عن شمائلهم، فهم غرقى في النار، طعامهم نار، وشرابهم نار، ولباسهم نار، ومِهادهم نار، فهم بين مقطّعات النيران، وسرابيل القَطِران، وضرب المقامع، وثِقَل السلاسل، فهم يتجلجلون في مضايقها، ويتحطَّمون في دَرَكاتها، ويضطربون بين غواشيها، تغلي بهم النار كغلي القدور، ويهتفون بالويل والعويل ومهما دعوا بالثبور، صُبَّ من فوق رؤوسهم الحميم يُصهر به ما في بُطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، تهشم بها

---

(١) أشفق: خاف.

(٢) قعر: أي أقصى عمق جهنم.

(٣) سورة الدخان، الآية: ٤٩.

جباههم، فيتفجَّر الصديد من أفواههم، وتنقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم، ويسقط من الوجنات لحومها، ويتمعَّط[١] من الأطراف شعورها، بل جلودها، وكلما نضِجت جلودهم بُدِّلوا جلوداً غيرها، قد عريت من اللحم عظامهم، فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب، وهي تنشّ في لفح تلك النيران، وهم مع ذلك يتمنّون الموت فلا يموتون.

فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سُوّدت وجوههم أشدَّ سواداً من الحميم، وأعميت أبصارهم، وأُبْكمت ألسنتهم، وقُصِمت ظهورهم، وكُسِرت عظامهم، وجُدِعت[٢] آذانهم، ومُزِقت جلودهم، وغُلّت أيديهم إلى أعناقهم، وجُمع بين نواصيهم وأقدامهم؟ وهم يمشون على النار بوجوههم، ويطؤون حسك الحديد بأحداقهم؟ فلهيب النار سارٍ في بواطن أجزائهم، وحيّات الهاوية وعقاربها مُتشبثة بظواهر أعضائهم.

هذا بعضُ جملة أحوالهم، وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتفكَّر أيضاً في أودية جهنم وشعابها.

فقد قال النبيُّ ﷺ: «إن في جهنم سبعين ألف واد، في كلّ وادٍ سبعون ألف شِعب، وفي كلِّ شعب سبعون ألف ثعبان، وسبعون ألف عقرب، لا ينتهي الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كلَّه».

وقال عليٌّ كرّم الله وجهه: قال رسول الله ﷺ: «تعوَّذوا بالله من جُبِّ الحُزن، أو وادي الحُزن» قيل: يا رسول الله! وما وادي أو جُبُّ الحزن؟ قال: «وادٍ في جهنَّم، تتعوَّذ منه جهنّم كلّ يوم سبعين مرَّة، أعدّه الله تعالى للقرّاء المرائين».

فهذه سَعة جهنم، وانشعاب أوديتها، وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها، وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التي بها يَعصي العبد، بعضها فوق بعض، الأعلى جهنم، ثم سقر، ثم لظى، ثم الحُطَمة، ثم السعير، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

فانظر الآن في عمق الهاوية، فإنّه لا حدَّ لعمقها، كما لا حدّ لعمق شهوات الدنيا، فكما لا ينتهي أَرَبٌ من الدنيا إلاّ إلى أربٍ أعظمَ منه، فلا تنتهي هاوية من جهنَّم إلا إلى

(١) يتمعط: يتساقط ويتناثر.
(٢) جُدعت: قطعت.

هاوية أعمق منها.

قال أبو هريرة: كُنّا مع رسول الله ﷺ فسمعنا وجبةً، فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا حجر أُرسل في جهنم منذ سبعين عاماً، الآن انتهى إلى قعرها».

ثم انظر إلى تفاوت الدرجات، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، فكما أنَّ إكباب الناس على الدنيا يتفاوت، فمن منهمكٍ مستكثرٍ كالغريق فيها، ومن خائضٍ فيها إلى حدٍّ محدود، فكذلك تناوُل النار لهم متفاوت، فإنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة، فلا تترادف أنواع العذاب على كلِّ مَنْ في النار كيفما كان، بل لكلِّ واحدٍ حدٌّ معلوم على قدر عصيانه وذنبه، إلا أنَّ أقلَّهم عذاباً لو عُرِضت عليه الدنيا بحذافيرها، لافتدى بها من شِدّة ما هو فيه.

قال رسول الله ﷺ: «إنّ أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه».

فانظر الآن إلى مَن خُفِّف عليه، واعتبر به من شُدّد عليه، ومهما تشكّكت في شِدّة عذاب النار، فقرِّب أصبعك من النار، وقِس ذلك به، ثم اعلم أنك أخطأت في القياس، فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم، ولكن لما كان أشدّ عذاب في الدنيا عذابَ هذه النار، عُرِف عذاب جهنم بها، وهيهات لو وَجَد أهلُ الجحيم مثل هذه النار، لخاضوها طائعين، هرباً ممّا هُمْ فيه، وعن هذا عُبِّر في بعض الأخبار حيث قيل: إن نار الدنيا غُسِلت بسبعين ماءً من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا.

بل صرّح رسول الله ﷺ بصفة نار جهنّم فقال: «أمر الله تعالى أن يُوقد على النار ألف عام حتى إحمرّت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضّت، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودّت، فهي سوداء مظلمة».

وقال ﷺ: «اشتكت النار إلى ربِّها فقالت: يا ربِّ أكل[1] بعضي بعضاً، فأذن لها في نَفَسَين: نَفَس في الشتاء، ونَفَس في الصيف، فأشدّ ما تجدونه في الصيف من حرِّها،

---

(١) أكل: أفنى.

وأشدّ ما تجودنه في الشتاء من زمهريرها»[١].

وقال أنس بن مالك: يُؤتى بأنعم الناس في الدنيا من الكفار، فيُقال: اغمسوه في النار غمسة، ثم يُقال له: هل رأيت نعيماً قط؟ فيقول: لا، ويؤتى بأشدّ الناس ضُرّاً في الدنيا، فيقال: اغمسوه في الجنة غمسة، ثم يُقال له: هل رأيت ضُرّاً قط؟ فيقول: لا.

وقال أبو هريرة: لو كان في المسجد مائة ألف أو يزيدون، ثم تنفّس رجلٌ من أهل النار لماتوا.

وقد قال بعض العلماء في قوله: ﴿تَلْفَحُ وُجوهَهُم النَّارُ﴾[٢] إنها لفحتهم لفحةً واحدة، فما أبقت لحماً على عظم إلا ألقته عند أعقابهم.

ثم انظر بعد هذا في نَتَن الصَّديد الذي يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه، وهو الغَسَّاق[٣].

قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «لو أنّ دَلْواً من غَسّاق جهنّم أُلقي في الدنيا لأنتن أهلَ الأرض».

فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش، فيُسقى أحدهم ﴿من ماءٍ صَدِيدٍ* يتجرَّعه ولا يكاد يُسِيغُه ويأتيه الموتُ من كلِّ مكان وما هو بميِّت﴾[٤] ﴿وإنْ يَستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمُهْل[٥] يشوي الوجوهَ بِئسَ الشَّرابُ وساءتْ مُرتفقاً﴾[٦].

ثم انظر إلى طعامهم، وهو الزّقّوم[٧]، كما قال الله تعالى: ﴿ثم إنكم أيُّها الضّالّون المكذّبون * لآكلون من شجرٍ من زقُّوم * فمالئون منها البُطون * فشاربون عليه من

---

(١) زمهريرها: أي بردها الشديد.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٤.
(٣) الغساق: ما يسيل من جلود أهل النار وصديدهم.
(٤) سورة ابراهيم، الآيتان: ١٦، ١٧.
(٥) كالمُهْل: أي المعدن المذاب من فضة ونحاس.
(٦) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٧) الزّقوم: شجرة مُرّة كريهة الرائحة ثمرها طعام أهل النار، وقيل كل طعام يقتل.

الحميم * فشاربون شُرْب الهيم﴾[١].

وقال تعالى: **﴿إنّها شجرةٌ تخرج في أصْلِ الجحيم * طَلعُها كأنّه رُؤوس الشّياطين * فإنَّهم لآكلون منها فمالئون منها البُطون * ثُمّ إنّ لهم عليها لَشوْباً من حَميم * ثم إنّ مَرْجِعَهم لإلى الجَحيم﴾**[٢].

وقال تعالى: **﴿تصلى ناراً حامية * تُسقى من عينٍ آنية﴾**[٣].

وقال تعالى: **﴿إنَّ لدينا أنْكالاً وجحيماً * وطعاماً ذا غُصّةٍ وعَذاباً أليما﴾**[٤].

وقال ابن عبّاس: قال رسول الله ﷺ: «لو أنّ قطرةً من الزقوم قُطِرت في بِحَار الدنيا أفسدتْ على أهل الدنيا معايشهم».

فكيف من يكون طعامه ذلك؟

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «ارغبوا فيما رغّبكم الله، واحذروا وخافوا ما خوّفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم، فإنّه لو كانت قطرة من الجنّة معكم في دنياكم التي أنتم فيها طيّبَتْها لكم، ولو كانت قطرة من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبّثتها عليكم».

وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «يُلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون بالطعام، فيُغاثون بطعام من ضَريع[٥] لا يُسْمِنُ ولا يُغني من جوع، ويستغيثون بالطعام، فيُغاثون بطعامٍ ذي غُصَّةٍ[٦]، فيذكرون أنّهم كانوا يُجيزون الغُصَص في الدنيا بشراب، فيستغيثون بشراب، فيُرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد، فإذا دنت من وجوههم شَوَت وجوههم، فإذا دخل الشراب بُطونهم، قطّع ما في بطونهم، فيقولون: ادعوا خَزَنَة جهنم، قال: فيدعون خزنة جهنم، أن **﴿ادعوا ربكم يُخفِّف عنا**

---

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٥١ ـ ٥٥.
(٢) سورة الصافات، الآيات: ٦٤ ـ ٦٨.
(٣) سورة الغاشية، الآيتان: ٤، ٥.
(٤) سورة المزّمل، الآيتان: ١٢، ١٣.
(٥) الضريع: هو نَبْتُ الشّبرق، والسُّلاَّء.
(٦) الغُصّة: هي ما اعترض في الحلق من طعام او شراب جمع غُصص.

يوماً من العذابِ﴾[(١)] فيقولون: **﴿أوَ لمْ تكُ تأتيكُم رسلُكم بالبيِّنات قالوا بلى قَالوا فادعوا وما دُعاءُ الكافرين إلاّ في ضلال﴾**[(٢)] قال: فيقولون: ادعوا مالكاً، فيدعون فيقولون: **﴿يا مالكُ لِيقْضِ علينا ربُّك﴾**[(٣)] قال: فيجيبهم **﴿إنّكم ماكثون﴾**[(٤)].

قال الأعمش: أُنبِئْت أنّ بين دُعائهم وبين إجابة مالك إيّاهم ألف عام. قال: فيقولون: ادعوا ربّكم فلا أحد خير من ربّكم، فيقولون: **﴿ربَّنا غَلَبتْ علينا شِقْوَتُنا وكُنّا قوماً ضالِّين* ربّنا أخرِجْنا منها فإن عُدْنا فإنّا ظالمون﴾**[(٥)] قال: فيُجيبهم **﴿اخسؤوا فيها ولا تُكلِّمون﴾**[(٦)]. قال: فعند ذلك يئسوا من كلِّ خير، وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل.

وقال أبو أُمامة: قال رسولُ الله ﷺ في قوله تعالى: **﴿ويُسْقى من ماء صديد * يَتَجرَّعه ولا يكاد يُسيغُه﴾**[(٧)].

قال: «يُقرَّب إليه فيتكرهَّه فإذا أُدني منه شوى وجهه، فوقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دُبُره، يقول الله تعالى: **﴿وسُقُوا ماءً حميماً فقطَّع أمعاءَهُم﴾**[(٨)]. وقال تعالى: **﴿وإن يستغيثوا يُغاثوا بماءٍ كالمُهْل يشوي الوجوه﴾**[(٩)].

فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم، فانظر الآن إلى حَيّات جهنّم وعقاربها، وإلى شِدَّة سمومها، وعِظَم أشخاصها، وفظاعة منظرها، وقد سُلّطت على أهليها، وأُغرِيت بهم، فهي لا تَفْتُر عن النهش واللدغ ساعة واحدة.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته، مُثّل له يوم

---

(١) سورة غافر، الآية: ٤٩.
(٢) سورة غافر، الآية: ٥٠.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٧٧.
(٥) سورة المؤمنون، الآيتان: ١٠٦، ١٠٧.
(٦) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٨.
(٧) سورة ابراهيم، الآيتان: ١٦، ١٧.
(٨) سورة محمد، الآية: ١٥.
(٩) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

القيامة شُجاعاً أقرع له زبيبتان، يطوّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلَهازِمه» يعني أشداقه «فيقول: أنا مالك، أنا كنزك، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ ولا يحسبنَّ الذين يَبْخَلون بما آتاهم اللهُ من فضله﴾[١].

وقال رسول الله ﷺ: «إن في النار لحيّاتٍ مثل أعناق البُخت[٢]، يَلْسعْنَ اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفاً، وإنّ فيها لَعقارب كالبغال الموكفة[٣]، يلْسعْن اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفاً».

وهذه الحيّات والعقارب إنما تُسلَّط على من سُلّط عليه في الدنيا البخل، وسوء الخُلُق، وإيذاء الناس. ومن وُقي[٤] ذلك وُقي هذه الحيّات، فلم تمثّل له.

ثم تفكّر بعد هذا كلّه في تعظيم أجسام أهل النار، فإنّ الله تعالى يزيد في أجسامهم طُولاً وعرضاً، حتى يتزايد عذابُهم بسببه، فيُحسُّون بلَفْح النار، ولدْغ العقارب والحيّات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «ضِرْس الكافر في النار مِثل أُحُد، وغِلَظ جِلده مسيرة ثلاث».

وقال رسول الله ﷺ: «شَفَتُه السُّفلى ساقطة على صدره، والعُليا قالصة قد غطَّت وجهه».

وقال رسول الله ﷺ: «إنّ الكافر ليَجُرُّ لسانه في سِجّين يوم القيامة يتواطأه الناس».

ومع عِظَم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرّات، فتجدَّد جُلودهم ولحومهم.

قال الحسن في قوله تعالى: ﴿كُلّما نَضِجَت جُلُودُهم بدَّلناهم جُلوداً غيرها﴾[٥]

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٠.

(٢) اعناق البُخت: هي اعناق الابل الخراسانية.

(٣) الموكفة: هي البغال الموضوع عليها الإكاف أي الرَّحل.

(٤) وُقي: أي من صانه الله عن الأذى او حماه.

(٥) سورة النساء، الآية: ٥٦.

قال: تأكلهم النار كلَّ يوم سبعين ألف مرّة، كلما أكلتهم قيل لهم: عودوا، فيعودون كما كانوا.

ثمّ تفكّر الآن في بكاء أهل النار وشهيقهم ودُعائهم بالويل والثبور، فإنّ ذلك يُسلَّط عليهم في أوّل إلقائهم في النار.

قال رسول الله ﷺ: «يُؤتى بجهنّم يومئذٍ لها سبعون ألف زِمام، مع كلِّ زمام سبعون ألف ملك».

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «يُرسل على أهل النار البكاء، فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم، حتى يُرى في وجوههم كهيئة الأُخدُود، لو أرسلت فيها السُّفن لجرت».

وما دام يُؤذن لهم في البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور، فلهم فيه مُسْتَرْوَح، ولكنهم يُمْنعون أيضاً من ذلك.

قال محمد بن كعب: لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عزّ وجلّ في أربع، فإذا كانت الخامسة لم يتكلّموا بعدها أبداً فيقولون: ﴿ربّنا أمَتَّنا اثنتين وأحييْتَنا اثنتين فاعترفْنا بذنوبنا فهل إلى خروجٍ من سبيل﴾[1] فيقول الله تعالى مُجيباً لهم: ﴿ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحدَه كفرتُم وإن يُشرَكْ به تُؤمنوا فالحُكْمُ لله العليِّ الكبير﴾[2]. ثم يقولون: ﴿ربّنا أبصرْنا وسَمِعْنا فارْجِعْنا نعملْ صالحاً﴾[3] فيجيبهم الله تعالى: ﴿أوَ لم تكونوا أقسمْتُم من قبلُ ما لكم من زوال﴾[4] فيقولون: ﴿ربّنا أخرجنا نَعْمل صالحاً غيرَ الذي كُنّا نعمل﴾. فيجيبهم الله تعالى: ﴿أوَ لم نُعَمِّركم ما يتذكر فيه من تذكّر وجاءكم النّذير فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾[5]. ثم يقولون: ﴿ربّنا غلبت علينا شِقْوَتُنا وكُنّا قوماً ضالّين* ربّنا أخرجْنا منها فإن عُدْنا فإنّا ظالمون﴾. فيجيبهم الله تعالى: ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلّمون﴾[6]. فلا يتكلّمون بعدها أبداً، وذلك غاية شِدّة العذاب.

---

(١) سورة غافر، الآية: ١١.
(٢) سورة غافر، الآية: ١٢.
(٣) سورة السجدة، الآية: ١٢.
(٤) سورة ابراهيم، الآية: ٤٤.
(٥) سورة فاطر، الآية: ٣٧.
(٦) سورة المؤمنون، الآيات: ١٠٦ ـ ١٠٨.

قال مالك بن أنس رضي الله عنه: قال زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿سواءٌ علينا أجَزِعنا أم صَبَرْنا ما لنا من مَحيص﴾[1] قال: صبروا مائة سنة، ثم جزعوا مائة سنة، ثم صبروا مائة سنة، ثم قالوا: ﴿سواءٌ علينا أجَزِعنا أم صَبَرنا﴾.

وقال ﷺ: «يُؤتى بالموت يوم القيامة كأنَّه كبشٌ أملح، فَيُذبح بين الجنة والنار ويقال: يا أهل الجنّة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت».

وعن الحسن قال: يخرج من النار رجلٌ بعد ألف عام، وليتني كنت ذلك الرجل.

ورُئي الحسن رضي الله عنه جالساً في زاوية وهو يبكي، فقيل له: لِمَ تبكي؟ فقال: أخشى أن يطرحني في النار ولا يُبالي.

فهذه أصناف عذاب جهنَّم على الجُملة، وتفصيل غمومها وأحزانها ومِحَنها وحسراتها لا نهاية له، فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شِدّة العذاب حسرة فَوْت نعيم الجنة، وفوت لقاء الله تعالى، وفوت رضاه، مع علمهم بأنهم باعوا كلَّ ذلك بثمن بَخْسٍ، دراهم معدودة، إذ لم يبيعوا ذلك إلاّ بشهوات حقيرة في الدنيا أيّاماً قصيرة، وكانت غير صافية، بل كانت مكدّرة منغّصة، فيقولون في أنفسهم: واحسرتاه! كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربّنا؟ وكيف لم نُكلّف أنفسنا الصبر أياماً قلائل؟ ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنّا أيامه، وبقينا الآن في جوار ربِّ العالمين، مُتنعّمين بالرضا والرضوان.

فيا لَحَسْرة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم، وبُلُوا بما بُلُوا به، ولم يبقَ معهم شيء من نعيم الدنيا ولذّاتها، ثمَّ إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تَعْظُم حسرتهم، لكنَّها تُعْرَض عليهم.

فقد قال رسول الله ﷺ: «يُؤتى يوم القيامة بناسٍ من النار إلى الجنة، حتى إذا دنوا[2] منها، واستنشقوا رائحتها، ونظروا إلى قصورها، وإلى ما أعدّ الله لأهلها فيها نُوْدُوا: أن اصرفوهم عنها، لا نصيب لهم فيها، فيرجعون بحسرةٍ ما رجع الأولون

(١) سورة ابراهيم، الآية: ٢١.

(٢) دنوا: اقتربوا.

والآخرون بمثلها، فيقولون: يا ربّنا لو أدخلتنا النار قبل أن تُرِينا ما أريتنا من ثوابك، وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا. فيقول الله تعالى: ذاك أردت بكم، كُنتم إذا خلوتم بارزتموني[١] بالعظائم، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مُخْبِتين، تراؤون الناس بخلاف ما تُعطوني من قلوبكم، هِبْتُم[٢] الناس، ولم تهابوني، وأجْللتم الناس، ولم تُجِلّوني، وتركتم للناس، ولم تتركوا لي، فاليوم أذيقكم العذاب الأليم، مع ما حَرَمْتكم من الثواب المقيم».

قال أحمد بن حرب: إنّ أحدنا يؤثر الظِلّ على الشمس، ثم لا يؤثر الجنّة على النار.

وقال عيسى عليه السلام: كم من جسدٍ صحيح، ووجهٍ صبيح، ولسان فصيح، غدا في أطباق النار يصيح.

وقال داود: إلهي لا صبرَ لي على حرّ شمسك، فكيف صبري على حرّ نارك؟ ولا صبر لي على صوت رحمتك، فكيف على صوت عذابك؟

فانظر يا مسكين في هذه الأهوال واعلم أنّ الله تعالى خلق النار وأهوالها، وخلق لها أهلاً لا يزيدون ولا ينقصون، وأنّ هذا أمرٌ قد قُضي وفُرِغ منه. قال الله تعالى: **﴿وأنْذِرْهُم يومَ الحَسْرة إذْ قُضيَ الأمرُ وهم في غفلةٍ وهم لا يؤمنون﴾**[٣]. ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة، بل في أزل الأزل، ولكنْ أُظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء.

فالعجب منك حيث تضحك وتلهو، وتشتغل بمحقّرات الدنيا، ولستَ تدري أنّ القضاء بماذا سبق في حقّك! فإن قلت: فليت شعري ماذا موردي؟ وإلى ماذا مآلي ومَرْجعي؟ وما الذي سبق به القضاء في حقّي؟ فلَكَ علامةٌ تستأنس بها، وتصدق رجاءك بسببها، وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك، فإنّ كُلاً مُيَسّر لما خُلِق له، فإن كان قد يُسِّر لك سبيل الخير فأبشر، فإنّك مُبْعَدٌ عن النار، وإن كنت لا تقصد خيراً إلا وتُحيط

---

(١) بارزتموني: من بارز: أي ظاهر ظاهرتموني.
(٢) هبتم: خفتم.
(٣) سورة مريم، الآية ٣٩.

بك العوائق فتدْفعه، ولا تقصد شرّاً إلا ويتيسّر لك أسبابه، فاعلم أنّك مقضيٌّ عليك، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات، ودلالة الدُّخان على النار، فقد قال الله تعالى: ﴿**إنَّ الأبرار لفي نعيم * وإنّ الفُجّار لفي جحيم**﴾[1]. فاعرض نفسك على الآيتين، وقد عرفت مستقرّك من الدّارين، والله أعلم.



(١) سورة الانفطار، الآيتان: ١٣، ١٤.

٤٠ ـ باب: في فضل الطاعة

اعلم أنّ طاعة الله سبحانه وتعالى جِماع الخير كلّه، وقد حثَّ الله تعالى عليها في كتابه في آيات متعدّدة، وبها أرسل الرُسل، ليُخرج الناس من ظلمات النفوس إلى أنوار معرفة القدُّوس، وليتمتَّعوا في دار النعيم التي أُعدَّت للمتَّقين، بما لا عين رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإنهم لم يُخلقوا عبثاً، بل **﴿ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحُسنى﴾**[1] وهو الغنيُّ عن طاعتهم، ولا تضرُّه معصيتُهم، ولا تُنقِص من كمالاته شيئاً. **﴿فإن استكبروا فالَّذين عند ربِّك يُسبِّحون له بالَّليلِ والنَّهارِ وهم لا يَسأمون﴾**[2] **﴿مَن عَمَلَ صَالحِاً فلنفسِه ومَن أساء فعليها﴾**[3]. **﴿والله الغني وأنتم الفقراء﴾**[4].

يا عجباً أحدنا يشتري الرقيق، ويُحبُّ أن يكون قائماً بما يلزم من الخدمة، ناصحاً فيها مُنْقاداً لمولاه الذي استولى عليه بالعَرَض اليسير الفاني، ويمقته بزلّةٍ واحدة، ويغضب عليه، وربَّما منعه مُرتَّبه، أو طرده، أو باعه، فما لنا لا نطيع مولانا الحقيقي الذي خلقنا وسوّانا، ونقع في زلاّتٍ عدد المطر، ومع ذلك لم يمنع نِعَمه عنّا، وإمداداته التي لولاها لهلكنا، وهو قادر على البطش بنا بمجرّد ارتكاب زلّةٍ واحدة، لكنّه يُمهلنا لعلّنا نتوب فيقبلنا، ويغفر زلّتنا، ويستر عورتنا.

فالعاقل يعرف من هو الأحقُّ بالطاعة، فيُقبل عليه، ويتوجّه بكلّيته إليه، وكلّما أذنب تاب، وإلى خالقه أناب، ولا ييأس من رحمته، ويتحبّب إليه بشكر نعمته، ويواظب على ذلك عسى أن يُكتب من المحّبين، فيأتيه الموت وهو مشتاق إلى مولاه، ومولاه أشدُّ شوقاً إلى لقائه.

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣١.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٨.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٦.
(٤) سورة محمد، الآية: ٣٨.

قال أبو الدرداء لكعب رضي الله عنهما: أخبرني عن أخصِّ آية. يعني في التوراة، فقال: يقول الله تعالى: طال شُوْق الأبرار إلى لقائي، وإنّي إلى لقائهم لأشدُّ شوقاً، قال: ومكتوب إلى جانبها: مَنْ طلبني وجدني، ومن طلب غيري لم يجدْني، فقال أبو الدرداء: أشهد أني لسمعت رسول الله ﷺ يقول هذا.

وفي أخبار داود عليه السلام، أنّ الله تعالى قال: يا داود أبلغ أهل أرضي أنّي حبيب لمن أحبّني، وجليسٌ لِمَن جالسني، ومؤنس[١] لمن أنس بذكْري، وصاحبٌ لمن صاحبني، ومختارٌ لمن اختارني، ومطيعٌ لمن أطاعني.

ما أحبّني عبدٌ أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قَبِلْتُه لنفسي، وأحببته حُبّاً لا يتقدّمه أحد من خلقي. مَنْ طلبني بالحقّ وجدني، ومَن طلب غيري لم يجدني، فارْفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها، وهلمّوا إلى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي، وأْنسوا بي أؤانسْكم، وأسارع إلى محبّتكم، فإنّي خلقت طينة أحبائي من طينة إبراهيم خليلي، وموسى نجّيي، ومحمد صفيّي، وخلقت قلوب المُشتاقين من نوري ونَعّمتها بجلالي.

ورُوي عن بعض السّلف، أنّ الله تعالى أوحى إلى بعض الصدِّيقين: إنَّ لي عباداً من عبادي يحبّونني وأحبُّهم، ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم، وينظرون إليّ وأنظر إليهم، فإن حذَوْت[٢] طريقهم أحببتك، وإن عدلت[٣] عنهم مقتُّك.

قال: يا ربِّ، وما علامتهم؟ قال: يُراعون الظلال بالنهار، كما يراعي الراعي الشفيق غنمه، ويحنُّون إلى غروب الشمس كما يحِنُّ الطائر إلى وكره[٤] عند الغروب، فإذا جنّهم الليل واختلط الظلام، وفُرشت الفُرُش، ونُصِبت الأسِرّة، وخلا كلُّ حبيب بحبيبه، نصبوا إليّ أقدامهم، وافترشوا إليّ وجوههم، وناجوني بكلامي، وتملّقوا إليّ بإنعامي، فبين صارخٍ وباكٍ، وبين متأوّه وشاكٍ، وبين قائمٍ وقاعد، وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحمّلون من أجلي، وبسمعي ما يشتكون من حُبّي، أوّل ما أُعطيهم ثلاث:

---

(١) مؤنس: من آنس إيناساً: أي لا صف وازال الوحشة عنهم.
(٢) حذوت: سلكت.
(٣) عدلت: ابتعدت.
(٤) وكره: عُشه.

أقذف من نوري في قلوبهم فيُخبرون عنِّي كما أخبر عنهم.

والثانية: لو كانت السموات والأرض وما فيها في موازينهم لاستقللتُها لهم.

والثالثة: أُقبل بوجهي عليهم، فترى مَنْ أقبلتُ بوجهي عليه، ما يعلم أحدٌ ما أريد أن أعطيه!

وفي أخبار داود عليه السلام، أن الله تعالى أوحى إليه: يا داود إلى كم تذكر الجنّة، ولا تسألني الشوق إليّ؟ قال: يا ربّ مَن المشتاقون إليك؟

قال: إن المُشتاقين إليَّ الذين صفَّيتُهم من كل كَدَر، ونبَّهتُهم بالحذرِ، وخرقت من قلوبهم خَرْقاً ينظرون إليَّ، وإني لأحمل قلوبهم بيدي، فأضعها على سمائي، ثم أدعو نُجباء[1] ملائكتي، فإذا اجتمعوا سجدوا لي، فأقول: إنّي لم أدعكم لتسجدوا لي، ولكنّي دعوتكم لأعرِض عليكم المشتاقين إليّ، وأباهي بكم أهلَ الشوق إليّ، فإنّ قلوبهم لتُضيء في سمائي لملائكتي، كما تُضيء الشمس لأهل الأرض، يا داود إنّي خلقت قُلوب المشتاقين من رضواني، ونعَّمتها بنور وجهي، فاتَّخذتهم لنفسي محدثيَّ، وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إليَّ، ويزدادون في كلِّ يوم شوقاً.

قال داود: يا ربِّ أرني أهل محبَّتك! فقال: يا داود ائتِ جبل لُبنان، فإن فيه أربعة عشر نَفَساً فيهم شُبّان، وفيهم شيوخ، وفيهم كُهول، فإذا أتيتهم فأقرئهم منِّي السلام وقل لهم: إنَّ ربّكم يُقرئكم السلام ويقول لكم: ألا تسألون حاجة؟ فإنكم أحبّائي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم، وأسارع إلى محبتكم.

فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عينٍ من العيون يتفكَّرون في عظمة الله عزَّ وجلَّ، فلمّا نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرَّقوا عنه، فقال داود: إنّي رسول الله إليكم، جئتكم لأبلغكم رسالة ربّكم، فأقبلوا نحوه، وألقوا أسماعهم نحو قوله، وألقوا أبصارهم إلى الأرض، فقال داود: إني رسول الله إليكم، يُقرِئكم السلام ويقول لكم: ألا تسألون حاجة؟ ألا تنادوني أسمع صوتكم وكلامكم؟ فإنّكم أحبّائي وأصفيائي وأوليائي،

(١) نُجباء: جمع نُجب وهو الذي بان فضله على من كان مثله.

أفرح لفرحكم، وأسارع إلى محبتكم، وأنظر إليكم في كلِّ ساعةٍ نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة. قال: فَجَرَت الدموع على خدودهم، فقال شيخهم: سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك، فاغفر لنا ما قطع قلوبَنا عن ذكرك فيما مضى من أعمارنا.

وقال الآخر: سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك، فامُن علينا بحُسْن النظر فيما بيننا وبينك.

وقال الآخر: سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك أَفَنَجْترىء على الدعاء، وقد علمتَ أنّه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا! فأَدِمْ علينا لُزوم الطريق إليك، وأتمِم لنا بذلك المِنَّة علينا.

وقال الآخر: نحن مقصِّرون في طلب رضاك، فأعِنا عليه بجودك.

وقال الآخر: من نُطْفة خلقتنا، ومننت علينا بالتفكُّر في عظمتك، أفَيَجْترىء على الكلام مَن هو مشتغل بعظمتك، مُتفكِّر في جلالك، وطَلِبَتُنا الدنوُّ من نورك.

وقال الآخر: كَلَّت[1] ألسنتنا عن دعائك لِعظَم شأنك، وقربك من أوليائك، وكثرة مِنَّتك على أهل محبَّتك.

وقال آخر: أنت هديت قلوبنا لذكرك، وفرَّغتنا للاشتغال بك، فاغفر لنا تقصيرنا في شُكرك.

وقال الآخر: قد عرفتَ حاجتنا إنّما هي النظر إلى وجهك.

وقال الآخر: كيف يجترىء العبد على سيِّده إذ أمرتنا بالدعاء بجودك، فهب لنا نوراً نهتدي به في الظلمات من أطباق السماوات.

وقال الآخر: ندعوك أن تُقبل علينا، وتديمه عندنا.

وقال الآخر: نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا، وتفضَّلت به علينا.

وقال الآخر: لا حاجة لنا في شيء من خلقك، فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك.

---

(١) كلت: ضُعفت.

وقال الآخر: أسألك من بينهم أن تُعمي عينيَّ عن النظر إلى الدنيا وأهلها، وقلبي عن الاشتغال بغير الآخرة، وقال الآخر: قد عرفت ـ تباركتَ وتعاليت ـ أنَّك أنت تُحبُّ أولياءَك، فامنُن علينا باشتغال القلب بك عن كلِّ شيء دونك. فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قل لهم: قد سمعت كلامكم، وأجبتكم إلى ما أحببتم، فليُفارق كلُّ واحدٍ منكم صاحبه. وليتَّخذ لنفسه سِرداباً[١]، فإنِّي كاشفٌ الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا نوري وجلالي.

فقال داود: يا ربِّ بمَ نالوا هذه منك؟ قال: بحُسن الظنِّ، والكَفِّ عن الدنيا وأهلها، والخلوات بي، ومناجاتهم لي، وإنَّ هذا منزل لا يناله إلا مَنْ رفض الدنيا وأهلها، ولم يشتغل بشيء من ذِكرها، وفرَّغ قلبه لي، واختارني على جميع خلقي، فعند ذلك أعطِف عليه، وأفرِّغ نفسه، وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه، حتى ينظر إليَّ نظر الناظر بعينه إلى الشيء، وأريه كرامتي في كلِّ ساعة، وأقرِّبه من نور وجهي، إن مرض مرَّضته كما تُمرِّض الوالدة الشفوقة ولدها، وإن عطش أرويته، وأذيقه طعم ذكري، فإذا فعلتُ ذلك به يا داود عَمَيَتْ نفسه عن الدنيا وأهلها، ولم أُحبِّبها إليه، لا يَفتر[٢] عن الاشتغال بي، يستعجلني القدوم[٣]، وأنا أكره أن أُميته لأنه موضع نظري من بين خلقي، لا يرى غيري، ولا أرى غيره، فلو رأيتَه يا داود وقد ذابت نفسه، ونَحَل جسمه، وتهشَّمت أعضاؤه، وانخلع قلبه إذا سمع بذكري، أُباهي به ملائكتي، وأهل سماواتي، يزداد خوفاً وعبادة، وعزَّتي وجلالي يا داود لأُقعِدنَّه في الفردوس، ولأشفينَّ صدره من النظر إليَّ حتى يرضى، وفوق الرضا.

وفي أخبار داود أيضاً: قل لعبادي المتوجِّهين إلى محبَّتي: ما ضرَّكم إذا احتجبت عن خلقي، ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إليَّ بعيون قلوبكم، وما ضرَّكم ما زويت[٤] عنكم من الدنيا إذا بسطت ديني لكم، وما ضرَّكم مَسْخطةُ الخلقِ إذا التمستم رضائي.

---

(١) سِرداباً: السِّرداب هو: بناء تحت الأرض يُلجأ إليه من حر الصيف.
(٢) لا يُفتر: لا يضعف.
(٣) القدوم: يعني الموت، والقدوم على الحق جل وعلا.
(٤) زويت عنكم: أبعدت عنكم.

وفي أخبار داود أيضاً: أنّ الله تعالى أوحى إليه: تزعم أنّك تُحبُّني، فإن كنتَ تحبُّني فأخرج حُبَّ الدنيا من قلبك، فإنَّ حُبِّي وحُبَّها لا يجتمعان في قلب، يا داود خالص حبيبي مُخالصة، وخالط أهل الدنيا مخالطة، ودينك فقلِّدنيه، ولا تُقلِّد دينك الرجال.

أمّا ما استبان لك ممّا وافق محبّتي، فتمسَّك به، وأمّا ما أشكل عليك فقلِّدنيه حقّاً على أنّي أُسارع إلى سياستك وتقويمك، وأكون قائدك ودليلك، أُعطيك من غير أن تسألني، وأُعينك على الشدائد، وإني قد حلفت على نفسي إنّي لا أثيب إلا عبداً قد عرفت من طَلِبَته وإرادته إلقاء كنفه بين يديّ، وأنه لا غنى به عنّي، فإذا كنت كذلك نزعت الذِّلَّة والوَحشة عنك، وأسكن الغنى قلبك، فإنّي قد حلفتُ على نفسي إنه لا يطمئنُّ عبدٌ لي إلى نفسه، ينظر إلى فعالها، إلا وَكَلْتُه إليها، أضِف الأشياء إليّ، لا تضادَّ عملك فتكون مُتعنّياً ولا ينتفع بك مَن يصحبك، ولا تجد لمعرفتي حدّاً، فليس لها غاية، ومتى طلبت منّي الزيادة أعطك، ولا تجد للزيادة منّي حدّاً، ثم أعلمْ بني إسرائيل أنّه ليس بيني وبين أحدٍ من خلقي نسب، فلْتَعْظُم رغبتهم وإرادتهم عندي، أُبح لهم ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذن سَمِعَت، ولا خطر على قلب بشر. ضَعْني بين عينيك، وانظر إليّ ببصر قلبك، ولا تنظر بعينك التي في رأسك إلى الذين حجبت عقولهم عنّي فأمْرَجوها[1]، فوسخت بانقطاع ثوابي عنها، فإنّي حلفت بعزّتي وجلالي، لا أفتح ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتَّجْربة والتّسويف.

تواضع لمَن تُعَلِّمُه، ولا تتطاول[2] على المريدين، لو علم أهل محبّتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها.

يا داود لأن تُخرِج مُريداً من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندي جهيدا، ومَنْ كتبتُه عندي جهيداً لا تكون عليه وَحشة، ولا فاقة إلى المخلوقين.

يا داود تمسَّك بكلامي، وخُذ من نفسك لنفسك، لا تُؤتينَّ منها، فأحجب عنك محبّتي، لا تُيئِّس عبادي من رحمتي. واقطع شهوتك لي فإنما أَبَحْت الشهوات لضَعَفه

(١) فأمرجوها: ارسلوها. يقال: أمرج فلان لسانه في أعراض الناس: اطلقه.
(٢) تتطاول: تتعالى وتتكبر.

خلقي. ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات، فإنها تُنقِص حلاوة مناجاتي، وإنّما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول، أدنى ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم، فإني لم أرض الدنيا لحبيبي، ونَزَّهْتُه عنها.

يا داود لا تجعل بيني وبينك عالماً يحجبك بسُكْره عن محبَّتي، أولئك قُطَّاع الطريق على عبادي المريدين، استعن على ترك الشهوات بإدمان[1] الصوم، وإيّاك والتجربة في الإفطار، فإنّ محبَّتي للصوم إدمانه.



(١) إدمان: تكرار الفعل.

٤١ ـ باب: في الشكر[١]

اعلم أن الله تعالى قَرَن الشكر بالذُّكر في كتابه، مع أنه قال: ﴿ولَذِكْرُ الله أكبر﴾[٢] فقال تعالى: ﴿فاذكروني أذْكُرْكم واشكروا لي ولا تكفرون﴾[٣].

وقال الله تعالى: ﴿ما يَفْعلُ الله بعذابكم إنْ شكرتم وآمنتم﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿وسَنَجْزي الشاكرين﴾[٥].

وقال عزَّ وجلَّ إخباراً عن إبليس اللعين: ﴿لأقْعُدنَّ لهم صِراطك المستقيم﴾[٦] قيل: هو طريق الشُّكر، طعنَ اللعين في الخَلْق، فقال: ﴿ولا تَجدُ أكثَرهُم شاكرين﴾[٧].

وقال تعالى: ﴿وقليلٌ من عبادي الشَّكور﴾[٨].

وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر، ولم يستثن فقال تعالى: ﴿لئِن شكرْتم لأزيدَنَّكم﴾[٩].

واستثنى في خمسة أشياء: في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة. فقال تعالى: ﴿فسوف يُغْنيكُم اللهُ من فضلِه إن شاء﴾[١٠]. وقال: ﴿فيكشفُ ما تَدْعون إليه إن

---

(١) الشُّكرُ: عرفان النعمة واظهارها والثناء عليها.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٤٧.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٤٥.
(٦) سورة الاعراف، الآية: ١٦.
(٧) سورة الاعراف، الآية: ١٧.
(٨) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٩) سورة ابراهيم، الآية: ٧.
(١٠) سورة التوبة، الآية: ٢٨.

شاء﴾[١] وقال: ﴿والله يرزق مَن يشاءُ بغير حساب﴾[٢].

وقال: ﴿ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء﴾[٣]. وقال: ﴿ويتوبُ الله على مَن يشاء﴾[٤].

وهو خُلُقٌ من أخلاق الربوبيّة إذ قال تعالى: ﴿والله شكورٌ حليم﴾[٥].

وقد جعل الله الشُكر مِفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صَدقَنا وعْدَه﴾[٦] وقال: ﴿وآخِرُ دَعْواهم أن الحمد لله ربِّ العالمين﴾[٧].

وأمّا الأخبار، فقد قال رسول الله ﷺ: «الطاعم الشاعر بمنزلة الصائم الصابر».

ورُوي عن عطاء أنّه قال: دخلتُ على عائشة رضي الله عنها فقلت: أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ. فكبت، وقالت: وأيُّ شأنه لم يكن عجباً؟ أتاني ليلةً فدخل معي في فراشي، أو قالت: في لحافي حتى مسَّ جلدي جلده، ثم قال: «يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبَّد لربي».

قالت: قلت: إني أحبُّ قُربك، لكنّي أُوثِر هواك، فأذنت له فقام إلى قربةِ ماء فتوضّأ فلم يكثر صبَّ الماء، ثم قال يصلّي فبكى حتى سالت دموعه على صدره، ثم ركع فبكى، ثم سجد فبكى، ثم رفع رأسه فبكى، فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فآذنه[٨] بالصلاة، فقلت: يا رسول الله، ما يُبْكيك وقد غفر الله ما تقدَّم من ذَنْبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً، ولِمَ لا أفعل ذلك وقد أنزل الله تعالى عليَّ: ﴿إنَّ في خلق السموات والأرض﴾[٩].

---

(١) سورة الانعام، الآية: ٤١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.
(٣) سورة النساء، الآية: ٤٨.
(٤) سورة التوبة، الآية: ١٥.
(٥) سورة التغابن، الآية: ١٧.
(٦) سورة الزمر، الآية: ٧٤.
(٧) سورة يونس، الآية: ١٠.
(٨) فآذنه: أعلمه.
(٩) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

وهذا يدلُّ على أنَّ البُكاء ينبغي أن لا ينقطع أبداً، وإلى هذا السرِّ يُشير ما رُوي: أنّه مرّ بعضُ الأنبياء بحجرٍ صغير يخرج منه ماءٌ كثير، فتعجّب منه، فأنطقه الله تعالى فقال: منذ سمعت قوله تعالى: ﴿**وَقُودُها الناس والحِجارة**﴾[1] فأنا أبكي من خوفه، فسأل الله له أن يُجيره من النار فأجاره، ثم رآه بعد مُدَّةٍ على مثل ذلك فقال: لِمَ تبكي الآن؟ فقال ذاك بكاء الخوف، وهذا بكاء الشكر والسرور.

وقلبُ العبد كالحجارة أو أشدُّ قسوةً، ولا تزول قسوته إلاّ بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعاً.

ورُوي عنه ﷺ أنّه قال: «يُنادى يوم القيامة لِيَقُم الحمّادون[2]، فتقوم زمرة[3]، فيُنصَب لهم لواء، فيدخلون الجنَّة» قيل: ومَن الحمّادون؟ قال: «الذين يشكرون الله تعالى على كلِّ حال».

وفي لفظ آخر: «الذين يشكرون الله على السرّاء والضرّاء».

وقال ﷺ: «الحمد رداء الرحمن».

وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام: أني رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي. في كلام طويل.

وأوحى الله تعالى إليه أيضاً في صفة الصابرين: أنَّ دراهم دارُ السلام إذا دخلوها ألهمتُهم الشكر، وهو خير الكلام، وعند الشكر أستزيدهم، وبالنظر إليَّ أزيدهم.

ولمّا نزل في الكنوز[4] ما نزل قال عمر رضي الله عنه: أيُّ المال نتَّخذ؟ فقال عليه السلام: «ليتَّخذ أحدكم لساناً ذاكراً، وقلباً شاكراً» فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلاً عن المال.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٢) الحمّادون: أي الذين يحمدون الله ويشكرونه على جميع الأحوال.

(٣) زمرة: جماعة.

(٤) أي قوله تعالى: ﴿**والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله**﴾ سورة التوبة، الآية: ٣٤).

وقال ابن مسعود: الشكر نصف الإيمان.

واعلم أنَّ الشكر يتعلّق بالقلب وباللسان وبالجوارح.

أمّا بالقلب فقصد الخير، وإضماره لكافّة الخَلْق، وأمّا باللسان فإظهار الشكر لله تعالى، بالتحميدات الدّالة عليه، وأمّا بالجوارح فاستعمال نِعَم الله تعالى في طاعته، والتوقّي من الاستعانة بها على معصيته، حتى إن شُكر العينين أن تستر كُلَّ عيب تراه لمسلم، وشُكْر الأذنين أن تستر كلَّ عيب تسمعه فيه، فيدخل هذا في جُملة شكر نِعَم الله تعالى بهذه الأعضاء، والشكر باللسان لإظهار الرضا عن الله تعالى، وهو مأمور به.

فقد قال ﷺ لرجل: «كيف أصبحت؟» قال: بخيرٍ. فأعاد ﷺ: السؤال حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله وأشكره فقال ﷺ: «هذا الذي أردت منك».

وكان السلف يتساءلون، ونيّتُهم استخراج الشكر لله تعالى، ليكون الشاكر مُطيعاً، والمُستنطَق له به مطيعاً، وما كان قصدهم الرّياء بإظهار الشوق، وكلُّ عبد سُئل عن حال فهو بين أن يشكر، أو يشكو، أو يسكت، فالشكر طاعة، والشكوى معصية قبيحة من أهل الدِّين، وكيف لا تقبح الشكوى من مَلِك الملوك، وبيده كلّ شيء إلى عبدٍ ممْلوك لا يقدر على شيء؟.

فالأحرى بالعبد إن لم يُحسن الصبر على البلاء والقضاء، وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى، فهو المبلي والقادر على إزالة البلاء، وذلُّ العبد لمولاه عِزٌّ، والشكوى إلى غير الله ذُلٌّ، وإظهار الذُّلّ للعبد ـ مع كونه عبداً مثله ـ ذُلّ قبيح. قال الله تعالى: **﴿إنّ الذين تعبدونَ من دونِ الله لا يَمْلِكون لكم رِزقاً فابْتغوا عند الله الرِّزْقَ واعبُدوه واشكروا له﴾**[1]. وقال تعالى: **﴿إنَّ الذين تَدْعون من دونِ الله عِبادٌ أمثالكم﴾**[2]. فالشكر باللسان من جملة الشكر.

وقد رُوي أنَّ وفداً قدِموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله، فقام شابٌ ليتكلّم، فقال عمر: الكِبَرَ الكِبَر. فقال: يا أمير المؤمنين، لو كان الأمر بالسنّ لكان في المسلمين

(١) سورة العنكبوت، الآية: ١٧.
(٢) سورة الاعراف، الآية: ١٩٤.

مَن هو أسنُّ منك. فقال: تكلّم، فقال: لسنا وفداً لرغبةٍ ولا وفداً لرهبة. أمّا الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلُك، وأمّا الرهبة فقد آمننا منها عدلك، وإنّما نحن وفد الشكر، جئناك نشكرك باللسان وننصرف.



٤٢ ـ باب: في بيان ذمّ الكبر

قد ذمَّ الله الكِبْر في مواضع من كتابه، وذمَّ كلَّ جبّارٍ مُتكبِّر فقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عن آياتي الذين يتكبَّرون في الأرض بغير الحق﴾[1].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كذلكَ يَطبَعُ اللهُ على كلِّ قلب مُتكبِّر جبّار﴾[2].

وقال تعالى: ﴿واسْتَفْتَحُوا وخابَ كلُّ جبّار عنيد﴾[3]

وقال تعالى: ﴿إنَّه لا يُحبُّ المُسْتكْبرين﴾[4].

وقال تعالى: ﴿لقد اسْتَكْبروا في أنفُسِهم وعَتَوا[5] عُتُوّاً كبيراً﴾[6].

وقال تعالى: ﴿إنَّ الّذين يَسْتكبرون عن عِبادَتي سيدخلون جهنَّم داخرين﴾[7] وذَمُّ الكِبْر في القرآن كثير.

وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يَدخلُ الجنَّةَ مَنْ كان في قلبه مِثقالَ حبّة من خَردل من كِبْر، ولا يدخلُ النار مَنْ كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من إيمان».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: الكِبْرياء ردائي، والعَظَمة إزاري، فَمَن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنَّم ولا أبالي».

وعن أبي سَلَمةَ بن عبد الرحمن قال: التقى عبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر على الصَّفا فتواقفا، فمضى ابن عمرو، وأقام ابن عمر يبكي، فقالوا: ما يُبكيك يا أبا عبد

---

(١) سورة الاعراف، الآية: ١٤٦.
(٢) سورة غافر، الآية: ٣٥.
(٣) سورة ابراهيم، الآية: ١٥.
(٤) سورة النحل، الآية: ٢٣.
(٥) عتوا: جاوزوا الحد في الاستكبار.
(٦) سورة الفرقان، الآية: ٢١.
(٧) سورة غافر، الآية: ٦٠.

الرحمن؟ فقال: هذا ـ يعني عبد الله بن عمرو ـ زعم أنّه سمع رسولَ الله ﷺ يقول: «مَن كان في قلبه مِثْقال حبَّةٍ من خَرْدل من كِبْر أكَبَّه الله في النار على وجهه».

وقال رسول الله ﷺ: «لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يُكتب في الجبّارين، فيصيبه ما أصابهم من العذاب».

وقال سليمان بن داود عليهما السلام يوماً للطير والإنس والجن والبهائم: اخرجوا. فخرجوا في مائتي ألفٍ من الإنس، مائتي ألفٍ من الجِنِّ، فرفع حتى سمع زجل[1] الملائكة بالتسبيح في السماوات، ثم خفض حتى مسَّت أقدامه البحر، فسمع صوتاً يقول: لو كان في قلب صاحبكم مثقال ذرَّة من كِبْر لخَسَفْتُ[2] به أبعد مما رفعته.

وقال ﷺ: «يخرج من النار عنق له أذنان تسمعان، وعينان تبصران، ولسان ينطق يقول: وُكِّلْتُ بثلاثة: بكلِّ جبّار عنيد، وبكلِّ من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمُصَوِّرين».

وقال ﷺ: «لا يدخل الجنَّة بخيل، ولا جبَّار، ولا سيِّءُ المَلَكة».

وقال ﷺ: «تحاجّت[3] الجنّة والنار، فقالت النار: أُوثِرت بالمُتكبّرين والمُتجبِّرين. وقالت الجنّة: مالي لا يدخلني إلا ضُعفاء الناس وسُقَّاطهم وعَجَزَتُهم؟ فقال الله للجنّة: إنّما أنت رحمتي أرحم بكِ مَنْ أشاء من عبادي، وقال للنار: إنّما أنت عذابي أُعذب بكِ من أشاء، ولكلٍّ واحدة منكما مِلْؤها».

وقال ﷺ: «بِئسَ العبد عبد تَجَبَّر واعتدى، ونسي الجبّار الأعلى، بئس العبد عبد تَجَبَّر واختال، ونسي الكبير المُتعال، بئس العبد عبد عتى وبغى، ونسي المبدأ والمنتهى».

وعن ثابت أنّه قال: بلغنا أنّه قيل: يا رسول الله! ما أعظم كِبْر فلان! فقال: «أليس بعده الموت؟».

وقال عبد الله بن عمرو: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ نُوحاً عليه السلام لمّا حَضَرَتْه

---

(١) زَجل: زجلاً: أجْلَبَ ورفع صوته.

(٢) لخسفت: من خسف خسفاً، وخُسوفاً بمعنى غارت وخسف الله بهم الأرض: غيَّبهم فيها.

(٣) تحاجّت: تجادلت.

الوفاة دعا ابنيه وقال: إنّي آمركما باثنتين، وأنهاكما عن اثنتين: أنهاكما عن الشِّرْك والكِبْر، وآمُركما بلا إله إلا الله، فإنّ السماوات والأرضين وما فيهن لو وُضعت في كفَّة الميزان، ووُضعت لا إله إلا الله في الكِفّة الأخرى كانت أرجحَ منها، ولو أنَّ السماوات والأرضين وما فيهن كانت حلقة فوُضِعت لا إله إلا الله عليها لقصمتهما، وآمركما بسبحان الله وبحمده، فإنها صلاة كلِّ شيء، وبها يُرْزق كلُّ شيء».

وقال المسيح عليه السلام: طوبى لمن علّمه الله كتابه، ثم لم يمت جبّاراً.

وقال ﷺ: «أهل النار كلُّ جعظري[1] جَوّاظ[2] مُستكبر جمَّاع منَّاع، وأهل الجنة الضعفاء المُقِلُّون».

وقال ﷺ: «إنَّ أحبّكم إلينا، وأقربَكُم مِنّا في الآخرة أحاسِنكُم أخلاقاً، وإنَّ أبغضكم إلينا، وأبعَدَكم مِنّا الثرثارون[3] المُتشدِّقون المُتَفَيْهِقون» قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمُتشدِّقون، فما المُتَفَيْهِقون؟ قال: «المُتكبِّرون».

وقال ﷺ: «يُحشر المُتكبِّرون يوم القيامة في مثل صُور الذَّرّ تطؤهم الناس، ذَرّاً في مثل صُور الرجال، يعلوهم كلُّ شيء من الصَّغار، ثم يُساقون إلى سجْن في جهنم يُقال له بُولَس تعلوهم نار الأنيار، يُسقَون من طين الخَبَال عُصارة أهل النار».

وقال أبو هريرة: قال النبيُّ ﷺ: «يُحشر الجبّارون والمُتكبِّرون يوم القيامة في صُور الذَّرّ تطؤهم الناس، لهَوانِهم على الله تعالى».

وعن محمد بن واسع قال: دخلت على بلال بن أبي بردة فقلت له: يا بلال، إن أباك حدَّثني عن أبيه عن النبيِّ ﷺ أنّه قال: «إنَّ في جهنم وادياً يُقال له: هَبْهَب، حقٌّ على الله أنْ يُسكِنه كُلَّ جبّارٍ» فإيّاك يا بلال أن تكون ممن يسكنه.

وقال ﷺ: «إنَّ في النار قصراً يُجعل فيه المُتكبّرون ويُطْبَق عليهم».

وقال ﷺ: «اللهم إنّي أعوذ بك من نفخة الكِبْرياء».

---

(١) جعظري: أي الفظُّ الغليظ المتكبر.

(٢) جواظ: الجواظ هو: الجموع المنوع، وقيل هو الكثير اللحم المختال في مشيته.

(٣) الثرثارون: الثرثار هو: الذي يكثر الكلام في تكلُّف وخروج عن الحد.

وقال ﷺ: «مَن فارق روحُه جسدَه وهو بريء من ثلاث دخل الجنة: الكِبْر، والدَّيْن، والغلول».

وقال أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه: لا يَحْقِرنَّ أحدٌ أحداً من المسلمين، فإنّ صغير المسلمين عند الله كبير.

وقال وهب: لمّا خلق الله جنة عَدْنٍ نظر إليها فقال: أنت حَرَامٌ على كُلِّ مُتكبِّر.

وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مُصْعَب بن الزُّبير على سريره، فجاء يوماً ومُصْعب مادٌّ رجليه، فلم يَقْبِضْهما، وقعد الأحنف، فزاحمه بعضَ المُزاحمة، فرأى أثَرَ ذلك في وجهه، فقال: عجباً لابن آدم يتكبَّر، وقد خرج من مجرى البَوْل مرَّتين.

وقال الحسن: العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كلَّ يوم مرَّة أو مرَّتين ثم يعارض جبّار السماوات وقد قال: ﴿وفي أنفُسِكُم أفَلا تُبْصِرون﴾[1]. هو سبيل الغائط والبَوْل.

وقال محمد بن الحسين بن علي: ما دخل قلبَ امرىء شيء من الكِبْر قطّ إلا نَقَص من عقله بقدر ما دخل من ذلك، قَلَّ أو كَثُر.

وسئل سليمان عن السيِّئة التي لا تنفع معها حسنة فقال: الكِبْر.

وقال النعمان بن بشير على المِنْبَر: إنَّ للشيطان مصائد وفخوخاً، وإنَّ من مصائد الشيطان وفخوخه البَطَر[2] بأنْعُم الله، والفَخْر بإعطاء الله، والكِبْر على عباد الله، واتّباع الهوى في غير ذات الله.

نسأل الله تعالى العَفْوَ والعافية في الدنيا والآخرة بمَنِّه وكرمه.

وقال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل يَجُرُّ إزاره بَطَراً».

وقال ﷺ: «بينما رجل يتبختَر في بُرْدته إذ أعْجَبَته نفسُه فخسفَ الله به الأرض، فهو يتجَلْجَلُ فيها إلى يوم القيامة».

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٢١.
(٢) البَطَر: هو الغلو في المرح والزَّهْو، وبطر بنعمة الله أي استخفها فكفرها.

وقال ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثوبه خُيَلاءَ لا ينظر الله إليه يوم القيامة».

وقال زيد بن أسلم: دخلت على ابن عمر، فمرّ به عبد الله بن واقد وعليه ثوب جديد، فسمعته يقول: أي بُني! ارفع إزارك فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا ينظر الله إلى مَنْ جَرَّ إزاره خُيَلاء».

رُوي أنّ رسول الله ﷺ بَصَق يوماً على كَفِّه، ووضع أُصْبُعه عليه وقال: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم أتُعْجِزني وقد خُلقتَ من مِثل هذه؟ حتى إذا سوَّيتُك وعَدَلْتُك، مشَيتَ بين بُردَين، وللأرض منك وَئيد، جمعتَ ومنعت، حتى إذا بَلَغتِ التَّراقي[1] قلتَ: أتَصَدَّق، وأنّى أوانُ الصَّدَقة؟».

وقال ﷺ: «إذا مَشَتْ أُمّتي المطيطاء[2]، وخَدَمَتْهم فارس والرُّوم، سلَّط الله بعضهم على بعض».

قال ابن الأعرابي: هي مشية فيها اختيال.

وقال ﷺ: «من تعظَّم في نفسه، واختال في مِشيته، لقي الله وهو عليه غضبان».

وعن أبي بكر الهُذَلي قال: بينما نحن مع الحسن، إذ مرَّ علينا ابن الأهتم يريد المقصورة، وعليه جِباب خزٍّ، قد نَضَّدَ بعضها فوق بعض على ساقه، وانفرج عنها قباؤه، وهو يمشي يتبخْتر، إذ نظر إليه الحسن نظرة، فقال أُفٍ أف شامخ بأنفه، ثاني عِطفه، مُصَعِّر[3] خدَّه، ينظر في عطفيه، أي حُمَيق أنت، تنظر في عطفيك في نِعَم غير مشكورة ولا مذكورة، غير مأخوذ بأمر الله فيها، ولا مؤدٍّ حقَّ الله منها، في كلِّ عضو من أعضائه لله نِعْمة، وللشيطان به لَفْتة، والله لأن يمشي أحد طبيعته، أو يَتَخَلَّج تَخَلُّج المجنون خير له من هذا.

فسمع ابن الأهتم، فرجع يعتذر إليه، فقال: لا تعتذر إليَّ وتُب إلى ربِّك، أمَا سمعت قول الله تعالى: ﴿ولا تَمْشِ في الأرضِ مَرَحاً إنَّك لن تَخْرِقَ الأرضَ ولَنْ تَبْلُغَ

---

(١) التراقي: جمع ترقوة وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاشق، أي اذا بلغت روحه الحلقوم وكادت تخرج.

(٢) المطيطاء: أي الخيلاء والكبر والتبختر.

(٣) مُصَعِّر خدَّه: أي أماله عُجباً وكِبْراً.

الجبَالَ طُولاً﴾[١].

ومرَّ بالحسن شابٌ عليه بِزَّةٌ[٢] له حسنةٌ، فدعاه. فقال له: ابنُ آدم مُعْجَبٌ بِشبابك، مُحِبٌّ لشمائلك، كأنَّ القبر قد وارى[٣] بَدَنك، وكأنَّك قد لاقَيْتَ عملَك، ويْحك داوِ قلبك، فإن حاجة الله إلى العباد صلاحُ قلوبهم.

ورُوي أنّ عمر بن عبد العزيز حَجّ قبل أن يُسْتَخْلَف، فنظر إليه طاوس وهو يختال في مِشيته، فغمز جنبه بأُصْبُعه ثم قال: ليست هذه مِشْيَةَ مَن في بطنه خرء، فقال عمر كالمعتذر: يا عمّ، لقد ضُرِب كلُّ عضوٍ مِنّي على هذه المِشيْة حتى تعلَّمْتُها.

ورأى محمد بن واسع ولده يختال فدعاه، وقال: أتدري مَنْ أنت؟ أمّا أُمُّك فاشتريتها بمائة درهم، وأمّا أبوكَ فلا أكثَرَ الله في المسلمين مثلَه.

ورأى ابن عمر رجلاً يجرُّ إزاره فقال: إنّ للشيطان إخواناً، كرّرها مرّتين أو ثلاثاً.

ويُروى أنَّ مُطَرِّف بن عبد الله بن الشخِّير رأى المُهَلَّب وهو يتبختر في جُبَّة خزٍّ فقال: يا عبد الله! هذه مِشْية يُبْغِضها الله ورسولُه، فقال له المُهَلَّب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك، أوّلك نُطفة مَذرة[٤]، وآخِرَك جيفة قذِرة، وأنت بين ذلك تحمل العَذِرة[٥]، فمضى المُهلَّب، وترك مِشيته تلك.

وأنشدوا في هذا المعنى:

عجبتُ من مُعْجَبٍ بصورته ... وكان بالأمس نطفةً مَذِرَهْ
وفي غدٍ بعد حُسْن هيئته ... يصير في القبر جيفةً قَذِرَهْ

وأنشد خلف الأحمر:

لنا صاحب مُولع بالخلاف ... كثير الخَطَاءِ قليل الصوابِ
أشدُّ لجاجاً من الخنفساء ... وأزهى إذا ما مشى من غرابِ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٧.
(٢) بِزّة: نوع من الثياب الفاخرة.
(٣) وارى: أي ستره وأخفاه.
(٤) مذرة: فاسدة ورائحتها نتنة.
(٥) العَذِرة: أي الغائط.

وقال آخر:

قلتُ للمُعْجَب لمّا قال: مِثلي لا يُراجَعْ
يا قريبَ العهد بالمخـ ـرج لِمْ لا تتواضَعْ

ومثله لذي النون المصري:

أيها الشامخ الذي لا يُرامُ نحن من طينةٍ عليك السَّلامُ
إنما هذه الحياةُ متاعٌ ومع الموت تستوي الأقدامُ

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ثمَّ ذهب إلى أهله يَتَمَطَّى﴾[1] أي يتبختر، والله تعالى أعلم.



(١) سورة القيامة، الآية: ٣٣.

٤٣ ـ باب: في التفكر في الأيام وغيرها

قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبُّر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى. فقال تعالى: ﴿إنَّ في خَلقِ السَّماوات والأرض واختِلاف اللَّيل والنّهار﴾[١] الآية أي تعاقبهما في المجيء والذّهاب يخلف أحدهما صاحبه. إذا ذهب أحدهما ذهب جاء الآخر خلفه. أي بعده. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذي جَعَلَ الليلَ والنّهار خِلفة﴾[٢] قال عطاء: أراد اختلافهما في النور والظلمة والزيادة والنقصان.

وما أحسن قول القائل:

يا راقد الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد تطرُقْنَ أسحارا

لا تفرحن بليل طاب أوله ... فرُبَّ آخر ليلٍ أجّجَ النارا

وقول آخر:

إنّ الليالي للأنام مناهل ... تُطوى وتُنْشر دُونها الأعمارُ

فقصارهنّ مع الهموم طويلة ... وطوالهُنَّ مع السرور قِصار

وأثنى الله على المتفكرين، فقال تعالى: ﴿الَّذين يذكّرُونَ الله قياماً وُقعُودًا وعلى جنُوبهم، وَيَتَفكَّرون في خَلقِ السَّماوات والأرض رَبّنا ما خلقت هذا باطلاً﴾[٣] وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنّ قوماً تفكرّوا في الله عزّ وجلّ، وقال النبيّ ﷺ: «تفكرّوا في خلق الله ولا تفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره».

وعن النبي ﷺ أنّه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرّون، وقال: «ما لكم لا تتكلمون؟» فقالوا: نتفكر في خلق الله عزّ وجلّ. قال: «فكذلك فافعلوا. وتفكرّوا في خلقه، ولا تتفكروا فيه، فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاء، نورها وبياضها نورها، مسيرة الشمس أربعين يوماً، بها خلق من خلق الله عزّ وجلّ، لم يعصوا الله طرفة عين»

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٤.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

قالوا: يا رسول الله فأين الشيطان منهم؟ قال: «ما يدرون خلق الشيطان أم لا». قالوا: أمن ولد آدم؟ قال: «لا يدرون خلق آدم أم لا».

وعن عطاء قال: انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب: فقالت: يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا؟

قال: قول رسول الله ﷺ «زر غبا [1] تزدد حباً» قال ابن عمير: فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ.

قال: فبكت. وقالت: كل شيء من أمره كان عجباً، أتاني مرة في ليلتي حتى مس جلده جلدي، ثم قال: ذريني أتعبد لربي عز وجل. فقام إلى القربة فتوضأ منها، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته، ثم سجد حتى بل الأرض، ثم اضطجع على جنبه، حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

فقال: «ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي، وقد أنزل الله تعالى عليَّ في هذه الليلة: **﴿إنَّ في خَلقِ السَّموَاتِ والأرض واختلاف الليل والنَّهار لآيات لأولي الألباب﴾** [2] ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها». فقيل للأوزاعي ما غاية التفكر فيهن؟ قال: يقرؤهن ويعقلهن [3].

وعن محمد بن واسع، أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر. فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت، يتفكر.

وعن الحسن قال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة.

وعن الفضيل قال: الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

وقيل لإبراهيم: إنك تطيل الفكرة، فقال: الفكرة مخ العقل. وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل:

إذا المـــرء كـــانـــت لـــه فكـــرة ... ففـــي كـــل شـــيء لـــه عبـــرة [4]

---

(١) غباً: أي الزيارة بين الحين والآخر.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.

(٣) يعقلهن: أي يدرك معناهن على حقيقتها.

(٤) عِبْرة: موعظة.

وعن طاووس قال: قال الحواريون لعيسى بن مريم: يا روح الله. هل على الأرض اليوم مثلك؟ فقال: نعم، من كان منطقه ذكراً، وصمته فكراً، ونظره عبرة، فإنه مثلي.

وقال الحسن: من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومن لم يكن سكوته تفكر فهو سهو، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو.

وفي قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آياتي الَّذين يَتَكَبَّرون في الأرض بغير الحق﴾[١] قال: أمنع قلوبهم التفكر في أمري.

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطوا أعينكم حظها من العبادة. فقالوا: يا رسول الله وما حظها من العبادة؟ قال: النظر في المصحف والتفكر فيه، والاعتبار عند عجائبه».

وعن امرأة كانت تسكن البادية قريباً من مكة، أنها قالت: لو تطالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قد ادخر لها في حجب الغيب من خير الآخرة، لم يصف لهم في الدنيا عيش، ولم تقر لهم في الدنيا عين.

وكان لقمان يطيل الجلوس وحده، فكان يمر به مولاه، فيقول: يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك، فلو جلست مع الناس كان آنس لك، فيقول لقمان: إن طول الوحدة أدوم للفكر، وطول الفكر دليل على طريق الجنة.

وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرىء قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل.

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة.

وقال عبدالله بن المبارك يوماً لسهل بن علي ورآه ساكتاً متفكراً: أين بلغت؟ قال: الصراط.

وقال بشر: لو تفكر الناس في عظمة الله، ما عصوا الله عز وجل.

وعن ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب.

وبينما أبو شريح يمشي إذ جلس فتقنع[٢] بكسائه، فجعل يبكي، فقيل له: ما

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

(٢) تقنع: تغشَّ بالثوب.

يبكيك؟ قال: تفكرت في ذهاب عمري، وقلة عملي، واقتراب أجلي.

وقال أبو سليمان: عودوا أعينكم البكاء، وقلوبكم التفكر.

وقال أبو سليمان أيضاً: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة، وعقوبة لأهل الولاية. والفكر في الآخرة يورث الحكمة، ويحيي القلوب.

وقال حاتم: من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف.

وقال ابن عباس: التفكر في الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه.

ويروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه: إني لست أقبل كلام كل حكيم، ولكن أنظر إلى همّه[١]، وهواه، فإذا كان همّه وهواه لي، جعلت صمته تفكراً وكلامه حمداً، وإن لم يتكلم.

وقال الحسن: إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر، حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة[٢].

وقال إسحاق بن خلف: كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قمراء، فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويبكي، حتى وقع في دار جارٍ له.

قال: فوثب صاحب الدار من فراشه عرياناً، وبيده سيف، وظن أنه لص، فلما نظر إلى داود، رجع ووضع السيف، وقال: من ذا الذي طرحك من السطح؟ قال: ما شعرت بذلك.

وقال الجُنيد: أشرف المجالس وأعلاها، الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، والتنسم بنسيم[٣] المعرفة، والشرب بكأس المحبة مع بحر الوداد، والنظر بحسن الظن

---

(١) انظر إلى همّه: أي عزيمته.

(٢) الحكمة: هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم والمقصود بها هنا: العلم والتفقه. وهي أيضا وضع كل أمر في مكانه المخصص له.

(٣) النَّسيم: هو الريح اللينة التي لا تحرك شجراً ولا تُقفي أثراً.

بالله عز وجل، ثم قال: يا لها من مجالس ما أجلها! ومن شراب ما ألذه! طوبى لمن رزقه.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر.

وقال أيضاً: صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور، والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم. والرؤية والفكر يكشفان عن الحزم، والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس، وقوة في البصيرة[١]، ففكر قبل أن تعزم، وتدبر قبل أن تهجم، وشاور قبل أن تقدم.

وقال أيضاً: الفضائل أربع: إحداها: الحكمة، وقوامها الفكرة. والثانية: العفة، وقوامها في الشهوة. والثالثة: القوة، وقوامها في الغضب. والرابعة: العدل، وقوامه في اعتدال قوى النفس.

(١) قوة في البصيرة: أي قوة في الحُجَّة.

٤٤ ـ باب: في بيان شدة الموت

عن الحسن: أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وغصتّه[١] وألمه فقال: «هو قدر ثلاثمائة ضربة بالسيف».

وسئل ﷺ عن الموت وشدّته، فقال: «إنّ أهون الموت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف».

ودخل ﷺ على مريض ثم قال: «إني أعلم ما يلقى، ما منه عِرْقٌ إلاّ ويألم للموت على حدته».

وكان عليّ كرم الله وجهه يحضّ على القتال ويقول: إن لم تقتلوا تموتوا، والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من موتي على فراش.

وقال الأوزاعي: بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره.

وقال شدّاد بن أوس: الموت أفظع هولٍ في الدنيا والآخرة على المؤمن، وهو أشدّ من نشر بالمناشير، وقرض بالمقاريض، وغلي في القدور. ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذّوا بنوم.

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدّد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته في الجنة، وإذا كان للكافر معروف لم يجز به هونّ عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار.

وعن بعضهم: أنه كان يسأل كثيراً من المرضى، كيف تجدون الموت؟ فلما مرض، قيل له: فأنت كيف تجده؟ فقال: كأن السموات مطبقة على الأرض، وكأن نفسي يخرج من ثقب إبرة.

---

(١) غصّته: شدّته.

وقال ﷺ: «موت الفجأة[١] راحة للمؤمن، وأسف على الفاجر».

وروي عن مكحول عن النبي ﷺ أنه قال: «لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا بإذن الله تعالى، لأن في كل شعرة الموت، لا يقع الموت بشيء إلا مات».

ويروى: «لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت».

وروي: أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له: كيف وجدت الموت يا خليلي؟ قال: كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب. فقال: أما إنا قد هونا عليك.

وروي عن موسى عليه السلام: أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه: يا موسى كيف وجدت الموت؟ قال: وجدت نفسي كالعصفور حين يقلى على المقلى، لا يموت فيستريح، ولا ينجو فيطير.

وروي عنه أنه قال: وجدت نفسي كشاة حية تسلخ بيد القصاب.

وروي عن النبي ﷺ أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت، فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه، ويقول: «اللهم هون علي سكرات الموت» وفاطمة رضي الله عنها تقول: واكرباه لكربك يا أبتاه. وهو يقول: «لا كرب[٢] على أبيك بعد اليوم».

وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار: يا كعب حدثنا عن الموت.

فقال: نعم يا أمير المؤمنين، إن الموت كغصن كثير الشوك أدخل في جوف رجل، وأخذت كل شوكة بعرق ثم جذبه رجل شديد الجذب، فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى.

وقال النبيّ ﷺ: «إن العبد ليعالج كرب الموت وسكراته، وإنّ مفاصله ليسلّم بعضها على بعض تقول: عليك السلام، تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة».

فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه، فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي؟ وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقيّة الدواهي فإنّ دواهي الموت ثلاث:

---

(١) الفجأة: البغتة الذي لم يكن متوقع.

(٢) لا كرب: لا شدة ولا غمّ على أبيك.

الأولى: شدّة النزع ـ كما ذكرناه.

والداهية الثانية: مشاهدة صورة ملك الموت، ودخول الروّع والخوف منه على القلب فلو رأى صورته التي يقبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته.

فقد روي عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنّه قال لملك الموت: هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض عليها روح الفاجر؟ قال: لا تطيق ذلك. قال: بلى. قال: فأعرض عني. فأعرض عنه ثم التفت، فإذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان.

فغشي على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى. فقال: يا ملك الموت، لو لم يلق الفاجر عند الموت إلاّ صورة وجهك لكان حسبه.

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ: أن داود عليه السلام كان رجلاً غيوراً، وكان إذا خرج غلّق الأبواب. فغلّقها ذات يوم وخرج، فأشرفت امرأته فإذا هي برجل في الدار، فقالت: من أدخل هذا الرجل؟ لئن جاء داود ليلقينّ منه عناء. فجاء داود فرآه. فقال: من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا يمنعهم مني الحجاب. فقال: فأنت والله إذاً ملك الموت. وزملّ داود عليه السلام مكانه.

وروي: أنّ عيسى عليه السلام مرّ بجمجمة فضربها برجله، فقال: تكلّمي بإذن الله. فقالت: يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا، بينا أنا جالس في ملكي عليّ تاجي، وحولي جنودي وحشمي على سرير ملكي، إذ بدا لي ملك الموت فزال مني كلّ عضو على حياله، ثم خرجت نفسي إليه فيا ليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة، ويا ليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة، فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفاها المطيعون.

فقد حكى الأنبياء: مجرّد سكرة النزع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت، كذلك ولو رآها في منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره فكيف برؤيته في مثل تلك الحال؟

وأمّا المطيع فإنه يراه في أحسن صورة وأجملها.

فقد روى عكرمة عن ابن عبّاس: أنّ إبراهيم عليه السلام كان رجلاً غيوراً وكان له بيت يتعبّد فيه، فإذا خرج أغلقه، فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف[1] البيت، فقال: من أدخلك داري؟ فقال: أدخلنيها ربّها. فقال: أنا ربّها. فقال: أدخلنيها من هو أملك بها منّي ومنك، فقال: من أنت من الملائكة؟ قال: أنا ملك الموت. قال: هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن؟ قال: نعم، فأعرض عني. فأعرض ثم التفت فالتفت فإذا هو بشاب، فذكر من حسن وجهه، وحسن ثيابه، وطيب ريحه، فقال: يا ملك الموت لو لم يلقَ المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه.

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين قال وهيب: بلغنا أنّه ما من ميت يموت حتى يتراءة له ملكاه الكاتبان عمله، فإن كان مطيعاً قالا له: جزاك الله عنّا خيراً فَرُبَّ مجلس صدق أجلستنا، وعملاً صالحٍ أحضرتنا.

وإن كان فاجراً قالا له: لا جزاك الله عنا خيراً فرُبَّ مجلس سوء أجلستنا، وعملاً غير صالح أحضرتنا، وكلامٍ قبيحٍ أسمعتنا. فلا جزاك الله عنّا خيراً.

فذلك شخوص[2] بصر الميّت إليهما، ولا يرجع إلى الدنيا أبداً.

الداهية الثالثة: مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة فإنّهم في حال السكرات قد تخاذلت قواهم، واستسلمت للخروج أرواحهم، ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بإحدى البشريين.

إمّا أبشر يا عدّو الله بالنار، أو أبشر يا وليّ الله بالجنة.

ومن هذا كان خوف أرباب الألباب.

وقد قال النبي ﷺ: «لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره، وحتى يرى مقعده[3] من الجنة أو النار».

---

(١) جوف: باطن البيت وداخله.

(٢) شخوص: ارتفاع البصر.

(٣) مقعده: منزله.

٤٥ ـ باب: في بيان القبر وسؤاله

قال رسول الله ﷺ: «يقول القبر للميّت حين يوضع فيه: ويحك يا ابن آدم، ما غرّك[١] بي؟ ألم تعلم أنيّ بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود؟ ما غرّك بي إذ كنت تمرّ بي فذاذاً».

فإن كان مصلحاً أجاب عنه مجيب للقبر فيقول: أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ فيقول القبر: «إني إذاً أتحول عليه خضراً ويعود جسده نوراً، وتصعد روحه إلى الله تعالى» والفذاذ هو الذي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوي.

وقال عبيد بن عمير الليثي: ليس من ميّت يموت إلاّ نادته حفرته التي يدفن فيها: أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد.

فإن كنت في حياتك لله مطيعاً، كنت عليك اليوم رحمة، وإن كنت عاصياً، فأنا اليوم عليك نقمة[٢].

أنا الذي من دخلني مطيعاً خرج مسروراً، ومن دخلني عاصياً خرج مثبوراً[٣].

وقال محمد بن صبيح: بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فعذب أو أصابه بعض ما يكره، ناداه جيرانه من الموتى: أيها المتخلّف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه، أما كان لك فينا معتبر؟ أما كان لك في متقدمِنا إيّاك فكرة؟ أما رأيت انقطاع أعمالنا عنّا، وأنت في المهلة؟ فهلاّ استدركت ما فات إخوانك؟.

وتناديه بقاع الأرض: أيّها المغتر بظاهر الدنيا، هلاّ اعتبرت بمن غيّب من أهلك في باطن الأرض، ممن غرّته الدنيا قبلك؟ ثم سبق به أجله إلى القبور، وأنت تراه

---

(١) غرّك: من غرّ بمعنى جهل الأمور وغفل عنها.

(٢) نقمة: عقوبة.

(٣) مثبوراً: من الثبور وهو: الهلاك.

محمولاً تهاداه أحبّته إلى المنزل الذي لا بد له منه.

وقال يزيد الرقاشي: بلغني أنّ الميت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله، فقالت: أيّها العبد المنفرد في حفرته، انقطع عنك الأخلاّء[1] والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا.

وقال كعب: إذا وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصّالحة: الصلاة والصيام والحج والزكاة والجهاد والصدقة، قال: فتجيء ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة: إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه، فقد أطال بي القيام لله عليهما.

فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام: لا سبيل لكم عليه، فقد أطال ظمأه[2] لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه.

فيأتونه من قبل جسده، فيقول الحج والجهاد: إليكم عنه، فقد أنصب[3] نفسه، وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه.

قال: فيأتونه من قبل يديه، فتقول الصدقة: كفوا عن صاحبي، فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين، حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه، فلا سبيل لكم عليه.

قال: فيقال له: هنيئاً. طبت حياً وطبت ميتاً. قال: ويأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشاً من الجنة ودثاراً[4] من الجنة، ويفسح له في قبره مد بصره، ويؤتى بقنديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره.

وقال عبيد الله بن عبيد بن عمير في جنازة: بلغني أنّ رسول الله ﷺ قال: «إن الميّت يقعد وهو يسمع خطو مشيّعيه بن فلا يكلّمه شيء إلا قبره يقول: ويحك ابن آدم، أليس قد حذرتني، وحذرت ضيقي ونتني وهولي ودودي، فماذا أعددت لي؟».

---

(١) الأخلاء: الأصحاب.
(٢) ظمأه: عطشه.
(٣) أنصب: أتعب.
(٤) دثاراً: غطاء.

وقال البراء بن عازب: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكساً رأسه ثم قال: «اللّهمّ إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثاً» ثمّ قال: «إنّ المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة، بعث الله ملائكة كأنّ وجوههم الشمس، معهم حنوطه وكفنه، فيجلسون مدّ بصره، فإذا خرجت روحه صلى عليه كلّ ملك بين السماء والأرض، وكلّ ملك في السّماء، وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلاّ يحبّ أن يدخل بروحه منه، فإذا صعد بروحه قيل: أي ربّ عبدك فلان فيقول: أرجعوه، فأردوه ما أعددت له من الكرامة فإني وعدته ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُم وَفِيهَا نُعِيدُكُم﴾[1].

وإنّه ليسمع خفق[2] نعالهم إذا ولّوا مدبرين حتّى يقال: يا هذا من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ فيقول: ربيّ الله، وديني الإسلام، ونبيّ محمّد ﷺ. قال: فينتهرانه انتهاراً شديداً، وهي آخر فتنة تعرض على الميت، فإذا قال ذلك نادى مناد: أن قد صدقت، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالقَوْلِ الثَّابِتِ﴾[3].

ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول: ابشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم؛ فيقول: وأنت فبشرك الله بخير، من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، والله علمت إن كنت لسريعاً إلى طاعة الله تعالى بطيئاً عن معصية الله فجزاك الله خيراً.

قال: ثم ينادي مناد أن افرشوا له من فرش الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة، فيقول: اللهم عجل قيام الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال: «وأما الكافر فإنه إذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا، نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد، معهم ثياب من نار، وسرابيل من قطران فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه، لعنه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وغلقت أبواب

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٥.

(٢) خفق: صوت.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.

السماء، فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه. فإذا صعد بروحه نُبذ، وقيل: أي رب، عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض؟ فيقول الله عز وجل: أرجعوه فأروه ما أعددت له من الشر إني وعدته: ﴿مِنهَا خَلَقناكُم وَفِيهَا نُعِيدُكُم﴾[١]. وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال له: يا هذا، من ربك ومن نبيك وما دينك؟ فيقول: لا أدري. فيقال له: لا دريت. ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب، فيقول: أبشر بسخط الله وبعذاب أليم مقيم. فيقول: بشرك الله بشر، من أنت؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، والله إن كنت لسريعاً إلى معصية الله، بطيئاً عن طاعة الله فجزاك الله شراً. فيقول: وأنت فجزاك الله شراً. ثم يقبض له أصم أعمى أبكم، معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا، لو ضرب بها جبل صار تراباً، فيضربه بها ضربة فيصير تراباً، ثم تعود فيه الروح، فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين ليس الثقلين[٢]، قال: ثم ينادي مناد: أن افرشوا له لوحين من نار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيفرش له لوحان من نار، ويفتح له باب إلى النار.

وقال محمد بن علي: ما من ميت يموت إلا مُثِّل[٣] له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة، قال: فيشخص إلى حسناته، ويطرق عن سيئاته.

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان، فتسل[٤] روحه كما تسل الشعرة من العجين، ويقال: أيتها النفس المطمئنة اخرجي راضية مرضية عنك إلى روح الله وكرامته، فإذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسك والريحان، وطويت عليها الحريرة، وبعث إلى عليين. وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة، فتنزع روحه انتزاعاً شديداً، ويقال: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي ساخطة ومسخوطاً، عليك إلى هوان الله وعذابه، فإذا أخرجت روحه، وضعت على تلك الجمرة، وإن لها نشيشاً، ويطوى عليها المسح، ويذهب بها إلى سجين».

---

(١) سورة طه، الآية: ٥٥.

(٢) الثقلين: الإنس والجن.

(٣) مُثِّل: صُوِّر ـ وخُيِّل.

(٤) فتسلّ: تخرج روحه.

وعن محمد بن كعب القرظي: أنه كان يقرأ قوله تعالى: ﴿حتَّى إذا جَاء أَحَدهُمُ الموتُ قال رب ارجعُون* لعلّي أعملُ صالحاً فيما تركتُ﴾[١] قال: أي شيء تريد؟ وفي أي شيء ترغب؟ أتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبني البنيان وتشقق الأنهار؟ قال: ﴿لعلَي أعملُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكتُ﴾[٢] قال: فيقول الجبار: ﴿كلاَّ إنَّها كلمةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾[٣] أي ليقولنها عند الموت.

وقال أبو هريرة: قال النبي ﷺ: «المؤمن في قبره في روضة خضراء، ويرحب له في قبره سبعون ذراعاً، ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر، هل تدرون في ماذا أنزلت ﴿فإنَّ لَهُ معيشة ضنكاً[٤] ﴾[٥]؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «في عذاب الكافر في قبره، يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً. هل تدرون ما التنين؟ تسعة وتسعون حية، لكل حية سبعة رؤوس، يخدشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون».

ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص، فإن عدد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات، فإن لها أصولاً معدودة ثم تتشعب منها فروع معدودة، ثم تنقسم فروعها بأقسام، وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات، وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات، فالقوي منها يلدغ لدغ التنين، والضعيف يلدغ لدغ العقرب، وما بينهما يؤذي إيذاء الحيَّة.

وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات، وانشعاب فروعها، إلا أن مقدار عددها ما لا يوقف إلا بنور النبوة، فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة، وأسرار خفية، ولكنها عند أرباب البصائر واضحة، فمن لم تتكشف له حقائقها، فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها، بل أقلّ درجات الإيمان: التصديق والتسليم.

---

(١) سورة المؤمنون، الأيتان: ٩٩ ، ١٠٠.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩٩.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.
(٤) ضنكة: أي ضيقة في كل شيء.
(٥) سورة طه، الآية: ١٢٤.

٤٦ ـ باب: في بيان علم اليقين وعين اليقين والسؤال يوم العرض[1]

قال الله تعالى: ﴿كلا لو تَعْلَمُون علْمَ اليقِين﴾[2] يعني: لو تعلمون أمر القيامة باليقين، لألهاكم عن ذلك، أي عن التكاثر والتفاخر، ولفعلتم ما ينفعكم من الخير ولتركتم ما لا ينفعكم، ويقال: حقاً ﴿لو تَعْلَمُون عِلْمَ اليَقِين﴾، كما يعلمه الرسل أن المال والحساب في الفخر لا ينفعكم يوم القيامة، ما افتخرتم بالمال وكثرة العدد ﴿لَتَرَوُنَّ الجَحيم﴾[3] أقسم الرب إنكم لترون النار وشدتها يوم القيامة عياناً ﴿ثمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليقين﴾[4]. يعني لترون الجحيم، الرؤية التي هي نفس اليقين وهي المشاهدة والمعاينة التي لا شك فيها.

فإن قيل: ما الفرق بين علم اليقين وعين اليقين؟ قيل له: علم اليقين كان للأنبياء بنبوّتهم، وعين اليقين للملائكة لأنهم يعاينون الجنة والنار، واللوح والقلم، والعرش والكرسي، فتكون لهم عين اليقين.

وإن شئت قلت: علم اليقين علم الموت والقبور للأحياء لأنهم يعرفون بأن الأموات في القبور، لكن لا يدرون كيف حالهم فيها.

وعين اليقين للأموات لأنهم عاينوا[5] القبور. إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار.

وإن شئت قلت: علم اليقين: علم القيامة. وعين اليقين: معاينة القيامة وأهوالها.

---

(١) يوم العرض: هو يوم القيامة.
(٢) سورة التكاثر، الآية: ٥.
(٣) سورة التكاثر، الآية: ٦.
(٤) سورة التكاثر، الآية: ٧.
(٥) عاينوا: شاهدوا.

وإن شئت قلت: علم اليقين: علم الجنة والنار. وعين اليقين: الرؤية.

﴿ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[1] يعني: لتسئلن يوم القيامة عن نعيم الدنيا من صحة الأبدان، والأسماع والأبصار والمكاسب وملاذ المآكل والمشارب، وغير ذلك هل أديتم شكرها لمولاها وعرفتموه بها أم كفرتم بها؟.

أخرج ابن أبي حاتم، وابن مردويه عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يعني عن الطاعات ﴿حَتَّى زُرْتُمُ المقابِرِ﴾ يقولُ: حتى يأتيكم الموت ﴿كلا سوف تَعْلَمون﴾ يعني: لو قد دخلتم قبوركم ﴿ثم كلا سوف تعلمون﴾ يقول: لو قد خرجتم من قبوركم إلى محشركم ﴿كلا لو تعلمون علم اليقين﴾ قال: لو قد وقفتم على أعمالكم بين يدي ربكم ﴿لترون الجحيم﴾ وذلك لأن الصراط يوضع وسط جهنم فناج مسلم، ومخدوش مسلم، ومكدوش في نار جهنم ﴿ثمَّ لَتُسْئَلُنَ يَوْمَئِذٍ عن النعيم﴾ يعني: شبع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخلق ولذة النوم.

وعن علي رضي الله عنه قال: النعيم العافية.

وعنه قال: من أكل خبز البر وشرب من الفرات مبرداً، وكان له منزل يسكنه، فذلك من النعيم الذي يسأل عنه.

وعن أبي قلابة عن النبي ﷺ في الآية قال: «ناس من أمتي يعقدون السمن والعسل النقي فيأكلونه».

وعن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية قال الصحابة: يا رسول الله أي نعيم نحن فيه؟ وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير. فأوحى الله إلى نبيه ﷺ «قل لهم: أليس تحتذون النعال وتشربون الماء البارد؟ فهذا من النعيم».

وروى الترمذي وغيره أنّه لما نزلت ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿النَعيم﴾. قالوا: يا رسول الله، أي نعيم نسأل عنه؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا والعدو حاضر فعن أي نعيم نسأل؟ قال: «أما إن ذلك سيكون».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يسأل العبد عنه

---

(١) سورة التكاثر، الآية: ٨.

يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نصح لك جسمك ونروك من الماء البارد؟».

وروى مسلمٌ وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما الساعة»؟ قالا: الجوع يا رسول الله. قال: «والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما فقوما» فقاما معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً، فقال النبي ﷺ: «أين فلان» فقالت: انطلق يستعذب[١] لنا الماء. إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني.

فانطلق فجاء بعذقٍ[٢] فيه بُسر وتَمر، فقال: كلوا من هذا. وأخذ المدية[٣]. فقال له رسول الله ﷺ «إياك والحلوب». فذبح لهم، فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق، وشربوا فلما شبعوا ورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة».



(١) يستعذب: أي يطلب الماء العذب.

(٢) بعذق: إناء.

(٣) المدية: الموسى أو السكين أو هي كل ما يقطع به.

٤٧ ـ باب: في فضل ذكر الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿فاذكُرُوني أذكُركُم﴾[١].

قال ثابت البناني رحمه الله: إني أعلم متى يذكرني ربي عز وجل. ففزعوا منه، وقالوا: كيف تعلم ذلك؟ فقال: إذا ذكرته ذكرني.

وقال تعالى: ﴿اذكُرُوا الله ذكراً كَثِيراً﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿فإذا أفَضتُم مِنْ عَرَفَاتٍ فاذكُرُوا الله عندَ المَشعَرِ الحَرَام واذكُرُوه كَمَا هَدَاكُم﴾[٣].

وقال عزّ وجلّ: ﴿فَإِذَا قَضَيتُمُ مَنَاسِكَكُم فاذكُرُوا الله كَذِكركُم آباءكم أوَ أشَدَّ ذكراً﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿الَّذينَ يذْكُرونَ الله قِياماً وقُعُوداً وعَلَىَ جُنُوبِهِم﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيتُم الصَّلاَةَ فاذكُرُوا الله قِيَاماً وقُعُوداً وعَلَى جُنُوبِكُم﴾[٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي بالليل والنهار، في البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر، والمرض والصحة، والسر والعلانية.

وقال تعالى في ذم المنافقين: ﴿ولا يَذْكُرُونَ الله إلا قليلاً﴾[٧].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(٦) سورة النساء، الآية: ١٠٣.
(٧) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

وقال عز وجل: ﴿واذكُرْ رَبَّكَ في نَفسِكَ تَضَرُّعاً وخِيفَةً ودونَ الجَهْرِ من القول بالغُدُوِّ والآصَالِ ولا تكن من الغَافِلِين﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ولَذِكرُ الله أكْبَرُ﴾[2].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: له وجهان: أحدهما: أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه. والآخر: أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه.

إلى غير ذلك من الآيات.

وقال رسول الله ﷺ: «ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الهشيم».

وقال ﷺ: «ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل بين الفارِّين».

وقال ﷺ: «يقول الله عز وجل: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت شفتاه بي».

وقال ﷺ: «ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل» قالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع، ثم تضرب به حتى ينقطع، ثم تضرب به حتى ينقطع».

وقال ﷺ: «من أحب أن يرتع في رياض الجنة، فليكثر ذكر الله عز وجل» وسئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «أن تموت ولسانك رطب بذكر الله تعالى عزّ وجلّ».

وقال ﷺ «أصبح وأمس ولسانك رطبٌ بذكر الله عزّ وجلّ».

وقال ﷺ: «أصبحْ وأمس ولسانُك رطبٌ بذكر الله تصبح وتُمْسي وليس عليك خطيئة».

وقال ﷺ: «الذكر الله عز وجل بالغداة والعشي، أفضل من حطم السيوف في سبيل الله، ومن إعطاء المال سحاً[3]».

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٣) سحاً: أي دائماً كثيراً.

وقال ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملإٍ[١] ذكرته في ملأ خير من ملأه، وإذا تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، وإذا تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا مشى إلي هرولت إليه» يعني بالهرولة: سرعة الإجابة.

وقال ﷺ: «سبعة يظلهم الله عز وجل في ظله يوم لا ظل إلا ظله» من جملتهم: «رجل ذكر الله خالياً[٢] ففاضت عيناه من خشية الله».

وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الورق والذهب، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «ذكر الله عز وجل دائماً».

وقال ﷺ: «قال الله عز وجل: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين».

وقال الفُضيل: بلغنا أن الله عز وجل قال: يا عبدي اذكرني بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة، أكفك ما بينهما.

وقال بعض العلماء: إن الله عز وجل يقول: أيما عبد أطلعت على قلبه، فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري، توليت سياسته وكنت جليسه ومحادثه وأنيسه.

وقال الحسن: الذّكر ذكران: ذكر الله عز وجل بين نفسك وبين الله عزّ وجل، ما أحسنه وأعظم أجره. وأفضل من ذلك، ذكر الله سبحانه عندما حرّم الله عزّ وجل.

ويُروى: أن كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلا ذاكر الله عز وجل.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: ليس يتحسر أهل الجنة على شيء، إلا على ساعة مرت بهم، لم يذكروا الله سبحانه فيها.

(١) ملأ: جماعة.
(٢) خالياً: منفرداً.

وقال رسول الله ﷺ: «ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل إلاّ حفّت[١] بهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله تعالى فيمن عنده».

وقال ﷺ: «ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله تعالى لا يريدون بذلك إلا وجهه، إلا ناداهم مناد من السماء: قوموا مغفوراً لكم قد بدلت لكم سيئاتكم حسنات».

وقال ﷺ: «ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله سبحانه وتعالى فيه، ولم يصلوا على النبي ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة».

وقال داودُ عليه السلام: إلهي إذا رأيتني أجاوز مجالس الذاكرين إلى مجالس الغافلين، فاكسر رجلي دونهم، فإنها نعمة تنعم بها علي.

وقال ﷺ: «المجلس الصالح يكفر عن المؤمن ألفي ألف مجلس من مجالس السوء».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن أهل السماء ليتراءون بيوت أهل الأرض التي يذكر فيها اسم الله تعالى كما تتراءى النجوم.

وقال سُفيان ابن عُيَيْنَة رحمه الله: إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى اعتزل الشيطان والدنيا، فيقول الشيطان للدنيا: ألا ترين ما يصنعون؟ فتقول الدنيا: دعهم فإنهم إذا تفرقوا أخذت بأعناقهم إليك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه دخل السوق، وقال: أراكم ههنا وميراث رسول الله ﷺ يقسَم في المسجد. فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق، فلم يروا ميراثاً. فقالوا: يا أبا هريرة، ما رأينا ميراثاً يقسم في المسجد. قال: فماذا رأيتم؟ قالوا: رأينا قوماً يذكرون الله عزّ وجل يقرؤون القرآن. قال: فذلك ميراث رسول الله ﷺ.

وعن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لله عزّ وجل ملائكة سيّاحين في الأرض، فضلاً عن كتّاب الناس فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عزّ وجلّ تنادوا: هلمّوا إلى بغيتكم[٢]. فيجيؤون فيحفون بهم إلى

(١) حفّت: اعتنت بهم ومدحتهم.

(٢) بُغيتكم: حاجتكم.

السماء، فيقول الله تبارك وتعالى: أي شيء تركتم عبادي يصنعونه؟

فيقولون: تركناهم يحمدونك ويمجدونك ويسبحونك. فيقول الله تبارك وتعالى: وهل رأوني؟ فيقولون: لا. فيقول جل جلاله: كيف لو رأوني؟ فيقولون: لو رأوك لكانوا أشدّ تسبيحاً وتحميداً وتمجيداً.

فيقول لهم: من أيّ شيء يتعوّذون؟ فيقولون: من النار. فيقول تعالى: وهل رأوها؟ فيقولون: لا. فيقول الله عزّ وجل: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشدّ هرباً منها وأشدّ نفوراً.

فيقول الله عز وجل: وأي شيء يطلبون؟ فيقولون: الجنة. فيقول تعالى: وهل رأوها؟ فيقولون: لا. فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد عليها حرصاً.

فيقول جلّ جلاله: إني أشهدكم أني قد غفرت لهم. فيقولون: كان فيهم فلان، لم يردهم، إنما جاء لحاجة. فيقول الله عزّوجل: هم القوم لا يشقى جليسهم.

وقال ﷺ: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

وقال ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير، كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً[1] من الشيطان يومه ذلك، حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا أحدٌ عمل أكثر من ذلك».

وقال ﷺ: «ما من عبد توضأ فأحسن الوضوء، ثم رفع طرفه[2]، إلى السماء، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء».

(١) حرزاً: حفظاً من شيطان.

(٢) طرفه: بصره.

٤٨ ـ باب: في فضائل الصلوات

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَّوْقُوتاً﴾(١).

وقال ﷺ: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد. فمن جاء بهن ولم يضيّع منهن شيئاً استخفافاً بحقّهنّ، كان له عند الله عهدٌ أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهنّ فليس له عند الله عهد. إن شاء عذّبه وإن شاء أدخله الجنة».

وقال ﷺ: «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم(٢) فيه كلّ يوم خمس مرّات، فما ترون ذلك يبقى من درنه؟» قالوا لا شيء. قال ﷺ: «فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن»(٣).

وقال ﷺ: «إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر».

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾(٤) ومعنى يذهبنها يكفّرنها، حتى كأنها لم تكن.

وأخرج البخاري ومسلم، وأهل السنّن وغيرهم عن ابن مسعود: أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة، فأتى النبي ﷺ فذكر له كأنه يسأل عن كفارّتها فأُنزلت عليه: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾(٥) الآية. فقال الرجل: يا رسول الله، ألي هذا؟ قال: «هي لمن عمل بها من أُمتي».

وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي أمامة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

(٢) يَقتحم: يرمي فيه بنفسه.

(٣) الدَّرن: الوسخ.

(٤) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٥) سورة هود، الآية: ١١٤.

رسول الله. أقم في حد الله مرة أو مرتين، فأعرض عنه. ثم أقيمت الصلاة فلما فرغ قال: «أين الرجل» قال: أنا ذا. قال: أتممت الوضوء وصليت معنا آنفاً؟». قال: نعم قال: «فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد» وأنزل الله حينئذ على رسوله﴿وأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفي النَّهارِ﴾[1] الآية.

وقال ﷺ: «بيننا وبين المنافقين شهود العتمة[2] والصبح لا يستطيعونهما».

وقال ﷺ: «من لقي الله وهو مضيع للصلاة لم يعبأ الله بشيء من حسناته».

وقال ﷺ: «الصلاة عماد[3] الدين، فمن تركها فقد هدم الدين».

وسئل ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ فقال: «الصلاة لمواقيتها».

وقال ﷺ: «من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها، كانت له نوراً وبرهاناً يوم القيامة، ومن ضيّعها حشر مع فرعون وهامان».

وقال ﷺ: «مفتاح الجنة الصلاة».

وقال ﷺ: «ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحبَّ إليه من الصلاة، ولو كان شيء أحبَّ إليه منها لتعبد به ملائكته، فمنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد».

وقال النبي ﷺ: «من ترك الصلاة متعمداً فقد كفر» أي قارب أن ينخلع عن الإيمان بانحلال عروته وسقوط عماده. كما يقال لمن قارب البلدة: إنه بلغها ودخلها.

وقال ﷺ: «من ترك الصلاة متعمداً فقد برىء من ذمَّة محمّد».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: من توضأ فأحسن وضوءه، ثم خرج عامداً إلى الصلاة فإنه في صلاة ما كان يعمد إلى الصلاة، وأنه يكتب له بإحدى خطوتيه حسنة وتمحى عنه بالأخرى سيئة. فإذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغي له أن يتأخر فإن أعظمكم أجراً أبعدكم داراً. قالوا: لم يا أبا هريرة؟ قال: من أجل كثرة الخطا.

وقال رسول الله ﷺ: «ما تقرّب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي».

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٢) العتمة: صلاة العشاء.

(٣) عِمَاد: أي قوامه الذي لا يستقيم إلا به.

وقال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة».

وروي أنّ رجلاً قال لرسول الله ﷺ: ادع أن يجعلني من أهل شفاعتك، وأن يرزقني مرافقتك في الجنة. فقال ﷺ: «أعني بكثرة السجود».

وقيل: «أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجداً» وهو معنى قوله عزّ وجل: ﴿واسْجُدْ واقْتَرِب﴾[1].

وقال عزّ وجل: ﴿سِيمَاهُمَ في وجُوُهِهِم من أثَرِ السُّجُودِ﴾[2] فقيل: هو ما يلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود. وقيل: هو نور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر ـ هو الأصحّ ـ وقيل: هي الغرر[3] التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء.

وقال ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول: يا ويلاه أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت أنا بالسجود فعصيت فليّ النار».

ويُروى عن عليّ بن عبدالله بن عباس، أنه كان يسجد كلّ يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجّاد.

ويُروى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لا يسجد إلاّ على التراب.

وكان يوسف بن أسباط يقول: يا معشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض، فما بقي أحد أحسده، إلاّ رجلٌ يتمّ ركوعه وسجوده وقد حيل بيني وبين ذلك.

وقال سعيد بن جبير: ما آسى[4] على شيء من الدنيا إلاّ على السجود.

وقال عقبة بن مسلم: ما من خصلة في العبد أحبّ إلى الله عزّ وجل من رجل يحبّ

---

(١) سورة العلق، الآية: ١٩.

(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

(٣) الغُرَر: البياض في الجبهة وذلك من آثار الوضوء وهي العلامة التي تعرف بها أمة سيدنا محمد ﷺ.

(٤) ما آسى: أي من المواساة بمعنى أحزن وأعزي نفسي.

لقاء الله عزّ وجلّ، وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عزّ وجل منه حيث يخر[١] ساجداً.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: أقرب ما يكون العبد إلى الله عز وجل إذا سجد، فأكثروا الدعاء عند ذلك.



(١) خرَّ: سقط.

٤٩ ـ باب: في بيان عقوبة تارك الصلاة

قال تعالى مخبراً عن أصحاب الجحيم: ﴿ما سَلَكَكُمْ في سَقَر * قالوا لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ * ولَم نَكُ نُطْعِمُ المِسكِينَ * وكُنَّا نَخُوضُ مَع الخائِضِين﴾[(١)]

وأخرج أحمد: «بين الرجل وبين الكفر تركُ الصلاة».

ومسلم: «ليس بين الرجل وبين الشرك أو الكفر إلاّ ترك الصلاة».

وأبو داود والنَّسائي: «ليس بين العبد وبين الكفر إلاّ ترك الصلاة».

والترمذي: «بين الكفر والإيمان ترك الصلاة».

وابن ماجه: «بين العبد وبين الكفر ترك الصلاة».

وصحَّ كما رواه الترمذي وغيره أنه ﷺ قال: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر».

والطبراني بإسناد لا بأس به: «من ترك الصلاة متعمّداً فقد كفر جِهاراً».

وفي روايةٍ: «بين العبد والكفر ـ أو الشرك ـ ترك الصلاة، فإذا ترك الصلاة فقد كفر».

وفي أُخرى: «ليس بين العبد والشرك إلا ترك الصلاة، فإذا تركها فقد أشرك».

وفي أُخرى سندها حسن: «عزّ الإسلام وقواعد الدين ثلاث عليهنّ أسس الإسلام، من ترك واحدة منهم فهو بها كافر حلال الدّم: شهادة أن لا إله إلا الله، والصلاة المكتوبة، وصوم رمضان».

وفي أخرى سندها حسن أيضاً: «من ترك منهم واحدة فهو بالله كافر، ولا يقبل منه صرف[(٢)] ولا عدل، وقد حل دمه وماله».

---

(١) سورة المدثر، الآيات: ٤٢ ـ ٤٥.

(٢) صرف: أي عمل خالص غير مخلوط بغيره.

والطبراني وغيره بإسنادين لا بأس بهما.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «أوصاني خليلي ﷺ بسبع خلال، قال: «لا تشركوا بالله شيئاً وإن قطعتم أو حرقتم أو صلبتم، ولا تتركوا الصلاة تعمّداً، فمن تركها متعمّداً فقد خرج من الملةِ، ولا تركبوا المعصية فإنها سخط الله، ولا تشربوا الخمر فإنها رأس الخطايا كلّها. . . .» الحديث.

والترمذي: كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة.

وصح خبر: «بين العبد وبين الكفر والإيمان الصلاة، فإذا تركها فقد أشرك».

والبزار: «لا سهم في الإسلام لمن لا صلاة له، ولا صلاة لمن لا وضوء له».

والطبراني: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا صلاة لمن لا طهور له، ولا دين لمن لا صلاة له. إنّما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد».

وابن ماجه والبيهقي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «أوصاني خليلي ﷺ أن لا تشرك بالله شيئاً وإن قطعت وإن أحرّقت، ولا تترك صلاة مكتوبة متعمّداً فمن تركها متعمّداً فقد برئت منه الذمة، ولا تشرب الخمر فإنها لمفتاح كل شر».

والبزار وغيره بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قام بصري ـ أي ذهب مع بقاء صحّة الحدقة ـ قيل: نداويك، وتدع الصلاة أياماً. قلت: لا، إن رسول الله ﷺ قال: «من ترك الصلاة لقي الله وهو عليه غضبان».

والطبراني بسند لا بأس به في المتابعات: أتى رسول الله ﷺ رجل: فقال: يا رسول الله، علمني عملاً إذا أنا عملته دخلت الجنة. قال: «لا تشرك بالله شيئاً وإن عذبت وحرقت، وأطع والديك وإن أخرجاك من مالك، ومن كل شيء هو لك، ولا تترك الصلاة متعمّداً، فإن من ترك الصلاة متعمّداً فقد برئت منه ذمّة الله» الحديث.

وفي رواية سندها صحيح لكن فيه انقطاع: لا تشرك بالله شيئاً وإن قتلت وحرّقت،

ولا تعقن[١] والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمّداً، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمّداً فقد برئت منه ذمة الله، ولا تشربن خمراً، فإنه ـ أي شربها ـ رأس كل فاحشة، وإيّاك والمعصية فإن بالمعصية حل سخط الله، وإياك والفرار من الزحف، وإن هلك الناس، وإن أصاب الناس موت فاثبت، وأنفق على أهلك من طَوْلِك[٢]، ولا ترفع عصاك عنهم أدباً، وأخفهم في الله».

وابن حبان في صحيحه: «بكروا بالصلاة في يوم الغيم، فإنه من ترك الصلاة فقد كفر».

والطبراني عن أميمة مولاة رسول الله ﷺ قالت: كنت أصب على رأس رسول الله ﷺ وضوءه، فدخل رجل فقال: أوصني. فقال: «لا تشرك بالله شيئاً وإن قطعت وحرقت بالنار، ولا تعص والديك وإن أمراك أن تخلي من أهلك ودنياك فتخله، ولا تشربن خمراً فإنها مفتاح كل شر، ولا تتركن صلاة متعمّداً، فمن فعل ذلك فقد برئت منه ذمة الله وذمّة رسوله. . . .» الحديث.

وأبو نعيم: «من ترك الصلاة متعمداً كتب الله اسمه على باب النار ممن يدخلها».

والطبراني والبيهقي: «من ترك الصلاة فكأنما وتر[٣] أهله وماله» والحاكم عن علي أنه ﷺ قال: «يا معشر قريش لتقيمن الصلاة، ولتؤتن الزكاة أو لأبعثن عليكم رجلاً فيضرب أعناقكم على الدين. . .» الحديث.

والبزار: «لا سهم في الإسلام لمن لا صلاة له، ولا صلاة لمن لا وضوء له».

وأحمد مرسلاً: «أربع فرضهن الله في الإسلام، فمن أتى بثلاث لم يغنين عنه شيئاً حتى يأتي بهن جميعاً: الصلاة، والزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت».

والأصبهاني: «من ترك صلاة متعمداً أحبط الله عمله، وبرئت منه ذمّةُ[٤] الله حتى يرجع لله عز وجل توبة».

---

(١) ولا تعقَّن: من العقوق وهو ترك الإحسان إلى الوالدين والاستخفاف بهما.
(٢) طَوْلك: أي فضلك وغناك وسعتك.
(٣) وُتِرَ: نُقِصَ.
(٤) ذمّة الله: أي حق الله وحرمته.

والطبراني «من ترك الصلاة فقد كفر جهاراً».

وأحمد بسند صحيح لكن فيه انقطاع: «لا تترك الصلاة متعمداً، فإنه من ترك الصلاة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله ورسوله».

وابن أبي شيبة، والبخاري في «تاريخه» موقوفاً على علي رضي الله عنه قال: من لم يصل فهو كافر.

ومحمد بن نصر، وابن عبد البر موقوفاً على ابن عباس: من ترك الصلاة فقد كفر.

وابن نصر موقوفاً على ابن مسعود قال: من ترك الصلاة فلا دين له.

وابن عبد البرّ موقوفاً على جابر: من لم يُصلِّ فهو كافر.

وابن عبد البر وغيره موقوفاً على أبي الدرداء قال: لا إيمان لمن لا صلاة له ولا صلاة لمن لا وضوء له.

وقال ابن أبي شيبة: قال النبي ﷺ: «من ترك الصلاة فقد كفر».

وقال محمد بن نصر: سمعت إسحاق يقول: صح عن النبي ﷺ أن تارك الصلاة كافر. وكذلك كان رأي أهل العلم من لدن النبي ﷺ أن تارك الصلاة عمداً من غير عذر حتى يذهب وقتها كافر.

وقال أيوب: ترك الصلاة كفر لا يختلف فيه، وقال تعالى: **﴿فخَلَفَ من بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ واتَّبَعُوا الشَّهواتِ فسوفَ يَلْقَونَ غَيّاً* إلاّ من تَابَ﴾**[1].

قال ابن مسعود: ليس معنى أضاعوها تركوها بالكلية، ولكن أخروها عن أوقاتها.

وقال سعيد بن المسيب إمام التابعين: هو أن لا يصلي الظهر حتى تأتي العصر، ولا يصلي العصر إلى المغرب، ولا يصلي المغرب إلى العشاء، ولا يصلي العشاء إلى الفجر، ولا يصلي الفجر إلى طلوع الشمس. فمن مات وهو مصر[2] على هذه الحالة ولم يتب أوعده الله بغي، وهو واد في جهنم بعيد قعره شديد عقابه.

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٥٩، ٦٠.

(٢) مُصِرّ: أي مُلِح وثابت على قوله.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لا تُلهِكُم أَمْوالُكُمْ ولا أولادُكم عن ذِكرِ الله ومَنْ يَفْعَلِ ذَلِكَ فأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ﴾[1].

قال جماعة من المفسرين: المراد بذكر الله هنا. الصلوات الخمس. فمن اشتغل عن الصلاة في وقتها بماله كبيعه أو صنعته أو ولده كان من الخاسرين، ولهذا قال ﷺ: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن نقصت فقد خاب وخسر».

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ للمُصَلِّينَ * الَّذين هُمْ عن صَلاتِهِمْ ساهُون﴾[2]. قال ﷺ: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها».

وأخرج أحمد بسند جيد والطبراني، وابن حبان في «صحيحه» أنه ﷺ ذكر الصلاة يوماً فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأُبي بن خلف».

قال بعض العلماء: وإنما حشر مع هؤلاء لأنه إن اشتغل عن الصلاة بماله أشبه قارون فيحشر معه، أو بملكه أشبه فرعون فيحشر معه، أو بوزارته أشبه هامان فيحشر معه، أو بتجارته أشبه أُبيّ بن خلف تاجر كفار مكة فيحشر معه.

والبزار عن سعد بن أبي وقاص قال: سألت النبي ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿الَّذين هُمْ عن صَلاتِهِم سَاهُون﴾ قال: «هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها».

وأبو يعلى بسند حسن عن مصعب بن سعد قال: قلت لأبي: يا أبتاه أرأيت قوله تعالى: ﴿الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ أيّنا لا يسهو أيُّنا لا يحدث نفسه؟ قال: ليس ذاك إنما هو إضاعة الوقت والويل: شدة العذاب. وقيل: واد في جهنم، لو سيّرت فيه جبال الدنيا لذابت من شدة حره، فهو مسكن من يتهاون بالصلاة ويؤخرها عن

(١) سورة المنافقون، الآية: ٩.
(٢) سورة الماعون، الآيتان: ٤، ٥.

وقتها، إلا أن يتوب إلى الله تعالى، ويندم على ما فرط.

وابن حبّان في «صحيحه»: «من فاتته صلاة فكأنه وُتِرَ أهلَه ومالَه».

والحاكم بسند فيه من اختلف في توثيقه، والأكثر على عدمه: «من جمع بين صلاتين من غير عذر، فقد أتى باباً من أبواب الكبائر».

والشيخان، والأربعة: «الذي تفوته صلاة العصر كأنما وتر أهله وماله».

زاد ابن خزيمة في «صحيحه»، قال مالك: تفسيره: ذهاب الوقت.

والنسائي: «من الصلاة صلاة من فاتته فكأنما وتر أهله وماله» يعني: العصر.

ومسلم والنسائي: «إن هذه الصّلاة ـ يعني العصر ـ عرضت على من كان قبلكم، فضيعوها فمن حافظ منكم اليوم عليها كان له أجره مرتين، ولا صلاة بعدها حتى يطلع الشاهد» ـ أي النجم.

وأحمد والبخاري والنسائي: «من ترك صلاة العصر فقد حبط[1] عمله».

وأحمد بإسناد صحيح وابن أبي شيبة: «من ترك صلاة العصر متعمداً حتى تفوته، فقد حبط عمله».

وابن أبي شيبة مرسلاً: «من ترك العصر حتى تغيب الشمس من غير عذر، فقد حَبِطَ عمله».

وعبد الرزاق: «لأن يؤثر أحدكم أهله وماله خير له من أن تفوته صلاة العصر».

والطبراني وأحمد: «من ترك صلاة العصر متعمداً حتى تغرب الشمس فكأنما وتر أهله وماله».

والشافعي والبيهقي: «من فاتته الصلاة فكأنما وتر أهله وماله».

والبخاري عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه: «هل رأى أحد منكم رؤيا»؟ فيقص عليه ما شاء الله أن يقص. وأنه قال

---

(١) حبطَ: حَبْطًا وحبوطاً أي: بطل عمله.

لنا ذات غداة[١]: «إنه أتاني الليلة آتيان وإنهما بعثا بي، وإنهما قالا لي: انطلق. وإني انطلقت معهما، وإنّا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فيثلغ[٢] رأسه فيتدهده الحجر ـ أي فيتدحرج ـ فيأخذه، فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان، ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل في المرة الأولىقال: قلت لهما: سبحان الله، ما هذا؟ قالا لي: انطلق انطلق.

فأتينا على رجل مستلق على قفاه وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه، فيشرشر ـ أي يشق ـ شدقه إلى قفاه، ومنخره إلى قفاه، وعينه إلى قفاه». قال: وربما قال أبو رجاء: فيشق قال: ثم يتحول إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، قال: فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل في المرة الأولى، قال: قلت: سبحان الله ما هذا؟ قالا لي: انطلق انطلق.

فانطلقنا فأتينا على مثل التنور، قال: فأحسب أنه كان يقول: فإذا فيه لغط[٣] وأصوات، قال: فاطلعنا عليه. فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا ـ أي بفتح المعجمتين وسكون الواوين أي: صياح مع انضمام وفزع ـ قال: قلت: ما هؤلاء؟ قالا لي: انطلق انطلق.

قال: فانطلقنا فأتينا على نهر حسبت أنّه كان يقول: أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شطّ النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، فيلقمه حجراً فينطلق فيسبح، ثم يرجع إليه. كلّما رجع إليه فغر ـ بفاء فغين معجمة مفتوحتين أي: فتح فاه ـ فألقمه حجراً قلت لهما: ما هذا؟ قالا لي: انطلق انطلق.

فانطلقنا فأتينا على رجل كريه المرآة كأكره ما أنت راءٍ رجلاً مرئياً، وإذا عنده نار يحثها ـ بمهملة مضمومة فمعجمة أي: يوقدها ـ ويسعى حولها قال: قلت لهما: ما هذا؟

---

(١) غداة: صباح.

(٢) فيثلغ: أي يُشدخ.

(٣) لغط: اختلاط الأصوات مع بعضها.

قالا لي: انطلق انطلق.

فانطلقنا على روضة معتمة - أي طويلة النبات من أعتم إذا طال - فيها كل نور الربيع - وإذا بين ظهراني الروضة رجل طُوال لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم. قال: قلت: ما هذا ما هؤلاء؟ قالا لي: انطلق انطلق.

فانطلقنا فأتينا على دوحة عظيمة لم أر دوحة قط أعظم، ولا أحسن منها، قالا لي: ارق فيها. فارتقينا فيها إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا، فدخلنا فتلقانا رجال، شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء، وشطر منهم كأقبح ما أنت راء قالا لهم: اذهبوا فقعوا في ذلك النهر.

قال: إذا النهر معترض يجري كأن ماءه المحض - أي الخالص في البياض - فذهبوا فوقعوا ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة، قالا لي: هذه جنة عدن، وهذا منزلك. قال: فسما - أي ارتفع بصري - صعدا بضمتين - إلى فوق. فإذا قصر مثل الربابة - أي السحابة البيضاء - قال: قالا لي: هذا منزلك. قال: قلت لهما: بارك الله فيكما. فذراني فأدخله. قالا: أما الآن فلا. وأنت داخله.

قال: قلت لهما: فإني رأيت منذ الليلة عجباً. فما هذا الذي رأيت؟ قالا لي: إنا سنخبرك: أما الرجل الأول والذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر، فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة.

وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقة إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق.

وأما الرجال والنساء العراة الذين هم في مثل بناء التنور، فإنهم الزناة والزواني.

وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر، فإنه آكل الربا.

وأما الرجل الكريه المرآة الذي عند النار يحثها ويسعى حولها، فإن مالك خازن النار.

وأما الرجل الطويل الذي في الروضة، فإنه إبراهيم. وأما الولدان الذين حوله فكل

فقال بعض المسلمين: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ فقال: رسول الله ﷺ: «وأولاد المشركين».

وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح، فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم.

وفي حديث البزار قال: ثم أتى النبي ﷺ على قوم تُرضخ[1] رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شيء. قال: «يا جبريل، من هؤلاء؟» قال: هؤلاء الذين تثاقلت رؤوسهم عن الصلاة.

وأخرج الخطيب وابن النجار: «علم الإسلام الصلاة. فمن فرغ لها قلبه وحافظ عليها بحدها ووقتها وسننها فهو مؤمن».

وابن ماجه: قال الله تعالى: «افترضت على أمتك خمس صلوات، وعهدت عندي عهداً أن من حافظ عليهن لوقتهن أدخلته الجنة، ومن لم يحافظ عليهن فلا عهد له عندي».

وأحمد والحاكم: «من علم أن الصلاة عليه حق واجب وأداها دخل الجنة».

والترمذي وقال حسن غريب والنسائي وابن ماجه: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله الصلاة فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر، وإن انتقص من فريضته قال الرب: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فيكمل بها ما انتقص من الفريضة. ثم يكون سائر عمله على ذلك».

والنسائي: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، وأول ما يقضى به بين الناس في الدماء».

وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم: «أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته، فإن كان أتمها كتبت له تامة، وإن لم يكن أتمها قال لملائكته: انظروا هل تجدون لعبدي من تطوع؟ فيكملون بها فريضته ثم الزكاة كذلك، ثم تؤخذ الأعمال على

---

(١) تُرضخ: تُدَق بحَجَر حتى تكسر.

حسب ذلك».

والطبراني: «أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة ينظر في صلاته، فإن صلحت فقد أفلح، وإن فسدت فقد خاب وخسر».

وابن عساكر: «أول ما يحاسب به العبد صلاته، فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله. يقول: انظروا هل لعبدي نافلة؟ فإن كانت له أتم بها الفريضة، ثم الفرائض كذلك لفضل الله ورحمته».

وأحمد وأبو داود والنسائي والحاكم: «أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة. فيقول ربُّنا عزّ وجل لملائكته وهو أعلم: انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت تامة، وإن كان انتقص منها شيئاً. قال: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان له تطوع قال: اتُمّوا لعبدي فريضته من تطوعه، ثم يأخذ الأعمال على ذاكم».

والطيالسي، والطبراني، والضياء في «المختارة»: «أتاني جبريل من عند الله تبارك وتعالى، فقال: يا محمد، إن الله عز وجل يقول: إني افترضت على أمتك خمس صلوات فمن أوفى بهن على وضوئهن ومواقيتهن وركوعهن وسجودهن كان له بهن عهد أن أدخله الجنة. ومن لقيني قد انتقص من ذلك شيئاً، فليس له عندي عهد، إن شئت عذبته وإن شئت رحمته».

والبيهقي «الصلاة ميزان. فمن أوفى استوفى».

والديلمي: «الصلاة تسود وجه الشيطان، والصدقة تكسر ظهره، والتحابب في الله والتودد في العلم يقطع دابره. فإذا فعلتم ذلك تباعد منكم كمطلع الشمس من مغربها».

والترمذي وابن حبان والحاكم: «اتقوا الله وصلوا خمسكم وصوموا شهركم وأدوا زكاة أموالكم وأطيعوا ذوي أمركم، تدخلوا جنة ربكم».

وأحمد والشيخان وأبو داود والنسائي: «أحب الأعمال إلى الله تعالى الصلاة لوقتها، ثم بر الوالدين، ثم الجهاد في سبيل الله».

والبيهقي عن عمر رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله،

أي الأعمال أحب إلى الله في الإسلام؟ فقال: «الصلاة لوقتها، ومن ترك الصلاة فلا دين له».

والصلاة عماد الدين ولذلك لما طعن عمر رضي الله عنه قيل له: الصلاة يا أمير المؤمنين. قال: نعمت. أما أنه لا حظّ لأحد في الإسلام أضاع الصلاة. وصلى رضي الله عنه وجرحه يجري دمه.

وروى الذهبي: أنه ﷺ قال: «إذا صلى العبد الصلاة في أول الوقت صعدت إلى السماء، ولها نور حتى تنتهي إلى العرش، فتستغفر لصاحبها إلى يوم القيامة، وتقول له: حفظك الله كما حفظتني.

وإذا صلى العبد الصلاة في غير وقتها صعدت إلى السماء وعليها ظلمة، فإذا انتهت إلى السماء تلف كما يلف الثوب الخلق(١)، ويضرب بها وجه صاحبها».

وأخرج أبو داود أنه ﷺ قال: «ثلاث لا يقبل الله منهم صلاتهم» وذكر منهم: «من أتى الصلاة دباراً». أي بعد أن تفوته.

قال بعضهم: وورد في الحديث: «أن من حافظ على الصلاة أكرمه الله بخمس خصال: يرفع عنه ضيق العيش، وعذاب القبر، ويعطيه الله تعالى كتابه بيمينه، ويمر على الصراط كالبرق، ويدخل الجنة بغير حساب.

ومن تهاون عن الصلاة عاقبه الله بخمس عشرة عقوبة: خمس في الدنيا، وثلاث عند الموت، وثلاث في قبره، وثلاث عند خروجه من القبر.

فأما اللواتي في الدنيا: **فالأولى**: تنزع البركة من عمره، **والثانية**: تمحى سيما الصالحين من وجهه، **والثالثة**: كل عمل يعمله لا يأجره الله عليه، **والرابعة**: لا يرفع له دعاء إلى السماء، **والخامسة**: ليس له حظ في دعاء الصالحين.

وأما التي تصيبه عند الموت: فإنه يموت ذليلاً، والثانية يموت جائعاً، والثالثة يموت عطشاناً. ولو سقي بحار الدنيا ما روي من عطشه.

---

(١) الخَلق: أي الثوب البالي.

وأمّا التي تصيبه في قبره: **فالأولى**: يضيق عليه القبر حتى تختلف[1] أضلاعه، **والثانية**: يوقد عليه القبر ناراً فيتقلب على الجمر ليلاً نهاراً، **والثالثة**: يسلط عليه في قبره ثعبان اسمه الشجاع الأقرع، عيناه من نار وأظفاره من حديد طول كل ظفر مسيرة يوم، يكلم الميت فيقول: أنا الشجاع الأقرع. وصوته مثل الرعد القاصف، يقول: أمرني ربي أن أضربك على تضييع صلاة الصبح إلى طلوع الشمس، وأضربك على تضييع صلاة الظهر إلى العصر، وأضربك على تضييع صلاة العصر إلى المغرب، وأضربك على تضييع صلاة المغرب إلى العشاء، وأضربك على تضييع صلاة العشاء إلى الفجر. فكلما ضربه ضربة يغوص في الأرض سبعين ذراعاً. فلا يزال في القبر معذباً إلى يوم القيامة.

وأمّا التي تصيبه عند خروجه من القبر في موقف القيامة: فشدة الحساب، وسخط الرب، ودخول النار.

وفي رواية: «فإنه يأتي يوم القيامة وعلى وجهه ثلاثة أسطر مكتوبات: **السطر الأول**: يا مضيع حق الله، **السطر الثاني**: يا مخصوصاً بغضب الله، **السطر الثالث**: كما ضيّعت في الدنيا حقّ الله فآيس اليوم أنت من رحمة الله».

وما ذكر هذا الحديث من تفصيل العدد، لا يطابق جملة الخمس عشرة، لأن المفصل أربع عشرة فقط، فلعل الراوي نسي الخامس عشرة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: إذا كان يوم القيامة يؤتى برجل فيوقف بين يدي الله عز وجل، فيأمر الله به إلى النار، فيقول: يا رب بماذا؟ فيقول تعالى: بتأخيرك الصلاة عن أوقاتها وحلفك بي كاذباً.

وقال بعضهم أيضاً: وعن رسول الله ﷺ أنه قال يوماً لأصحابه: «قولوا: اللهم لا تدع فينا شقياً ولا محروماً» ثم قال ﷺ: «أتدرون من الشقي المحروم؟ قالوا: ومن هو يا رسول الله؟ قال: «تارك الصلاة».

قال أيضاً: يُروى أنه أول ما تسود يوم القيامة وجوه تاركي الصلاة، وأن في جهنم وادياً يقال له: لملم. فيه حيات. كل حية بثخن رقبة البعير، طولها مسيرة شهر، تلسع

---

(١) تختلف: تختلط أعضاؤه مع بعضها البعض من شدة العذاب.

تارك الصلاة، فيغلي سمها في جسمه سبعين، ثم يتهرأ[١] لحمه.

قال: ورُوي أن امرأة من بني إسرائيل جاءت إلى موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى سائر النبيين. فقالت: يا نبي الله أذنبت ذنباً عظيماً. وقد تبت إلى الله تعالى. فادع الله أن يغفر لي ذنبي ويتوب عليّ. فقال لها موسى: وما ذنبك؟ قالت: يا نبي الله زنيت وولدت ولداً فقتلته.

فقال لها موسى عليه الصلاة والسلام: اخرجي يا فاجرة، لا تنزل نار من السماء فتحرقنا بشؤمك[٢]. فخرجت من عنده منكسرة القلب، فنزل جبريل عليه السلام، وقال يا موسى الرب تعالى يقول لك: لم رددت التائبة؟ يا موسى أما وجدت شراً منها؟ قال موسى: يا جبريل ومن شر منها؟ قال: تارك الصلاة عامداً متعمداً.

وقال أيضاً: روي عن بعض السلف أنه دفن أختاً له ماتت، فسقط منه كيس فيه مال، في قبرها، ولم يشعر به، حتى انصرف عن قبرها، ثم تذكره، فرجع إلى قبرها، فنبشه بعدما انصرف الناس، فوجد القبر يشتعل عليها ناراً. فرد التراب عليها ورجع إلى أمه باكياً حزيناً فقال: يا أماه. أخبريني عن أختي وما كانت تعمل؟ قالت: وما سؤالك عنها؟ قال: يا أماه. رأيت قبرها يشتعل ناراً. قال: فبكت، وقالت: يا ولدي كانت أختك تتهاون بالصلاة وتؤخِّرها عن وقتها.

فهذا حال من يؤخِّر الصلاة عن وقتها فكيف حال من لا يصلّي؟ فنسأل الله تعالى أن يعيننا على المحافظة عليها بكمالاتها في أوقاتها، إنه جواد كريم رؤوف رحيم.

---

(١) يتهرأ لحمه: يسقط لحمه وينفصل عن عظمه.

(٢) بشؤمك: أي ذنبك.

٥٠ ـ باب: في بيان عرصات جهنم وعذابها

قال الله تعالى: ﴿لها سبعةُ أبواب لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسوم﴾[١] والمراد بالجزء هنا: الحزب والطائفة والفريق، وقيل: المراد بالأبواب: الأطباق. طبق فوق طبق.

قال ابن جريج: النار سبع دركات، وهي: جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. فأعلاها للموحّدين، والثانية لليهود، والثالثة للنصارى، والرابعة للصابئين، والخامسة للمجوس، والسادسة للمشركين، والسابعة للمنافقين. فجهنم أعلى الطبقات ثم فابعدها تحتها، ثم كذلك.

قيل: والمعنى أن الله يُجزّىء أتباع إبليس سبعة أجزاء، فيدخل كلَّ جزءٍ وقسم دركةً من النار، والسبب فيه أن مراتب الكفر والمعاصي مختلفة، فلذلك اختلفتْ مراتبهم في النار.

وقيل: جُعلت سبعة على وفق الأعضاء السبعة من العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل، لأنها مصادر السيئات، فكانت مواردها الأبواب السبعة.

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: أطباق جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيملأ الأول ثم الثاني ثم الثالث حتى تُملأ كلُّها.

وأخرج البخاري في «تاريخه» والترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لجهنم سبعة أبواب، باب منها لمن سل السيف على أمتي».

وروى الطبراني في «الأوسط» أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ في حين غير حينه الذي كان يأتيه فيه، فقام إليه رسول الله ﷺ فقال: «يا جبريل ما لي أراك متغيّر اللون؟ فقال:

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٤.

ما جئتك حتى أمر الله عزوجل بمنافخ النار. فقال رسول الله ﷺ: يا جبريل صف لي النار أو أنعت جهنم».

فقال جبريل: إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة، لا يضيء شررها ولا يطفأ لهبها.

والذي بعثك بالحق نبيّاً لو أن قدر ثقب إبرة فُتح من جهنم، لمات من في الأرض كلُّهم جميعاً. والذي بعثك بالحق لو أن خازناً من خزنة جهنم، برز إلى أهل الدنيا لمات من في الأرض كلهم جميعاً من قبح وجهه ونتن ريحه.

والذي بعثك بالحق لو أن حلقة من حلق سلسلة أهل النار التي نعت الله في كتابه، وضعت على جبال الدنيا لأرفضت وما تقارت حتى تنتهي إلى الأرض السفلى فقال رسول الله ﷺ: «حسبي يا جبريل لا ينصدع قلبي فأموت».

قال: «فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل وهو يبكي! فقال: تبكي يا جبريل وأنت من الله بالمكان الذي أنت به؟ فقال: وما لي لا أبكي، وأنا أحق بالبكاء لعلي أكون في علم الله على غير الحالة التي أنا عليها. وما أدري لعلّي أُبتلى[1] بما ابتُلي به إبليس، فقد كان من الملائكة، وما أدري لعلي أبتلي بما ابتلي به هاروت وماروت».

قال: فبكى النبي ﷺ وبكى جبريل، فما زالا يبكيان حتى نودي: أن يا جبريل ويا محمد إن الله تعالى قد آمنكما أن تعصياه.

فارتفع جبريل وخرج رسول الله ﷺ فمر بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون. فقال: «أتضحكون ووراءكم جهنم، فلو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، ولما أسغتم الطعام والشراب، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل». فنُودي: يا محمّد، لا تقنّط عبادي، إنما بعثتك مُبشراً ولم أبعثك مُعسراً. فقال ﷺ: «سدّدوا وقاربوا».

---

(١) أبتلى: أختبر وأمتحن.

وروى الإمام أحمد أنه ﷺ قال لجبريل: «ما لي لا أرى ميكائيل ضاحكاً قط؟» قال: ما ضحك ميكائيل منذ خُلقت النار.

وروى مسلم: أنّ رسول الله ﷺ قال: «يُؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها».



٥١ ـ باب: في بيان عذاب جهنم أيضاً

روى أبو داود، والنسائي، والترمذي، وصحّحه واللفظ له: «لمّا خلق الله تعالى الجنة والنار، أرسل جبريل إلى الجنة، فقال: أُنظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. فجاء ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع إليه فقال: وعزّتك، لا يسمع بها أحد إلاّ دخلها. فأمر بها فحُفّت بالمكاره، فقال: ارجع إليها فانظر ما أعددت لأهلها فيها. فرجع إليها فإذا هي قد حفت بالمكاره، فرجع إليه وقال: وعزتك لقد خفت ألا يدخلها أحد. فقال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. فنظر إليها. فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه. فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحفت بالشهوات، فقال: ارجع إليها. فرجع إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلاّ دخلها».

والبيهقي بسند لا بأس به عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾[1] قال: أما إني لست أقول كالشجر، ولكن كالحصون والمدائن.

وأحمد، وابن ماجه، وابن حبّان في «صحيحه» والحاكم وصححه: «ويلٌ وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً، قبل أن يبلغ قعره».

والترمذي: «ويلٌ وادٍ بين جبلين يهوي فيه الكافر سبعين خريفاً، قبل أن يبلغ قعره».

وابن ماجه واللفظ له والترمذي: «تعوّذوا بالله من جبّ الحزن» قالوا يا رسول الله، وما جبُّ الحزن؟ قال: «وادٍ في جهنم تتعوّذ منه جهنّم كلَّ يوم أربعمائة مرة» قيل: يا رسول الله، من يدخله؟ قال: «أُعِدَّ للقرّاء المرائين بأعمالهم، وإن من أبغض القرّاء إلى الله الذين يزورون الأمراء الجَوَرة».

---

(١) سورة المرسلات، الآية: ٣٢.

والطبراني: «إن في جهنم لوادياً تستعيذ جهنم من ذلك الوادي كل يوم أربعمائة مرة أعد للمرائين من أمة محمد ﷺ».

وابن أبي الدنيا: «إن في النار سبعين ألف وادٍ، في كل وادٍ سبعون ألف شعب، وفي كل شعب سبعون ألف حجز، في كل حجر حية تأكل وجوه أهل النار».

والبخاري في «تاريخه» بسند فيه نكارة: «إن في جهنم سبعين ألف وادٍ، في كل واد سبعون ألف شعب، في كل شعب سبعون ألف دار، في كل دار سبعون ألف بيت، في كل بيت سبعون ألف بئر، في كل بئر سبعون ألف ثعبان، في شدق[1] كل ثعبان سبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر أو المنافق حتى يواقع ذلك كله».

والترمذي بسند فيه انقطاع: «إن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير[2] جهنم فتهوي فيها سبعين خريفاً، وما تفضي إلى قرارها».

وكان عمر رضي الله عنه يقول: أكثروا ذكر النار، فإن حرها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامها حديد.

والبزار، وأبو يعلى وابن حبّان في «صحيحه» والبيهقي: «لو أن حجراً قُذف به في جهنم لهوى بها سبعين خريفاً قبل أن يبلغ قعرها».

ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فسمعنا وَجْبَةً. فقال النبيّ ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا حجر أرسله الله في جهنم منذ سبعين خريفاً، فالآن حين انتهى إلى قعرها».

والطبراني عن سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمع رسول الله ﷺ صوتاً هاله، فأتاه جبريل عليه السلام فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا الصوت يا جبريل؟ فقال: هذه صخرة هوت من شفير جهنم من سبعين عاماً. فهذا حين بلغت قعرها، فأحب الله تعالى أن يسمعك صوتها. فما رئي رسول الله ﷺ ضاحكاً ملء فيه حتى قبضه الله عزّ وجل.

وأحمد والترمذي وحسنه: «لو أن رصاصة مثل هذه وأشار إلى الجمجمة أرسلت

---

(١) شَدْق: جانب الفم.
(٢) شفير: جانب أو حَرْف.

من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة، لبلغت الأرض قبل الليل، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفاً. الليل والنهار. قبل أن تبلغ أصلها».

وأحمد، وأبو يعلى، والحاكم وصححه: «لو أن مقمعاً من حديد جهنم، وضع في الأرض، فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض».

والحاكم وصححه: «لو ضُرب الجبل بمقمع من حديد جهنم لتفتت فصار رماداً». المقمع: المطراق، وقيل: السوط.

وابن أبي الدنيا: «إنَّ الحجر الواحد منها لو وُضع على جبال الدنيا لذابت منه، وإن مع كل إنسان منهم حجراً وشيطاناً».

والحاكم وصححه: «إن الأرضين السبع بين كل أرض والتي تليها مسيرة خمسمائة عام.

فالعليا منها: على ظهر حوت، قد التقى طرفاه في السماء، والحوت على صخرة، والصخرة بيد ملك.

والثانية: سجن الريح، فلمّا أراد الله تعالى أن يهلك عادا أمر خازن الريح أن يرسل عليهم ريحاً تُهلكهم، قال: يا ربِّ، أرسل عليهم من الريح قدر منخر الثور؟ قال له الجبار تبارك وتعالى: إذن تُكفأ الأرض ومن عليها، ولكن أرسلْ عليهم بقدر خاتم. فهي التي قال الله في كتابه العزيز: ﴿ما تَذَرُ من شَيءٍ أتَتْ عَلَيه إلاّ جَعَلَتْهُ كالرَّمِيم﴾[1].

والثالثة: فيها حجارة جهنم.

والرابعة: فيها كبريت جهنم. قالوا: يا رسول الله، أللنار كبريت؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده إن فيها لأودية من كبريت لو أرسل فيها الجبال الرواسي لماعت[2]».

والخامسة: فيها حيات جهنم، وإن أفواهها كالأودية تلسع[3] الكافر اللسعة فلا يبقى منه لحم على عظم.

---

(١) سورة الذاريات، الآية: ٤٢.

(٢) ماعت: أي ذابت.

(٣) تلسع: أي تضرب بحُمَيها.

والسادسة: فيها عقارب جهنم، إن أدنى عقرب منها كالبغال الموكفة، تضرب الكافر ضربة تنسيه ضربتها حر جهنم.

والسابعة: فيها إبليس مصفّد[١] بالحديد يدٌ أمامه، ويد خلفه، فإذا أراد الله أن يطلقه لمن شاء من عباده أطلقه.

وأحمد، والطبراني وابن حبّان في «صحيحه» والحاكم وصححه: «إن في النار حيّات كأمثال أعناق البُخْت، تسلع أحداهن اللسعة، فيجد حرها سبعين خريفاً، وأن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة، تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموها أربعين سنة».

والترمذي، وابن حبّان في «صحيحه»، والحاكم، وصححه عنه ﷺ في قوله تبارك وتعالى: ﴿**كالمُهْلِ**﴾[٢] قال: «كعكر الزيت فإذا قُرِّب إلى وجهه سقطتْ فروة وجهه فيه».

والترمذي وقال: حسن غريب صحيح: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه، فيسلب ما في جوفه حتى يمرق من قدميه، وهو الصهر ثم يعاد كما كان» والحميم: الماء الحار الذي يحرق.

وقال الضحّاك: الحميم يغلي منذ خلق الله السموات والأرض إلى يوم يسقونه، ويصب على رؤوسهم.

وقيل: هو ما يجتمع من دموع أعينهم في حياض النار، فيسقونه. وقيل: غير ذلك وهو المذكور في قوله تبارك وتعالى: ﴿**وسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أمْعَاءَهُمْ**﴾[٣].

وأحمد، والترمذي وقال: غريب. والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. عنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿**ويُسْقَى مِن ماءٍ صَديدٍ* يَتَجَرَّعُهُ ولا يَكَادُ يُسِيغه**﴾[٤] قال: «يُقرّب إلى فيه فيكرهه، فإذا دنا منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع

---

(١) مُصفّد: مُقيّد.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٣) سورة محمد، الآية: ١٥.
(٤) سورة ابراهيم، الآيتان: ١٦ ، ١٧.

أمعائه حتى يخرج من دبره».

قال الله عز وجل: ﴿وسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أمْعَاءَهُمْ﴾[1] وقال جلّ ذكره: ﴿وإن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بمَاءٍ كالمُهْل يَشْوي الوُجُوه بِئْسَ الشَّرَاب﴾[2].

وأحمد، والحاكم وصححه: «لو أن دلواً من غسّاق يُهراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا» والغساق: هو المذكور في قوله تعالى: ﴿هذا فلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وغَسَّاقٌ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿إلاَّ حَمِيْماً وغَسَّاقاً﴾[4].

واختلف فيه فعند ابن عباس رضي الله عنهما: هو ما يسيل من جلد الكافر ونحوه. وعند آخرين: هو صديدهم. وقال كعب: هو عينٌ في جهنم يسيل إليها حُمَّةُ كل ذات حمة من حية أو عقرب أو غير ذلك فيستنقع، فيؤتى بالآدمي فيغمس فيها غمسة واحدة فيخرج وقد سقط جلده ولحمه عن العظام، ويتعلق جلده ولحمه في عقبيه وكعبيه، فيجر لحمه كما يجر المرء ثوبه.

والترمذي وقال: حسن صحيح أنه ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وأنتم مُسْلِمُون﴾[5] فقال ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا، لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن يكون طعامه»؟.

وفي رواية: «فكيف بمن ليس له طعام غيره»؟.

وصحّ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وطَعَاماً ذا غُصَّةٍ﴾[6] شوك يأخذ بالحلق، لا يدخل ولا يخرج.

والشيخان: «ما بين منكبي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع» والمنكب مجمع رأس الكتف والعضد.

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٥.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٩.
(٣) سورة ص، الآية: ٥٧.
(٤) سورة النبأ، الآية: ٢٥.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.
(٦) سورة المزمّل، الآية: ١٣.

وأحمد: «ضرس الكافر مثل أحد، وفخذه مثل البيضاء ـ أي وهو جبل ـ ومقعده من النار كما بين قديد ومكة ـ أي نحو ثلاثة أيام ـ وكثافة جلده اثنان وأربعون ذراعاً بذراع الجبار» أي ملك باليمن له ذراع معروف المقدار كذا. قال ابن حبان وغيره: وقيل: ملك بالعجم.

ومسلم: «ضرس أو قال: ناب الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث».

والترمذي ولفظه: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر يوم القيامة مثل أحد وفخذه مثل البيضاء ومقعده من النار مسيرة ثلاث من الرَّبذة» أي كما بين المدينة والربذة.

وأحمد بسند جيد: «ضرس الكافر يوم القيامة، مثل أحد وعرض جلده سبعون ذراعاً، وعضده مثل البيضاء، وفخذه مثل ورقان، ومقعده من النار ما بيني وبين الربذة».
وفي رواية: «ومقعده من النار مسيرة ثلاث مثل الربذة».

وأحمد والطبراني وإسناده قريب من الحسن، كما قاله الحافظ المنذري، والترمذي عن الفضيل بن يزيد: «إن الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخين يتوّطؤه الناس».

والفضيل بن يزيد عن أبي العجلان: «إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتوّطؤه الناس» أخرجه البيهقي وغيره وهو الصواب.

قال النبي ﷺ: «يَعْظُمُ أهل النار في النار حتى أن بين شحمة أذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وإن غلظ جلده سبعون ذراعاً، وإن ضرسه مثل أحد».

وأحمد بسند صحيح والحاكم وصححه عن مجاهد، قال ابن عباس: أتدري ما سعة جهنم؟ قلت: لا، قال: أجل والله ما تدري، ان بين شحمة أذن أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفاً تجري فيه أودية القيح والدم. قلت: أنهار؟ قال: لا، بل أودية.

٥٢ ـ باب: في بيان فضل الخوف من الذنب

اعلم أنَّ أعظم زاجر عن الذنوب هو خوف الله تعالى، وخشية انتقامه وسطوته، وحذر عقابه وغضبه وبطشه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أن تُصيبَهُم فِتْنَةٌ أو يُصيبَهُم عَذَابٌ أليمٌ﴾[١].

جاء أنه ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك؟» قال: أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي.

فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه[٢] مما يخاف».

وعن وهب بن ورد قال: كان عيسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين وسلم يقول: حب الفردوس، وخشية جهنم يورثان الصبر على المصيبة، ويبعدان العبد من لذات الدنيا وشهواتها ومعاصيها.

وعن الحسن قال: والله، لقد مضى بين أيديكم أقوام لو أنفق أحدهم عدد الحصى ذهباً يخشى أن لا ينجو، لعظم الذنب في نفسه.

وقال رسول الله ﷺ: «هل تسمعون ما أسمع؟. أطَّت[٣] السماء وحق لها أن تئط، والذي نفسي بيده ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد لله تعالى أو قائم أو راكع، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولخرجتم أو لصعدتم إلى الصعدات ـ أي الجبال ـ تجأرون إلى الله تعالى خوفاً من عظيم سطوته وشدة انتقامه».

وفي رواية: «لا تدرون تنجون أو لا تنجون».

---

(١) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٢) أي أعطاه الأمان من الخوف.

(٣) أطَّتِ: من الأطيط وهو كثرة الصوت من الملائكة حتى أثقلها وجعلتها تئط.

وقال بكر بن عبدالله المزني: من أتى الخطيئة، وهو يضحك دخل النار وهو يبكي.

وفي الحديث: «لو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن النار».

وفي الصحيحين: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه ﴿وأنْذِرْ عَشيرَتَكَ الأقْرَبِينَ﴾[١] فقال: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف، لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عبّاس عمّ رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفيّة عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، يا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً».

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله ﴿والَّذِينَ يُؤتُونَ ما آتَوا وقُلُوبُهُم وَجِلةٌ[٢] أنّهم إلى رَبِّهم راجِعُون﴾[٣] يا رسول الله، هو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر، وهو يخاف الله؟ قال: «لا، يا بنت أبي بكر، يا بنت الصدِّيق، ولكنه الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه». رواه أحمد.

وقيل للحسن البصري: يا أبا سعيد، كيف نصنع بمجالسة قوم يحدثونا عن الرجاء حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال له: إنك والله إن تصحب قوماً يخوفونك حتى تدرك أمناً، خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى تلحقك المخاوف.

ولما طُعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقربت وفاته قال لابنه: ويلك ضع خدّي على الأرض لا أمَّ لك، وويلي وأيُّ ويلي إن لم يرحمني. وقال له ابن عباس: ما هذا الخوف يا أمير المؤمنين؟ وقد فتح الله بك الفتوح، ومصرّ بك الأمصار، وفعل بك وفعل. قال: وددت أن أنجو لا علي ولا لي.

وفي روايةٍ: لا أجراً ولا وزراً.

وكان زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهم إذا توضأ وفرغ من وضوئه أخذته رِعْدَةٌ[٤] فقيل له في ذلك، فقال: ويحكم أتدرون إلى من أقوم؟ ولمن أريد أن

---

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٢) وَجِلَة: خائفة.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

(٤) رِعْدة: أي ارتعاش واضطراب.

أناجي؟.

وقال أحمد بن حنبل: الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب فما أشتهيه.

وفي الصَّحيحين أنه ﷺ ذكر من السبعة الذين يظللهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، «رجلاً ذكر الله ـ أي وعيده وعقابه ـ خالياً ففاضت عيناه» أي خوفاً مما جناه واقترفه من المخالفات والذنوب.

وفي حديث ابن عبَّاس عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «عينان لا تمسُّهما النار، عين بكت في جوف الليل من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله تعالى».

وفي حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «كلُّ عين باكية يوم القيامة إلاّ عيناً غضَّت عن محارم الله، وعينا سهرت في سبيل الله، وعيناً يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى».

وأخرج الترمذي وقال: حسن صحيح. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يلج ـ أي لا يدخل النار ـ رجل بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخانُ جهنم».

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إلي من أتصدق بألف دينار.

وقال عون بن عبدالله: بلغني أنَّه لا تصيب دموع الإنسان من خشية الله مكاناً من جسده، إلا حرم الله ذلك المكان على النار. وكان لصدر رسول الله ﷺ أزيز كأزيز المرجل من البكاء، أي فوران وغليان كغليان القدر على النار.

وقال الكندي: البكاء من خشية الله تعالى تطفىء الدمعة منه أمثال البحار من النار.

وكان ابن السمّاك يُعاتب نفسه، ويقول لها: تقولين قول الزاهدين، وتعملين عمل المنافقين، ومع ذلك الجنة تطلبين أن تدخليها، هيهات هيهات للجنّة قوم آخرون، ولهم أعمال غير ما نحن عاملون.

وعن سفيان الثوري قال: دخلت على جعفر الصادق. فقلت له: يا ابن رسول الله أوصني. قال: يا سفيان لا مروءة لكذوب، ولا راحة لحسود، ولا إخاء لملول ولا

سؤدد لسيِّىء الخلق.

قلت: يا ابن رسول الله ﷺ زدني، قال: يا سفيان كف عن محارم الله تكن عابداً، وارض بما قسم الله لك تكن مسلماً، واصحب الناس بما تحب أن يصحبوك به تكن مؤمناً، ولا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره ـ أي لحديث: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل» وشاور في أمرك الذين يخشون الله.

قلت: يا ابن رسول الله زدني. قال: يا سفيان من أراد عزاً بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فليخرج من ذل معصية الله إلى طاعة الله.

قلت: يا ابن رسول الله زدني. قال: أدبني أبي بثلاث: قال لي: أي بني إن من يصحب صاحب السوء لا يسلم، ومن يدخل مدخل السوء يتهم، ومن لا يملك لسانه يندم.

وقال ابن المبارك: سألت وهب بن ورد أيجد طعم العبادة من يعصى الله تعالى؟ قال: لا. ولا من يهم بمعصية الله تعالى.

وقال الإمام أبو الفرج بن الجوزي: الخوف: هو النار المحرقة للشهوات، فإذا فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوة، وبقدر ما يكف عن المعصية ويحث على الطاعة.

وكيف لا يكون الخوف إذاً فضيلة وبه تحصل العفة والورع، والتقوى والمجاهدة، والأعمال الفاضلة التي يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، كما علم من الآيات والأخبار كقوله تعالى: ﴿هُدىً وَرَحْمَةٌ للَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿رَضِيَ الله عَنْهُم وَرَضُوا عَنْه ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وخافُونِ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[٤].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٤.

(٢) سورة البينة، الآية: ٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٥.

(٤) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى الله من عِبادِهِ العُلَمَاءُ﴾[٢] وكلُّ ما دلَّ من الآيات والأحاديث على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم.

وأخرج ابن أبي الدنيا أنه ﷺ قال: «إذا اقشعر جسد العبد من مخافة الله عز وجل، تحاتت عنه خطاياه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقُها».

وقال ﷺ: «قال الله سبحانه وتعالى: وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، إن أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة».

وقال أبو سليمان الداراني: كل قلب ليس فيه خوف الله فهو خراب. وقد قال الله تعالى: ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ الله إلاّ القَوْمُ الخَاسِرُونَ﴾[٣].



(١) سورة الأعلى، الآية: ١٠.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

٥٣ ـ باب: في بيان فضل التوبة

جاء في فضل آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وتُوبُوا إلى الله جَمِيعاً أيُّهَا المُؤمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١).

وقوله: ﴿والَّذينَ لا يَدْعُونَ مَعَ الله إلٰهاً آخرَ ولا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتي حرَّم الله إلا بالحَقِّ ولا يَزْنُونَ ومَن يَفْعَلْ ذَلِك يَلْقَ أثاماً * يُضاعَفْ لَهُ العَذَابُ يوم القيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً * إلاّ مَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فأولئكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئاتِهِم حَسَناتٍ وكانَ الله غَفُوراً رَحيماً * ومن تابَ وعَمِلَ صالِحاً فَإنَّهُ يَتُوبُ إلى الله مَتَاباً﴾(٢).

والأحاديث في ذلك كثيرة أخرج مسلم: «أن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها».

والترمذي وصححه: «أن من قبل المغرب لباباً مسيرة عرضه أربعون عاماً، أو سبعون سنة فتحه الله عز وجل للتوبة، يوم خلق السموات والأرض، فلا يغلقه حتى تطلع الشمس منه».

وصحح أيضاً: «إن الله تعالى جعل بالمغرب باباً عرضه مسيرة سبعين عاماً للتوبة لا يغلق ما لم تطلع الشمس من قبله» وذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأتي بَعْضُ آياتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إيمَانُها﴾(٣) الآية.

قيل: وليس هذه الرواية ولا الأولى تصريح برفعه كما صرَّح به البيهقي. انتهى. ويجاب بأن مثل هذا لا يقال من قبل الرأي، فله حكم المرفوع.

والطبراني بسند جيد: «للجنة ثمانية أبواب سبعة مغلقة، وباب مفتوح للتوبة،

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

(٢) سورة الفرقان، الآيات: ٦٨ ـ ٧١.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.

حتى تطلع الشمس من نحوه».

وابن ماجه بسند جيد: «لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب الله عليكم».

والحاكم وصححه: «من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابة» والترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون».

والشيخان: «أن عبداً أصاب ذنباً فقال: يا رب إني أذنبت ذنباً، فاغفره لي. فقال له ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، فغفر له. ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً آخر. وربما قال: أذنب ذنباً آخر. فقال: يا رب إني أذنبت ذنباً آخر فاغفره لي. فقال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به. فغفر له، ثم مكث ما شاء الله تعالى ثم أصاب ذنباً آخر وربما قال: أذنب ذنباً آخر. فقال: يا رب إني أذنبت ذنبا آخر. فاغفره لي، فقال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به. فقال ربه: غفرت لعبدي. فليعمل ما شاء».

قال المنذري: قوله: «فليعمل ما شاء» معناه ـ والله أعلم ـ: أنه ما دام كلما أذنب ذنباً، استغفر وتاب منه ولم يعد إليه. بدليل قوله: ثم أصاب ذنباً آخر. فليعمل إذا كان هذا دأبه ما شاء، لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره، كفارة لذنبه. فلا يضره، لا أن المعنى أنه يذنب الذنب فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع، ثم يعاوده. فإن هذه توبة الكذّابين.

وروى جماعة وصحّحوه: «إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقُل منها، وإن زاد زادت حتى يخلق بها قلبه. فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلوبِهِم ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾[1].

والترمذي وحسّنه: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر» أي تبلغ روحه حلقومه.

والطبراني بسند حسن لكن فيه انقطاع، والبيهقي بسندٍ فيه مجهول عن معاذ، قال: أخذ بيدي رسولُ الله ﷺ فمشى ميلاً ثم قال: «يا معاذ، أوصيك بتقوى الله، وصدقِ

(١) سورة المطففين، الآية: ١٤.

الحديث، ووفاء العهد، وأداء الأمانة، وترك الخيانة، ورحمة اليتيم، وحفظ الجوار، وكظم الغيظ، ولين الكلام، وبذل السّلام، ولزوم الإمام، والتفقّه في القرآن، وحبّ الآخرة، والجزع من الحساب، وقصر الأمل، وحسن العمل، وأنهاك أن تشتم مسلماً، أو تُصدّقَ كاذباً، أو تكذبَ صادقاً، أو تعصى إماماً عادلاً، وأن تُفسد في الأرض.

يا معاذ، اذكر الله عند كل شجرٍ وحجر، وأحدث لكلِّ ذنب توبةً: السرُّ بالسرِّ، والعلانية بالعلانية».

والأصفهاني: «إذا تاب العبد من ذنوبه أنسى الله حفظته ذنوبه، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض، حتى يلقى الله يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بذنب».

والأصفهاني أيضاً: «النادم ينتظر من الله الرحمة، والمعجب ينتظر المقت. واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله، وإنما الأعمال بخواتيمها. والليل والنهار مطيتان. فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة. واحذروا التسويف، فإن الموت يأتي بغتة[1]، ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل، فإن النار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله. ثم قرأ رسول الله ﷺ: **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾**[2].

والطبراني بسند صحيح لكن فيه انقطاع: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

ورواه البيهقي من طريق آخر. وزاد «والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربّه».

وابن حبّان في «صحيحه» والحاكم وصححه: «الندم توبة» أي أنّه معظمُ أركانها كخبر: «الحج عرفة». ولا بدَّ في الندم أن يكون من حيث المعصية، وقبحها وخوف عقابها، بخلافه لنحو هتك أو ضياع مال على المعصية، أو نحو ذلك.

والحاكم وصححه لكن فيه ساقط: «ما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له

---

(١) بغتة: فجأة.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ ، ٨.

قبل أن يستغفرَ منه».

ومسلم، وغيره: «والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا وتستغفروا لذهب الله بكم ولجاء بقوم غيركم يذنبون ويستغفرون الله فيغفر لهم».

ومسلم: «ليس أحدٌ أحبُ إليه المدح من الله؛ من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحدٌ أغْيَرَ من الله، من أجل ذلك حرَّم الفواحش، وليس أحدٌ أحبُ إليه العذر من الله؛ من أجل ذلك أنزل الكتاب، وأرسل الرسل».

ومسلم: إن امرأةً من جُهينةَ أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا، فقالت: يا رسول الله أصبت حداً فأقمه علي، فدعا نبي الله ﷺ وليَّها، فقال: «أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني بها» ففعل فأمر بها نبي الله ﷺ فشدت عليها ثيابها، ثم أمر بها فرجمت، ثم صلّى عليها. فقال عمر: تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟ قال ﷺ: لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم. وهل وجدت أفضل مما جادت بنفسها لله عزّ وجل».

والترمذي وحسنه، وابن حبّان في «صحيحه»، والحاكم وصححه عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدث حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرات، ولكن سمعته أكثر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها. فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته، أرعدت وبكت.

فقال: ما يبكيك، أكرهتك؟ قالت: لا. ولكنه عملٌ ما عملته قطُ، وما حملني عليه إلا الحاجة. فقال: تفعلين أنت هذا، وما فعلته قطّ، اذهبي فهي لك. وقال: لا والله، لا أعصي بعدها أبداً. فمات من ليلته. فأصبح مكتوباً بأعلى بابه: إن الله قد غفر للكفل».

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كانت قريتان إحداهما صالحة، والأخرى طالحة، فخرج رجل من القرية الطالحة يريد القرية الصالحة، فأتاه الموت حيث شاء الله فاختصم فيه الملك والشيطان. فقال: الشيطان: والله ما عصاني قط، وقال الملك: إنه قد خرج يريد التوبة. فقضى الله بينهما أن ينظر إلى أيهما أقرب. فوجدوه أقرب إلى

القرية الصالحة بشبر، فغفر له. قال معمر: وسمعت من يقول: قرب الله إليه القرية الصالحة.

والشيخان: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه، فقال له: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على رجل عالم فقال له: إنه قتل مائة نفس فهل من توبة؟ فقال: نعم، ومن يَحُول بينك وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا بلغ نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب.

فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى. وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم. فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما هو أدنى كان له. فقاسوها فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة».

وفي رواية: «فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر، فجعل من أهلها».

وفي رواية: «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي، وإلى هذه أن تقربي. وقال: قيسوا ما بينهما. فوجدوه إلى هذه أقرب بشبرٍ فغُفر له».

وفي رواية: قال قتادة: قال الحسن: ذُكر لنا أنه لمّا أتاه ملك الموت، ناء بصدره نحوها.

والطبراني بسند جيد: «إن رجلاً أسرف على نفسه، فلقي رجلاً فقال: «إن الآخر قتل تسعة وتسعين نفساً كلّهم ظلماً فهل تجد لي من توبةٍ؟ قال: لا. فقتله، وأتى آخر فقال: إن الآخر قتل مائة نفس كلّهم ظلماً فهل تجد لي من توبة؟ فقال: إن حدثتك أن الله لا يتوب على من تاب، كذبتك. ههنا قوم يتعبدون، فألهم تعبد الله معهم، فتوجه إليهم فمات على ذلك، فاختصمت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب. فبعث الله إليهم ملكاً، فقال: قيسوا ما بين المكانين، فأيُّهم كان أقرب فهو منهم، فوجدوه أقرب إلى قرية التوّابين بأنملة، فغُفر له».

وفي روايةٍ له: «ثم أتى رجلاً آخر. فقال: إني قتلت مائة نفس فهل تجد لي من توبة؟ فقال: أسرفت، ما أدري ولكن هنا قريتان قرية يقال لها: نصرة، والأخرى يقال لها: كفرة، فأما أهل نصرة فيعملون عمل أهل الجنة لا يثبت فيها غيرهم، وأما أهل كفرة فيعملون عمل أهل النار، لا يثبت فيها غيرهم، فانطلق إلى نصرة فإن ثبت فيها وعملت عمل أهلها، فلا شكَّ في توبتك. فانطلق يريدها حتى إذا كان بين أهل القريتين أدركه الموت، فسألت الملائكة ربَّها عنه. فقال: انظروا إلى أيِّ القريتين كان أقرب فاكتبوه من أهلها. فوجدوه أقرب إلى نصرة بقيد أنملة، فكتب من أهلها».



٥٤ ـ باب: في بيان النهي عن الظلم[(١)]

قال الله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾[(٢)].

وقال ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

وقال ﷺ: «من ظلم شبراً من أرض طوّقه[(٣)] الله من سبع أرضين يوم القيامة».

وفي بعض الكتب يقول الله تعالى: اشتدَّ غضبي على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيري.

وما أحسن قول بعضهم:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم يرجع عقباه إلى الندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقول الآخر:

إذا ما الظلوم استوطأ الأرض مركباً ... ولجَّ[(٤)] غلواً في قبيح اكتسابه

فكله إلى صرف الزمان فإنه ... سيبدي له ما لم يكن في حسابه

وقال بعض السلف: لا تظلم الضعفاء؛ فتكون من شرار الأقوياء.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن الحبارى لتموت هولاً في وكرها من ظلم ظالم.

وقيل: مكتوب في التوراة: يُنادي منادٍ من وراء الجسر ـ يعني الصراط ـ يا معشر الجبابرة الطغاة، ويا معشر المترفين الأشقياء، إن الله يحلف بعزته ألا يجاوز هذا الجسر اليوم ظلم ظالم.

---

(١) الظلم: ظَلَمَ ظُلْماً، ومظْلَمَةً: جار وجاوز الحدّ.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٢٧.

(٣) طوّقه: الطّوق ألبسه إياه.

(٤) ولجَّ: تمادى من ظلمه.

وعن جابر رضي الله عنه قال: لما رجعت مهاجرة الحبشة إلى رسول الله ﷺ قال: «ألا تخبروني بأعجب ما رأيتم في أرض الحبشة؟».

فقال قتيبة، وكان منهم: عليَّ يا رسول الله: بينما نحن يوماً جلوس، إذ مرت بنا عجوز من عجائزهم، تحمل على رأسها قُلَّةً[1] من ماء، فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها، فخرت المرأة على ركبتيها، وانكسرت قلتها. فلما قامت التفتت إليه. ثم قالت: سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي، فجمع الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون. سوف تعلم ما أمري وأمرك عنده غداً.

قال: فقال ﷺ: «كيف يقدس الله قوماً لا يؤخذ من شديدهم لضعيفهم؟».

وروي عن رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قال: «خمسة غضب الله عليهم إن شاء أمضى غضبه عليهم في الدنيا، وإلا ثوى بهم في الآخرة إلى النار: أمير قوم يأخذ حقه من رعيته ولا ينصفهم من نفسه ولا يدفع الظلم عنهم، وزعيم قوم يطيعونه ولا يسوي بين القوي والضعيف ويتكلم الهوى، ورجل لا يأمر أهله وولده بطاعة الله، ولا يعلمهم أمر دينهم، ورجل استأجر أجيراً فاستعمله، ولم يوفه أجره، ورجل ظلم امرأة في صداقها».

وعن عبدالله بن سلام رضي الله عنه أنه قال: إن الله تعالى لما خلق الخلق واستووا على أقدامهم، رفعوا رؤوسهم إلى الله، وقالوا: يا رب مع من أنت؟ قال: مع المظلوم حتى يؤدَّى إليه حقُّه.

وعن وهب بن مُنبّه رضي الله عنه: بنى جبّارٌ من الجبابرة قصراً وشيّده، فجاءت عجوز فقيرة، فبنت إلى جانبه شيئاً تأوي إليه، فركب الجبار يوماً وطاف حول القصر، فرأى بناءها، فقال: لمن هذا؟ فقيل: لامرأة فقيرة تأوي إليه، فأمر بهدمه فهدم، فجاءت العجوز فرأته مهدوماً، فقالت: من هدمه؟ فقيل لها: الملك رآه فهدمه. فرفعت العجوز رأسها إلى السماء. وقالت: يا رب أنا لم أكن حاضرة فأنت أين كنت؟ قال: فأمر الله عز وجل جبريل أن يقلب القصر على من فيه فقلبه.

---

(١) قُلَّة: القُلَّة: هي إناء من الفخار يشرب منها.

وقيل: لما حُبس بعضُ البرامكة وولده، قال: يا أبت، بعد العز صرنا في القيد والحبس؟ قال: يا بني دعوة مظلوم سرت بليل غفلنا عنها، ولم يغفل الله عز وجل عنها.

وكان يزيد بن حكيم يقول: ما هِبْتُ[1] أحداً قط هيبتي رجلاً ظلمته، وأنا أعلم أنه لا ناصر له إلا الله. يقول لي: حسبي الله، الله بيني وبينك.

وعن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: يجيء الظالم يوم القيامة، حتى إذا كان على جسر جهنم فلقيه المظلوم وعرف ما في ظلمه، فما يبرح الذين ظلموا بالذين ظَلموا حتى ينزعوا ما بأيديهم من الحسنات، فإن لم يجدوا لهم حسنات حملوا عليهم من سيئاتهم، مثل ما ظلموهم، حتى يردوا الدرك الأسفل من النار.

وعن عبدالله بن أُنيس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غُرلاً بهماً، فيناديهم مناد بصوت يسمعه من بعد، كما يسمعه من قرب: أنا الملك الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وأحد من النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة فما فوقها، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وعنده مظلمة حتى اللطمة فما فوقها، ﴿ولا يَظْلِمُ ربُّك أحداً﴾[2].

قلنا: يا رسول الله، كيف وإنما نأتي حفاة عراة غرلا بهما؟ قال: «بالحسنات والسيئات» ﴿جزاء وفاقاً﴾[3] ﴿ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾.

وعنه ﷺ أنه قال: «من ضرب سوطاً ظلماً، اقتص منه يوم القيامة».

ومما ذكر أن كسرى اتخذ مؤدباً لولده يعمله ويؤدبه، فلما بلغ الولد الغاية في الفضل والأدب، استحضره المؤدب يوماً وضربه ضرباً وجيعاً، من غير جرم ولا سبب. فحقد الولد على المعلم إلى أن كبر ومات أبوه، فتولى الملك بعده. فاستحضر المعلم

(١) هِبْتُ: خِفْتُ.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٩.
(٣) سورة النبأ، الآية: ٢٦.

وقال له: ما حملك على أن ضربتني في يوم كذا ضرباً وجيعاً من غير جرم ولا سبب؟ فقال له المعلم: اعلم أيها الملك إنك لما بلغت الغاية في الفضل والأدب، علمت أنك تنال الملك بعد أبيك، فأردت أن أذيقك طعم الضرب، وألم الظلم، حتى لا تظلم أحداً بعد. فقال له: جزاك الله خيراً. ثم أمر له بجائزة وصرفه.



٥٥ ـ باب: في النهي عن ظلم اليتيم

قال تعالى: ﴿إنَّ الّذينَ يَأكُلُونَ أموالَ اليَتَامى ظُلْماً إنّما يَأكُلُونَ في بُطُونِهِم ناراً وسَيَصْلَونَ سَعِيراً﴾[1].

قال قتادة: نزلت في رجل من غطفان، ولي مال ابن أخيه وهو صغير يتيم، فأكله.

وقوله: ﴿ظلماً﴾ أي لأجله، أو حال كونهم ظالمين، وخرج به من أكلها بحقٍّ، كأكل الولي بشروطه المقررة في كتب الفقه.

قال تعالى: ﴿ومَنْ كانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ ومَن كانَ فَقيراً فَليأْكُلْ بالمَعْروفِ﴾[2] أي بمقدار الحاجة فحسب، أو بأن يأخذ قرضاً أو بقدر أجرة عمله، أو إن اضطر فإن أيسر قضاه، وإلا فهو في حلٍّ.

وقد نبّه الله تعالى على تأكيد حق الأيتام ومزيد الاعتناء به بقوله بعد هذه الآية: ﴿ولْيَخْشَ الّذينَ لو تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرّيَةً ضِعافاً خَافوا عَلَيهم فَلْيَتَّقوا الله ولْيَقولوا قَولاً سَديداً﴾[3].

إذ المراد بشهادة السياق ـــ خلافاً لمن حمل الآية على أنها في الوصية بأكثر من الثلث أو نحو ذلك الحمل ـ لمن كان في حجره يتيم على أنه يحسن إليه، حتى في الخطاب، فلا يخاطبه إلا بنحو يا بني، مما يخاطب به أولاده، ويفعل معه من البرّ والمعروف والإحسان والقيام في ماله، ما يحب أن يفعل بماله وبذريته من بعده. فإن الجزاء من جنس العمل ﴿مالكِ يوم الدِّين﴾[4] أي الجزاء.

كما تدين تدان. أي كما تفعل يفعل معك، بينما الإنسان آمن متصرف في مال

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ٩.
(٤) سورة الفاتحة، الآية: ٣.

الغير وعلى أولاد غيره، وإذا بالموت قد حل به، فيجزيه الله تعالى في ماله وذريته وعياله وسائر تعلقاته بنظير ما فعله مع غيره، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

فليخش العاقل على أولاده وماله، إن لم يكن له خشية على دينه، ويتصرف على الأيتام الذين في حجره بما يحب أن يتصرف ولي أولاده لو كانوا أيتاماً عليهم في ماله.

وجاء: إن الله تعالى أوحى إلى داود صلى الله على نبينا وعليه وسلم: يا داود كن لليتيم كالأب الرحيم، وكن للأرملة كالزوج الشفيق. واعلم أنك كما تزرع كذا تحصد، أي كما تفعل يفعل معك، إذ لا بد أن تموت ويبقى لك ولد يتيم، وامرأة أرملة.

وجاء في التشديد في أموال اليتامى والظلم فيها أحاديث كثيرة، موافقة لما في الآية من ذلك الوعيد الشديد، تحذيراً للناس عن هذه الفاحشة الوخيمة المهلكة.

أخرج مسلم، وغيره: «يا أبا ذرٍّ، أراك ضعيفاً، وإني أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي، لا تأمرنَّ على اثنين، ولا تَلَينَّ مال يتيم».

والشيخان وغيرهما: «اجتنبوا السبع الموبقات» ـ أي المهلكات.

قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحقِّ، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم» الحديث.

والبزار: «الكبائر سبع: الإشراك بالله، وقتل النفس بغير حق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم...» الحديث.

والحاكم وصححه: «أربع حقٌّ على الله أن لا يدخلهم الجنة ولا يذيقهم نعيمها: مدمن خمر، وآكل الربا، وآكل مال اليتيم بغير حقٍّ، والعاق لوالديه».

وابن حبّان في «صحيحه»: إن من جملة كتابه ﷺ الذي أرسله مع عمرو ابن حزم إلى أهل اليمن: «وإنَّ أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة الإشراك بالله، وقتل النفس المؤمنة بغير حق، والفرار في سبيل الله يوم الزحف، وعقوق الوالدين، ورمي المحصنة، وتعلم السحر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم».

وأبو يعلى: «يُبعث يوم القيامة قوم من قبورهم تأجج أفواهُهُم ناراً» فقيل: من هم يا رسول الله؟ قال: ألم تر أن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا

يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِم ناراً﴾[١].

وفي حديث المعراج عند مسلم: «فإذا أنا برجالٍ قد وكِّلَ بهم رجالٌ يفكُّون لحاهم، وآخرون يجيئون بالصخور من النار فيقذفونها في أفواههم، فتخرج من أدبارهم. فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً».

وفي تفسير القرطبي: عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت ليلة أسري بي قوماً لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ مشافرهم، ثم يجعل في أفواههم صخراً من، نار تخرج من أسافلهم، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هم الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً».



(١) سورة النساء، الآية: ١٠.

٥٦ ـ باب: في بيان ذم الكبر

نذكر ممّا ورد في ذمّ الكِبْرِ زيادةً على ما تقدّم، لشؤمه وسوء عاقبته، فهو أول معصية وقعت من إبليس فلعنه الله وطرده من جنة عرضها السموات والأرض إلى عذاب السعير.

ففي الحديث القدسي: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحد منهما قصمته[١] ولا أبالي.

وورد: يُحشر المتكبّرون أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، ويسقون من طينة الخبال، وهي عصارة أهل النار.

وقال ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم. شيخ زان، وملك جائر، وعائل[٢] مستكبر».

وعن عمر رضي الله عنه أنه قرأ قوله تعالى: ﴿وإذا قِيلَ له اتَّقِ الله أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإِثمِ﴾[٣].

فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، قام رجلٌ يأمر بالمعروف فقتل، فقام آخر فقال: تقتلون الذين يأمرون بالمعروف فقتل المتكبّر الذي خالفه، والذي أمره، كِبراً.

وقال ابن مسعود: كفى بالرجل إثماً إذا قيل له: اتَّق الله، قال: عليك نفسك.

وقال ﷺ لرجل: «كُلْ بيمينك» قال: لا أستطيع. فقال النبيّ ﷺ: «لا استطعت» فما منعه إلا كبره. قال: فما رفعها بعد ذلك. أي اعتلّت يده.

ورُوي أن ثابت بن قيس بن شماس، قال: يا رسول الله إني امرؤ حُبّبَ إلي من

---

(١) قصمته: أهلكته.

(٢) عائل: فقير.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٦.

الجمال ما ترى، أفمن الكبر هو؟ فقال ﷺ: «لا. ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس».

أي ازدراهم واستحقرهم، وهم عباد الله أمثاله أو خير منه.

وقال وهب بن منبه: لمّا قال موسى عليه السلام لفرعونَ: آمنْ ولك مُلْكُكَ، قال: حتى أُشاور هامانَ. فشاور هامان، فقال هامان: بينما أنت ربٌّ تُعْبَد، إذ أنت عبدٌ تَعْبُد. فاستنكف عن عبوديته، وعن اتباع موسى، فأغرقه الله.

وقال نفرٌ من قريش، فيما أخبر الله عنهم: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القُرْآنُ على رَجُلٍ من القَرْيَتَيْنِ عَظِيم﴾[1].

قال قتادة: عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة، وأبو مسعود الثقفي، طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي ﷺ إذ قالوا: غلامٌ يتيم كيف بعثه الله إلينا؟ فقال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾[2] ثم أخبرهم الله عن تعجبهم حين دخلوا النار، إذ لم يروا فيها الذين أزدروهم، كأهل الصفة، فقالوا: ﴿مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرارِ﴾[3] قيل: يعنون عمّاراً، وبلالاً، وصُهيباً، والمقداد رضي الله عنهم.

قال وهب رضي الله عنه: العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها، فتحوّله على قدر طعومها، فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة. فكذلك العلم يحفظه الرجال على قدر هممهم وأهوائهم، فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً. وذلك لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبّر به، فازداد كبراً، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله، فازداد علماً، علم أن الحجّة قد تأكّدت عليه، فيزداد خوفاً وإشفاقاً وتواضعاً.

ولذلك قال ﷺ فيما رواه العباس رضي الله عنه: «يكون قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم. يقولون: قد قرأنا القرآن فمن أقرأ منا؟ ومن أعلم منّا؟» ثم التفت إلى أصحابه وقال: «أولئك منكم أيها الأمة، أولئك هم وقود النار».

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

(٣) سورة ص، الآية: ٦٢.

وقال عمر رضي الله عنه: لا تكونوا جبابرة العلماء، فلم يف علمكم بجهلكم.

رُوي أن رجلاً من بني اسرائيل يقال له: خليع بني اسرائيل لكثرة فساده؛ مرَّ برجل آخر يقال له: عابد بني إسرائيل. وكان على رأس العابد غمامة تظلّه، فلمّا مرَّ المخليع به. قال الخليع في نفسه: أنا خليع بني إسرائيل، وهذا عابد بني إسرائيل، فلو جلست إليه لعل الله يرحمني، فجلس إليه. فقال العابد. أنا عابد بني إسرائيل وهذا خليع بني إسرائيل، فكيف يجلس إلي؟ فأنف منه. وقال له: قم عني فأوحى الله إلى نبي ذلك الزمان. مُرْهُمَا فليستأنفا العمل، فقد غفرتُ للخليع، وأحبطتُ عمل العابد.

وفي رواية أخرى: فتحوّلت الغمامة إلى رأس الخليع. وهذا يعرِّفُك أن الله تعالى إنّما يريد من العباد قلوبهم.

رُوي أن رجلاً ذُكِرَ بخيرٍ للنبيِّ ﷺ فأقبل ذات يوم، فقالوا: يا رسول الله هذا الذي ذكرناه لك. فقال: «إني أرى في وجهه سفعة من الشيطان» فسلَّم، ووقف على النبيِّ ﷺ فقال له النبيُّ ﷺ: «أسألك بالله حدَّثتك نفسُك أن ليس في القوم أفضل منك؟» قال: اللَّهُمَّ نعم. فرأى رسول الله ﷺ بنور النبوَّةِ ما استكنَّ في قلبه سفعة في وجهه.

قال الحارث بن جزء الزبيدي صاحب رسول الله ﷺ: يُعجبني من القرّاء كلّ مِضحاك، فأمّا الذي تلقاه ببشرٍ، ويلقاكَ بعبوس يَمنُّ عليك بعلمه، فلا أكثر الله في المسلمين مثله.

رُوي عن أبي ذرّ رضي الله عنه أنه قال: قاولت رجلاً عند النبي ﷺ فقلت له: يا ابن السوداء. فقال النبي ﷺ: «يا أبا ذر، طفَّ الصاع، طفَّ الصاع، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل» فقال أبو ذر رحمه الله: فاضطجعتُ، وقلتُ للرجل: قُمْ، فَطَأْ على خدّي.

وقال عليّ كرّم الله وجهه: من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار، فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام.

وقال أنس: لم يكن شخصٌ أحبَّ إلى أصحابه من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له، لما يعلمون من كراهته لذلك.

وكان رسول الله ﷺ في بعض الأوقات يمشي مع بعض الأصحاب، فيأمرهم بالتقدّم، ويمشي في غمارهم، إما لتعليم غيره أو لينفي عن نفسه وساوس الشيطان بالكبر والعجب، كما أخرج الثوب الجديد في الصلاة، وأبدله بالخليع. لأحد هذين المعنيين.



٥٧ ـ باب: في بيان فضل التواضع والقناعة

قال رسول الله ﷺ: «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه».

وقال ﷺ: «ما من أحد إلا ومعه ملكان وعليه حكمةٌ يمسكانه بها، فإن هو رفع نفسه جبذاها، ثم قالا: اللهمَّ ضَعْه، وإن وضع نفسه قالا: اللهم ارفعه».

وقال ﷺ: «طوبى لمن تواضع في غير مسكنةٍ، وأنفق مالاً جمعه في غير معصية، ورحم أهل الذل والمسكنة، وخالط أهل الفقه والحكمة».

وروي أنَّ النبي ﷺ كان في نفر من أصحابه في بيته يأكلون، فقام سائل على الباب وبه زمانة[1] يتكرّه منها، فأذن له فلما دخل أجلسه رسول الله ﷺ على فخذه، ثم قال له: «اطعم». فكأن رجلاً من قريش اشمأز[2] منه وتكرهه، فما مات ذلك الرجل حتى كانت به زمانة مثلها.

وقال ﷺ: «خيَّرني ربّي بين أمرين: أكونَ عبداً رسولاً، أو ملكاً نبيّاً فلم أدر أيُّهما أختار، وكان في صفيي من الملائكة جبريل، فرفعت رأسي إليه. فقال: تواضع لربّك. فقلت: عبداً رسولاً».

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: إنّما أقبلُ صلاة من تواضع لعظمتي، ولم يتعاظم على خلقي، وألزم قلبه خوفي.

وقال ﷺ: «الكرم التقوى، والشرف التواضع، واليقين الغنى».

وقال المسيح عليه السلام: طوبى للمتواضعين في الدنيا، هم أصحابُ المنابر يوم القيامة، طوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا، هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا، هم الذين ينظرون إلى الله تعالى يوم القيامة.

---

(١) زمانَة: أي عاهة.

(٢) إشمأز: أي تعفف منه. وكرهه.

وقال بعضهم: بلغني أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا هدى الله عبداً للإسلام، وحسَّن صورته، وجعله في موضع غير شائن له، ورزقه مع ذلك تواضعاً، فذلك من صفوة الله».

وقال ﷺ: «أربعٌ لا يعطيهنَّ الله إلاَّ من أحبَّ: الصمت، وهو أول العبادة، والتوكّل على الله، والتواضع، والزهد في الدنيا».

ويُروى: أنَّ رسول الله ﷺ كان يطعم، فجاء رجل أسود به جدريٌّ، قد تقشّر، فجعل لا يجلس إلى أحدٍ إلاَّ قام من جنبه، فأجلسه النبيُّ ﷺ إلى جنبه وقال: «إنه ليعجبني أن يحمل الرجل الشيءَ في يده، يكون مهنة لأهله، يدفع به الكبر عن نفسه».

وقال ﷺ لأصحابه يوماً: «مالي لا أرى عليكم حلاوة العبادة؟» قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال: «التواضع».

وقال: «إذا رأيتم المتواضعين من أمّتي فتواضعوا لهم، وإذا رأيتم المتكبّرين فتكبَّروا عليهم، فإن ذلك مَذَلَّةٌ لهم وصغَارٌ».

ومن أحسن ما قيل شعراً:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه ... على طبقات الجو وهو وضيع

ومما جاء في فضل القناعة زيادة على ما تقدّم:

قال ﷺ: «عِزُّ المؤمن استغناؤه عن الناس» ففي القناعة الحريّة والعزُّ. ولذلك قيل: استغن عمن شئت تكن نظيره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره. قليل يكفيك خير من كثير يطغيك.

وقال بعضهم: ما رأيت غنى أفضل من القناعة، ولا فقراً أشد من الرغبة. وأنشد:

أفادتني القناعة ثوب عزٍّ ... وأيُّ غنى أعزُّ من القناعةْ
فصيّرها لنفسك رأس مالٍ ... وصيّر بعدها التقوى بضاعةْ
تجدْ ربحين تَغنى عن خليلٍ ... وتَنعُمُ في الجنان بصبر ساعةْ

وقال آخر:

قنّع النفسَ بالكفافِ وإلاّ طلبتْ منك فوقَ ما يكفيها
إنَّما أنت طول عُمْرِك ما عمَّرت في الساعة التي أنت فيها

وقال آخر:

إذا الرزقُ عنك نأى[1] فاصطبرْ ومنه اقتنعْ بالذي قد حصَلْ
ولا تُتْعب النفس تحصيله فإن كان ثَمَّ نصيبٌ وصلْ

وقال آخر:

إذا أعطشتك أكفُّ اللئام كفتك القناعةُ شبعاً وريّا
فكن رجلاً رِجله في الثرى[2] وهامةُ هِمَّتِه في الثُريا

وقال آخر:

يا طالب الرزق الهنّي بقوة هيهات أنت بباطلٍ مشغوفُ
رعت الأسودُ بقوةٍ جِيَف[3] الفلا ورعى الذبابُ الشهدَ وهو ضعيف

وكان رسول الله ﷺ إذا أصابته خصاصة، قال لأهله: «قوموا إلى الصلاة» ويقول: «أمرت بهذا»، ويقرأ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[4] الآية.

وأنشدوا:

دع التهافت في الدنيا وزينتها ولا يغرنّك الإكثار والجشعُ
واقنع بما قسم الرحمنُ وارضَ به إنّ القناعة مالٌ ليس ينقطعُ
وخلِّ عنك فضول العيش أجمَعها فليس فيها إذا حقّقتَ منتفعُ

ولبعضهم:

اقنعْ بما تلقى بلا بلغة فليس ينسى ربُّنا النملة

---

(١) نأى: ابتعد.
(٢) الثرى: الأرض.
(٣) جيف: جمع جيفة وهي جثة الميت إذا أنتنت.
(٤) سورة طه، الآية: ١٣٢.

إن أقبل الدهر فقم قائماً وإن تولى مُدبراً. نَمْ لَهْ

ومن كلام الحكماء: ليست العزّة في حسن البزة[1]، فإن التنعّم بلبس الثياب، والتجمل بحسن الزيّ، يشغل العبد، حتى لا يعبأ بشيء من أمر دينه، ميلاً لدنياه، وقلما يخلو صاحبه من العجب. وأنشد بعضهم:

رضيتُ من الدنيا بلقمة بائس ولُبْس عباء. لا أريد سواهما
لأني رأيتُ الدهر ليس بدائمٍ فدهري وعُمري فانيان كلاهما



(١) البزّة: أي الثياب.

٥٨ ـ باب: في بيان غرور الدنيا

جميع أحوال الدنيا مصروفةٌ إلى ما يسوء ويسرُّ، فليست مساعدةً لجميع أهلها، وإنما هي متلوّنة، على ما اقتضته حكمة الحكيم. قال سبحانه: ﴿ولا يَزالونَ مُخْتَلفينَ * إلاّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ﴾[1]. قال بعض المفسرين: مختلفين في الرزق، يريد اختلافهم في الغنى والفقر.

فمن الواجب على من ساعدته دنياه وأخدمها له مولاه، أن يتلقى ذلك بشكره، ويتوجه إليه بصنائع المعروف فإنها تقي مصارع السوء، ولا يغتر بدنياه وكفى بقوله تعالى: ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنيا وَلا يَغُرَّنَّكُم بالله الغَرُورُ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ولَكِنَّكُمْ فَتَنْتُم أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُم وارتَبْتُم وغَرَّتْكُمُ الأمانِيُّ﴾[3] الآية. تنفيراً عن الغرور بها.

وقال ﷺ: «حبّذا نومُ الأكياس[4] وفطرُهم، كيف يَغبطون سهر الحمقى واجتهادهم، ولمثقالُ ذرةٍ من صاحب تقوى ويقين، أفضل من ملء الأرض من المغترّين».

وقال ﷺ: «الكيّسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والأحمقُ من أتبع نفسه هواها، وتمنّى على الله الأماني».

وقال الشاعر:

ومن يحمدُ الدنيا لشيءٍ يسرُّه فسوف لعمري عن قليل يلومها
إذا أدبرت كانتْ على المرء حسَرة وإن أقبلتْ كانتْ كثيراً همومها

وقال آخر:

---

(١) سورة هود، الأيتان: ١١٨، ١١٩.
(٢) سورة فاطر، الآية: ٥.
(٣) سورة الحديد، الآية: ١٤.
(٤) الأكياس: العقلاء مفردها كيّس.

تالله لو كانتِ الدنيا بأجمعها تبقى علينا ويأتي رزقُها رَغَدا
ما كان في حقّ حرٍّ أن يذلّ لها فكيف وهي متاعٌ يضمحلُّ غدا

وأنشد ابن بسام:

أفٍّ للدنيا وأيامها فإنها للحزن مخلوقه
غمومها لا تنقضي ساعةً عن مَلِك فيها ولا سُوقه
يا عجباً منها ومن شأنها عدوةٌ للناس معشوقه

وأنشد آخر:

وقائلةٍ أرى الأيام تُعطي لئام الناس مِنْ رزق حثيث
وتمنع من له شرفٌ وفضلٌ فقلت لها: خُذي أصل الحديث
رأت جُلَّ المكاسبِ من حرامٍ فجادت بالخبيث على الخبيثِ

وأنشد آخر أيضاً:

سلِ الأيام ما فعلت بكسرى وقيصرَ والقصورَ وساكنيها
أما استدعتهمْ للبين طُرّاً فلم تدعِ الحليم ولا السفيها

وحُكي أن أعرابياً نزل بقوم، فقدَّموا إليه طعاماً، فأكل، ثم نامَ في ظلِّ خيمتهم. فاقتلعوا الخيمة، فأصابه حر الشمس، فانتبه فارتحل. وهو يقول:

إلا إنَّما الدُّنيا كظلِّ بنيَّةٍ ولا بُدَّ يوماً أنَّ ظلَّك زائلُ

وقال أيضاً:

ألا إنّما الدُّنيا مقِيلٌ[١] لراكب قضى وطراً[٢] من منزلٍ ثم هَجَّرا[٣]

وقال بعضُ الحكماء لصاحب له: قد أسمعك الداعي، وأعذر إليك الطالب، ولا أحد أعظم رزيةً ممن ضيَّعَ اليقين، وأخطأ العمل.

وقال ابن مسعود: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً.

---

(١) مقيل: أي مكان القيلولة وهي الراحة وقت الظهيرة.
(٢) قضى وطراً: أي قضى حاجته.
(٣) هَجَّرا: أي استأنف السير في شدة الحر.

وقال رسول الله ﷺ: «من أحبَّ الدنيا وسُرَّ بها، ذهب خوفُ الآخرة من قلبه».

وقال بعضهم: إن العبدَ يحاسب على التحزُّن على ما فاته من الدنيا، ويحاسب بفرحه في الدنيا، إذا قدر عليها، ولقد كان السلف الصالح فيما أُحلَّ لهم، أزهد منكم فيما حرِّم عليكم، إن الذي لا بأس به عندكم كان من الموبقات عندهم.

وكان عمر بن عبد العزيز كثيراً ما يتمثّل بهذه الأبيات، وهي لمسعر ابن كِدَام:

نهارُك يا مغرورٌ نومٌ وغفلةٌ ... وليلُك نومٌ والرَّدى[1] لك لازِمُ
يَغُرُّك ما يفنى وتفرحُ بالمُنى ... كما غُرَّ باللذاتِ في النوم حالم
وشُغلُكَ فيها سوف تكرهُ غبّه[2] ... كذلك في الدنيا تعيش البهائم



(١) الردىٰ: الموت.
(٢) غبّه: عاقبته، وآخره.

٥٩ ـ باب: في بيان ذم الدنيا والتحذير منها

روي عن أبي أُمامة الباهلي: أنّ ثعلبة بن حاطبٍ قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً. قال: «يا ثعلبةُ، قليلٌ تؤدي شكره، خيرٌ من كثير لا تطيقه» قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقني مالاً. قال: «يا ثعلبة، أمالك فيَّ أسوة؟ أما ترضى أن تكون مثل نبي الله تعالى؟ أما والذي نفسي بيده لو شئتُ أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة لسارت» قال: والذي بعثك بالحقّ نبيّاً، لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأعطينَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ.

قال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة مالاً» فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحّى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يُصلّي الظهر والعصر في الجماعة، ويدعُ ما سواهما، ثم نمت وكثرت، فتنحّى حتى ترك الجماعة إلاّ الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود، حتى ترك الجمعة، وطَفِقَ يلقى الرُّكبانَ يوم الجمعة فيسألهم عن الأخبار في المدينة، وسأل رسول الله ﷺ عنه. فقال: «ما فعل ثعلبة بن حاطب»؟ فقيل: يا رسول الله اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة. وأُخبر بأمره كلِّه، فقال: «يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة ويا ويح ثعلبة».

قال: «وأنزل الله تعالى: **﴿خُذْ مِن أموالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرهُم وتُزَكّيهم بها وصلِّ عَلَيهم إنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لهم﴾**[١] وأنزل الله تعالى فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلاً من جُهينة ورجلاً من بني سُلَيم على الصدقة، وكتب لهما كتاباً بأخذ الصدقة، وأمرهما أن يخرجا فيأخذا الصدقة من المسلمين، وقال: «مُرّا بثعلبة بن حاطب، وبفلانٍ ـ رجل من بني سليم ـ وخذا صدقاتهما» فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة. وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ فقال: ما هذه إلاّ جزيةٌ، ما هذه إلا جزيةٌ، ما هذه إلا أُخت الجزية، انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إليّ، فانطلقا نحو السليمي، فسمع بهما، فقام إلى أخيار أسنان إبله، فعزلها للصدقة. ثم استقبلهما بهما، فلما رأياها قالا: لا يجب عليها ذلك، وما

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

نريد أن نأخذ هذا منك. قال: بلى خذاها نفسي بها طيّبة، وإنما هي لتأخذاها.

فلما فرغا من صدقاتهما رجعا حتى مرا بثعلبة. فسألاه الصدقة. فقال: أرياني كتابكما. فنظر فيه فقال: هذه أخت الجزية. انطلقا حتى أرى رأيي.

فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ، فلما رآهما قال: «يا ويح ثعلبة» قبل أن يكلّماه، ودعا للسُّليمي، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة، وبالذي صنع السُّليمي، فأنزل الله تعالى في ثعلبة: **﴿وَمِنهُم مَنْ عَاهَدَ الله لَئِن آتانا من فَضْلِه لَنصدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالحين * فَلَمّا آتاهُم من فَضْلِهِ بَخِلوا به وتَوَلَّوا وهُم مُعرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً في قُلُوبِهِم إلى يَوم يَلْقَونَهُ بمَا أخلفُوا الله ما وَعَدوهُ وبما كانُوا يَكْذِبُون﴾**[1] وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من أقارب ثعلبة، فسمع ما أنزل الله فيه، فخرج حتى أتى ثعلبة. فقال: لا أم لك يا ثعلبة، قد أنزل الله فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى النبيَّ ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: «إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك» فجعل يحثو التراب على رأسه. فقال له رسول الله ﷺ: «هذا عملك أمرتك فلم تُطعني» فلمّا أبى أن يقبل منه شيء، رجع إلى منزله، فلما قُبِضَ رسول الله جاء بها إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فأبى أن يقبلها منه، وجاء بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأبى أن يقبلها منه، وتوفي ثعلبة بعد خلافة عثمان.

وقد رُوي عن جرير عن ليث قال: صَحِب رجل عيسى بن مريم عليه السلام فقال: أكون معك وأصحبك. فانطلقا حتى انتهيا إلى شطّ نهرٍ، فجلسا يتغدّيان، ومعهما ثلاثة أرغفة، فأكلا رغيفين، وبقي رغيف ثالث، فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب، ثم رجع، فلم يجد الرغيف، فقال للرجل: من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري. قال: فانطلق ومعه صاحبه، فرأى ظبية ومعها خشفان[2] لها، فدعا أحدهما فأتاه فذبحه، فاشتوى منه فأكل هو وذاك الرجل، قال للخِشْف: قم بإذن الله. فقام فذهب، فقال للرجل: أسألك بالذي أراك هذه الآية، من أخذ الرغيف؟ فقال: لا أدري، ثم انتهيا إلى وادي ماء فأخذ عيسى بيد الرجل، فمشيا على الماء.

---

(١) سورة التوبة، الآيات: ٧٥ ـ ٧٧.

(٢) الخشفان: تثنية مفردها: خشف وهو الظبي الصغير.

فلما جاوزه، قال له: أسألك بالذي أراك هذه الآية. من أخذ الرّغيف؟ فقال: لا أدري.

فانتهيا إلى مفازة فجلسا فأخذ عيسى عليه السلام يجمع تراباً وكثيباً. ثم قال: كن ذهباً بإذن الله تعالى. فصار ذهباً، فقسمه ثلاثة أثلاثٍ ثم قال: ثلث لي، وثلث لك، وثلث لمن أخذ الرغيف. فقال: أنا الذي أخذت الرغيف. فقال: كله لك.

وفارقه عيسى عليه السلام، فانتهى إليه رجلان في المفازة ومعه المال، فأرادا أن يأخذاه منه، ويقتلاه، فقال: هو بيننا أثلاثاً، فابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشتري لنا طعاماً نأكله. قال: فبعثوا أحدهم، فقال الذي بُعث: لأي شيءٍ أُقاسمُ هؤلاء هذا المال؟ لكني أضع في الطعام سُمّاً فأقتلهما، وآخذُ المال وحدي. قال: ففعل، وقال ذلك الرجلان: لأي شيءٍ نجعل لهذا ثلث المال؟ ولكن إذا رجع قتلناه، واقتسمنا المال بيننا. قال: فلما رجع إليهما قتلاه، وأكلا الطعام فماتا فبقي ذلك المالُ في المفازة، وأولئك الثلاثة عنده قتلى، فمرَّ بهم عيسى عليه السلام على تلك الحالة. فقال لأصحابه: هذه هي الدنيا، فاحذروها.

وحُكي أن ذا القرنين أتى على أمّةٍ من الأمم، ليس بأيديهم شيءٌ مما يستمتع به الناس من دنياهم، وقد احتفروا قبوراً فإذا أصبحوا تعهدوا تلك القبور وكنسوها، وصلّوا عندها، ورعوا البقل كما ترعى البهائم، وقد قُيِّض لهم في ذلك معايش من نبات الأرض، وأرسل ذو القرنين إلى ملكهم، فقال له: أجبْ ذا القرنين. فقال: ما لي إليه حاجة، فإن كان له حاجة فليأتني. فقال ذو القرنين: صدق. فأقبلَ ذو القرنين. وقال له: أرسلتُ إليك لتأتيني، فأبيتَ فها أنا قد جئت. فقال: لو كان لي إليك حاجةٌ لأتيتك. فقال له ذو القرنين: مالي أراكم على حالةٍ لم أرَ أحداً من الأمم عليها؟ قال: وما ذاك؟ قال: ليس لكم دنيا ولا شيء. أفلا اتخذتم الذهب والفضة، فاستمتعم بهما؟ قال: إنما كرهناهما. لأن أحداً لم يعط منهما شيئاً، إلا تاقت[1] نفسه، ودعته إلى ما هو أفضل منه.

فقال: ما بالكم قد احتفرتم قبوراً، فإذا أصبحتم تعهدتموها، فكنستموها، وصلّيتم

---

(١) تاقت: اشتاقت.

عندها؟ قال: أردنا إذا نظرنا إليها وأمّلنا الدنيا منعتنا قبورُنا من الأمل. قال: وأراكم لا طعامَ لكم إلاّ البقل من الأرض أفلا اتّخذتم البهائم من الأنعام فاحتلبتموها وركبتموها فاستمتعتم بها؟ قال: كرهنا أن نجعل بطوننا قبوراً لها، ورأينا في نبات الأرض بلاغاً، وإنّما يكفي ابن آدم أدنى العيش من الطعام، وأيُّ ما جاوز الحنك من الطعام، لم نجد له طعماً كائناً ما كان من الطعام، ثم بسط ملك تلك الأرض يده خلف ذي القرنين فتناول جمجمة، فقال: يا ذا القرنين، أتدري من هذا؟ قال: لا، ومن هو؟ قال: ملك من ملوك الأرض، أعطاه الله سلطاناً على أهل الأرض، فغشم وظلم وعتا[1]، فلما رأى الله سبحانه ذلك منه حسمه بالموت، فصار كالحجر الملقى، وقد أحصى عليه عمله حتى يجزيه به في آخرته.

ثم تناول جمجمةً أخرى باليةً، فقال: يا ذا القرنين، هل تدري من هذا؟ قال: لا أدري، ومن هو؟ قال: هذا ملك ملكه الله بعده، قد كان يرى ما يصنع الذي قبله بالناس من الغشم والظلم والتجبّر، فتواضع وخشع لله عزّ وجلّ، وأمر بالعدل في أهل مملكته، فصار كما ترى، قد أحصى الله عليه عمله، حتى يجزيه به في آخرته، ثم أهوى إلى جمجمة ذي القرنين فقال: وهذه الجمجمة ستصير كهذين، فانظر يا ذا القرنين ما أنت صانع. فقال له ذو القرنين: هل لك في صحبتي فاتخذك أخاً ووزيراً وشريكاً فيما آتاني الله من هذا المال؟ قال: ما أصلح أنا وأنت في مكان، ولا أن نكون جميعاً. قال ذو القرنين: ولِمَ؟ قال من أجل أنَّ الناس كلَّهم لك عدوٌّ، ولي صديق. قال: ولِمَ؟ قال: يعادونك لما في يديك من الملك والمال والدنيا، ولا أجد أحداً يُعاديني لرفضي لذلك، ولما عندي من الحاجة وقلّةِ الشيء. قال: فانصرف عنه ذو القرنين متعجباً منه، ومتّعظاً به.

وما أحسن قول القائل:

يا مَنْ تمتع بالدنيا وزينتها ... ولا تنامُ عن اللّذات عيناه
شغلتَ نفسك فيما ليس تدركه ... تقول لله ماذا حين تلقاه؟

وقال الآخر:

---

(١) عتا: عُتواً وعُتِيّاً: استكبر وجاوز الحد.

عتبتُ على الدنيا لرفعة جاهل وتأخير ذي فضلٍ فقالت: خذ العذرا
بنو الجهل أبنائي لهذا.رفعتُهم وأهل التقى أبناءُ ضَرَّتي الأُخرى

وقول محمود الباهلي:

إلا إنّما الدنيا على المرء فتنةٌ[1] على كلِّ حالٍ أقبلت أو تولَّت
فإن أقبلتْ فاستقبل الشكر دائماً ومهما تولتْ فاصطبر وتثبّت



(١) فتنة: اختبار وامتحان.

٦٠ ـ باب: في فضل الصدقة

قال ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيّبٍ ـ ولا يقبلُ الله إلاّ طيّباً ـ فإنَّ الله يقبلها بيمينه ـ أي متلبسة بيمينه، وبركته ـ ثم يربّيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه ـ بفتح فضم فتشديد مهر أول ما يولد «حتى تكون مثل الجبل».

وفي رواية: «كما يربّي أحدكم مهره حتى أن اللقمة لتصير مثل أحد» وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبادِهِ ويأْخُذُ الصّدقاتِ﴾[١] ﴿يَمْحَقُ الله الرِّبَا ويُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[٢]. «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلاّ عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل».

وفي رواية للطبراني: «ما نقصتْ صدقة من مال، وما مدَّ عبدٌ يده لصدقةٍ إلاّ أُلقيت في يد الله ـ أي إلاّ قبلها الله تعالى، ورضي بها ـ قبل أن تقعَ في يد السائل، وما فتح عبدٌ باب مسألة له عنها غنىً إلا فتح الله له باب فقرٍ.

يقول العبد: مالي مالي، وإنّما من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى، وما سوى ذلك هو ذاهب وتاركه للناس».

وفي الخبر: «ما منكم من أحدٍ إلاّ سيكلّمه الله ليس بينه وبينه تُرجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلاّ ما قدّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلاّ ما قدّم، وينظرُ بين يديه فلا يرى إلاّ النار تلقاء وجهه، فاتّقوا النّارَ ولو بشق تمرة»[٣].

وفي الخبر أيضاً: «ليق أحدكم وجهه من النار ولو بشق تمرة».

وقال ﷺ: «الصدقة تطفيءُ الخطيئة كما يُطفيءُ الماء النار، يا كعب بن عُجْرَةَ، إنه لا يدخلُ الجنة لحمٌ ودمٌ نبتا على سُحْتٍ، النار أولى به، يا كعب بن عُجْرَةَ، الناس

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٦.

(٣) بشق: أي جزء من التمرة.

غاديان فغاد في فكاك نفسه فمعتقها، وغادٍ موبقها، يا كعب بن عُجْرَةَ، الصلاة قربات، والصوم جُنَّةٌ[1]، والصدقة تُطفىء الخطيئة كما يذهب الجليد على الصفا».

وفي روايةٍ: «كما يُطفىء الماء النارَ، إنَّ الصَّدقة لتُطفىء غضب الربِّ، وتدفع ميتة السُّوءِ».

وفي روايةٍ: «إن الله ليدرأُ ـ أي يدفع ـ بالصدقة سبعينَ باباً من ميتة السوء».

وفي الحديث: «كلُّ امرىءٍ في ظلِّ صدقته، حتى يُقْضى بين الناس».

وفي آخر: «لا يُخرجُ رجلٌ شيئاً من الصدقة حتى يفكَّ عنها لحى سبعين شيطانا».

وقيل: يا رسولَ الله أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «جُهْدُ المُقِلِّ، وابدأ بمن تعول».

وقال ﷺ: «درهم سبق مئة الف درهم» فقال رجل: كيف ذاك يا رسول الله؟ فقال: «رجلٌ له مالٌ كثيرٌ أخذ من عُرضه ـ بضم أوّله المهمل، وبالضاد المعجمة أي جانبه ـ مئة ألف درهم وتصدَّق بها، ورجل ليس له إلاّ درهمان، فأخذ أحدهما فتصدَّق به».

وقال ﷺ: «لا تردَّ سائلك ولو بِظِلْفٍ» هو بكسر أوله المعجم للبقر والغنم بمنزلة الحافر للفرس.

«سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه» إلى أن قال: «ورجلٌ تصدّق بصدقةٍ، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

«صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السرّ تُطفىءُ غضبَ الربِّ. وصلة الرحم تزيد في العمر».

وفي روايةٍ للطبراني: «صنائع المعروف تقي مصارع السُّوء، والصدقة خفياً تُطفىء غضب الربِّ، وصلةُ الرَّحم تزيد في العمر، وكلُّ معروفٍ صدقة، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة، وأهلُ المنكر في الدنيا هم أهل المنكر في الآخرة، وأول من يدخل الجنة أهل المعروف».

وفي أُخرى له، ولأحمد: ما الصَّدقة يا رسول الله؟ قال: «أضعافٌ مضاعفةٌ، وعند

---

(١) جُنَّة: وقاية.

الله المزيد» ثم قرأ: ﴿مَنْ ذا الَّذي يُقْرِضُ الله قَرضاً حَسَناً فيُضاعِفَهُ له أضْعافاً كَثيرَةً﴾[1] قيل: يا رسول الله، أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: «سرٌّ إلى فقير، أو جُهدٌ من مُقِلٍّ»، ثم قرأ: ﴿إنْ تُبْدوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هي وإن تُخْفُوها وتُؤتُوها الفُقَراء فَهو خَيْرٌ لَكُمْ﴾[2] أيما مسلم كسا مُسلماً ثوباً لم يزلْ في ستر الله تعالى ما دام عليه من خيط أو سلكٍ، أيُّما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عُرْيٍ، كساه الله تعالى من خضر الجنة، وأيُّما مسلم أطعم مسلماً على جوعٍ أطعمه الله تعالى من ثمار الجنة، وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمإ، سقاه الله تعالى من الرحيق المختوم، الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي رحمٍ ثنتان، صدقة وصلة».

أيُّ الصَّدقة أفضل؟ قال: «على ذي الرَّحم الكاشح» أي المضمر لعداوتك في كشحه، أي خصره، كنايةٌ عن باطنه.

«من منح منيحة لبنٍ ـ أي بأن أعطى لبوناً لمن يأكلُ لبنها ثم يردّها ـ أو وَرِقٍ ـ أي بأن أقرضَ دراهمَ ـ أو هدى رفاقاً ـ أي إلى الطريق ـ كان له مثل عتق رقبةٍ».

«وكلُّ قرضٍ صدقةٌ».

وفي رواية عند جماعة: «رأيتُ ليلة أُسري بي على باب الجنة مكتوباً الصدقةُ بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر، من يسَّرَ على مُعْسرٍ يسَّرَ الله عليه في الدنيا والآخرة».

أيُّ الإسلام خير؟ قال: «تُطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

أنبئني عن كلِّ شيء. قال: «كلُّ شيء خُلق من الماء». فقلت: أخبرني بشيء إذا عملته دخلتُ الجنّة قال: «أطعم الطعام، وأفش السلام، وصل الأرحام، وصلِّ بالليل والناسُ نيام؛ تدخل الجنة بسلام».

«اعبدوا الرحمن، وأطعموا الطعام، وأفشوا السلام؛ تدخلوا الجنة بسلام».

من موجبات الرحمة إطعام المسلم المسكين: «من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧١.

من الماء حتى يرويه، باعده الله من النار سبع خنادق، ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام».

«إن الله عز وجل يقول يوم القيامة: يا ابن آدم، مرضتُ فلم تعدني[١]. قال: كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟

يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني، قال: يا ربِّ وكيف أسقيك وأنت ربُّ العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي؟».



(١) تعدني: تزرني.

٦١ ـ باب: في قضاء حاجة أخيه المسلم

قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا على البرِّ والتَّقْوى﴾[(١)].

وقال ﷺ: «من مشى في عون أخيه ومنفعته، فله ثوابُ المجاهدين في سبيل الله».

وقال رسول الله ﷺ: «إن لله خلقاً خلقهم لقضاء حوائج الناس، آلى على نفسه ألاّ يعذّبهم بالنار، فإذا كان يوم القيامة وضِعتْ لهم منابرُ من نورٍ، يحدّثون الله تعالى والناس في الحساب».

وقال رسول ﷺ: «من سعى لأخيه المُسلم في حاجةٍ فقُضيتْ له، أو لم تُقْضَ، غفر الله له ما تقدّم من ذنبه، وما تأخّر، وكُتب له براءتان: براءةٌ من النار، وبراءةٌ من النفاق».

وقال رسول الله ﷺ: «من قضى لأخيه المسلم حاجةً كنتُ واقفاً عند ميزانه، فإن رجحَ وإلاّ شفعتُ له» رواه أبو نعيم في «الحلية».

وعن أنسٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى في حاجة أخيه المسلم كتَب الله له بكلِّ خطوةٍ سبعين حسنة، وكفَّر عنه سبعين سيّئةً فإن قُضيت حاجتُهُ على يديه، خرج من ذنوبه كيومَ ولدته أُمُّه، فإن مات في خلال ذلك دخلَ الجنّة بغير حساب».

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من مشى مع أخيه المسلم في حاجة فناصحه فيها، جعل الله بينه وبين النار سبع خنادق، ما بين الخندق والخندق كما بين السماء والأرض».

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله عند أقوامٍ نعماً يقرُّها عندهم ما داموا في حوائج الناس، ما لم يملّوا، فإذا ملّوا نقلها إلى غيرهم».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما يقولُ الأسد

---

(١) سورة المائدة، الآية ٢.

في زئيره؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «يقول: اللهم لا تُسلّطني على أحدٍ من أهل المعروف».

وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: يرفعه: «إذا أراد أحدُكم الحاجة فليبكرْ لها يوم الخميس، وليقرأ إذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران، وآية الكرسي، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[1] وأمَّ الكتاب، فإن فيها حوائجَ الدنيا والآخرة».

وعن عبد الله بن الحسن رضي الله عنهم قال: أتيت باب عمر بن عبد العزيز في حاجةٍ، فقال: إذا كانت لك حاجةٌ إليّ فأرسل رسولاً أو اكتبْ لي كتاباً، فإني لأستحي من الله أن يراك ببابي.

وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: والذي وَسعَ سمعُه الأصوات، ما من أحد أودعَ قلباً سروراً إلاّ خَلَقَ تعالى من ذلك السرور لُطفاً فإذا نزلت به نائبة[2] جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه، كما تطرد غريبة الإبل.

وقال أيضاً: فوت الحاجة أهون من طلبها إلى غير أهلها.

وعنه أيضاً قال: «لا تكثر على أخيك الحوائج، فإن العجل إذا أفرط في مص ثدي أمه نطحته.

وما أحسن قول الشاعر:

لا تقطعنْ عادةَ الإحسانِ عن أحدٍ ... ما دمت تقدرُ والأيام تاراتُ
واذكر فضيلةَ صنُع الله إذ جَعلتْ ... إليك لا لك عند الناس حاجاتُ

وقول الآخر:

اقضِ الحوائج ما استطعت ... وكنْ لهمِّ أخيك فارجْ
فَلَخَيرُ أيام الفتى ... يومٌ قضى فيه الحوائجْ

وقال ﷺ: «طوبى لمن أجري الخير على يديه، وويل لمن أُجري الشرُ على يديه».

---

(١) سورة القدر، الآية: ١.
(٢) نائبة: مصيبة.

٦٢ ـ باب: في فضل الوضوء

قال رسول الله ﷺ: «من توضّأ فأحسن الوضوء وصلّى ركعتين لم يحدّث نفسه فيهما بشيءٍ من الدنيا خرجَ من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه».

وفي لفظ آخر: «ولم يسهُ[1] فيهما، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذنبه».

وقال ﷺ أيضاً: «ألا أنبئكم بما يكفّرُ الله به الخطايا ويرفعُ الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره[2]، ونقلُ الأقدام إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرِّباط». (ثلاث مرات).

وتوضأ ﷺ مرّةً مرّةً، وقال: «هذا وضوءٌ لا يقبل الله الصلاة إلاّ به» ثم توضّأ مرّتين مرّتين فقال: «من توضأ مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين» وتوضّأ ثلاثاً ثلاثاً وقال: «هذا وضوئي، ووضوءُ الأنبياء من قبلي، ووضوء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام».

وقال ﷺ: «من ذكر الله عند وضوئه، طهَّر الله جسده كلَّه، ومن لم يذكرِ الله لم يطهِّرْ منه إلا ما أصابَ الماء».

وقال ﷺ: «من توضّأ على طُهْرٍ كتب الله له به عشر حسنات».

وقال ﷺ: «الوضوء على الوضوء نور على نور».

وهذا كله حثٌّ على تجديد الوضوء وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا توضّأ العبدُ المسلم فتمضمض، خرجتِ الخطايا من فيه، فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه، حتى تخرجَ من تحت أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه، حتى تخرج من تحت أظفاره، فإذا مسحَ برأسه خرجت الخطايا من رأسه، حتى تخرج من تحت أذنيه، وإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه، حتى تخرج من تحت

---

(١) يسه: يغفل.

(٢) المكاره: أي ما يكرهه الإنسان وذلك بأن يتوضأ بالماء البارد في أيام الشتاء. وغير ذلك.

أظفار رجليه، ثم كان مشيه إلى المسجد وصلاته نافلة له».

ويُروى: أن الطاهر كالصائم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من توضَّأ فأحسنَ الوضوءَ، ثم رفعَ طرفَه إلى السماء فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّداً عبدُه ورسوله. فُتحتْ له أبوابُ الجنّة الثمانية، يدخلُ من أيّها شاء».

وقال عمر رضي الله عنه: إن الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان.

وقال مجاهد: من استطاع ألاّ يبيت إلاّ طاهراً ذاكراً مستغفراً فليفعل، فإن الأرواح تُبعثُ على ما قُبضت عليه.

ويُروى أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وجَّه[1] رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ إلى مصر لكسوةِ الكعبة، فنزل الرجلُ بعض أرضِ الشام إلى جانب صومعة حَبْرٍ من الأحبار، ولم يكن حَبْرٌ أعلم منه، فأحبَّ رسولُ عمر أن يلقاه، فيسمع منه علمه، فأتاه واستفتح باب داره، فلم يفتح له طويلاً، ثم دخل على الحبر، فسأله ليسمع منه، فأعجبه علمُه، فشكا إليه حبسه على بابه، فقال له الحبر: إنّا كنّا رأيناك حين عدلت إلينا على هيئة السلطان، فتخوفناك[2]، وإنما حبسناك على الباب، لأن الله تبارك وتعالى قال لموسى.

يا موسى إذا تخوفتَ سلطاناً، فتوضأ وأمر أهلك بالوضوء. فإن من توضأ كان في أماني مما يتخوّفُ، فأغلقنا دونك الباب حتى توضأتُ وتوضَّأ جميع من في الدار، وصلينا فأمناك لذلك، ثم فتحنا لك الباب.

---

(١) وجَّه: أرسل.
(٢) فتخوفناك: أي خِفْنا منك.

٦٣ ـ باب: في فضل الصلوات

لما كانتِ الصلاة أفضل العبادات، كرّرنا الحثَّ عليها اقتداءً بكتاب الله العزيز، فما ورد في فضلها زيادةً على ما تقدّم، قوله ﷺ: «ما أعطي عبدٌ عطاءً خيراً من أن يُؤذن له في ركعتين يصليهما».

قال محمد ابن سيرين رحمه الله تعالى: لو خيّرتُ بين ركعتين وبين الجنّةِ لاخترتُ الركعتين على الجنة؛ لأنَّ في الركعتين رضا الله تعالى، وفي الجنّة رضائي.

ويقال: إن الله تعالى لما خلق سبع سموات حشاها[1] بالملائكة، وتعبّدهم بالصلاة لا يفترون[2] ساعةً، فجعل لكلِّ أهل سماءٍ نوعاً من العبادة، فأهل سماءٍ قيام على أرجلهم إلى نفخة الصور، وأهل سماءٍ رُكَّعٌ، وأهل سماءٍ سُجَّدٌ، وأهل سماءٍ مرخية الأجنحة من هيبته تعالى، وأهل علّيين وأهل العرش وقوفٌ، يطوفون حولَ العرش، يسبّحون بحمد ربّهم ويستغفرونَ لمن في الأرض، فجمع الله ذلك كلَّه في صلاةٍ واحدة كرامةً للمؤمنين، حتى يكون لهم حظٌّ من عبادة أهل كلِّ سماء، وزادهم القرآن يتلونه فيها، فطلبَ منهم شكرها، وشكرُها إقامتها بشرائطها وحدودها، قال الله تعالى: ﴿**الَّذينَ يُؤمِنُونَ بالغَيْبِ ويُقيمُونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون**﴾[3] وقال: ﴿**وأقيمُوا الصَّلاة**﴾[4] وقال: ﴿**وأقِمِ الصَّلاة**﴾[5] وقال: ﴿**والمُقيمين الصَّلاة**﴾[6].

فلم تجد ذكر الصّلاة في موضع من التنزيل، إلاّ مع ذكر إقامتها، فلمّا بلغ ذكر

---

(١) حشاها: ملأها بالملائكة.

(٢) لا يفترون: لا يملّون ولا يتعبون.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٤٣.

(٥) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٦) سورة النساء، الآية: ١٦٢.

المنافقين. قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[١] فسمّاهم المصلين، وسمّى المؤمنين المقيمين الصلاة، وذلك ليُعلم أنَّ المصلين كثيرٌ، والمقيمين للصلوات قليل، فأهل الغفلة يعملون الأعمال على الترويح، ولا يذكرون يوم تعرض على الله، فتقبل أم تردّ.

ورُوي عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «إن منكم من يصلّي الصلاةَ فلا يُكتب له من صلاته إلاّ ثلثها أو ربعها أو خمسها أو سدسها، حتى ذكر عشرها». يعني أنه لا يُكتب له من صلاته إلا ما عقل منها.

ورُوي عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «من صلّى ركعتين مُقبلاً على الله بقلبه، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه».

وإنما عظم شأن صلاة العبد بإقبال العبد على الله، فإذا لم يُقبلْ على صلاته ولها[٢] بحديث النفس، كان بمنزلة من وقف باب ملك معتذراً من خطيئته وزلّته[٣]، فلمّا وصل إلى باب الملك قام بين يديه، وأقبل عليه الملك، فجعل الواقف يلتفت يميناً وشمالاً، فلم يقضِ الملك حاجته، وإنما يُقْبِلُ الملكُ عليه على قدر عنايته، فكذلك الصلاة، إذا دخل العبد فيها ولها عنها، لا تُقبل منه.

واعلم أن مثل الصلاة كمثل وليمة اتخذها ملك، وهيّأ فيها ألواناً من الأطعمة والأشربة لكلِّ لون لذَّة، وفي كلِّ لونٍ منفعة، ودعا الناس إليها، فكذلك الصلاة دعاهم الربُّ إليها، وهيّأ لهم فيها أفعالاً مختلفة، وأذكاراً متنوعة، فتعبَّدهم بها ليلذذهم بكلِّ لونٍ من العبودية، فالأفعال كالأطعمة، والأذكار كالأشربة.

وقد قيل: إن في الصلاة اثني عشرة ألف خصلة، ثم جُمعت هذه الاثنتا عشرة ألفاً في اثنتي عشرة خصلة، فمن أراد أن يُصلّي فلا بدَّ أن يتعاهد هذه الاثنتي عشرة خصلة، لتتم صلاته، فستة قبل الدخول في الصلاة وستة فيها:

أولها: العلم: لأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «عمل قليل في علم، خير من عمل كثير في جهل».

---

(١) سورة الماعون، الآيتان: ٤، ٥.

(٢) لها: من اللهو وهو الإنشغال بالنفس والدنيا.

(٣) زلّته: ذنبه وخطأه.

والثاني: الوضوء: لقولهﷺ: «لا صلاة إلاّ بطهور».

والثالث: اللباس لقوله تعالى: ﴿**خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾(١) يعني: البسوا ثيابكم عند كلّ صلاة.

والرابع: حفظُ الوقت: لقوله عزّ وجلّ: ﴿**إنَّ الصَّلاةَ كانت على المُؤمنينَ كتاباً مَوقوتاً**﴾(٢) يعني: فرضاً مؤقتاً.

والخامس: استقبال القبلة. لقوله عزّ وجلّ: ﴿**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَام وَحَيْثُ ما كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾(٣) يعني: نحوه.

والسادس: النيَّة: لقوله ﷺ: «إنّما الأعمال بالنيات، وإنّما لكلِّ امرىء ما نوى».

والسابع: التكبير: لقولهﷺ: «تحريمها التكبير وتحليلها التسليم».

والثامن: القيام: لقوله عزّ وجل: ﴿**وقوموا لله قانتِين**﴾(٤). يعني: صلوا قائمين.

والتاسع: الفاتحة: لقوله تعالى: ﴿**فاقْرَءُوا ما تَيَسَّرَ من القُرآنِ**﴾(٥).

والعاشر: الركوع: لقوله عزّ وجل: ﴿**وارْكَعُوا**﴾.

والحادي عشر: السجود: لقوله عز وجل: ﴿**واسجدوا**﴾.

والثاني عشر: القعود: لقوله ﷺ: «إذا رَفَع الرجل رأسه من آخر السجدة، وقعد قدر التشهّد فقد تمت صلاته».

فإذا وجدتَ هذه الاثنتا عشرة يحتاج إلى الختم، وهو الإخلاص، لتتم هذه الأشياء، لأن الله تعالى يقول: ﴿**فاعبد الله مُخلصاً له الدِّين**﴾(٦).

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣١.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(٥) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

(٦) سورة الزمر، الآية: ٢.

فأمّا العلم فعلى ثلاثة أوجه:

أولها: أن يعرف الفريضة من السنة.

والثاني: أن يعرف ما في الوضوء من الفريضة والسنة أيضاً، فإن ذلك من تمام الصلاة.

والثالث: أن يعرف كيد الشيطان، فيأخذ في محاربته بالجهد.

وأمّا الوضوء فتمامه في ثلاثة أشياء:

أولها: أن تُطهّر قلبك من الغل[1] والحسد والغشّ.

والثاني: أن تطهّر البدن من الذنوب.

والثالث: أن تغسل الأعضاء غسلاً سابغاً بغير إسراف في الماء.

وأمّا اللباس فتمامه بثلاثة أشياء:

أولها: أن يكون أصله من الحلال.

والثاني: أن يكون طاهراً من النجاسات.

والثالث: أن يكون موافقاً للسنة ولا يكون لبسه على وجه الفخر والخيلاء.

وأما حفظ الوقت ففي ثلاثة أشياء:

أولها: أن يكون بصرك إلى الشمس والقمر والنجوم تتعاهد حضور الوقت.

والثاني: أن يكون سمعُك إلى الآذان.

والثالث: أن يكون قلبك متفكّراً متعاهداً للوقت.

وأمّا استقبال القبلة فتمامه في ثلاثة أشياء:

أولها: أن تستقبل القبلة بوجهك.

والثاني: أن تُقْبِلَ على الله بقلبك.

والثالث: أن تكون خاشعاً ذليلاً.

---

(١) الغلّ: الحقد.

وأما النية فتمامها في ثلاثة أشياء:

أولها: أن تعلمَ أيَّ صلاة تُصلّي.

والثاني: أن تعلم أنك تقوم بين يدي الله تعالى وهو يراك، فتقوم بالهيبة[١].

والثالث: أن تعلم أنه يعلم ما في قلبك فتفرّغ قلبك من أشغال الدنيا.

وأما التكبير فتمامه في ثلاثة أشياء:

أولها: أن تكبر صحيحاً جزماً.

والثاني: أن ترفع يديك حذاء[٢] أذنيك.

والثالث: أن يكون قلبك حاضراً فتكبّر مع التعظيم.

وأمّا تمام القيام ففي ثلاثة أشياء:

أولها: أن تجعلَ بصرك في موضوع سجودك.

والثاني: أن تجعل قلبك إلى الله.

والثالث: ألاّ تلتفتَ يميناً ولا شمالاً.

وأمّا تمام القراءة ففي ثلاثة أشياء:

أولها: أن تقرأ فاتحة الكتاب قراءة صحيحة بالترتيل بغيرِ لحنٍ.

والثاني: أن تقرأ بالتفكّر، وتتعاهد معانيها.

والثالث: أن تعمل بما تقرأ.

وأمّا تمام الركوع ففي ثلاثة أشياء:

أولها: أن تبسطَ ظهرك ولا تنكّسه ولا ترفعه.

والثاني: أن تضع يديك على ركبتيك وتفرّج به أصابعك.

والثالث: أن تطمئنَّ راكعاً وتسبّح التسبيحات مع التعظيم والوقار.

وأمّا تمام السجود ففي ثلاثة أشياء:

---

(١) بالهيبة: بالخشوع.

(٢) حِذاء: مقابل بمحاذاة. ومساواة.

أولها: أن تضعَ يديك بحذاء أذنيك.

والثاني: ألاّ تبسط ذراعيك.

والثالث: أن تطمئنَّ فيه وتسبّح مع التعظيم.

وأمّا تمام الجلوس ففي ثلاثة أشياء:

أولها: أن تقعد على رجلك اليسرى، وتنصب اليمنى نصباً.

والثاني: أن تتشهّد بالتعظيم، وتدعو لنفسك وللمؤمنين.

والثالث: أن تسلّمَ على التمام.

وأمّا تمام السّلام: فأن يكون مع النيّة الصادقة من قلبك. أن سلامك على من كان عن يمينك من الحفظة والرجال والنساء، وكذلك عن يسارك، ولا تجاوز بصرك عن منكبيك.

وأمّا تمام الإخلاص ففي ثلاثة أشياء:

أولها: أن تطلب بصلاتك رضا الله تعالى، ولا تطلب رضا الناس.

والثاني: أن ترى التوفيق من الله تعالى.

والثالث: أن تحفظها حتى تذهب بها يوم القيامة. لأن الله تعالى قال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ﴾[1] ولم يقلْ، من عمل بالحسنة.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

٦٤ ـ باب: في بيان أهوال[١] القيامة

روي أنَّ عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة؟.

قال: «أمّا عند ثلاثة مواضع فلا: عند الميزان حتى يعلمَ إما أن يخِفَّ، وإمّا أن يثقُل، وعند تطاير الصُحف إمّا أن يُعطى كتابه بيمينه، وإمّا أن يُعطى كتابه بشماله، وحين يَخْرُجَ عُنُق[٢] من النار فينطوي عليهم، ويقول: وكّلت بثلاثة، وكّلتُ بمن دعا مع الله إلهاً آخر، وبكلِّ جبّارٍ عنيدٍ، وبكلٍّ من لا يؤمن بيوم الحساب، فينطوي عليهم حتى يَرمي بهم في غمرات جهنم، ولجهنّم جسرٌ أدقّ من الشعر، وأحدُّ من السيف؛ عليه كلاليبُ وحسكٌ، والناس يمرّون عليه كالبرق الخاطف، وكالريح العاصف. . . » الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما فرَغَ الله من خلق السموات والأرض خلق الصُور، فأعطاه إسرافيلَ فهو واضعه على فيه شاخصاً[٣] ببصره إلى العرش، ينتظر متى يؤمر».

قال: قلتُ: يا رسول الله، وما الصُور؟ قال: «قرن من نور» قلت: يا رسول الله، كيف هو؟ قال: «عظيم الدارة، والذي بعثني بالحقِّ نبيّاً لعظم دارته كعرض السماء والأرض، يُنفخ فيه ثلاث نفخات.

نفخة للفزع، ونفخة للصعق، ونفخة للبعث، فتخرج الأرواح كأنها النحل قد ملأت ما بين السماء والأرض، فتدخل في الأجساد من الخياشيم. ثم قال النبي ﷺ: «أنا أوّلُ من تنشقُّ عنه الأرض».

وفي خبر آخر: «إذا أحيا الله تعالى جبريل وميكائيل وإسرافيل فينزلون إلى قبر

---

(١) أهوال: جمع هول وهو الفزع، والأمر المخيف.

(٢) عُنُق: طائفة.

(٣) شاخصاً: رافعاً.

النبي ﷺ ومعهم البُراق، وحُللٌ من الجنة، فتنشَقُّ عنه الأرض، فينظر النبي ﷺ إلى جبريل فيقول: يا جبريل، ما هذا اليوم؟ فيقول له: هذا يوم القيامة، هذا يوم الحاقة، هذا يوم القارعة، فيقول: يا جبريل، ما فَعل الله بأمتي؟ فيقول له جبريل: أبشر فإنك أوّلُ من تنشقُّ عنه الأرض».

وروي عن أبي هريرة أنه ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول: يا معشر الجن والإنس أني نصحت لكم، فإنما هي أعمالكم في صُحُفكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلاّ نفسه».

وذُكر عن يحيى بن معاذ الرازي أنه قُرىء في مجلسه **﴿يَوْمَ نَحْشُرُ المُتَّقِينَ إلى الرَّحْمَن وفداً﴾** أي ركباناً **﴿وَنَسُوقُ المُجْرِمِينَ إلى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾**[1] يعني مشاة عِطاشاً، فقال: أيُّها الناس مهلاً مهلاً غداً تُحشرون إلى الموقف حَشراً، وتأتون من الأطراف فوجاً فوجاً، وتقفون بين يدي الله فرداً فرداً، وتُسألون عمّا فعلتم حرفاً حرفاً، وتُقاد الأولياء إلى الرحمن وفداً وفداً، ويردُ العاصون إلى عذاب الله ورداً، ويدخلون جهنم حزباً حزباً.

إخواني: أمامكم يومٌ **﴿كان مقْدارُهُ خَمْسِينَ ألْف سَنَة﴾**[2] مما تعدُّون، يوم الراجفة، يوم الآزفة، يوم يقوم الناس لربِّ العالمين، يوم الحسرة والندامة، يوم المناقشة، يوم المحاسبة، يوم المساءلة، يوم الصيحة، يوم الحاقة، يوم القارعة، يوم النشور، **﴿يَوْمَ يَنْظُرُ المَرْءُ ما قَدَّمتْ يَدَاهُ﴾**[3] يوم التغابن **﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾**[4] **﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مالٌ ولا بَنُونَ * إلاّ مَنْ أتَى الله بقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾**[5] **﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالمينَ مَعْذِرَتُهُم وَلَهُمُ اللَّعنةُ ولهم سُوءُ الدَّارِ﴾**[6].

وقال مقاتل بن سليمان: تقف الخلائق يوم القيامة مئة سنةٍ لا يتكلمون، ومئة سنة في الظُلمة متحيّرون، ومئة سنة يموج بعضهم في بعض عند ربِّهم يختصمون، وإن يوم

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٨٥، ٨٦.
(٢) سورة المعارج، الآية: ٤.
(٣) سورة النبأ، الآية: ٤٠.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٠٦.
(٥) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.
(٦) سورة غافر، الآية: ٥٢.

القيامة على طوله خمسين ألف سنة مما تعدُّون، ليمضيَ على المؤمن المخلص كأخفِّ صلاةٍ مكتوبة.

وقال ﷺ: «لا تزول قدماً عبدٍ حتى يُسأل عن أربعة أشياء: عن عمره فيمَ أفناه، وعن جسده فيمَ أبلاه، وعن علمه فيمَ عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه».

ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «لم يكن نبيٌ قطُّ إلاّ كانت دعوته مستجابة، فعجّلها في الدنيا، وإني خبأتُ دعوتي وشفاعتي لأمتي يوم القيامة».

اللهم شفّعه فينا بجاهه عندك ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم.



٦٥ ـ باب: في صفة جهنم والميزان

لا بأس بذكر ذلك، وإن تقدّم التنبيه على بعضه، تتميماً للفائدة، لعلّ تكرر المواعظ ينفع القلوبَ الغافلة الفاسدة، لا سيّما وقد عظّم الله سبحانه وتعالى هول جهنّم، وأحوال القيامة في كتابه في غير موضع، بما يقع في قلوب العاقلين أعظم موقع، تنبيهاً على أن ما سوى ذلك هيّن، والآخرة خير وأبقى.

أما صفة جهنم أعاذنا الله منها بمنّه وكرمه فقد روي في الحديث: «إن جهنم سوداء مظلمة لا ضوء لها ولا لهب، لها سبعة أبواب على كلّ باب سبعون ألف جبل، في كلّ جبل سبعون ألف شعبٍ من نار، في كلّ شعبٍ سبعون ألف شقٍّ من نار، في كل شقٍّ سبعون ألف وادٍ من نار، وفي كلّ وادٍ سبعون ألف قصر من نار، في كلّ قصر سبعون ألف بيت من نار، في كلّ بيتٍ سبعون ألف حيّة، وسبعون ألف عقرب، لكلّ عقرب سبعون ألف ذنبٍ، لكلّ ذنب سبعون ألف فقار، في كلّ فقار سبعون ألف قلّةٍ من سمٍّ، فإذا كان يوم القيامة كُشف عنها الغطاء، فيطير منها سرادق عن يمين الثقلين[١]، وسرادق آخر عن يسارهم، وسرادق أمامهم، وسرادق من فوقهم، وآخر من ورائهم، فإذا نظر الثقلان إلى ذلك جثوا[٢] على الرُّكب، وصاروا ينادون كلهم: ربِّ سلّم».

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «يُؤتى بجهنم يوم القيامة لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرّونها».

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال في عظم خزنة جهنم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿غِلاظٌ شِدادٌ﴾[٣]: «كلُّ ملك ما بين منكبيه مسيرة سنة، ولكلٍّ واحد منهم قوةٌ لو أنه ضرب بالمقمع الذي في يده جبلاً لصار دكّاً، فيدفع بكلّ ضربة سبعين ألفاً في قعر

---

(١) الثقلين: الإنس والجن.

(٢) جثوا: من جثا بمعنى قعد على ركبتيه.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.

جهنم».

وأمّا قوله تعالى: ﴿عليها تِسْعَةَ عَشَرَ﴾[1] فالمُراد بهم: رؤساء الزبانية، وإلاّ فملائكة النار لا يعلم عددهم إلا الله، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاّ هُوَ﴾[2].

وسُئل ابن عبّاس رضي الله عنه عن سَعَة جهنم فقال: والله ما أدري ما سعتها، ولكن بلغنا أن بين شحمة أذن كلِّ واحدٍ من الزبانية وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفاً ـ يعني سبعين سنة ـ وأنها تجري فيها أودية القيح والدم.

وفي حديث التِّرمذي: «إن كثافة كلِّ سرادق من سرادقات النار ـ أي كثافة جداره ـ مسيرة أربعين سنة».

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزءٌ من سبعين جزءاً من حرِّ جهنم» قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية. فقال: «إنها فَضُلَت[3] عليها بتسعةٍ وستين جزءاً، كلها مثل حرِّها».

وقال ﷺ: «لو أن جهنمياً من أهل جهنم أخرج كفَّه إلى أهل الدنيا لاحترقت الدنيا من حرِّها، ولو أن خازناً من خزنة جهنم أُخرج إلى أهل الدنيا حتى يبصروه لمات أهل الدنيا حين يبصرونه من غضب الله تعالى الذي عليه».

وروى مسلم، وغيره أن رسول الله ﷺ كان جالساً مع أصحابه، إذ سمع وَجْبَةً فقال النبي ﷺ: «أتدرون ما هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «هذا حجر رُمي به في نار جهنم منذ سبعين خريفاً، فهو يهوي في النار الآن حين انتهى إلى قعرها» والوجبة هي الهدَّة، وهي صوت وقع الثقيل.

وكان عمر بن الخطاب يقول: أكثروا ذكر النار، فإن حرَّها شديد، وقعرها بعيد، وإن مقامعها من حديد.

وكان ابن عباس يقول: إن النار تلتقط أهلها كما يلتقط الطائر الحبَّ.

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٣٠.
(٢) سورة المدثر، الآية: ٣١.
(٣) فضلت: زادت.

وسئل رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾[1] فهل للنار عينان؟ فقال: نعم. أما سمعتم قوله ﷺ: «من كذَب عليّ مُتعمداً فليتبوأ بين عيني جهنم مقعداً» قيل: يا رسول الله، ولها عينان؟ قال: «أما سمعتم قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ الحديث، ويؤيده حديث «يخرج عُنُق من النار له عينان يُبصران ولسان ينطق به فيقول: إني وكّلتُ اليوم بمن جعل مع الله إلهاً آخر، فلهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه».

وأما صفة الميزان فقد ورد في الحديث: إن كفَّة الحسنات من نور، وكفَّةَ السيئات من ظلام.

وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «إن الجنة تُوضع عن يمين العرش، والنار عن يساره، وكفَّة الحسنات عن يمينه، وكفة السيئات عن يساره» فتكون الجنة مقابلة الحسنات، والنار مقابلة السيئات».

وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «تُوزنُ الحسنات والسيئات في ميزان له كفتان ولسان، وكان يقول: «إذا أراد الله وزن أعمال العباد قلبها أجساماً فيزنها يوم القيامة».

(١) سورة الفرقان، الآية: ١٢.

٦٦ ـ باب: في بيان ذم الكبر والعجب[١]

اعلم ـ أرشدني الله وإيّاك لخير الدنيا والآخرة ـ أن الكِبْرَ والإعجاب يسلبان الفضائل، ويكسبان الرذائل، وحسبك من رذيلة تمنع سماع النصح، وقبول التأديب، ولذلك قالوا: العلم يضيع بين الحياء والكِبْر. العلم حرب المتعالي، كما أن السيل حرب للبناء العالي.

قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ حبة من كِبْر».

وقال ﷺ: «من جرّ ثوبه خيلاء، لا ينظر الله إليه».

وقال الحكماء: لا يدوم الملك مع الكِبْر.

وقد قرن الله سبحانه وتعالى الكِبْر بالفساد، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجعَلُها للذين لا يُريدونَ عُلُوّاً في الأرضِ ولا فَساداً﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَن آياتي الَّذينَ يَتَكَبَّرونَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾[٣].

قال بعض الحكماء: ما رأيتُ متكبّراً إلا تحوَّل ما به بي. يعني أتكبَّرُ عليه. وكان ابن عوانة من أقبح الناس كِبْراً روي أنه قال لغلامه: اسقني ماء. فقال: نعم. فقال: إنّما يقول نعم من يقدر أن يقول لا، اصفعُوه فصُفعَ.

ودعا أكّاراً فكلّمه، فلما فَرَغَ دعا بماء فتمضمض به استقذاراً لمخاطبته.

ويقال: فلان وضع نفسه في درجة، لو سقط منها لتكسّرَ.

قال الجاحظ: المشهورون بالكِبْر من قريشٍ بنو مخزوم، وبنو أُميّة، ومن العرب بنو جعفر بن كلاب وبنو زُرارة بن عدي.

---

(١) العُجْبُ: هو الكِبْر والزّهو.

(٢) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

وأمّا الأكاسرة فكانوا لا يعدُّون الناس إلا عبيداً، وأنفسهم إلاّ أرباباً.

وقيل لرجل من بني عبد الدار: ألا تأتي الخليفة؟ فقال: أخاف ألاّ يحمل الجسر شرفي.

وقيل للحجّاج بن أرطَاة: مالك لا تحضر الجماعة؟ قال: أخشى أن يزاحمني البقالون.

وقيل: أتى وائل بن حجر إلى النبي ﷺ فأقطعه أرضاً وقال لمعاوية: «اعرض هذه الأرض عليه واكتبها له» فخرج معه معاوية في هاجرةٍ شديدة، ومشى خلف ناقته فأحرقه حرُّ الشمس فقال له: اردفني[1] خلفك على ناقتك. قال: لستَ من أرداف الملوك. قال: فأعطني نعليك. قال: ما بخلٌ يمنعني يابن أبي سفيان. ولكنْ أكره أن يبلغَ أقيال اليمن أنك لبستَ نعلي، ولكن امشِ في ظلِّ ناقتي فحسبك شرفاً.

وقيل: إنه لحق زمن معاوية ودخل عليه فأقعده معه على السرير وحدّثه.

وقال المسرور بن هند لرجل: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا المسرور بن هند. قال: ما أعرفك. فقال: فتعساً لمن لم يعرف القمر. وفي مثله: يقول الشاعر:

قولا لأحمق يلوي التيه أخدعه ... لو كنت تعلم ما في التيه لم تته
التيه مفسدةٌ للدِّين منقصةٌ ... للعقل مهلكةٌ للعرض فانتبه

وقيل: لا يتكبَّر إلاّ كلُّ وضيعٍ، ولا يتواضع إلا كلُّ رفيع.

وقال ﷺ: «ثلاث مهلكات: شحٌ مطاع، وهوىً متَّبعٌ، وإعجاب المرء بنفسه».

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: إن نوحاً عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه وقال: إني آمركما باثنتين، وأنهاكما عن اثنتين: أنهاكما عن الشرك والكبْر، وآمركما بلا إله إلا الله، فإن السموات والأرض وما فيهن لو وُضعت في كفَّة الميزان، ولا إله إلاّ الله في الكفَّة الأخرى كانت لا إله إلاّ الله أرجحَ منها، ولو أن السموات والأرض كانتا في حلقة، فوضعت لا إله إلا الله عليهما لقصمتهما، وآمركما

---

(١) اردفني: أجلسني خلفك.

بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كلِّ شيء، وبها يرزق كلُّ شيء».

وقال عيسى عليه السلام: طوبى لمن علّمه الله كتابه، ولم يمت جباراً.

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أنه مرّ في السوق، وعليه حزمةٌ من حطبٍ، فقيل له: ما يحملك على هذا، وقد أغناك الله عن هذا؟ قال: أردت أن أدفع الكِبْر عن نفسي.

وفي تفسير القرطبي في قوله تبارك وتعالى: ﴿ولاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهنَّ﴾[1] إن فعلنه تبرّجا[2] وتعرّضا للرجال حرم، وكذا من ضرب بنعله من الرجال عجباً، حرم لأن العجب كبيرة.



(١) سورة النور، الآية: ٣١.

(٢) التبرج: هو أن تظهر المرأة زينتها ومحاسنها لغير زوجها.

٦٧ ـ باب: في الإحسان إلى اليتيم واجتناب الظلم

أخرج البخاري: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهذين» وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى وفرّج بينهما.

ومسلم: «كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة» وأشار مالك بالسبّابة والوسطى.

والبزار: «من كفل يتيماً له ذو قرابةٍ أو لا قرابة له، فأنا وهو في الجنة كهاتين» وضم أصبعيه، «ومن سعى على ثلاث بنات فهو في الجنة، وكان له كأجر المجاهد في سبيل الله صائماً قائماً».

وابن ماجه: «من عال ثلاثةً من الأيتام كان كمن قام ليله، وصام نهاره، وغدا وراح شاهراً سيفه في سبيل الله، وكنتُ أنا وهو في الجنة أخوين، كما أن هاتين أختان» وألصق أصبعيه السبّابة والوسطى.

والترمذي وصححه: «من قبض يتيماً من بين مسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الجنة البتّة إلاّ أن يعمل ذنباً لا يُغفر له».

وفي رواية سندها حسن: «حتى يستغني عنه، وجبت له الجنة البتّة».

وابن ماجه: «خير بيتٍ في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشرُّ بيتٍ في المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه».

وأبو يعلى بسند حسن: «أنا أوّل من يفتح باب الجنّة إلاّ أني أرى امرأة تُبادرني. فأقول: مالك؟ ومن أنت؟ تقول: أنا امرأة قعدت على أيتام لي».

والطبراني بسندٍ رواته ثقات إلاّ واحداً، ومع ذلك ليس بالمتروك: «والذي بعثني بالحقّ لا يُعذّبُ الله يوم القيامة من رحم اليتيم، وألانَ له في الكلام ورحم يتمه وضعفه، ولم يتطاول على جاره بفضل ما آتاه الله».

وأحمد، وغيره: «من مسح على رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كانت له في كلّ شعرةٍ

مرّت عليها يده حسنات، ومن أحسن إلى يتيم أو يتيمة عنده كنتُ أنا وهو في الجنة كهاتين. . . » الحديث.

وأخرج جماعةٌ وصححه الحاكم: «إن الله تعالى قال ليعقوب: إن سبب ذهاب بصره وانحناء ظهره وفعلَ إخوة يوسف به ما فعلوا أنه أتاه يتيمٌ مسكين صائم جائع، وقد ذبح هو وأهله شاةً فأكلوها، ولم يطعموه، ثم أعلمه الله تعالى بأنه لم يحبَّ شيئاً من خلقه حبَّه لليتامى والمساكين، وأمره أن يصنع طعاماً، ويدعو المساكين، ففعل».

والشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «السّاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله تعالى» وأحسبه قال: «وكالقائم لا يفتر، وكالصائم لا يفطر».

وابن ماجه: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، وكالذي يقوم بالليل ويصوم النهار».

قال بعض السلف: كنت في بَدْء أمري سكّيراً مكبّاً على المعاصي، فرأيت يوماً يتيماً فأكرمته كما يُكرم الولد بل أكثر، ثم نمتُ، فرأيت الزبانية أخذوني أخذاً مزعجاً إلى جهنم، وإذا باليتيم قد اعترضني. فقال: دعوه حتى أُراجع ربِّي فيه، فأبوا.

فإذا النداء: خلوا عنه. فقد وهبنا له ما كان منه بإحسانه إليه، فاستيقظت وبالغت في اكرام اليتامى من يومئذ.

وكان لبعض مياسير العلويين بنات من علوية، فمات واشتد بهن الفقر، إلى أن رحلن عن وطنهنّ خوف الشماتة، فدخلن مسجد بلد مهجوراً فتركتهنّ أمهنّ فيه، وخرجت تحتال لهن القوت، فمرّت بكبير البلد، وهو مسلم، فشرحت له حالها فلم يُصدِّقها.

وقال: لا بدَّ أن تقيمي عندي البيّنة بذلك. فقالت: أنا غريبة فأعرض عنها، ثم مرّت بمجوسي فشرحت له حالها فصدَّقَ، وأرسل بعض نسائه فأتت بها وببناتها إلى داره، فبالغ في إكرامهن، فلما مضى نصف الليل رأى ذلك المسلم القيامة قد قامت، والنبي ﷺ معقوداً على رأسه لواء الحمد، وعنده قصر عظيم. فقال: يا رسول الله، لمن هذا القصر؟ قال: لرجل مسلم. قال: أنا مسلم موحد. قال ﷺ: أقم عندي البيّنة

بذلك. فتحيّر، فقص له ﷺ خبر العلوية، فانتبه الرجل في غاية الحزن والكآبة، إذ ردَّها، ثم بالغ في الفحص عنها، حتى دُلَّ عليها بدار المجوسي، فطلبها منه فأبى، وقال: قد لحقني من بركاتهن. فقال: خذ ألف دينار وسلمهنَّ إليَّ. فأبى، فأراد أن يُكرهه فقال: الذي تريده أنا أحقُّ به، والقصر الذي رأيته في النوم خلق لي، أتفخر عليَّ بإسلامك، فوالله ما نمت وأنا وأهل داري حتى أسلمنا كلُّنا على يد العلوية، ورأيت مثل منامك، وقال لي رسول الله ﷺ: العلوية وبناتها عندك؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: القصر لك ولأهل دارك، فانصرف المسلم وبه من الكآبة والحزن ما لا يعلمه إلا الله تعالى.



٦٨ ـ باب: في أكل الحرام

قال الله تعالى: ﴿يا أيُّها الذين آمنُوا لا تَأكُلوا أموالَكُم بَيْنَكُم بالباطِلِ﴾[١] الآية. واختلفوا في المراد به فقيل: الرِّبا والقمار، والغصب والسرقة، والخيانة وشهادة الزور، وأخذ المال باليمين الكاذبة.

وقال ابن عباس: هو ما يؤخذ من الإنسان بغير عوض.

وعليه قيل: لما نزلت الآية تحرَّجوا من أن يأكلوا عند أحد شيئاً، حتى نزلت آية النور ﴿ولا عَلى أنْفُسِكُم أن تَأكُلُوا مِن بُيوتِكُمْ أو بُيوت آبائِكُم﴾[٢] إلى آخرها.

وقيل: هو العقود الفاسدة.

والوجه قول ابن مسعود: إنها مُحكمة ما نُسخت، ولا تُنسخ إلى يوم القيامة. انتهى.

وذلك لأن الأكلَ بالباطل يشمل كلَّ مأخوذٍ بغير حق، سواء كان على جهة الظلم كالغصب والخيانة والسرقة، أو الهزء واللعب كالمأخوذ بالقمار والملاهي. وسيأتي ذلك كله، أو على جهة المكر والخديعة كالمأخوذ بعقدٍ فاسد، ويؤيد ما ذكرته قول بعضهم: الآية تشمل أكل الإنسان مال نفسه بالباطل، بأن يُنفقه في محرّم، ومال غيره، كالأمثلة المذكورة، وقوله تعالى: ﴿إلاّ أنْ تَكُونَ تِجارةً﴾[٣] استثناء منقطع، لأن التجارة من جنس الباطل بأيِّ معنى أُريد به. وتأويله بالسبب: ليكون متصلاً ليس في محله. والتجارة وإن اختصّت بعقود المعاوضات، إلا أن نحو القرض والهبة ملحق بها، بأدلة أخرى وقوله تعالى: ﴿عَنْ تَراضٍ مِنكُم﴾[٤] أي: طيب نفسٍ على الوجه المشروع،

(١) سورة النساء، الآية: ٢٩.
(٢) سورة النور، الآية: ٦١.
(٣) سورة النساء، الآية: ٢٩.
(٤) سورة النساء، الآية: ٢٩.

وتخصيص الأكل فيها بالذكر ليس للتقييد به، بل لكونه أغلب وجوه الانتفاعات على حد ﴿إِنَّ الذين يأكلونَ أموالَ اليتامى ظُلماً إنَّما يأكلونَ في بطونهم ناراً﴾[1]، وأدلَّةُ هذا المبحث والتغليظات الواردة فيه من السنة كثيرة، فلنقتصر على بعضها.

أخرج مسلم، وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلاّ طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المُرسلين. فقال تعالى: ﴿يا أيُّها الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ واعْمَلُوا صَالحاً﴾[2] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الذين آمنوا كُلُوا مِن طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ﴾[3] ثم ذكر الرجل يُطيل السفر أشعث[4] أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء يا ربِّ يا ربِّ، ومطعَمُهُ حرامٌ، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنّى يُستجاب لذلك؟».

والطبراني بإسناد حسن: «طلب الحلال واجب على كلِّ مسلم».

والطبراني والبيهقي: «طلب الحلال فريضة بعد الفرائض».

والترمذي، وقال: حسن صحيح غريب، والحاكم وصحّحه: «من أكل طيّباً، وعمل في سنَّةٍ، وأمن الناسُ بوائقه، دخل الجنة» قالوا: يا رسول الله، إن هذا في أمتك اليوم كثير. قال: «وسيكون في قرون بعدي».

وأحمد، وغيره بإسناد حسن: «أربع إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظُ أمانةٍ، وصدق حديثٍ، وحسن خلقٍ، وعفّة في طعمة».

والطبراني: طوبى لمن طاب كسبه، وصلحت سريرته، وكرمت علانيته، وعزل عن الناس شره. طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله».

والطبراني: «يا سعد أطبْ مطعمكَ تكنْ مستجاب الدعوة، والذي نفسُ محمّد بيده، إن العبد ليقذفُ اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه عمل أربعين يوماً، وأيُّما عبدٍ

(١) سورة النساء، الآية: ١٠.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٥١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٢.
(٤) أشعث: أي المتسخ الشعر.

نبت لحمه من سُحْتٍ فالنار أولى به».

والبزار، وفيه نكارة: «إنه لا دينَ لمن لا أمانة له، ولا صلاة ولا زكاة، إنه من أصاب مالاً من حرام فلبس جلباباً ـ يعني قميصاً ـ لم تُقبل صلاتُه حتى يُنَحّى ذلك الجلباب عنه» إن الله تبارك وتعالى وأكرمُ وأجلُّ من أن يقبلَ عملَ رجلٍ أو صلاته وعليه جلبابٌ من حرام.

وأحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «من اشترى ثوباً بعشرة دراهم، وفيه درهمٌ من حرام لم يقبل الله عز وجل له صلاة ما دام عليه» ثم أدخل أصبعيه في أذنيه ثم قال: صُمَّتا إن لم يكن النبي ﷺ سمعته يقوله.

والبيهقي: «من اشترى سرقةً وهو يعلم أنّها سرقة فقد اشتركَ في عارها وإثمها» قال الحافظ المنذري: في إسناده احتمال للتحسين، ويشبه أن يكون موقوفاً.

وأحمد بسندٍ جيّد: «والذي نفسي بيده لان يأخذ أحدكم حبله فيذهب به إلى الجبل فيحتطب ثم يأتي فيحمله على ظهره فيأكل، خيرٌ له من أن يجعل في فيه ما حرّم الله عليه».

وابنا خُزيمة، وحِبّان في صحيحيهما، والحاكم: «من جمعَ مالاً حراماً ثم تصدَّق به لم يكن له فيه أجر، وكان إصره[1] عليه».

والطبراني: «من كسب مالاً حراماً فأعتق[2] منه، ووصل منه رحمه، كان ذلك إصراً عليه».

وأحمد، وغيره بسند حسَّنه بعضُهم: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يُعطي الدنيا من يحبُّ ومن لا يحبُّ، ولا يُعطي الدين إلا لمن يحبُّ، ومن أعطاه الله الدّين فقد أحبَّه، والذي نفسي بيده لا سلم أو لا يسلم عبدٌ حتى سلم أو يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يؤمن جاره بوائقه». قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: «غشّه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فيتصدّق منه فيُقبل منه، ولا يُنفق منه فيُبارك له فيه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله تعالى لا يمحو

(١) إصره: ذنبه وإثمه.
(٢) أعتق: أنفق.

السيِّيء بالسيِّيء، ولكن يمحو السيِّيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث».

والترمذي، وقال حسن صحيح غريب: سُئل ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ قال: «الفم والفرج» وسُئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ قال: «تقوى الله وحُسن الخلق».

والترمذي وصححه: «ما تزول قدماً عبد يوم القيامة حتى يُسألَ عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه؟».

والبيهقي: «الدنيا خَضِرَةٌ حُلوة، من اكتسب فيها مالاً من حلِّه، وأنفقه في حقِّه، أثابه الله عليه، وأورده جنته، ومن اكتسب فيها مالاً من غير حلِّه، وأنفقه في غير حقِّه، أورده الله دار الهوان، وربَّ متخوِّضٍ في مال الله، ورسوله له النار يوم القيامة، يقول الله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُم سَعِيراً﴾[1].

وابن حبّان في «صحيحه»: «لا يدخل الجنة لحمٌ ودمٌ نبتا من سُحتٍ، النار أولى به».

والترمذي: «لا يربو لحمٌ نبتَ من سُحْتٍ، إلا كانت النار أولى به». والسُّحْت: بضم فسكون أو ضم: الحرام، وقيل: الخبيث من المكاسب.

وفي روايةٍ بسند حسن: «لا يدخل الجنة جسد غُذيَ بحرام».

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٧.

٦٩ ـ باب: في النهي عن الربا

الآيات في النهي عن الربا كثيرة.

ومن الأحاديث ما رواه البخاري وأبو داود: «لعن رسول الله ﷺ الواشمة[١] والمستوشمة وآكلَ الربا ومُوكِلَه» ونهى عن ثمن الكلب وكَسبُ البغي، ولعن المصورّين.

وروى أحمد، وأبو يعلى، وابنا خزيمة وحِبّان في صحيحيهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبُه إذا علموا به، والواشمة والمستوشمة للحُسْنِ، ولاوي الصدقة[٢]، والمرتّد أعرابياً بعد الهجرة، ملعونون على لسان محمد ﷺ.

والحاكم وصححه: «أربع حقٌّ على الله ألاّ يدخلهم الجنة، ولا يُذيقهم نعيمها: مُدمن الخمر، وآكل الرِّبا، وآكل مال اليتيم بغير حقٍّ، والعاق لوالديه».

والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين: «الربا ثلاثة وسبعون باباً، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمَّه».

والبزار بسندٍ رواته رواة الصحيح: «الربا بضعٌ وسبعون باباً، والشرك مثل ذلك».
والبيهقي: «الربا سبعون باباً أدناها الذي يقعُ على أمِّه».

والطبراني في «الكبير» عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الدرهم يُصيبُه الرجل من الرِّبا أعظمُ عند الله من ثلاث وثلاثين زنية يزنيها في الإسلام» وفي سنده انقطاع.

ورواية ابن أبي الدنيا، والبغوي وغيرهما موقوفاً على عبد الله وهو الصحيح، وهذا الموقوف في حكم المرفوع لأن كون الدرهم أعظم وزراً من هذا العدد المخصوص من

---

(١) الواشمة: هي التي تغرز الإبرة في الجلد أو البدن وتضع فيه النيلج حتى يزرق أو يخضر.
(٢) لاوي الصدقة: المُطل بصدقته وتأخيرها.

الزنا لا يُدرك إلاّ بوحي، فكأنّه سمعه منه ﷺ، ولفظ الموقوف في أحد طرقه، قال عبد الله: الربا اثنان وسبعون حُوباً ـ بضم المهملة وبفتحها أي إثماً ـ أصغرها حوباً، كمن أتى أمّه في الإسلام، ودرهم من الربا أشدُّ من بضع وثلاثين زنية.

قال: ويأذن الله للبرّ والفاجر بالقيام يوم القيامة إلاّ آكل الربا، فإنه لا يقوم إلاّ كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المس.

وأحمد بإسناد جيّد عن كعب الأحبار قال: لأن أزني ثلاثاً وثلاثين زَنْيَةً أحبُّ إليَّ من أن آكل درهم ربا يعلم الله أني أكلته رباً.

وأحمد بسندٍ صحيح والطبراني أنه ﷺ قال: «درهم ربا يأكله الرجل وهو يعلم أشدُّ من ستٍ وثلاثين زنيةً».

وابن أبي الدنيا، والبيهقي خطبنا رسول الله ﷺ فذكر أمر الربا، وعظّم شأنه وقال: «إن الدرهم يُصيبُه الرجلُ من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ستٍ وثلاثين زنية يزنيها الرجل، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم».

والطبراني في «الصغير» و «الأوسط»: «من أعان ظالما بباطل ليدحض[1] به حقاً فقد برىء من ذمة الله وذمّة رسول الله ﷺ، ومن أكل درهماً من ربا فهو مثل ثلاثٍ وثلاثين زنية، ومن نبت لحمه من سُحتٍ فالنار أولى به».

والبيهقي: «إن الربا نيفٌ وسبعون باباً أهونهن باباً مثل من أتى أمّه في الإسلام، ودرهم من ربا أشدُّ من خمسٍ وثلاثين زنية» الحديث.

الطبراني في «الأوسط» من رواية عمرو ابن راشد، وقد وثّق: «الرِّبا اثنان وسبعون باباً أدناها مثل إتيان الرجل أمه، وأربى الربا استطالة الرجل في عرض أخيه».

وابن ماجه، والبيهقي عن أبي معشر وقد وثّق عن أبي سعيد المَقْبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الربا سبعون حوباً أيسرها أن ينكحَ الرجل أمّه».

والحاكم وصحّحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نهى رسول الله ﷺ أن

(١) ليدحض به حقاً: ليبطل به الحق ويقيم الحجة على البطلان.

تُشترى الثمرة حتى تعظم، وقال: «إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلُّوا بأنفسهم عذاب الله».

وأبو يعلى بإسناد جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ذكر حديثاً عن النبي ﷺ قال فيه: «ما ظهر في قوم الزنا والربا إلا أحلُّوا بأنفسهم عذاب الله».

وأحمد بإسناد فيه نظر: «ما من قوم يظهر فيهم الربا إلا أُخذوا بالسنَّة، وما من قوم يظهر فيهم الرشا إلا أُخذوا بالرعب» والسنة: العام المقحط نزل فيه غيث أم لا.

وأحمد في حديث طويل، وابن ماجه مختصراً، والأصبهاني: «رأيت ليلة أُسري بي لما انتهينا إلى السماء السابعة فنظرت فوقي فإذا أنا برعدٍ وبرقٍ وقواصفَ قال: فأتيتُ على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيَّات تُرى من خارج بطونهم، قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء أَكَلَةُ الربا».

والأصبهاني عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لما عُرج بي إلى السماء نظرتُ في سماء الدنيا فإذا رجالٌ بطونهم كأمثال البيوت العظام، قد مالت بطونهم وهم منضَّدون على سابلة آل فرعون موقوفون على النار كلَّ غداة وعشيٍّ يقولون: ربَّنا لا تقم الساعة أبداً. قلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء أكلة الربا من أُمتك، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبَّطه الشَّيطانُ منَ المسِّ». قال الأصبهاني: قوله «منضَّدون» أي مطروحون، أي طُرح بعضهم على بعض، و «السَّابلة» المارَّة، أي يطؤهم آل فرعون الذين يُعرضون على النار كلَّ غداة وعشيٍّ.

والطبراني بسندٍ صحيح: «بين يدي الساعة يظهر الزنا والربا والخمر».

والطبراني بسندٍ لا بأس به عن القاسم بن عبد الواحد الوزَّان قال رأيت عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه في سوق الصيارفة فقال: يا معشر الصيارفة أبشروا. قالوا: بشَّرك الله بالجنة، بماذا تبشرنا يا أبا محمد؟ قال: قال رسول الله ﷺ للصيارفة: «أبشروا بالنار».

والطبراني: «إياك والذنوبَ التي لا تُغتفر: الغلول، فمن غلَّ شيئاً يأتي به يوم القيامة، وأكل الربا، فمن أكل الربا بُعث يوم القيامة مجنوناً يتخبَّطُ، ثم قرأ ﷺ: ﴿الذينَ

﴿يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقومونَ إلاّ كما يَقُومُ الَّذي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ المَسِّ﴾[١].

والأصبهاني: «يأتي آكل الربا يوم القيامة مُخبّلاً ـ أي مجنوناً ـ يجرُّ شقّيه، ثم قرأ: ﴿لا يقومونَ إلاّ كما يقومُ الذي يتخبّطه الشيطانُ من المسِّ﴾.

وابن ماجه، والحاكم وصححه: «ما أحدٌ أكثر من الربا إلاّ كان عاقبة أمره إلى قلَّةٍ».

والحاكم وصححه أيضاً: «الربا وإن كثر فإنَّ عاقبته إلى قلٍّ».

وأبو داود، وابن ماجه كلاهما عن الحسن، عن أبي هريرة، واختُلف في سماعه منه، والجمهور على عدمه: «ليأتينَّ على الناس زمانٌ لا يبقى منهم أحد إلا أكل الربا، فمن لم يأكله أصابه من غباره».

وعبد الله بن أحمد في زوائد «المسند»: «والذي نفسي بيده ليبيتنَّ أناسٌ من أمتي على أشرٍ[٢] وبطرٍ[٣] ولهو ولعب، فيصبحوا قردةً وخنازير، باستحلالهم المحارم، واتخاذهم القينات[٤] وشربهم الخمر، وبأكلهم الربا ولبسهم الحرير».

وأحمد مختصراً، والبيهقي واللفظ له: «يبيت قوم من الأمة على طَعْمٍ وشرب ولهو ولعب، فيصبحون قد مُسخوا قردةً وخنازير، وليصيبنَّهم خسف وقذف، حتى يصبح الناس فيقولون: خُسِفَ الليلة ببني فلان، وخُسِفَ الليلة بدار فلان، ولترسلنَّ عليهم حجارةٌ من السماء كما أُرسلت على قوم لوط، على قبائل منها، وعلى دورٍ، بشربهم الخمر، ولبسهم الحرير، واتخاذهم القينات، وأكلهم الربا، وقطيعتهم الرحم» وخصلة نسيها راويه. القينات: جمع قينة وهي المغنية.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.
(٢) أشر: مرح ونشاط واستكبار.
(٣) بطر: هو المغالاة في المرح والزَّهو والاستخفاف بالنعمة.
(٤) القينات: المغنيات.

٧٠ ـ باب: في حقوق العبد

هي: أن تُسلِّم عليه إذا لقيته، وتجيبه إذا دعاك، وتشمِّته إذا عطس، وتعودَه[١] إذا مرض، وتشهد جنازته إذا مات، وتبرَّ قسمه إذا أقسم عليك، وتنصح له إذا استنصحك، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك، وتُحبَّ له ما تحبُّ لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك. ورد جميع ذلك في أخبار وآثار.

وقد روى أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أربع من حق المسلمين عليك: أن تُعين[٢] محسنهم، وأن تستغفر لمذنبهم، وأن تدعو لمدبرهم، وأن تحب تائبهم».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[٣] قال: يدعو صالحهم لطالحهم، وطالحهم لصالحهم، فإذا نظر الطالح إلى الصالح من أمّة محمد ﷺ قال: «اللهم بارك له فيما قسمتَ له من الخير، وثبّته عليه، وانفعنا به، وإذا نظر الصالح إلى الطالح قال: اللهم اهده، وتب عليه، واغفر له عثرته.

ومنها: أن يحبَّ للمؤمنين ما يحبُّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

قال النعمان بن بشير: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائره بالحمى والسهر».

وروى أبو موسى عنه ﷺ أنه قال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً».

ومنها: ألاّ يُؤذي أحداً من المسلمين بفعلٍ ولا قول، قال ﷺ: «المسلم من سَلِم المسلمون من لسانه ويده».

وقال ﷺ في حديث طويلٍ يأمر فيه بالفضائل: «فإن لم تقدر فدع الناس من الشرّ،

---

(١) تعوده: تزوره.

(٢) تُعين: تساعد.

(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

فإنها صدقةٌ تصدَّقتَ بها على نفسك».

وقال أيضاً: «أفضل المسلمين من سَلِم المسلمون من لسانه ويده».

وقالﷺ: «أتدرون من المسلم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده». قالوا: فمن المؤمن؟ قال: «من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم» قالوا: فمن المهاجر؟ قال: «من هجر السوء واجتنبه».

وقال رجل: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: «أن يُسلم قلبك لله، ويَسلم المسلمون من لسانك ويدك».

وقال مجاهد: يُسلَّط على أهل النار الجربُ فيحتكونَ حتى يبدو عظم أحدهم من جلده، فيُنادى: يا فلان، هل يؤذيك هذا؟ فيقول: نعم. فيقول: هذا بما كنت تؤذي المؤمنين.

وقال ﷺ: «لقد رأيت رجلاً يتقلّب في الجنة في شجرةٍ قطعها عن ظهر الطريق كانت تُؤذي المسلمين».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: يا رسول الله، علّمني شيئاً أنتفع به. قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين».

وقال ﷺ: «من زحزح[١] عن طريق المسلمين شيئاً يؤذيهم كتب الله له به حسنة، ومن كتب له حسنة، أوجب له بها الجنة».

وقال ﷺ: «لا يحلُّ لمسلمٍ أن يُشير إلى أخيه بنظرةٍ تُؤذيه».

وقال ﷺ: «لا يحلُّ لمسلمٍ أن يُروّع مسلماً».

وقال ﷺ: «إن الله يكره أذى المؤمنين».

وقال الرَّبيع بن خيثم: «الناس رجلان: مؤمن فلا تُؤذه، وجاهل فلا تُجاهله».

ومنها: أن يتواضع لكلِّ مسلم، ولا يتكبّر عليه، فإن الله لا يحبُّ كلَّ مختالٍ فخور.

---

(١) زحزح: أبعد.

وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إليّ: أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ثم إن تفاخر عليه غيره فليحتملْ. قال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿خُذِ العَفْوَ وأمُرْ بالعُرْفِ وأعْرِضْ عن الجَاهِلِين﴾[1].

وعن ابن أبي أوفى كان رسول الله ﷺ يتواضع لكلِّ مسلمٍ، ولا يأنف ولا يتكبّر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي حاجته.

ومنها: ألا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض، ولا يبلّغ بعضهم ما يسمع من بعض، قال ﷺ: «لا يدخل الجنة قتّات».

وقال الخليل بن أحمد: من نمَّ لك نمَّ عليك، ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبرك.

ومنها: ألاّ يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه، قال أبو أيوب الأنصاري: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، يلتقيان فيُعرض هذا ويُعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام».

وقد قال ﷺ: «من أقال مسلماً عثرته، أقاله الله يوم القيامة».

قال عكرمة: قال الله تعالى ليوسفَ بن يعقوب: بعفوك عن إخوتك رفعت ذكرَكَ في الدَّارين.

قالت عائشة رضي الله عنها: ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قطُّ، إلاّ أن تُنتَهَكَ حرمة الله، فينتقم لله.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما عفا رجلٌ عن مظلمةٍ إلاّ زاده الله بها عزّا.

وقال ﷺ: «ما نقصَ مالٌ صدقةٍ، وما زاد الله رجلاً بعفوٍ إلاّ عزّاً، وما من أحدٍ تواضعَ لله إلاّ رفعه الله».

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

٧١ ـ باب: في ذم اتباع الهوى، وفي بيان الزهد

قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ منِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وأَضَلَّهُ الله على عِلْمٍ﴾[١] الآية.

قال ابن عباس: ذلك الكافر اتخذ دينه بغير هدًى من الله ولا برهان، والمعنى: هو مطواعٌ لهوى النفس، يتّبعُ ما تدعوه إليه، ولا يعمل بكتاب الله، فكأنه يعبدُ هواه.

وقال تعالى: ﴿ولا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُم﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ولا تَتَّبِع الهَوَى فَيُضِلَّكَ عن سَبيلِ الله﴾[٣] ولذلك استعاذ ﷺ منه بقوله: «اللهم إني أعوذ بك من هوًى مطاع، وشحّ متَّبعٍ».

وقال: «ثلاثٌ مُهلكات هوًى مطاع، وشحٌ متَّبعٌ، وإعجابُ المرء بنفسه».

وذلك لأن كلَّ معصيةٍ سببها هوى النفس، فهو يقود إلى النار، أعاذنا لله منه.

قال بعض العارفين: إذا بدهك أمران لا تَدري في أيِّهما الصواب، فانظر أيُّهما أقربُ إلى هواك فخالفه. وفي هذا المعنى قال الشافعي رضي الله عنه:

إذا جـال أمـرك فـي معنيـين ولـم تـدر حيـث الخطـأ والصـواب
فخـالـف هـواك فـإن الهـوى يقـود النفـس إلـى مـا يعـاب

وقال العباس: إذا اشتبه عليك رأيان، فدع أحبَّهما إليك، وخذ أثقلهما عليك.

وأصله أن الأمر الخفيف يسهل عليك موقعه، ويقرب موضعه، وتخفّ مؤونته وتأتي معونته فينشرح المرء إليه؛ وتحرص النفس عليه. والأمر الثقيل يصعب موقعه، ويبعد موضعه، وتبطىء معونته، فتكسل النفس عنه، وتكره التعب به.

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٩.
(٣) سورة ص، الآية: ٢٦.

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: اقدعوا[١] هذه الأنفس فإنها طليعة، تنزع بكم إلى شرِّ غايةٍ، إن هذا الحقَّ ثقيلٌ مَرِيء، وإنَّ الباطل خفيفٌ وَبِيء، وترك الخطيئة أيسرُ من معالجة التوبة، وربَّ نظرةٍ زرعت شهوة، ولذةِ ساعة أورثت حُزناً طويلاً.

وقال لقمان لابنه: يا بُنيَّ أول ما أحذِّرك من نفسك، فإن لكلِّ نفسٍ هوًى وشهوة، فإن أعطيتها شهوتها تمادَتْ وطلبت سواها، فإن الشهوة كامنةٌ في القلب كمون النار في الحجر، إن قُدح أورى، وإن ترك توارى.

وقال بعضهم:

إذا ما أجبتَ النفسَ في كلِّ دعوةٍ دَعَتْك إلى الأمرِ القبيح المُحرَّمِ

وقال آخر:

إذا أنت لم تعصِ الهوى قادك الهوى إلى كلِّ ما فيه عليك مَقالُ

وقال غيره:

واعلم بأنَّك لن تسودَ ولن ترى طُرُقَ الرشادِ إذا اتبعتَ هواكا

وقال آخر:

إذا شئت إتيان المحامدِ كلِّها ونيلَ الذي ترجوه من رحمةِ الربِّ
فخالفْ هوى النفس المسيئةِ إنَّه لأعدى وأردى من هوى [هائم] الحبِّ
هما سببا حتف الهوى غير أن في هوى الحب مهما عفَّ بعدا عن الذنب
وجلّ المعاصي في هوى النفس فاعتمد خلافَ الذي تهواه، إن كنت ذالبا[٢]

وقال آخر:

إنارة العقل مكسوفٌ بطوعِ هوًى وعقلُ عاصي الهوى يزدادُ تنويرا

وقال الفضل بن العباس:

فقد ترفعُ الأيامُ من كان جاهلاً ويُردى الهوى ذا الرأي وهو لبيب

---

(١) اقدعوا: أي كفوا الأنفس عن شهواتها.

(٢) ذالبا: ذا عقل وحكمة.

وقد يحمَدُ الناسُ الفتى وهو مخطىءٌ ويُعذل في الإحسان وهو مصيب

وقال ﷺ: «خلقَ الله العقلَ وقال له: أقْبِلْ. فأقبل، وقال له: أدبر. فأدبر، فقال: وعزَّتي وجلالي لا ركَّبتك إلاّ في أحبِّ الخلق إليّ. وخلق الحمق، فقال له: أقْبِلْ فأقبل، وقال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزَّتي، وجلالي لا ركَّبتك إلاّ في أبغضِ الخلق إليّ» رواه الترمذي.

ولله در من قال:

وقد أصاب رأيُهُ عينَ الصَّوابْ من استشار عقلَه في كلِّ بابْ
وقد رأى أن الهوى مهما يُجَبْ يدعو إلى سوء العواقب والعقابْ

وأنشد آخر:

إذا شئتَ أن تحظى وأن تبلغَ المنى فلا تُسعد النفسَ المطيعة للهوى
وخالفْ بها عن مقتضى شهواتها وإياك أن تحفل بمن ضلَّ أو غوى
ودعها وما تدعو إليه فإنَّها لأمّارةٌ بالسُّوء مَنْ همَّ أو نوى
لعلك أن تنجو من النَّار إنَّها لقاطعةُ الأمعاء نزَّاعة الشوى

ومن منثورهم: الهوى مركبٌ ذميم، يسير بك في ظلمات الفتن، ومرتعٌ وخيم يقعدك في مواطن المحن، فلا تحملنَّك شهوةُ النفسِ على ركوب المذماتِ، والقعود في مواطن الخطيئات.

وقيل لبعضهم: لو تزوجتَ، قال: لو قدرتُ أن أطلّق نفسي لطلقتها.

وأنشد:

تجردْ من الدنيا فإنك إنما سقطت إلى الدنيا وأنت مجرَّدُ

الدنيا نوم، والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، ونحن في أضغاث أحلام، ومن نظر بعين الهوى حار، ومن حكم على الهوى جار، ومن أطالَ النظرَ لم يُدرك الغاية، وليس لناظر نهاية.

وصّى بعضُ الحكماء رجلاً فقال: آمرك بمجاهدة هواك، فإن الهوى مفتاح السيئات، وخصيم الحسنات، وكلُّ أهوائك لك عدو، وأهواها هوًى يمثّلُ لك الإثم في

صورة الفتوى، ولن تفصلَ بين هذه الخصوم إذا تناظرتْ لديك، إلا بحزمٍ لا يشوبه وهنٌ، وصدقٍ لا يطمع فيه تكذيب، ومضاءٍ لا يقاربه التثبّط، وصبرٍ لا يغتاله جزع، ونيّة لا يتقسّمها التضييع.

اللهم اجعل عقولنا غالبةً على هوانا، ولا تُذقنا ضُرّاً ولا هوانا، ولا تشغلنا بدنيانا عن أُخرانا، وتجعلنا ذاكرين شاكرين لنعمتك بجاه نبيّك محمدٍ سيدنا ومولانا ﷺ والحمد لله على ما أولانا.

وقال ﷺ: «خير دينكم الورع»[١].

وقال: «سيد العمل الورع».

وقال: «كن ورعاً تكنْ أعبدَ الناس، وكنْ قَنِعاً تكن أشكرَ الناس».

وقال ﷺ: «من لم يكن له ورعٌ يصدّه عن معصيةِ الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيء من علمه».

قال إبراهيم بن أدهم: الزهد ثلاثُ مقامات: فزهدٌ فرض وهو الكفُّ عن المحارم، وزهد سلامة وهو ترك الشبهات، وزهد فضل وهو الزهد في الحلال.

وهذا تفسير حسن.

وقال ابن المبارك: الزهد إخفاءُ الزهد، إذا هربَ الزاهدُ من الناس فاطلبه، وإذا طلب الناس فاهرب منه. وما أحسن قول القائل:

إنــي وجــدت فــلا تَظُنَّــنْ غيــره ... إنَّ التــورُّعَ عنــد هــذا الــدرهــم
فــإذا قــدرتَ عليــه ثــم تــركتــه ... فــاعلــم بــأنَّ تقــاكَ تقــوى المسلـم

وليس الزاهد من زهد في الدنيا، وقد أعرضت عنه، وإنّما الزاهد من أقبلت عليه فزوى عنها وجهه، وآثر الفرار منها، كما قال أبو تمام:

إذا المرء لـم يـزهـدْ وقـد صُبغـت لـه ... بعصُفـرهـا الـدنيـا فليـس بـزاهـد

وقال بعض الحكماء: ما لنا لا نزهد في الدنيا وعمرها أمَدٌ[٢]، وخيرها نكد،

---

(١) الورع هو: الكف عن الحلال المباح، أو توقي المحرمات.

(٢) أمد: أي أجل محدود.

وصفوها كدر، وأمانها غرر، إن أقبلت تشجي، وإن أقبت تُردي. قال:

تباً لطالب دنيا لا بقاءَ لها كأنما هي في تصريفها حلم
صفاؤها كدرٌ، سرّاؤها ضررٌ أمانها غررٌ، أنوارها ظلم
شبابها هرمٌ، راحاتها سقم لذّاتها ندم، وجدانها عدم
لا يستفيق من الأنكاد صاحبُها لو كان يملك ما قد ضمنت إرم
فخلِّ عنها ولا تركنْ لزهرتها فإنها نِعَمٌ في طيِّها نقم
واعمل لدار نعيمٍ لا نفاد لها ولا يخاف بها موتٌ ولا هرم

ومن حِكم يحيى بن معاذ: ليكن نظرك إلى الدنيا اعتباراً، ورفضك لها اختياراً، وسعيك فيها اضطراراً، وطلبك الآخرة ابتداراً.



٧٢ ـ باب: في صفة الجنة ومراتب أهلها

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها، وهي النار، تقابلها دارٌ أخرى، فتأمّل نعيمها وسرورها، فإن من بَعُدَ من إحداهما استقرَّ لا محالة في الأخرى، فاستأثِرِ الخوفَ من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم، واستأثِرِ الرجاء بطول الفكر في النعيم المُقيم، الموعود لأهل الجنان، وسُقْ نفسك بسَوْط الخوف، وقدْها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم، فبذلك تنال المُلْكَ العظيم، وتسلم من العذاب الأليم.

فتفكّر في أهل الجنة، وفي وجوههم نضْرَةُ[١] النعيم يُسقون من رحيق[٢] مختوم، جالسين على منابر الياقوت الأحمر، في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض، فيها بُسط من العبقري الأخضر، متّكئين على الأرائك منصوبةً على أطراف أنهارٍ مطّردة بالخمر والعسل، محفوفة بالغلمان والولدان، مزينة بالحور العين من الخيّرات الحسان، كأنهن الياقوت والمرجان، لم يَطْمثهنَّ إنسٌ قبلهم ولا جان، يمشين في درجات الجنان، إذا اختالتْ إحداهن في مشيها حَمَل أعطافَها سبعون ألفاً من الولدان، عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تتحيّر فيه الأبصار، متوجات بالتيجان المرصّعة باللؤلؤ والمرجان، شكلات غَنِجَات عطرات آمنات من الهرم والبؤس، مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت، بُنيت وَسْط روضات الجنان، قاصرات الطرف عِين، ثم يُطافُ عليهم وعليهن بأكوابٍ وأباريق وكأسٍ من معين، بيضاء لذَّةٍ للشاربين، ويطوفُ عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون، جزاءً بما كانوا يعملون، في مقامٍ أمين، في جنّاتٍ وعيون، في جنات ونَهَر، في مقعدِ صدقٍ عند مليك مقتدر، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم، وقد أشرقت في وجوههم نَضْرَةُ النعيم، لا يرهقهم قترٌ ولا ذِلة، بل عباد مُكرَمون، وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون، فهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون، لا يخافون فيها

---

(١) النَّضْرة: السبيكة من الذهب.

(٢) رحيق: مسك لا غش فيه ضرب من الطيب.

ولا يحزنون، وهم من ريب المنون آمنون، فهم فيها يتنعمّون ويأكلون من أطعمتها، ويشربون من أنهارها، لبناً وخمراً وعسلاً وماءً غير آسنٍ[١]، أراضيها من فضة، وحصباؤها مَرْجان، وترابها مسك أذفر، ونباتها زعفران، ويُمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور، ويُؤتون بأكواب أيّ أكوابٍ من فضّة مرصّعةٍ بالدرّ والياقوت والمرجان، كوب فيه من الرحيق المختوم، ممزوج به السلسبيل العذب، وكوب يشرق نوره من صفاء جوهره؛ يبدو الشرابُ من ورائه برقّته وحُمرته؛ لم يصنعه آدميٌّ فيقصرُ في تسوية صنعته وتحسين صناعته، في كفّ خادمٍ يحكي ضياءُ وجهه الشمس في إشراقها، ولكن من أين للشمس مثل حلاوة صورته، وحسن أصداغه، وملاحة أحداقه؟.

فيا عجباً لمن يؤمن بدارٍ هذه صفتها، ويوقن بأنه لا يموت أهلُها، ولا تحلُّ الفجائع[٢] بمن نزل بفنائها، ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها، كيف يأنسُ بدارٍ قد أذن الله في خرابها؟ ويهنأ بعيش دونها؟ والله لو لم يكن فيها إلاّ سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان، لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها، وألاّ يُؤثر عليها ما التصرّم والتنغّص من ضرورته، كيف وأهلها ملوك آمنون، وفي أنواع السرور مُمتَّعون، لهم فيها كلُّ ما يشتهون، وهم في كلّ يومٍ بفناء العرش يحضرون، وإلى وجه الله الكريم ينظرون، وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يتردّدون، ومن زوالها آمنون.

قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «يُنادي منادٍ: يا أهلَ الجنة، آن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا[٣] أبداً، وآن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وآن لكم أن تشبُّوا فلا تهرموا أبداً، وآن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً». فذلك قوله عزّ وجل: ﴿**ونُودُوا أن تِلْكُمُ الجَنَّةَ أورِثْتُمُوها بِما كُنْتُم تَعْمَلون**﴾[٤].

---

(١) آسن: متغير فلا يشرب.
(٢) الفجائع: جمع فجيعة وهي المصيبة.
(٣) لا تسقموا: أي لا تمرضوا.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

ومهما أردتَ أن تعرف صفة الجنة، فاقرأ القرآن، فليس وراء بيان الله تعالى بيان، واقرأ من قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خافَ مَقَامَ رَبِّه جَنَّتَانِ﴾[(١)] إلى آخر سورة الرحمن، واقرأ سورة الواقعة وغيرَها من السور، وإن أردت أن تعرفَ تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها، بعد أن اطّلعت على جملتها وتأملها أولاً:

عدد الجنان: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّه جَنَّتَانِ﴾ قال: «جنتان من فضَّةٍ آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربِّهم إلاّ رداء الكبرياء على وجهه، في جنة عدن».

ثم انظر إلى أبواب الجنّة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات، كما أنَّ أبواب النار بحسب أصول المعاصي.

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دُعي من أبواب الجنَّة كلِّها، وللجنّة ثمانية أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، وكان من أهل الصيام دُعي من باب الصيام، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد» فقال أبو بكر رضي الله عنه: والله ما على أحدٍ من ضرورةٍ من أيها دُعي، فهل يُدعى أحدٌ منها كلّها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم».

وعن عاصم بن ضَمْرَةَ، عن عليّ كرّم الله وجهه. أنه ذكرَ النار فعظّم أمرها ذكراً لا أحفظه، ثم قال: ﴿وَسِيقَ الّذين اتَّقَوا رَبَّهُم إلى الجَنَّةِ زُمَراً﴾[(٢)] حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها، وجدوا عنده شجرة، يخرج من تحت ساقها عينان تجريان، فعمدوا إلى إحداهما كما أُمروا به، فشربوا منها فأذْهَبَتْ ما في بطونهم من أذًى وبأس، ثم عمدوا إلى الأُخرى فتطهّروا منها، فجرت عليهم نَضْرَةُ النعيم، فلا تتغيَّرُ أشعارهم بعدها أبداً، ولا تشعث رؤوسهم، كأنما دُهنوا بالدهان، ثم انتهوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها: ﴿سَلاَمٌ

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٧٣.

عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فادْخُلُوها خَالِدِين﴾[١].

ثم تلقاهم الولدان، يطيفون بهم كما تطيف ولدانُ أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة، يقولون لهم: أبشروا، أعدَّ الله لك من الكرامة كذا.

قال: فينطلق غلامٌ من أولئك الولدان إلى بعض أزواجهم من الحور العين، فيقول: قد جاء فلان ـ باسمه الذي كان يدعى به في الدنيا ـ فتقول: أنت رأيته؟ فيقول: أنا رأيته، وهو بإثري. فيستخفُّها الفرح، حتى تقوم إلى أُسْكُفَّة بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندلُ اللؤلؤ فوقه صرحٌ أحمرُ وأخضرُ وأصفر من كلِّ لونٍ، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه، فإذا هو مثل البرق، ولولا أن الله تعالى أقدره لألَمَّ بأن يذهب بصره، ثم يطأطىء رأسه فإذا أزواجه ﴿وأكْوَابٌ موضُوعَةٌ * ونَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وزَرَابِيُّ مَبْثُوثَة﴾[٢] ثم اتكأ فقال: ﴿الحَمْدُ لله الّذي هَدَانا لِهذا وَمَا كُنَّا لِنَهتَدِي لولا أنْ هَدَانا الله﴾[٣] ثم يُنادي منادٍ: تحيون فلا تموتون أبداً، وتُقيمون فلا تظعنون أبداً، وتصحُّون فلا تمرضون أبداً.

وقال رسول الله ﷺ: «آتي يوم القيامة بابَ الجنة فأستفتحُ، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمَّدٌ. فيقول: مرحباً بك أمرت أن لا أفتح لأحدٍ قبلك».

ثم تأمل الآن في غرف الجنة، واختلاف درجات العلو فيها، فإن الآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً، كما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة، والأخلاق الباطنة المحمودة، تفاوتاً ظاهراً، فكذلك فيما يجازون به تفاوتٌ ظاهر، فإن كنتَ تطلبُ أعلى الدرجات، فاجتهد ألاّ يسبقك أحدٌ بطاعةِ الله تعالى، فقد أمر الله بالمُسابقة والمنافسة فيها، فقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إلى مَغْفِرَةٍ من ربّكُم﴾[٤] وقال تعالى: ﴿وَفي ذلكَ فَلْيَتَنافَسِ المُتَنافِسُون﴾[٥] والعجبُ: أنه لو تقدّم عليك أقرانُك أو جيرانك بزيادة درهم، أو بعلو بناء، ثقل عليك ذلك، أو ضاق به صدرُك، وتنغّص بسبب الحسد عيشك.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧٣.
(٢) سورة الغاشية، الآيات: ١٤ ـ ١٦.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٢١.
(٥) سورة المطففين، الآية: ٢٦.

وأحسن أحوالك أن تستقرَّ في الجنة وأنت لا تسلمُ فيها من أقوامٍ يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها، فقد قال أبو سعيد الخُدري، قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم، كما تتراؤون الكوكب الغائر في الأفق من المشرق والمغرب، لتفاضل ما بينهم».

قالوا: يا رسول الله، تلك منازلُ الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله، وصدّقوا المرسلين» وقال أيضاً: «إن أهل الدرجات العُلا ليراهم من تحتهم كما ترون النجم الطالع في أفقٍ من آفاق السماء، وإن أبا بكر وعمر لمنهم وأنعما».

وقال جابر: قال لنا رسول الله ﷺ: «ألاَ أحدّثكم بغُرفِ الجنة؟» قال: قلت: بلى يا رسول الله، صلى الله عليك، بأبينا أنت وأمّنا، قال: «إن في الجنة غُرفاً من أصنافِ الجواهر كلّه، يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من النعيم واللذات والسرور، ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر» قال: قلت يا رسول الله، ولمن هذه الغرف؟ قال: «لمن أفشى السلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلّى بالليل والناس نيام» قال: قلنا: يا رسول الله، ومن يُطيق ذلك؟ قال: «أمتي تطيق ذلك، وسأخبركم عن ذلك. من لقي أخاه فسلم عليه، فقد أفشى السلام، ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يُشبعهم فقد أطعم الطعام، ومن صام شهر رمضان، ومن كلِّ شهرٍ ثلاثة أيام، فقد أدام الصيام، ومن صلّى العشاء الآخرة، وصلى الغداة في جماعة، فقد صلّى بالليل والناس نيام» يعني: اليهود والنصارى والمجوس.

وسُئل رسولُ الله ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾[1] قال: «قصور من لؤلؤ في كلِّ قصرٍ سبعون داراً من ياقوت أحمر، في كلِّ دار سبعون بيتاً من زمرّد أخضر، في كلِّ بيتٍ سريراً، على كلِّ سرير سبعون فراشاً من كلِّ لون، على كلِّ فراشٍ زوجةٌ من الحور العين، في كل بيت سبعون مائدة، على كلِّ مائدة سبعون لوناً من الطعام، في كلِّ بيت سبعون وصيفة، ويُعطي المؤمن في كل غداة ـ يعني من القوة ـ ما يأتي على ذلك أجمع».

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

٧٣ ـ باب: في الصبر والرضا والقناعة

أما فضل الرِّضا من الآيات، فقوله تعالى: ﴿رَضِيَ الله عَنهُم ورَضُوا عَنْهُ﴾[(١)].

وقد قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإحسَانِ إلاّ الإحْسَانُ﴾[(٢)] ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده، وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿وَمَساكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عَدْنٍ ورِضْوانٌ من الله أكْبَرُ﴾[(٣)] فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن. كما رفع ذكره فوق الصلاة، حيث قال: ﴿إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عن الفحشاءِ والمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ الله أكبَرُ﴾[(٤)] فكما أن مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة، فرضوان ربِّ الجنة أعلى من الجنة، بل هو غايةُ مطلب سكان الجنان.

وفي الحديث: «إن الله تعالى يتجلّى للمؤمنين. فيقول: سلوني. فيقولون: رضاك». فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل.

وأمّا رضا العبد فسنذكر حقيقته.

وأمّا رضوان الله تعالى عن العبد، فهو بمعنى آخر يقرب مما ذكرناه في حبِّ الله للعبد، ولا يجوز أن يكشفَ عن حقيقته إذ تقصر أفهامُ الخلقِ عن دركه، ومن يقوى عليه فيستقل بإدراكه من نفسه، وعلى الجملة فلا رتبةَ فوق النظر إليه، فإنما سألوه الرضا؛ لأنه سببُ دوام النظر، فكأنهم رأوه غاية الغايات، وأقصى الأماني، لما ظفروا بنعيم النظر، فلما أُمروا بالسؤال لم يَسألوا إلاّ دوامه، وعلموا أن الرضا هو سببُ دوام رفع الحجاب، وقال الله تعالى: ﴿ولَدَيْنا مَزِيدُ﴾[(٥)] قال بعض المفسرين فيه: يأتي أهلَ الجنة في وقت المزيد ثلاثُ تحفٍ من عند ربِّ العالمين، إحداها هدية من عند الله تعالى ليس

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٩.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٢.
(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٥) سورة ق، الآية: ٣٥.

عندهم في الجنان مثلها فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1] والثانية السلام عليهم من ربِّهم، فيزيد ذلك على الهدية فضلاً، وهو قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[2] والثالثة يقول الله تعالى: إني عنكم راضٍ، فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ من الله أَكْبَرُ﴾[3] أي من النعيم الذي هم فيه، فهذا فضلُ رضا الله تعالى، وهو ثمرة رضا العبد.

وأمّا فضله من الأخبار فقد رُوي أن النبيَّ ﷺ سأل طائفةً من أصحابه «ما أنتم؟» فقالوا: مؤمنون. فقال: «ما علامة إيمانكم؟» فقالوا: نصبر على البلاء، ونشكر عند الرخاء، ونرضى بمواقع القضاء. فقال: «مؤمنون، وربِّ الكعبة». وفي خبر آخر أنه قال: «حكماء علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء».

وفي الخبر: «طوبى لمن هُدي للإسلام، وكان رزقه كفافاً، ورضي به».

وقال ﷺ: «من رضي من الله تعالى بالقليل من الرزق، رضي الله تعالى منه بالقليل من العمل».

وقال أيضاً: «إذا أحبَّ الله تعالى عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه».

وقال أيضاً: «إذا كان يوم القيامة أنبتَ الله تعالى لطائفة من أمتي أجنحةً فيطيرون من قبورهم إلى الجنان، يسرحون فيها ويتنعَّمون فيها، كيف شاؤوا فتقول لهم الملائكة: هل رأيتم الحساب؟ فيقولون: ما رأينا حساباً. فتقول لهم: هل جزتم الصراط؟ فيقولون: ما رأينا صراطاً. فتقول لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئاً. فتقول الملائكة: من أمّة من أنتم؟ فيقولون: من أمّة محمد ﷺ فتقول: نشدناكم الله حدّثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا؟ فيقولون: خصلتان كانتا فينا فبلغنا هذه المنزلة بفضل رحمة الله. فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنّا إذا خلونا نستحي أن نعصيه، ونرضى باليسير مما قسم لنا. فتقول الملائكة: يحقُّ لكم هذا».

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٧.

(٢) سورة يس، الآية: ٥٨.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٧٢.

وقال ﷺ: «يا معشر الفقراء، أعطوا الله الرضا من قلوبكم، تظفروا بثواب فقركم، وإلاّ فلا».

وفي أخبار موسى عليه السلام أن بني إسرائيل قالوا له: سلْ لنا ربّك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنّا. فقال موسى عليه السلام: إلهي قد سمعت ما قالوا. فقال: يا موسى، قل لهم: يرضون عنّي حتى أرضى عنهم.

وأمّا فضل الصبر: فقد ذُكر في القرآن في نيف وتسعين موضعاً، وأضاف أكثرَ الدرجات والخيرات إلى الصبر، وجعلها ثمرةً له، وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم، فقال تعالى: **﴿أولَئِكَ عَلَيهم صَلَواتٌ من رَبِّهم وَرَحْمَةٌ وأولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ﴾**[1] فالهدى والرحمة والصلوات مجموعةٌ للصابرين، واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول.

وأمّا الأخبار: فقد قال ﷺ: «الصبر نصف الإيمان».

وقال ﷺ: «من أقلِّ ما أوتيتم اليقين، وعزيمة الصبر، ومن أعطي حظَّه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه، أحبُّ إليَّ من أن يوافيني كلُّ امرىء منكم بمثل عمل جميعكم، ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدي، فينكر بعضكم بعضاً، وينكركم أهلُ السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه» ثم قرأ قوله تعالى: **﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وما عِندَ الله باقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الّذين صَبَرُوا أجرَهُم﴾**[2] الآية.

وروى جابر أنّه سُئل ﷺ عن الإيمان، فقال: «الصبر والسماحة».
وقال أيضاً: «الصبر كنز من كنوز الجنة».

وسُئل مرّةً ما الإيمان؟ فقال: «الصبر» وهذا يشبه قوله ﷺ: «الحج عرفة» معناه: معظم الحج عرفة.

وقال أيضاً ﷺ: «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس».

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٧.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٦.

وقيل: «أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: تَخَلّق بأخلاقي، وإن من أخلاقي أني أنا الصبور.

وفي حديث عطاء عن ابن عبّاس: لمّا دخل رسول الله ﷺ على الأنصار فقال: «أمؤمنون أنتم؟» فسكتوا، فقال عمر: نعم يا رسول الله. قال: «وما علامة إيمانكم؟» قالوا: نشكر على الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء.

فقال ﷺ: «مؤمنون وربِّ الكعبة».

وقال ﷺ: «في الصبر على ما تكره، خيرٌ كثير».

وقال المسيح عليه السلام: إنكم لا تدركون ما تحبُّون إلا بصبركم على ما تكرهون.

وقال رسول الله ﷺ: «لو كان الصبر رجلاً، لكان كريماً. والله يحبُّ الصابرين».

والأخبار في هذا لا تُحصى، وقال ﷺ: «عزّ من قنع، وذل من طمع».

وقال ﷺ: «القناعة كنز لا يفنى». وتقدّم الكلام على القناعة مراراً.



٧٤ ـ باب: في فضل التوكّل

فمن الآيات: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِين﴾[1] وأعظمْ بمقامٍ موسومٍ بمحبَّة الله تعالى صاحبُه، ومضمونٍ بكفاية الله تعالى مُلابسه، فمن الله تعالى حسبُهُ وكافيه، ومحبّه وراعيه، فقد فاز الفوز العظيم، فإن المحبوب لا يُعذَّبُ ولا يُبْعِدُ ولا يَحْجُبُ.

ومن الأخبار: قوله ﷺ فيما رواه ابنُ مسعود: «رأيت الأمم في الموسم، فرأيت أمّتي قد مَلَؤوا السهل والجبل، فأعجبتني كثرتهم وهيئتهم، فقيل لي: أرضيت؟ قلت: نعم. قيل: ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «الذين لا يكتوون ولا يتطيّرون ولا يسترقون، وعلى ربّهم يتوكّلون» فقام عُكاشة وقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم. فقال ﷺ: «اللهمَّ اجعله منهم».

فقام آخر فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال ﷺ: «سبقك بها عكاشة».

وقال ﷺ: «لو أنّكم تتوكّلون على الله حقَّ توكّله، لرزقكم كما يرزقُ الطير، تغدو خماصاً[2] وتروح بطاناً[3]».

وقال ﷺ: «من انقطع إلى الله عزّ وجلّ كفاه الله تعالى كلَّ مؤونةٍ، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطعَ إلى الدنيا وكَلَهُ الله إليها».

وقال ﷺ: «من سرَّه أن يكون أغنى الناس، فليكنْ بما عند الله أوثقَ منه بما في يديه».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) خماصاً: جائعة.

(٣) بطاناً: مملوءة البطن. وهي كناية عن الشبع.

وروي عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا أصاب أهله خصاصةٌ[١] قال: «قوموا إلى الصلاة» ويقول: «بهذا أمرني ربِّي عزَّ وجل» ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيها﴾[٢] الآية.

وقال ﷺ: «لم يتوكل من استرقى واكتوى».

ورُوي: أنّه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقد رُميَ إلى النار بالمنجنيق: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وفاءً بقوله: حسبي الله ونعم الوكيل. إذ قال ذلك حين أخذ ليُرمى، فأنزل الله تعالى: ﴿وإبراهيمَ الَّذي وَفَّى﴾[٣].

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود، ما من عبدٍ يعتصم بي دون خلقي، فتكيده السموات والأرض، إلا جعلت له مخرجاً.

وقال سعيد بن جبير: لدغتني عقرب فأقسمت عليَّ أمي لتسترقينَّ، فناولتُ الراقي يدي التي لم تُلدغ.

وقرأ الخوّاص قوله تعالى: ﴿وَتَوكَّل على الحَيّ الذي لا يَمُوتُ﴾[٤] إلى آخرها. فقال: ما ينبغي للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى.

وقيل لبعض العلماء في منامه: من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته.

وقال بعض العلماء: لا يشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل، فتضيع أمر آخرتك، ولا تنال من الدنيا إلاّ ما قد كتب الله لك.

وقال يحيى بن معاذ: في وجود العبد الرزق من غير طلب، دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد.

وقال إبراهيم بن أدهم: سألتُ بعض الرهبان: من أين تأكل؟ فقال لي: ليس هذا العلم عندي، ولكن سل ربّي من أين يُطعمني؟

---

(١) الخصاصة: الفقر والحاجة وسوء الحال.

(٢) سورة طه، الآية: ١٣٢.

(٣) سورة النجم، الآية: ٣٧.

(٤) سورة الفرقان، الآية: ٥٨.

وقال هَرِم ابن حبان لأويس القرني: أين تأمرني أن أكون؟ فأومأ: إلى الشام؛ قال هرم: كيف المعيشة؟ قال أُويس: أفٍ لهذه القلوب، قد خالطها الشكُّ، فما تنفعها الموعظة.

وقال بعضهم: متى رضيت بالله وكيلاً، وجدتَ إلى كلِّ خيرٍ سبيلاً. نسأل الله تعالى حسن الأدب.



٧٥ ـ باب: في فضل المسجد

قال الله عز وجل: ﴿إنَّما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ الله مِن آمَنَ بالله واليومِ الآخرِ﴾[١].

وقال ﷺ: «من بني لله مسجداً ولو كمفحص قطاةٍ[٢]، بنى الله له قصراً في الجنَّة».

وقال ﷺ: «من أَلِفَ[٣] المسجد ألفه الله تعالى».

وقال ﷺ: «إذا دخل أحدكم المسجد فليركعْ ركعتين قبل أن يجلس».

وقال ﷺ: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد».

وقال ﷺ: «الملائكة تصلّي على أحدكم ما دام في مُصلاَّهُ الذي يُصلّي فيه، تقول: اللهم صلِّ عليه، اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، ما لم يُحْدث أو يخرج من المسجد».

وقال ﷺ: «يأتي في آخر الزمان ناس من أمّتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حِلقاً حِلقاً ذكرهم الدنيا، وحب الدنيا، لا تجالسوهم، فليس لله بهم حاجة».

وقال ﷺ: «قال الله عزَّ وجلَّ في بعض الكتب: إن بيوتي في أرضي المساجد، وإن زوّاري فيها عُمّارها، فطُوبى لعبدٍ تطهّر في بيته، ثم زارني في بيتي، فحقٌّ على المزور أن يكرم زائره».

وقال ﷺ: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان».

وقال سعيد بن المسيَّب: من جلس في المسجد، فإنما يجالس ربَّه، فما حقُّه أن يقول إلاّ خيراً.

ويُروى في الأثر أو الخبر: الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٨.

(٢) مفحص قطاة: الموضع الذي تبيض فيه.

(٣) أَلِفَ ـ ألفاً وإلْفاً: أنس به وأحبه.

وقال النخعي: كانوا يرون أن المشي في الليلة المظلمة إلى المسجد موجبٌ للجنة.

وقال أنس بن مالك: من أسرج في المسجد سراجاً لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له ما دام في ذلك المسجد ضوؤه.

وقال عليّ كرّم الله وجهه: إذا مات العبد يبكي عليه مصلّاه من الأرض، ومصعد عمله من السماء. ثم قرأ: ﴿**فما بكتْ عليهم السماءُ والأرض وما كانوا مُنظرين**﴾[1].

وقال ابن عباس: تبكي عليه الأرض أربعين صباحاً.

وقال عطاء الخراساني: ما من عبد يسجدُ لله سجدة في بقعة من بقاع الأرض إلاّ شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت.

وقال أنس بن مالك: ما من بُقعة يُذكر الله تعالى عليها بصلاةٍ أو ذكر، إلاّ افتخرت على ما حولها من البقاع، واستبشرتْ بذكر الله عز وجل إلى منتهاها من سبع أرضين، وما من عبدٍ يقوم يُصلّي إلاّ تزخرفت[2] له الأرض.

ويُقال: ما من منزلٍ ينزل فيه قومٌ إلاّ أصبح ذلك المنزل يصلي عليهم أو يلعنهم.

---

(١) سورة الدخان، الآية: ٢٩.
(٢) تَزَخْرَفَت: تَزَيَّنَتْ.

٧٦ ـ باب: في الرياضة وفضل أهل الكرامة

اعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً بصَّره بعيوب نفسه، فمن كانت بصيرته نافذة، لم تخف عليه عيوبه، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج، ولكنَّ أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم يرى أحدهم القذى في عين أخيه، ولا يرى الجِذْعَ في عين نفسه، فمن أراد أن يعرفَ عيوب نفسه فله أربعة طرق:

الطريق الأول: أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس، مطّلع على خفايا الآفات، ويحكّمه في نفسه، ويتبعُ إشاراته في مجاهدته، وهذا شأن المريد مع شيخه، والتلميذ مع أستاذه، فيعرفه أستاذه وشيخه عيوب نفسه، ويعرفه طريق علاجه، وهذا قد عزّ في هذا الزمان وجوده.

الطريق الثاني: أن يطلب صديقاً صدوقاً، بصيراً متديّناً، فينصّبه رقيباً على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله، فما كره من أخلاقه وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبّهه عليه، فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين.

وكان عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله إمرأً أهدى إليّ عيوبي، وكان يسأل سلمان عن عيوبه، فلما قدم عليه قال له: ما الذي بلغك عني مما تكرهه؟ فاستعفى. فألحّ عليه، فقال: بلغني أنك جمعت بين إدامين على مائدةٍ، وأن لك حُلّتين، حلة بالنهار وحلة بالليل. قال: هل بلغك غيرُ هذا؟ قال: لا. فقال: أمّا هذان فقد كفيتهما.

وكان يسأل حُذيفة ويقول له: أنت صاحبُ سرِّ رسول الله ﷺ في المنافقين، فهل ترى عليَّ شيئاً من آثار النفاق؟. فهو على جلالة قدره، وعلوِّ منصبه، هكذا كانت تهمته لنفسه رضي الله عنه.

فكلُّ من كان أوفر عقلاً وأعلى منصباً، كان أقلَّ إعجاباً، وأعظم اتّهاماً لنفسه، إلاّ

أن هذا أيضاً قد عزَّ، فقلَّ في الأصدقاء من يترك المداهنة[١]، فيُخبر بالعيب، أو يترك الحسد، فلا يزيد على قدر الواجب، فلا تخلو في أصدقائك عن حسودٍ، أو صاحب غرض، يرى ما ليس بعيب عيباً، أو عن مُداهن، يُخفي عنك بعض عيوبك.

ولهذا كان داود الطائي قد اعتزل الناس، فقيل له: لم لا تخالط الناس؟ فقال: وماذا أصنع بأقوام تخفي عني عيوبي؟

فكانت شهوة ذوي الدين أن ينتبهوا لعيوبهم بتنبيه غيرهم. وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا، من ينصحنا ويعرفنا بعيوبنا. ويكاد هذا أن يكون مفصحاً عن ضعف الإيمان، فإن الأخلاق السيئة حيّات وعقارب لداغة. فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقرباً لتقلدنا منّه منَّة وفرحنا به.

واشتغلنا بإزالة العقرب وابعادها وقتلها. وإنما نكايتها على البدن، ويدوم ألمها يوماً فما دونه، ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب، أخشى أن تدوم بعد الموت أبداً، أو آلافاً من السنين.

ثم إنا لا نفرح بمن ينبّهنا عليها، ولا نشتغل بإزالتها، بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته، فنقول له: وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت، وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه. ويشبه أن يكون ذلك عن قسوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب. وأصل كل ذلك: ضف الإيمان. فنسأل الله عز وجل أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها، ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا، بمنّه وفضله.

الطريق الثالث: أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه. فإن عين السخط تبدي المساوىء. ولعل انتفاع الانسان بعدو مشاحن[٢] يذكرّه عيوبه، أكثر من انتفاعه بصديق مداهن، يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه. إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو، وحمل ما يقوله على الحسد، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه. فإن مساويه لا بد وأن تنتشر على ألسنتهم.

الطريق الرابع: أن يخالط الناس. فكل ما رآه مذموماً فيما بين الخلق، فليطالب

(١) المداهنة: هي إظهار خلاف ما يضمر الإنسان.

(٢) مشاحن: حاقد وباغض.

نفسه به وينسبها إليه. فإن المؤمن مرآة المؤمن، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى، فما يتصف به واحد من الأقران، لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه، فليتفقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره، وناهيك بهذا تأديباً، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم، لاستغنوا عن المؤدب.

قيل لعيسى عليه السلام: من أدَّبك؟ قال: ما أدّبني أحد، رأيت جهل الجاهل شيناً، فاجتنبته.

وهذا كله حيل من فقد شيخاً عارفاً ذكياً بصيراً بعيوب النفس، مشفقاً ناصحاً في الدين، فارغاً من تهذيب نفسه، مشتغلاً بتهذيب عباد الله تعالى، ناصحاً لها فمن وجد ذلك، فقد وجد الطبيب فليلازمه، فهو الذي يخلصه من مرضه، وينجيه من الهلاك الذي هو بصدده.

واعلم أن ما ذكرناه إن تأملته بعين الاعتبار، إنفتحت بصيرتك وانكشفت لك علل القلوب وأمراضها، وأدويتها بنور العلم واليقين. فإن عجزت عن ذلك فلا ينبغي أن يفوتك التصديق.

والإيمان على سبيل التلقي والتقليد، لمن يستحق التقليد، فإن للإيمان درجة، كما أن للعلم درجة، والعلم يحصل بعد الإيمان، وهو وراءه.

قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الذين آمَنُوا مِنكُم والَّذينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[1] فمن صدق بأن مخالفة الشهوات هو الطريق إلى الله عز وجل، ولم يطّلع على سببه وسرّه، فهو من الذين آمنوا، وإذا اطلّع على ما ذكرناه من أعوان الشهوات، فهو من الذين أوتوا العلم، وكلاً وعد الله الحسنى. والذي يقتضي الإيمان بهذا الأمر، في القرآن والسنة وأقاويل العلماء أكثر من أن يحصر.

قال الله تعالى: ﴿ونَهَى النَّفْسَ عنِ الهَوَى* فإنَّ الجنَّةَ هيَ المَأْوَى﴾[2]

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ١١.
(٢) سورة النازعات، الآيتان: ٤٠، ٤١.

وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُم لِلتَّقْوَى﴾[١] قيل: نزع منها محبة الشهوات.

وقال ﷺ: «المؤمن بين خمس شدائد: مؤمن يحسده، ومنافق يبغضه، وكافر يقاتله، وشيطان يضله، ونفس تنازعه» فبين: أن النفس عدو منازع، يجب عليه مجاهدتها.

ويُروى: أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود، حذّر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المتعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة.

وقال عيسى عليه السلام: طوبى لمن ترك شهوة[٢] حاضرة، لموعود غائب، لم يره.

وقال نبينا ﷺ لقوم قدموا من الجهاد: «مرحباً بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: «جهاد النفس».

وقال ﷺ: «المجاهد: من جاهد نفسه في طاعة الله عزّ وجلّ».

وقال ﷺ: «كُفَّ أذاك عن نفسك، ولا تتبع هواها في معصية الله، إذاً تخاصمك يوم القيامة، فيلعنُ بعضُك بعضاً إلا أن يغفر الله تعالى ويستر».

وقال سُفيان الثوري: ما عالجت شيئاً أشد عليّ من نفسي، مرة لي، ومرة عليّ.

وكان أبو العباس الموصلي يقول لنفسه: يا نفس، لا في الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين، ولا في طلب الآخرة مع العباد تجتهدين؟ كأني بك بين الجنة والنار تحسبين يا نفس، ألا تستحين؟

وقال الحسن: ما الدابة الجموح بأحوج إلى اللجام الشديد من نفسك.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: جاهد نفسك بأسياف الرياضة. والرياضة على أربعة أوجه: القوت من الطعام، والغمض من المنام، والحاجة من الكلام، وحمل الأذى من

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٣.

(٢) الشهوة: رغبة شديدة فيما يشتهي الإنسان من الملذات المادية.

جميع الأنام.

فيتولّد من قلة الطعام موت الشهوات، ومن قلة المنام صفو الإرادات، ومن قلة الكلام السلامة من الآفات، ومن احتمال الأذى البلوغ الى الغايات. وليس على العبد شيء أشدّ من الحلم[١] عند الجفاء، والصبر على الأذى، وإذا تحركت من النفس إرادة الشهوات والآثام، وهاجت منها حلاوة وفضول الكلام، جردت عليها سيوف قلة الطعام من غمد التهجد وقلة المنام، وضربتها بأيدي الخمول، وقلة الكلام حتى تنقطع عن الظلم والانتقام. فتأمن من بوائقها من بين سائر الأنام، وتصفيها من ظُلمة شهواتها، فتنجو من غوائل آفاتها، فتصير عند ذلك نظيفة ونورية خفيفة روحانية، فتجول في ميدان الخيرات، وتسير في مسالك الطاعات، كالفرس الفاره في الميدان، وكالملك المتنزه في البستان.

وقال أيضاً: أعداء الإنسان ثلاثة: دنياه، وشيطانه، ونفسه. فاحترس من الدنيا بالزهد فيها، ومن الشيطان بمخالفته، ومن النفس بترك الشهوات.

وقال بعض الحكماء: من استولت عليه النفس صار أسيراً في حب شهواتها، محصوراً في سجن هواها، مقهوراً مغلولاً، زمامه في يدها، تجره حيث شاءت، فتمنع قلبه من الفوائد.

وقال جعفر بن حميد: أجمعتِ العلماء والحكماء على أن النعيم لا يُدرك إلا بترك النعيم.

وقال أبو يحيى الوراق: من أرضى الجوارح بالشهوات، فقد غرس في قلبه شجر الندامات.

وقال وهيب بن الورد: ما زاد عن الخبز فهو شهوة.

وقال أيضاً: من أحب شهوات الدنيا، فليتهيأ للذل.

ويُروى أن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام بعد أن ملك خزائن الأرض وقعدت له على رابية الطريق في يوم موكبه، وكان يركب في زهاء اثني عشر ألفاً من عظماء مملكته: سبحان من جعل الملوك عبيداً بالمعصية، وجعل العبيد ملوكاً بطاعتهم له، إن الحرص والشهوة صيّرا الملوك عبيداً. وذلك جزاء المفسدين. وإن الصبر

---

(١) الحِلم: الأناة وضبط النفس.

والتقوى صيّرا العبيد ملوكاً.

فقال يوسف كما أخبر الله تعالى عنه: ﴿إِنَّه مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجرَ المُحْسِنِينَ﴾[١].

وقال الجُنيد: أرقت[٢] ليلة فقمت إلى وِردي، فلم أجد الحلاوة التي كنت أجدها، فأردت أن أنام، فلم أقدر، فجلستُ فلم أطق الجلوس.

فخرجت فإذا رجل مُلتف في عباءة مطروح على الطريق، فلما أحسَّ بي، قال: يا أبا القاسم إلى الساعة؟. فقلت: يا سيدي من غير موعد. فقال: بلى سألتُ الله عز وجل أن يحرك لي قلبك. فقلت: قد فعل، فما حاجتك؟

قال: فمتى يصيرُ داءُ النفس دواها؟ فقلت: إذا خالفت النفس هواها. فأقبل على نفسه، فقال: اسمعي فقد أجبتك بهذا سبع مرات فأبيتِ أن تسمعيه إلا من الجُنيد، ها قد سمعتيه. ثم انصرف وما عرفته.

وقال يزيد الرُّقاشي: إليكم عني الماء البارد في الدنيا، لعلّي لا أحرمه في الآخرة.

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: متى أتكلم؟ قال: إذا اشتهيت الصمت. قال: متى أصمت؟ قال: إذا اشتهيت الكلام.

وقال عليّ رضي الله عنه: من اشتاق إلى الجنة، سلا[٣] عن الشهوات في الدنيا.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٩٠.

(٢) أرقت: أرق أرقاً: امتنع عليه النوم ليلاً..

(٣) سلا: ابتعد.

٧٧ ـ باب: في الإيمان والنفاق

اعلم: أن كمال الإيمان الذي هو التصديق بوحدانية الله تعالى، وبما جاءت به الرسل صلوات الله عليهم، بزيادة الأعمال. قال الله تعالى: ﴿إنّما المُؤمِنونَ الذينَ آمَنُوا بالله ورَسولِهِ ثمّ لَمْ يَرْتابوا وجاهَدوا بِأمْوالِهم وأنْفُسِهِم في سَبيلِ الله أولَئِكَ هُمُ الصّادِقون﴾[1].

وقال الله تعالى: ﴿ولَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِالله وَاليَوم الآخِرِ والمَلائِكَةِ والكِتابِ والنَّبِيين﴾[2]. فشرط عشرين وصفاً كالوفاء بالعهد، والصبر على الشدائد. ثم قال تعالى: ﴿أولَئِكَ الذين صَدَقوا﴾[3].

وقد قال تعالى: ﴿يَرْفعِ الله الذينَ آمنُوا مِنكُم والّذين أُوتُوا العِلْمَ دَرَجات﴾[4].

وقال تعالى: ﴿لا يَسْتَوي مِنكُم مَنْ أنفَقَ مِن قَبْلِ الفَتْح وَقاتَلَ﴾[5].

وقد قال تعالى: ﴿هُم دَرَجاتٌ عِنْدَ الله﴾[6].

وقال ﷺ: «الإيمان عريان، ولباسه التقوى» الحديث.

وقال ﷺ: «الايمان بضع وسبعون باباً أدناها إماطة[7] الأذى عن الطريق».

فهذا ما يدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٤) سورة المجادلة، الآية: ١١.
(٥) سورة الحديد، الآية: ١٠.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٦٣.
(٧) إماطة: أي إبعاد.

وأمّا ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الخفي. فقوله ﷺ: «أربع من كنّ فيه فهو منافق خالص، وإن صام وصلى، وزعم أنه مؤمن: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان، وإذا خاصم فجر» وفي بعض الروايات: «وإذا عاهد غدر».

وفي حديث أبي سعيد الخدري: «القلوب أربعة: قلب أجرد وفيه سراج يُزْهِر فذلك قلب المؤمن، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كَمَثل البقلة يمدُّها الماء العذب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدُّها القيح والصديد. فأي المادتين غلب عليه حُكم له بها...».

وفي لفظ آخر: «غلبت عليه، ذهبت به».

وقال ﷺ: «أكثرُ منافقي هذه الأمة قراؤها».

وفي الحديث: «الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا»[١].

وقال حذيفة رضي الله عنه: كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ يصير بها منافقاً إلى أن يموت، وإني لأسمعُها من أحدكم في اليوم عشر مرات.

وقال بعض العلماء: أقرب الناس من النفاق من يرى أنه بريء من النفاق.

وقال حذيفة: المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبي ﷺ، فكانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه، وهذا النفاق يُضاد صدق الإيمان وكماله، وهو خفي، وأبعد الناس منه من يتخوفه، وأقربهم منه من يرى أنه بريء منه، فقد قيل للحسن البصري يقولون: أنه لا نفاق اليوم. فقال: يا أخي لو هلك المنافقون، لاستوحشتم في الطريق.

وقال هو أو غيره: لو نبتت للمنافقين أذناب، ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا.

وسمع ابن عمر رضي الله عنه رجلاً يتعرض[٢] للحجاج. فقال: أرأيت لو كان حاضراً يسمع أكنت تتكلم فيه؟ فقال: لا. فقال: كنا نعد هذا نفاقاً على عهد

(١) الصفا: الصخر الأملس.
(٢) يتعرض: من تعرض: أي ظهر وبرز.

رسول الله ﷺ.

وقال ﷺ: «من كان ذا لسانين في الدنيا، جعله الله ذا لسانين في الآخرة».

وقال أيضاً ﷺ: «شرُّ الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه».

وقيل للحسن: إن قوماً يقولون: إنَّا لا نخاف النفاق. فقال: والله لأن أكون أعلم أني بريء من النفاق، أحب إليّ من تلال الأرض ذهباً.

وقال الحسن: إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب، والسر والعلانية، والمدخل والمخرج.

وقال رجل لحذيفة رضي الله عنه: إني أخاف أن أكون منافقاً. فقال: لو كنت منافقاً ما خفت النفاق. إن المنافق قد أمن من النفاق.

وقال ابن أبي مُلَيْكَة: أدركت ثلاثين ومائة ـ وفي رواية خمسين ومائة ـ من أصحاب النبي ﷺ كلُّهم يخافون النفاق.

وروي أن رسول الله ﷺ كان جالساً في جماعة من أصحابه، فذكروا رجلاً وأكثروا الثناء عليه، فبينما هم كذلك، إذا طلع عليهم الرجل، ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء، وقد علق نعله بيده، وبين عينيه أثر السجود. فقالوا: يا رسول الله هو هذا الرجل الذي وصفناه.

فقال ﷺ: «أرى على وجهه سفعة من الشيطان» فجاء الرجل حتى سلّم وجلس مع القوم، فقال النبي ﷺ: «أنشدتك الله هل حدثت نفسك حين أشرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك؟» فقال: اللهم نعم. فقال ﷺ في دعائه: «اللهم إني أستغفرك لما علمتُ ولما لم أعلم» فقيل له: أتخافُ يا رسول الله؟ فقال: «وما يؤمنني. والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء؟».

وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَبَدَا[1] لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لم يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾[2].

---

(١) بدا: ظهر وعرض لهم.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

قيل في التفسير: عملوا أعمالاً ظنّوا أنها حسنات فكانت في كفة السيئات.

وقال سَري السّقطي: لو أن إنساناً دخل بستاناً فيه من جميع الأشجار، وعليها من جميع الطيور، فخاطبه كلُّ طير منها بلغة، فقال: السلام عليك يا ولي الله، فسكنت نفسه إلى ذلك كان أسيراً في يديها.

فهذه الأخبار والآثار تعرّفك خطر الأمر، بسبب دقائق النفاق والشرك الخفي، وإنه لا يؤمن منه، حتى كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسأل حُذيفة عن نفسه، وأنه هل ذُكر في المنافقين.

وقال أبو سُليمان الداراني: سمعت من بعض الأمراء شيئاً، فأردت أن أنكره، فخفتُ أن يأمر بقتلي، ولم أخف من الموت، ولكن خشيت أن يعرض لقلبي التزيّن للخلق عند خروج روحي. فكففت.

وهذا من النفاق الذي يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكماله وصفاءه، لا أصله، فالنفاق نفاقان:

أحدهما: يُخرج من الدين ويُلحق بالكافرين ويُسلك في زمرة[1] المخلدين في النار.

والثاني: يفضي بصاحبه إلى النار مدّة أو ينقص من درجات عليين، ويحط من رتبة الصديقين.

---

(١) زمرة: جماعة.

٧٨ ـ باب: في النهي عن الغيبة والنميمة

أما الغيبة: فقد نص الله سبحانه على ذمِّها في كتابه. وشبّه صاحبها بآكل لحم الميتة. فقال تعالى: ﴿ولا يَغْتَبْ بَعضُكُم بَعضاً أيُحِبُّ أحَدُكُم أنْ يَأكُلَ لَحْمَ أخيهِ مَيتاً فَكَرِهتُمُوه﴾[1].

وقال ﷺ: كلُّ المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه».

والغيبة تتناول العرض. وقد جمع الله بينه وبين المال والدم.

وقال أبو بَرْزَة قال ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجَشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضاً، وكونوا عباد الله إخوانا».

وعن جابر وأبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغيبة. فإن الغيبة أشد من الزنا، فإن الرجل قد يزني ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه، وإن صاحب الغيبة، لا يغفر له، حتى يغفر له صاحبه».

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أُسري بي على قومٍ يخمشون وجوههم بأظافيرهم، فقلت: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يغتابون الناس، ويقعون في أعراضهم».

وقال سليمان بن جابر: أتيت النبي ﷺ فقلت: علمني خيراً أنتفع به. فقال: «لا تَحقرنَّ من المعروف شيئاً. ولو أن تصبَّ من دلوك في إناء المستقى، وأن تلقى أخاك ببشر حسن، وإن أدبر فلا تغتبه».

وقال البراء: خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتهنَّ. فقال: «يا معشر من آمن بلسانه، ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين، ولا تتَّبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورة أخيه، تتبّع الله عورته، ومن تتبّع الله عورته يفضحه في جوف بيته».

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

وقيل: أوحى الله إلى موسى عليه السلام: من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة، ومن مات مصراً عليها، فهو أول من يدخل النار.

وقال أنس: أمر رسول الله ﷺ الناس بصوم يوم. فقال: «لا يُفطرنَّ أحد حتى آذن له» فصام الناس حتى إذا أمسوا، جعل الرجل يجيء فيقول: يا رسول الله ظللت صائماً، فأذن لي لأفطر، فيأذن له، والرجل والرجل.

حتى جاء رجل فقال: يا رسول الله فتاتان من أهلي ظلتا صائمتين، وإنهما يستحيان أن يأتياك، فأذن لهما أن يفطرا. فأعرضَ عنه ﷺ ثم عاوده، فأعرض عنه، ثم عاوده، فقال: «إنهما لم تصوما، وكيف يصوم من ظل نهاره يأكل لحوم الناس اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين أن تستقيئا». فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا، فقاءت كلُّ واحدة منهما علقة من دمّ. فرجع الى النبي ﷺ فأخبره، فقال: «والذي نفسي بيده لو بقيتا في بطونهما لأكلتهما النار».

وفي رواية: أنه لما أعرض عنه جاء بعد ذلك، فقال: يا رسول الله إنهما قد ماتتا أو كادتا أن تموتا. فقال ﷺ: «ائتوني بهما» فجاءتا فدعا رسول الله ﷺ بقدح. فقال لإحداهما: «قيئي» فقاءت من قيح ودم وصديد حتى ملأت القدح. وقال للأخرى: «قيئي» فقاءت كذلك. فقال: «إن هاتين صامتا عمّا أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله عليهما. جلست إحداهما إلى الأخرى فجعلتا تأكلان لحوم الناس».

وقال أنس: خطبنا رسول الله فذكر الربا وعظّم شأنه. فقال: «إن الدرهم يُصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل، وأربى الربا عرض الرجل المسلم».

وأما النميمة: فهي خصلة ذميمة. قال الله تعالى: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[1]، ثم قال: ﴿عُتُلٍ بعد ذلك زنيم﴾[2].

قال عبد الله بن المبارك: الزنيم ولد الزنا الذي لا يكتم الحديث. وأشار به إلى أن

---

(١) سورة القلم، الآية: ١١.

(٢) سورة القلم، الآية: ١٣.

كلّ من لم يكتم الحديث، ويمشي بالنميمة، دلّ على أنه ولدُ زنا. استنباطاً من قوله عز وجل: ﴿عُتُلٍ بَعْدَ ذلك زَنِيمٍ﴾(١) والزنيم: هو الدعي.

وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾(٢). قيل: الهمزة النمام.

وقال تعالى: ﴿حَمَّالَةَ الحطَبِ﴾(٣). قيل: إنها كانت نمامة حمالة للحديث.

وقال تعالى: ﴿فَخَانَتَاهُمَا فَلَم يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللهِ شَيئاً﴾(٤). قيل: كانت امرأة لوط تُخبر بالضيفان، وامرأة نوح تُخبر أنه مجنون.

وقد قال ﷺ: «لا يدخل الجنّة نمام».

وفي حديث آخر: «لا يدخل الجنّة قتّات» والقتات: هو النمام.

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «أحبُّكم إلى الله أحاسنُكم أخلاقاً الموطّؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون. وإن أبغضَكم إلى الله المشّاؤون بالنميمة، المفرقون بين الإخوان، الملتمسون للبُرآء العثرات».

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بشراركم؟» قالوا: بلى. قال: المشاؤون بالنميمة، المُفسدون بين الأحبة، الباغون للبُرآء العيب».

وقال أبو ذر: قال رسول الله ﷺ: «من أشاع على مسلم كلمة ليشينه(٥) بها بغير حق، شانه الله بها في النار يوم القيامة».

وقال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ: «أيُّما رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها بريء، ليشينه بها في الدنيا كان حقاً على الله أن يشينه بها يوم القيامة في النار».

وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ: «من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل، فليتبوأ مقعده من النار».

---

(١) سورة القلم، الآية: ١٣.
(٢) سورة الهمزة، الآية: ١.
(٣) سورة المسد، الآية: ٤.
(٤) سورة التحريم، الآية: ١٠.
(٥) يشينه: ليعيبه وينقص من قدره.

ويُقال: إن ثلث عذاب القبر من النميمة.

وعن ابن عمر عن النبي ﷺ: «إن الله لما خلق الجنة. قال لها: تكلّمي. فقالت: سَعِد من دخلني.

فقال الجبار جل جلاله: وعزتي وجلالي لا يسكن فيك ثمانية نفر من الناس: لا يسكنك مدمن خمر، ولا مصرّ على الزنا، ولا قتّات ـ وهو النمام ـ ولا ديوث، ولا شَرَطي[١]، ولا مخنّث[٢]، ولا قاطع رحم، ولا الذي يقول: عليَّ عهدُ الله إن لم أفعل كذا وكذا، ثم لم يَفِ به».

وروى كعب الأحبار: أن بني اسرائيل أصابهم قحط[٣]، فاستسقى موسى عليه السلام مرات، فما سُقوا. فأوى الله تعالى إليه: إني لا أستجيب لك ولمن معك، وفيك نمّام، وقد أصر على النميمة.

فقال موسى: يا رب من هو، دلني عليه حتى أخرجه من بيننا؟ قال يا موسى أنهاكم عن النميمة، وأكون نماماً. فتابوا جميعاً، فسُقوا.

ويقال: اتّبع رجل رجل حكيماً سبعمائة فرسخ في سبع كلمات، فلما قدم عليه. قال: إني جئتك للذي آتاك الله تعالى من العلم. أخبرني عن السماء وما أثقل منها، وعن الأرض وما أوسع منها، وعن الصخر وما أقسى منه، وعن النار وما أحرّ منها، وعن الزمهرير وما أبرد منها، وعن البحر وما أغنى منه، وعن اليتيم وما أذل منه.

فقال له الحكيم: البهتان[٤] على البريء أثقل من السموات، والحق أوسع من الأرض، والقلب القانع أغنى من البحر، والحسد أحر من النار، والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير، وقلب الكافر أقسى من الحجر، والنمّام إذا بان أمره أذل من اليتيم.

---

(١) ولا شرطي: اللئيم من الناس.

(٢) المخنث: هو الرجل المتشبه بالنساء.

(٣) قحط: أي احتباس المطر بعد يباس الأرض.

(٤) البهتان: هو القذف بالباطل.

وما أحسن قول الشاعر:

من نمَّ في الناس لم تُؤمن عقاربُه ... على الصديقِ ولم تُؤمن أفاعيه

كالسيل بالليل لا يَدري به أحدٌ ... من أين جاء ولا من أين يأتيه

الويلُ للعهد منه كيف ينقضُهُ ... والويلُ للودِّ منه كيف ينفيه

وقول الآخر:

يسعى عليك كما يسعى إليك فلا ... تأمنْ غوائل ذي وجهين كيّاد



٧٩ ـ باب: في بيان عداوة الشيطان

قال ﷺ: «في القلب لَمَّتان: لَمَّة[1] من الملك، إيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه، وليحمد الله. ولمة من العدو: إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهي عن الخير. فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم. ثم تلا قوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ويَأْمُرُكُم بالفَحْشاءِ﴾[2].

وقال الحسن: إنّما هما همَّان يجولان في القلب. همّ من الله تعالى، وهمّ من العدو، فرحم الله عبداً وقف عند همّه. فما كان من الله تعالى أمضاه، وما كان من عدوه جاهده.

وقال جابر بن عُبيدة العَدَويّ: شكوت إلى العلاء بن زياد ما أجدُ في صدري من الوسوسة. فقال: إنما مثل ذلك مثل البيت الذي يمرُّ به اللصوص، فإن كان فيه شيء عالجوه، وإلا مضوا وتركوه، يعني: أن القلب الخالي عن الهوى لا يدخله الشيطان، ولذلك قال الله تعالى: ﴿إنَّ عِبَادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[3]. فكل من اتبع الهوى، فهو عبد الهوى لا عبد الله. ولذلك سلّط الله عليه الشيطان. وقال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ من اتَّخَذَ إلَهَهُ هَوَاه﴾[4]. وهو إشارة إلى أن من اتخذ الهوى إلهه ومعبوده فهو عبد الهوى لا عبد الله. ولذلك قال عثمان بن أبي العاص للنبي ﷺ: يا رسول الله حالَ الشيطان بيني وبين صلاتي وقراءتي، فقال: «ذلك شيطان يُقال له خَنْزَب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثاً» قال: ففعلت ذلك، فأذهبه الله عني.

وفي الخبر: «إن للوضوء شيطاناً يُقال له الولهان، فاستعيذوا بالله منه».

ولا يمحو وسوسة الشيطان من القلب، إلا ذكر ما سوى ما يُوسوس به، لأنه إذا

---

(١) لمَّة: أي مس.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.
(٣) سورة الإسراء الآية: ٦٥.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٤٣.

خطر في القلب ذكرُ شيء، انعدم منه ما كان فيه من قبل، ولكن كل شيء سوى الله تعالى، وسوى ما يتعلّق به، يجوز أيضاً أن يكون له مجال للشيطان. وذكرُ الله هو الذي يُؤمَنُ جانبه، ويُعلم أنه ليس للشيطان فيه مجال، ولا يُعالج الشيء إلا بضده. وضد جميع وساوس الشيطان ذكر الله بالاستعاذة والتبرّي عن الحول والقوة. وهو معنى قولك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وذلك لا يقدر عليه إلا المتقون الغالب عليهم ذكرُ الله تعالى، وإنما الشيطان يطوف عليهم في أوقات الفلتات على سبيل الخلسة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾[١].

وقال مجاهد في معنى قول الله تعالى: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾[٢]. قال: هو منبسط على القلب، فإذا ذكر الله تعالى خنس وانقبض، وإذا غفل انبسط على قلبه، فالتَّطاردُ بين ذكر الله تعالى ووسوسة الشيطان، كالتطارد بين النور والظلام، وبين الليل والنهار، ولتضادهما. قال الله تعالى: ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكرَ الله﴾[٣].

وقال أنس: قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان واضعٌ خرطومه على قلب ابن آدم، فإن هو ذكر الله تعالى خنس[٤]، وإن نسي الله تعالى التقمَ قلبه».

وقال ابن وضاح في حديث ذكره، «إذا بلغ الرجل أربعين سنة، ولم يتب، مسح الشيطان وجهه بيده، وقال بأبي وجه من لا يفلح».

وكما أن الشهوات ممتزجة بلحم ابن آدم ودمه، فسلطنة الشيطان أيضاً سارية في لحمه ودمه، ومحيطة بالقلب من جوانبه، ولذلك قال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجري الدم، فضيقوا مجاريه بالجوع» وذلك لأن الجوع يكسر الشهوة، ومجرى الشيطان الشهوات، ولأجل اكتناف الشهوات للقلب من جوانبه، قال الله تعالى إخباراً عن إبليس: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُم صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِن بَيْنِ أَيْدِيهِم وَمِن خَلْفِهِم وَعَن

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.
(٢) سورة الناس، الآية: ٤.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٩.
(٤) خَنَسَ: رجع وذهب عنه.

أَيْمَانِهِم وعَن شَمَائِلِهِم﴾[1].

وقال ﷺ: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطُرُق، فقعد له بطريق الإسلام. فقال: أتُسْلِمُ وتترك دينك ودين آبائك؟ فعصاه وأسلم. ثم قعد له بطريق الهجرة. فقال: أتهاجر؟ أتدع أرضك وسماءك؟ فعصاه وهاجر. ثم قعد له بطريق الجهاد. فقال: أتجاهد؟ وهو تلف النفس والمال، فتقاتلَ فتقتل وتُنكح نساؤك، ويقسم مالك؟ فعصاه وجاهد». وقال رسول الله ﷺ: «فمن فعل ذلك فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة».



(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦ ، ١٧.

٨٠ ـ باب: في بيان المحبة ومحاسبة النفس

قال سفيان: المحبة اتباع رسول الله ﷺ.

وقال غيره: دوام الذكر.

وقال غيره: إيثار المحبوب.

وقال بعضهم: كراهية البقاء في الدنيا.

وهذا كله إشارة إلى ثمرات المحبة. فأما نفس المحبة فلم يتعرضوا لها.

وقال بعضهم: المحبة معنًى من المحبوب، تعجز القلوب عن إدراكه، وتمتنع الألسن عن عبارته.

وقال الجنيد: حرم الله تعالى المحبة على صاحب العلاقة. وقال: كل محبّة تكون بعوض، فإذا زال العوض زالت المحبة.

وقال ذو النون: قلْ لمن أظهرَ حب الله: احذر أن تذل لغير الله.

وقيل للشبلي رحمه الله: صف لنا العارف والمحب. فقال: العارف إن تكلم هلك، والمحب إن سكت هلك، وأنشد الشبلي رحمه الله:

يا أيُّها السيدُ الكريمُ ... حبُّك بين الحشا مُقيمُ

يا رافعَ النوم عن جفوني ... أنت بما مرَّ بي عليمُ

ولغيره:

عجبتُ لمن يقولُ: ذكرتُ إلفي ... وهل أنسى فأذكرُ ما نَسيتُ

أموتُ إذا ذكرتُك ثم أحيا ... ولولا حسنُ ظنِّي ما حييتُ

فأحيا بالمنى وأموت شوقاً ... فكم أحيا عليك وكم أموتُ

شربتُ الحبَّ كأساً بعد كأس ... فما نفذ الشَّرابُ وما رويتُ

فليت خيالَه نصبٌ لعيني ... فإن قصّرت في نظري عميتُ

وقالت رابعة العدوية يوماً: من يدلُّنا على حبيبنا؟ فقالت خادمة لها: حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعتنا عنه.

وقال ابن الجلاّء رحمه الله: أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إني إذا أطّلعتُ على سرّ عبدٍ، ولم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ملأته من حبي، وتوليته بحفظي.

وقيل: تكلم سمنون يوماً في المحبة. فإذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض، حتى سال الدّم منه فمات.

وقال إبراهيم بن أدهم: إلهي إنك تعلم أن الجنة لا تزنُ عندي جناح بعوضة، في جنب ما أكرمتني من محبتك، وآنستني بذكرك، وفرّغتني للتفكّر في عظمتك.

وقال السّري رحمه الله: من أحب الله عاش، ومن مال إلى الدنيا طاش، والأحمق يغدو ويروح في لاش، والعاقل عن عيوبه فتّاش.

وأما محاسبة النفس فقد أمر الله بها بقوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذين آمَنُوا اتَّقُوا الله ولْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[1]. وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال. ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوها قبل أن تُوزنوا.

وفي الخبر: أنه ﷺ جاءه رجل فقال: يا رسول الله أوصني. فقال: «أمستوصٍ أنت؟» فقال: نعم. قال: «إذا هممت بأمر فتدبّر عاقبته، فإن كان رشداً فأمضه، وإن كان غياً فانته عنه».

وفي الخبر: «وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات: ساعة يُحاسب فيها نفسه». وقال تعالى: ﴿وتُوبُوا إلى اللهِ جَميعاً أيُّها المؤمِنُونَ لَعلَّكُم تُفْلِحُونَ﴾[2]. والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه.

وقد قال ﷺ: «إني لأستغفر الله تعالى وأتوبُ إليه في اليوم مائة مرّة».

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٨.

(٢) سورة النور، الآية: ٣١.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الذين اتَّقَوا إذا مَسَّهُم طَائِفٌ مِنَ الشَّيطَان تَذَكَّروا فإذا هُمْ مُبْصِرُون﴾[1].

وعن عمر رضي الله عنه أنه كانَ يَضربُ قدميه بالدُّرة إذا جنّه الليل، ويقول لنفسه: ماذا عملتِ اليوم؟

وعن ميمون بن مهران أنه قال: لا يكون العبد من المتقين حتى يُحاسب نفسه أشدّ من محاسبة شريكه. والشريكان يتحاسبان بعد العمل.

وروي عن عائشة رضي الله عنها: أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت: ما أحدٌ من الناس أحبَّ إلي من عمر. ثم قال لها: كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قال. فقال: لا أحدٌ أعز عليّ من عمر. فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها، وأبدلها بكلمة غيرها.

وحديث أبي طلحة حين شغله الطائرُ في صلاته، فتدبّر ذلك، فجعل حائطَه صدقة لله تعالى ندماً ورجاءً للعِوض مما فاته.

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب. فقيل له: يا أبا يوسف قد كان في بيتك وغلمانك ما يكفونَك. فقال: أردت أن أجرب نفسي هل تنكره؟

وقال الحسن: المؤمن قوّام على نفسه يُحاسبها لله، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق[2] الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمرَ من غير محاسبة. ثم فسّر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه، فيقول: والله إنك لتعجبني، وإنك لمن حاجتي. ولكن هيهات حيل بيني وبينك، وهذا حساب قبل العمل. ثم قال: ويفرط منه الشيء، فيرجع إلى نفسه فيقول: ماذا أردت بهذا؟ والله لا أعذر بهذا، والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله.

وقال أنس بن مالك: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً وقد خرج

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

(٢) شقَّ: عَثُر وشُدد.

وخرجتُ معه حتى دخل حائطاً[١]، فسمعته يقول ـ وبيني وبينه جدار وهو الحائط ـ: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخٍ بخٍ، والله لتتقينَّ الله، أو ليعذبنَّك.

وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾[٢]. قال: لا يُلفى المؤمن إلا يُعاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قُدماً، لا يُعاتب نفسه.

وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألستِ صاحبة كذا؟ ثم ذمَّها. ثم خطمها. ثم ألزمها كتاب الله تعالى. فكان لها قائداً. وهذا من معاتبة النفس.

وقال ميمون بن مِهران: التَّقي أشدّ محاسبة لنفسه من سلطان غاشم، ومن شريك شحيح.

وقال إبراهيم التيمي: مثّلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها. ثم مثّلت نفسي في النار آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: يا نفسُ أي شيء تريدين؟ فقالت: أريد أن أُردَّ إلى الدنيا فأعمل صالحاً. قلت: فأنت في الأمنية، فاعملي.

قال مالك بن دينار: سمعت الحجّاج يخطب، وهو يقول: رحم الله إمرءًا حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره، رحم الله أمرءًا أخذ بعنان عمله، فنظر ماذا يريد به رحم الله أمرءًا نظر في مكياله، رحم الله امرءًا نظر في ميزانه. فما زال يقول حتى أبكاني.

وحكى صاحبٌ للأحنف بن قيس قال: كنت أصحبه فكان عامّة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجيء إلى المصباح، فيضع إصبعه فيه حتى يحس بالنار، ثم يقول لنفسه: يا حُنيف ما حملكَ على ما صنعت يوم كذا؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟

---

(١) حائط: بستان.
(٢) سورة القيامة، الآية: ٢.

٨١ ـ باب: في بيان تلبيس الحق بالباطل

قال رسول الله فيما رواه معقل بن يسار: «يأتي على الناس زمان، يَخْلَقُ[١] فيه القرآن في قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الأبدان، أمرُهم كله يكون طمعاً لا خوف معه. إن أحسنَ أحدهم قال: يُتَقَبَّلُ مني. وإن أساء قال: يُغفر لي». فأخبر أنهم يضعون الطمع موضع الخوف، لجهلهم بتخويفات القرآن وما فيه.

وبمثله أخبر عن النصارى، إذ قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِم خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذا الأدنى ويَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[٢]، ومعناه: أنهم ورثوا الكتاب: أي هم علماء ﴿يأخذون عرض هذا الأدنى﴾ أي شهواتهم من الدنيا، حراماً كان أو حلالاً، وقد قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ ربِّه جَنَّتَانِ﴾[٣] وقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خافَ مقَامي وخَافَ وَعِيد﴾[٤].

والقرآن من أوله تحذير وتخويف، لا يتفكّر فيه متفكر إلا ويطول حزنه، ويعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه، وترى الناس يهذُّونَه هذاً، يُخرجون الحروف من مخارجها، ويتناظرون على خفضها ورفعها ونصبها. وكأنهم يقرؤون شعراً من أشعار العرب، لا يهمهم الالتفات إلى معانيه، والعمل بما فيه، وهل في العالم غرور يزيد على هذا؟

ويقرب منه غرور طوائف لهم طاعات ومعاص، إلا أن معاصيهم أكثر، وهم يتوقّعون المغفرة ويظنون أنهم تترجّح كفَّةُ حسناتهم، مع أن ما في كفة السيئات أكثر، وهذا غاية الجهل، فترى الواحد يتصدّق بدراهم معدودة من الحلال والحرام، ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه، ولعل ما تصدق به هو من أموال

(١) يخلق فيه القرآن: ينسىٰ ويهمل.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٦٩.
(٣) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.
(٤) سورة ابراهيم، الآية: ١٤.

المسلمين، وهو يتكل عليه، ويظن أن أكل ألف درهم حرام، يقاومه التصدق بعشرة من الحرام أو الحلال. وما هو إلا كمن وضع عشرة دراهم في كفّة ميزان، وفي الكفة الأخرى ألفاً، وأراد أن يرفع الكفة الثقيلة بالكفة الخفيفة. وذلك غاية جهله.

ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه، لأنه لا يحاسب نفسه، ولا يتفقد معاصيه، وإذا عمل طاعة حفظها واعتدَّ بها كالذي يستغفر الله بلسانه، أو يسبح الله باليوم مئة مرة، ثم يغتاب المسلمين، ويمزق أعراضهم، ويتكلم بما لا يرضاه الله طول النهار من غير حصر وعدد، ويكون نظره إلى عدد سبَّحته أنه استغفر الله مئة مرة، وغفل عن هذيانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مئة مرة أو ألف مرة، وقد كتبه الكرام الكاتبون، وقد أوعده الله بالعقاب على كل كلمة، فقال: ﴿ما يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقيبٌ عَتيدٌ﴾[1]. فهذا أبداً يتأمل في فضائل التسبيحات والتهليلات، ولا يلتفت إلى ما ورد من عقوبة المغتابين، والكذابين، والنمامين، والمنافقين الذي يظهرون من الكلام ما لا يضمرونه، إلى غير ذلك من آفات اللسان. وذلك محض الغرور.

ولعمري لو كان الكرام الكاتبون يطلبون منه أجرة النسخ لما يكتبونه من هذيانه الذي زاد على تسبيحه، لكان عند ذلك يكفُّ لسانه، حتى عن جملة من مُهماته. وما نطق به في فتراته كان يعدّه ويحسبه ويوازيه بتسبيحاته، حتى لا يفضل عليه أجرة نسخه، فيا عجباً لمن يحاسب نفسه، ويحتاط خوفاً على قيراط يفوته في الأجرة على النسخ، ولا يحتاط خوفاً من فوت الفردوس الأعلى ونعيمه، وما هذه إلا مُصيبة عظيمة لمن تفكر فيها، فقد دُفعنا إلى أمر. إن شككنا فيه كنا من الكفرة الجاحدين، وإن صدقنا به كنا من الحمقى المغرورين، فما هذه أعمال من يصدّق بما جاء به القرآن، وإنّا نبرأ إلى الله أن نكون من أهل الكفران. فسبحان من صدّنا عن التنبه واليقين، مع هذا البيان.

وما أجدر ممن يقدر على تسليط مثل هذه الغفلة والغرور على القلوب، أن يُخشى ويُتّقى ولا يغترّ به، اتكالاً على أباطيل المنى، وتعاليل الشيطان والهوى. والله أعلم.

---

(١) سورة ق، الآية: ١٨.

٨٢ ـ باب: في فضل صلاة الجماعة

قال ﷺ: «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ[١] بسبع وعشرين درجة».

وروى أبو هريرة أنه ﷺ فقد ناساً في بعض الصلوات. فقال: «لقد هممتُ أن آمر رجلاً يُصلي بالناس، ثم أخالف الى رجال يتخلّفون عنها، فأحرّقُ عليهم بيوتهم».

وفي رواية أخرى: «ثم أخالف الى رجال يتخلفون عنها، فآمر بهم، فتحرّق عليهم بيوتهم بحزم الحطب، ولو علم أحدهم أنه يجد عظماً سميناً أو مِرْماتيْن[٢] لشهدها» يعني صلاة العشاء.

وقال عثمان رضي الله عنه مرفوعاً: من شهد[٣] العشاء فكأنما قام نصف ليله، ومن شهد الصبح فكأنما قام ليله.

وقال ﷺ: «من صلّى صلاة في جماعة، فقد ملأ نحره عبادة».

وقال سعيد بن المسيب: ما أذَّنَ مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا في المسجد.

وقال محمد بن واسع: ما أشتهي من الدنيا إلاّ ثلاثة: أخاً إن تعوّجت قوّمني، وقوتاً من الرزق عفوا بغير تبعة، وصلاة في جماعة يُرفع عني سهوها ويُكتب لي فضلها.

وروي أن أبا عبيدة بن الجراح أمّ قوماً مرة، فلما انصرف قال: ما زال الشيطان بي آنفاً حتى رأيت أن لي فضلاً على غيري، لا أؤم أبداً.

وقال الحسن: لا تصلّوا خلف رجل لا يختلف إلى العلماء.

وقال النخعي: مثل الذي يؤم الناس بغير علم، مثل الذي يكيل الماء في البحر، لا يدري زيادته من نقصانه.

---

(١) الفذّ: أي الفرد.

(٢) مرماتين: وهو ما بين ظلفي الشاة.

(٣) شهد: حضر صلاة العشاء.

وقال حاتم الأصم: فاتتني الصلاة في الجماعة، فعزّاني أبو اسحق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لعزّاني أكثر من عشرة آلاف، لأن مُصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من سمع المنادي، فلم يُجب لم يَرِد خيراً، ولم يُرَد به خير.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: لأن تملأ أذن ابن آدم رصاصاً مُذاباً، خير له من أن يسمع النداء، ثم لا يجيب.

وروي أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقيل له: إن الناس قد انصرفوا. فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، لَفضلُ هذه الصلاة أحب إليّ من ولاية العراق.

وقال ﷺ: «من صلّى أربعين يوماً الصلوات في جماعة لا تفوته فيها تكبيرة الإحرام، كتب الله له براءتين: براءة من النفاق، وبراءة من النار».

ويقال: إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالكوكب الدُّري، فتقول لهم الملائكة: ما كانت أعمالكم؟ فيقولون: كنا إذا سمعنا الأذان قمنا إلى الطهارة، لا يشغلنا غيرها، ثم تُحشر طائفة وجوههم كالأقمار، فيقولون بعد السؤال: كنا نتوضأ قبل الوقت. ثم تُحشر طائفة وجوههم كالشمس، فيقولون: كنا نسمع الأذان في المسجد.

وروي أن السلف كانوا يعزُّون أنفسهم ثلاثة أيام، إذا فاتتهم التكبيرة الأولى، ويعزون سبعاً إذا فاتتهم الجماعة.

٨٣ ـ باب: في فضل صلاة الليل

أما من الآيات فقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أدْنَى مِن ثُلُثَي اللَّيل﴾[١] الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيلِ هي أَشَدُّ وَطْئاً وأقْوَمُ قِيلاً﴾[٢].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عنِ المضاجِعِ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيلِ ساجِداً وقائماً﴾[٤].

وقوله عزّ وجل: ﴿والَّذين يَبيتُونَ لِرَبِّهم سُجَّداً وقِياماً﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿واسْتَعِينُوا بالصَّبر والصَّلاةِ﴾[٦] قيل: هي قيام الليل يُستعان بالصبر على مجاهدة النفس.

ومن الأخبار قوله ﷺ: «يعقد الشيطان على قافية[٧] أحدكم إذا هو نام ثلاث عُقَد، يضرب كل عقدة مكانها: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عُقَدُهُ كلها، فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان».

وفي الخبر: أنه ذُكر عنده رجل ينام كل الليل حتى يُصبح. فقال: «ذاك الرجل بال

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٢٠.
(٢) سورة المزمل، الآية: ٦.
(٣) سورة السجدة، الآية: ١٦.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٩.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٦٤.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٤٥.
(٧) قافية: رأس.

الشيطان في أذنه».

وفي الخبر: «إن للشيطان سُعُوطاً ولعوقاً وذروراً. فإذا أسعط العبد ساء خلقه، وإذا لعقه ذرب لسانه بالشر، وإذا ذرّه نام الليل حتى يصبح».

وقال ﷺ: «ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل، خير له من الدنيا وما فيها، ولولا أن أشق على أمتي لفرضتهما عليهم».

وفي الصحيح عن جابر أن النبي ﷺ قال: «إن من الليل ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه إياه».

وفي رواية: «يسأل الله خيراً من الدنيا والآخرة» وذلك في كل ليلة.

وقال المغيرة بن شعبة: قام رسول الله ﷺ حتى تفطّرت قدماه فقيل له: أما قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً» ويظهر من معناه أن ذلك كناية عن زيادة الرتبة، فإن الشكر سبب المزيد. قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرتُم لأَزِيدَنَّكُم﴾[1].

وقال ﷺ: «يا أبا هريرة، أتريد أن تكون رحمة الله عليك حياً وميتاً، ومقبوراً ومبعوثاً؟ قم من الليل فصلِّ وأنت تريد رضا ربك، يا أبا هريرة صلِّ في زوايا بيتك، يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنيا».

وقال ﷺ: «عليكم بقيام الليل فإنه دأب[2] الصالحين قبلكم، فإن قيام الليل قربة إلى الله عزّ وجل وتكفير للذنوب، ومطردة للداء عن الجسد، ومنهاة عن الإثم».

وقال ﷺ: «ما من امرىء تكون له صلاة بالليل فغلبه عليها النوم إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه صدقة عليه».

وقال ﷺ لأبي ذر: «لو أردت سفراً أعددت له عدة»؟ قال: نعم. قال: «فكيف سفر طريق القيامة؟ ألا أنبئك يا أبا ذر بما ينفعك في ذلك اليوم؟» قال: بلى بأبي أنت وأمي. قال: «صم يوماً شديد الحر ليوم النشور، وصل ركعتين في ظلمة الليل لوحشة

---

(١) سورة ابراهيم، الآية: ٧.

(٢) دأب: جَدَّ ولازم، والمعنى: ملازمة الصالحين لقيام الليل.

القبور، وحجّ حجة لعظائم الأمور، وتصدّق بصدقة على مسكين، أو كلمة حق تقولها، أو كلمة شر تسكت عنها».

ورُوي: أنه كان على عهد النبي ﷺ رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم، وهدأت[١] العيون، قام يصلي ويقرأ القرآن، ويقول: يا رب النار أجرني منها. فذُكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «إذا كان ذلك فآذنوني» فأتاه فاستمع، فلما أصبح قال: «يا فلان هلا سألت الله الجنة؟» فقال: يا رسول الله إني لست هناك، ولا يبلغ عملي ذاك. فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزل جبريل عليه السلام وقال: أخبر فلاناً أن الله قد أجاره من النار، وأدخله الجنة.

ويُروى أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: نعم الرجل ابن عمرَ لو كان يُصلي بالليل. فأخبره النبي ﷺ بذلك فكان يُداوم بعده على قيام الليل. قال نافع: كان يصلّي بالليل ثم يقول: يا نافع أسحرنا[٢]؟ فأقول: لا.. فيقوم لصلاته، ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول: نعم. فيقعد فيستغفر الله تعالى، حتى يطلع الفجر.

وقال علي بن أبي طالب: شبع يحيى بن زكريا عليهما السلام ليلة من خبز شعير، فنام عن وِرْدِه، حتى أصبح، فأوحى الله تعالى إليه: يا يحيى أوجدت داراً خيراً لك من داري؟ أم وجدت جواراً خيراً لك من جواري؟ فوعزتي وجلالي يا يحيى لو اطلعت إلى الفردوس اطلاعة[٣] لذاب شحمُك، ولزهقت نفسك اشتياقاً، ولو اطّلعت الى جهنم اطّلاعة لذاب شحمك، ولبكيت الصديد بعد الدموع، وللبست الجلد بعد المسوح.

وقيل لرسول الله ﷺ: إن فلاناً يصلي بالليل، فإذا أصبح سرق. فقال: «سينهاه ما يعمل».

وقال ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل يُصلي، ثم أيقظ امرأته فصلّت، فإن أبت نضح في وجهها الماء».

وقال ﷺ: «رحم الله امرأة قامت من الليل فصلّت، ثم أيقظت زوجها فصلّى، فإن أبى نضحت في وجهه الماء».

---

(١) هدأت: نامت.

(٢) أسحرنا: أي حان وقت السحر.

(٣) إطّلاعه: نظرة فاحصة.

وقال ﷺ: «من استيقظ في الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات».

وقال ﷺ: «أفضلُ الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال النبي ﷺ: «من نام عن حزبه أو عن شيء منه بالليل، فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنما قرأه من الليل».

قيل: كان الإمام البُخاري رضي الله عنه كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين:

اغتنم في الفراغ فضلَ ركوعٍ فعسى أن يكونَ موتُكَ بغتَهْ
كم صحيحٍ رأيتَ من غير سُقمٍ خرجت نفسُه الصحيحةُ فلتَهْ



٨٤ ـ باب: في عقوبة علماء الدنيا

ونعني بعلماء الدنيا: علماء السُوء، الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا، والتوصل الى الجاه والمنزلة عند أهلها.

قال ﷺ: «إن أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه».

وعنه ﷺ أنه قال: «لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً».

وقال ﷺ: العلم علمان: علم على اللسان، فذلك حجّة الله تعالى على خلقه، وعلم في القلب، فذلك العلم النافع».

وقال ﷺ: «يكون في آخر الزمان عُبّاد جهّال، وعلماء فساق».

وقال ﷺ: «لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولتماروا به السُفهاء، ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم. فمن فعل ذلك فهو في النار».

وقال ﷺ: «من كتم علماً عنده ألجمه الله بلجام من نار».

وقال ﷺ: «لأنا من غير الدَّجال أخوف عليكم من الدجال» فقيل: وما ذلك؟ فقال: «من الأئمة المضلين».

وقال ﷺ: «من ازداد علماً ولم يزدد هدًى، لم يزدد من الله إلا بعداً».

وقال عيسى عليه السلام: إلى متى تصفون الطريق للمُدْلجين وأنتم مقيمون مع المتحيرين؟

فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم، فإن العالم إما متعرّض لهلاك الأبد أو لسعادة الأبد، وإنه بالخوض في العلم قد حُرم السلامة، إن لم يدرك السعادة.

وقال عمر رضي الله عنه: إن أخوف ما أخاف على هذه الأمَّة المنافق العليم. قالوا: وكيف يكون منافقاً عليماً؟ قال: عليم اللسان جاهل القلب والعمل.

وقال الحسن رحمه الله: لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء، ويجري في العمل مجرى السفهاء.

وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه: أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه. فقال: كفى بترك العلم اضاعة له.

وقيل لإبراهيم بن عيينة: أي الناس أطول ندماً؟ قال: أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره، وأما عند الموت فعالم مُفَرِّط.

وقال الخليل بن أحمد: الرجال أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري، فذلك عالم فاتبعوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري، فذلك نائم فأيقظوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري، فذلك مسترشد فأرشدوه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فذلك جاهل فارفضوه.

وقال سُفيان الثوري رحمه الله: يهتف[1] العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل.

وقال ابن المبارك: لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل.

وقال الفُضيل بن عياض رحمه الله: إني لأرحم ثلاثة: عزيز قوم ذلَّ، وغني قوم افتقر، وعالماً تلعب به الدنيا.

وقال الحسن: عقوبة العلماء موت القلب، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة. وأنشدوا:

عجبت لمبتاع الضَّلالة بالهُدى ... ومن يشتري دنياه بالدِّين أعجبُ
وأعجبُ من هذين من باعَ دينَه ... بدنيا سِواه فهو من ذين أعجبُ

وقال ﷺ: «إن العالِم ليُعذَّب عذاباً يطيف به أهل النار استعظاماً لشدّة عذابه» أراد به العالم الفاجر.

---

(١) يهتف: يدعو ويناشد.

وقال أسامة بن زيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالعالم يوم القيامة، فيُلقى في النار فتندلق[١] أقتابه[٢] فيدور بها كما يدور الحمار بالرّحى، فيطيف به أهل النار. فيقولون: ما لك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه، وأنهي عن الشر وآتيه» وإنما يُضاعف عذاب العالم في معصيته، لأنه عصى عن علم.

ولذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِن النَّارِ﴾[٣] لأنهم جحدوا بعد العلم، وجعل اليهود شراً من النصارى، مع أنهم ما جعلوا لله سبحانه ولداً، ولا قالوا: إنه ثالث ثلاثة، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة، إذ قال الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَهُ كما يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُم﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم ما عَرَفُوا كَفَروا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ على الكافِرين﴾[٥].

وقال تعالى في قصة بلعام بن باعوراء: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ حتى قال: ﴿فَمَثَلَهُ كَمَثَلِ الكلْبِ إن تَحْمِلْ عَلَيه يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهث﴾[٦] فكذلك العالم الفاجر، فإن «بلعام» أوتي كتاب الله تعالى، فأخلد إلى الشهوات، فُشبّه بالكلب. أي سواء أوتي الحكمة أو لم يؤت. فهو يلهث إلى الشهوات.

وقال عيسى عليه السلام: مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر، لا هي تشرب الماء، ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع.

---

(١) افتندلق: تخرج.

(٢) أقتابه: إمعاؤه.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

(٦) سورة الأعراف، الآيتان: ١٧٥، ١٧٦.

٨٥ ـ باب: في فضل حسن الخلق

قال الله تعالى لنبيّه وحبيبه مثنياً عليه، ومظهراً نعمته لديه: ﴿وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم﴾[١].

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ خلقه القرآن.

وسأل رجل رسول الله ﷺ عن حُسن الخلق فتلا قوله تعالى: ﴿خُذِ العَفْوَ وأْمُر بالعُرفِ وأعْرِضْ عن الجَاهِلينَ﴾[٢] ثم قال ﷺ: «هو أن تَصلَ من قطعك، وتُعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك».

وقال ﷺ: «إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

وقال ﷺ: «أثقل ما يُوضع في الميزان يوم القيامة: تقوى الله وحُسن الخلق».

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ من بين يديه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: «حسن الخلق» فأتاه من قِبَلِ يمينه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ قال: «حسن الخلق» ثم أتاه من قِبَلِ شماله فقال: ما الدين؟ فقال: «حسن الخلق» ثم أتاه من ورائه فقال: يا رسول الله ما الدين؟ فالتفت اليه وقال: «أما تفقه؟ هو ألا تغضب».

وقيل: يا رسول الله ما الشؤم؟ قال: «سوء الخلق».

وقال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني. فقال: «أتق الله حيث كنت» قال: زدني. قال: «اتبع السيئة الحسنة تمحُها»، قال: زدني. قال: «خالق الناس بخلق حسن».

وسئل ﷺ: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «خلق حسن».

وقال ﷺ: «ما حسَّن الله خُلقَ عبد وخَلقَه، فيطعمه النار».

وقال الفُضيل: قيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل، وهي سيئة

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

الخلق، تؤذي جيرانها بلسانها. قال: «لا خير فيها هي من أهل النار».

وقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول ما يُوضع في الميزان حسن الخلق والسخاء».

ولما خلق الله الإيمان. قال: اللهم قوني. فقواه بحسن الخلق والسخاء، ولما خلق الله الكفر، قال: اللهم قوني، فقواه بالبخل وسوء الخلق.

وقال ﷺ: «إن الله استخلص هذا الدين لنفسه، ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق، ألا فزينوا دينكم بهما».

وقال ﷺ: «حسن الخلق خلقُ الله الأعظم».

وقيل: يا رسول الله أي المؤمنين أفضل إيماناً؟ قال: «أحسنهم خُلقاً».

وقال ﷺ: «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق».

وقال أيضاً ﷺ: «سُوء الخلق يُفسد العمل، كما يُفسد الخلُّ العسل».

وعن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إنك امرؤ قد حسَّن الله خَلقك، فحسن خُلقك».

وعن البراء بن عازب قال: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً.

وعن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه: «اللهم كما حسَّنت خَلقي، فحسِّن خُلقي».

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يكثر الدعاء. فيقول: «اللهم إني أسألك الصحة والعافية وحسن الخلق».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: كَرَمُ المؤمن دينُه، وحسَبُه حُسن خُلُقه، ومروءته[1] عقله».

---

(١) مروءته: المروءة: هي جملة من الآداب النفسية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات.

وعن أسامة بن شريك قال: شهدت الأعاريب يسألون النبي ﷺ، يقولون: ما خير ما أُعطي العبد؟ قال: «خُلُق حَسَن».

وقال ﷺ: «إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاث من لم يكن فيه أو واحدة منهنّ فلا تعتدُّوا بشيء من عمله: تقوى تَحْجِزُه عن معاصي الله، وحلم يكف به السفيه، وخلق يعيش به بين الناس».

وكان من دعائه ﷺ في افتتاح الصلاة: «اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، ولا يصرف عني سيئها إلا أنت».

وقيل: فيم التجمّل؟ قال: في لطف الكلام، وإظهار البشر والابتسام، فمن لقي الناس بالإحسان وعاملهم بالأخلاق الحسان فهو الذي يخفُّ عليه جانبه، ويحمد إخاؤه. كما قال:

إذا حويت[1] خصالَ الخيرِ أجمعها ... فضلاً وعاملتَ كلَّ الناس بالحسن
لم تعدمِ الخير من ذي العرش تُحرزُهُ[2] ... والشّكر من خلقه في السرِّ والعلن

---

(١) حويت: جمعت.
(٢) تُحرزه: تحفظه وتصونه.

٨٦ ـ باب: في الضحك والبكاء واللباس

قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هذا الحَدِيثِ﴾ أي القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ منه تكذيباً ﴿وتَضْحَكُونَ﴾ منه استهزاء، مع كونه من عند الله تعالى ﴿ولا تَبْكُونَ﴾ خوفاً وانزجاراً لما فيه من الوعيد ﴿وأَنْتُم سَامِدُون﴾[1] لاهون غافلون عما يطلب منكم. قال: لما نزلت هذه الآية، فما ضحك النبي ﷺ بعد ذلك، إلا أن يبتسم.

وفي لفظ: فما رُئي النبي ﷺ ضاحكاً ولا مبتسماً، حتى ذهب من الدنيا.

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ ذات يوم من المسجد، فإذا قوم يتحدثون ويضحكون. فوقف وسلّم عليهم، ثم قال: «أكثروا ذكر هاذم اللّذات»[2] ثم خرج بعد ذلك مرة أخرى، فإذا قوم يضحكون فقال: «أما والذي نفسي بيده، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً».

ولما أراد الخضر أن يفارق موسى عليهما السلام قال له: عظني، قال له: يا موسى إياك واللجاجة[3]، ولا تمش بغير حاجة، ولا تضحك من غير عجب، ولا تعيّر الخطّائين بخطاياهم، وابك على خطيئتك.

وقال ﷺ: «كثرة الضحك تُميت القلب».

وقال ﷺ: «من ضحك لشبابه بكى لهرمه، ومن ضحك لغناه بكى لفقره، ومن ضحك لحياته بكى لموته».

وقال ﷺ: «اقرؤا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا».

وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَليلاً﴾ أي: في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُوا كَثيراً﴾[4]

---

(١) سورة النجم، الآية: ٥٩ ـ ٦١.

(٢) أي الموت.

(٣) اللجاجة: ارتفاع الأصوات والصخب.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٨٢.

أي: في الآخرة ﴿جَزَاءً بما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾[١].

وقال أيضاً: يا عجباً من ضاحك ومن ورائه النار، ومن مسرور من ورائه الموت.

ومر رضي الله عنه بشاب يضحك فقال له: يا بني هل جزتَ على الصِّراط؟ قال: لا. قال: هل تبيَّن لك أنك تصير إلى الجنة؟ قال: لا. قال: ففيم الضحك؟ فما رُئي الشاب ضاحكاً بعد ذلك.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: من أذنب ذنباً وهو يضحك دخل النار وهو يبكي

ومدح الله تعالى أقواماً بالبكاء. فقال تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ للأَذْقَانِ يَبْكُون﴾[٢].

وعن الأوزاعي في قوله تعالى: ﴿مَا لِهذا الكِتَابِ لا يُغادِرُ صَغِيْرَةً ولا كَبِيْرَةً إلاَّ أحْصَاهَا﴾[٣] قال: الصغيرة التبسُّم، والكبيرة: القهقهة.

وقال ﷺ: «كلُّ عين باكية يوم القيامة إلا ثلاثاً: عين بكت من خشية الله، وعين غضَّت عن محارم الله، وعين سهرت في سبيل الله تعالى».

ويقال: ثلاثة أشياء تقسّي القلب: الضحك من غير عجب، والأكل من غير جوع، والكلام في غير حاجة.

وكان رسول الله ﷺ يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك.

وكان يُعجبه الثياب الخضر. وكان أكثر لباسه البياض، ويقول: «ألبسوها أحياءكم، وكفنوا فيها موتاكم».

وكان له ﷺ قباء سندسي فيلبسه فتحسن خضرته على بياض لونه.

وكانت ثيابُه كلها مشمَّرة فوق الكعبين، ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق، ولقد كان له كساء أسود فوهبه. فقالت له أم سلمة: بأبي أنت وأمي، ما فعل ذلك

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٩.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

الكساء الأسود؟ فقال: «كسوته» فقالت: ما رأيت شيئاً قطُّ كان أحسن من بياضك على سواده.

وكان ﷺ إذا لبس ثوباً لبسه من قِبل ميامنه، ويقول: «الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي، وأتجمّل به في الناس» وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره، وكان إذا لبس جديداً أعطى خلق ثيابه مسكيناً ثم يقول: «ما من مسلم يكسو مسلماً من سمل ثيابه لا يكسوه إلا لله، إلا كان في ضمان الله وحرزه وخيره ما واراه حياً وميتاً».

وكانت له ﷺ عباءة تُفرش له، حيثما تنقل، تثنى طاقين تحته وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره.



٨٧ ـ باب: في فضل القرآن وفضل العلم والعلماء

قال ﷺ: «من قرأ القرآن، ثم رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي، فقد استصغر من عظمة الله تعالى».

وقال ﷺ: «ما من شفيع أفضل منزلة عند الله تعالى من القرآن».

وقال ﷺ: «أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن».

وقال ﷺ: «خيركم من تعلّم العلم وعلّمه».

وقال ﷺ: «إن القلوب لتصدأ[١] كما يصدأُ الحديد» فقيل: يا رسول الله وما جلاؤها؟ فقال: «تلاوة القرآن وذكر الموت».

وقال الفُضيل بن عياض: حامل القرآن حامل راية الإسلام، فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو، ولا يلغو مع من يلغو، تعظيماً لحق القرآن.

وقال أيضاً: من قرأ خاتمة سورة الحشر حين يُصبح، ثم مات من يومه خُتم له بطابع الشهداء، ومن قرأها حين يُمسي، ثم مات من ليلته، خُتم له بطابع الشهداء.

وأما فضل العلم والعلماء: فالأحاديث الواردة في ذلك كثيرة.

قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدين ويُلهمه[٢] رشده».

وقال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» ومعلوم أنه لا رتبة فوق رتبة النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة.

وقال ﷺ: «أفضل الناس المؤمن العالم الذي إذا احتيج إليه نفع، وإن استُغني عنه أغنى نفسه».

---

(١) لتصدأ: تَفْتُر وتَخْمُل.

(٢) يلهمه: الإلهام: هو إيقاع شيء في القلب يطمئن له الصدر، يخصّ الله به بعض أصفيائه.

وقال ﷺ: «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد». أما أهل العلم فدلُّوا الناس على ما جاء به الرسل، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل».

وقال ﷺ: «لموت قبيلة أيسر من موت عالم».

وقال ﷺ: «يُوزن يوم القيامة مِداد العلماء بدم الشهداء».

وقال ﷺ: «لا يشبع عالم من علم حتى يكون مُنتهاه الجنة».

وقال ﷺ: «هلاك أمتي في شيئين: ترك العلم، وجمع المال».

وقال ﷺ: «كُن عالماً أو متعلّماً أو مُستمعاً أو مُحباً ولا تكن الخامسة ـ أي مبغضاً ـ فتهلك».

وقال ﷺ: «آفة العلم الخيلاء».

ومن أمثال الحكماء: من طلب العلم والرياسة فقد عدم التوفيق والسياسة.

قال تعالى: ﴿سأصرِفُ عن آياتي الّذينَ يتكبّرُونَ في الأرْضِ بِغَيْرِ الحَق﴾[1].

وقال الشافعي رضي الله عنه: من تعلّم القرآن عظمت قيمته، ومن تعلم الفقه جلّ مقداره، ومن تعلم الحديث قويت حجّته، ومن تعلم الحساب جَزُل رأيه، ومن تعلّم الغريب رقّ طبعه، ومن لم يُعزّ نفسه لم ينفعه علمه.

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: من أكثر مجالسة العلماء أطلق عِقال لسانه، وفتق مراتق ذهنه، وسره ما وجد من الزيادة في نفسه، وكانت له ولاية لما يعلم، وإفادة لما تعلم.

وقال ﷺ: «إذا ردّ الله عبداً، حظر عليه العلم».

وقال ﷺ: «لا فقر أشد من الجهل».

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

٨٨ ـ باب: في فضل الصلاة والزكاة

اعلم أن الله تعالى جعل الزكاة إحدى مباني الإسلام، وأردف بذكرها الصلاة، التي هي أعلى الأعلام. فقال تعالى: ﴿وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ﴾[١].

وقال ﷺ: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة. .» الحديث.

وشدّد الوعيد على المقصّرين فيهما فقال تعالى: ﴿فَوَيلٌ لِلمُصَلِّينَ* الّذين هُم عن صَلاتِهِم سَاهُونَ﴾[٢] وتقدم الكلام على ذلك مستوفى. وقال تعالى: ﴿والّذين يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفِضَّةَ ولا يُنْفِقُونَها في سَبيلِ الله فَبَشِّرهُمْ بعَذَابٍ أَليمٍ﴾[٣].

ومعنى الإنفاق في سبيل الله: إخراج الزكاة.

[فائدة] يُستحب أن يطلب لصدقته أتقياء الفقراء المُعرِضين عن الدنيا، المتجرّدين لتجارة الآخرة، فإن ذلك يربو[٤] به المال.

قال ﷺ: «لا تأكل إلا طعام تقيّ، ولا يأكل طعامك إلا تقي» وذلك لأن التقي يستعين به على التقوى، فتكون شريكاً له في طاعتك بإعانتك إياه.

وكان بعض العلماء يؤثر[٥] بالصدقة فقراء الصوفية دون غيرهم. فقيل له: لو عمّمت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل؟ فقال: لا. هؤلاء قوم هِمَمُهم لله سبحانه، فإذا طرقتهم فاقة تَشَتَّتَتْ همة أحدهم، فلأن أَرُدَّ واحداً إلى الله عزّ وجلّ أحب إلي من أن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٣.

(٢) سورة الماعون، الآيتان: ٤ ، ٥.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

(٤) يربو: يزيد وينمو.

(٥) يؤثر: أي يفضل.

أعطي ألفاً ممن همَّته الدنيا.

فذُكر هذا الكلام للجُنيد فاستحسنه وقال: هذا ولي من أولياء الله تعالى، وقال: ما سمعت منذ زمان كلاماً أحسن من هذا.

ثم حُكي أن هذا الرجل اختل حاله، وهمّ بترك الحانوت، فبعث إليه الجنيد مالاً، وقال: اجعله بضاعتك، ولا تترك الحانوت، فإن التجارة لا تضرُّ مثلك. وكان هذا الرجل بقالاً لا يأخذ من الفقراء ثمن ما يبتاعونه.

وكان ابن المبارك يخصّص بمعروفه أهل العلم، فقيل له: لو عمّمت؟ فقال: إني لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء، فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته، لم يتفرغ للعلم، ولم يُقبل على التعلّم. فتفريغهم للعلم أفضل.

وأن يخصّ ذوي العاهات لا سيما ذوي الأرحام والأقارب، فتكون صدقة وصلة رحم، وفي صلة الرحم ما لا يُحصى من الأجر، كما مر في بابه، وأن يخرج الصدقة سراً ليسلم من شؤم الرياء، ومن إذلال المعطي في الملأ، قال ﷺ: «صدقة السرّ تُطفىء غضب الرب».

وذكر في حديث السبعة الذين يظلهم الله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: «رجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أعطت يمينه».

نعم. إن كان في إظهار الصدقة خير، كأن كان يقتدي به غيره، فلا بأس إن سلم من الرياء، وتجنب الامتنان، كما قال تعالى: ﴿لا تُبطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بالمَنِّ والأَذَى﴾[1].

فآفة المعروف المنُّ، بل يؤثر كتمانه، ويستعمل نسيانه، كما يجب على من صُنع له معروف نشره ويتعين عليه شكره، كما في الحديث: «لا يشكرُ الله من لا يشكر الناس».

وما أحسن قول القائل:

يـدُ المعـروف غُنْـمٌ حيـث كـانـتْ ... تحمّلهـا كفـورٌ أو شكـورُ
ففـي شكـرِ الشكـورِ لهـا جـزاءٌ ... وعنـد الله مـا كَفَـرَ الكفـورُ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

٨٩ ـ باب: في بر الوالدين، وحقوق الأولاد

لا يخفى أنه إذا تأكد حقّ القرابة والرحم، فأخصُ الأرحام وأمسّها الولادة، فيتضاعف تأكد الحق فيها. وقد قال ﷺ: «لن يجزيَ ولد والده حتى يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه».

وقد قال ﷺ: «برُّ الوالدين أفضل من الصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله».

وقد قال ﷺ: «من أصبح مرضياً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة، ومن أمسى فمثل ذلك، وإن كان واحداً فواحدٌ وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما، ومن أصبح مُسخطاً لأبويه، أصبح له بابان مفتوحان إلى النار، ومن أمسى فمثل ذلك، وإن كان واحداً فواحدٌ، وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما».

وقال ﷺ: «إن الجنة يوجد ريحُها من مسيرة خمسمائة عام، ولا يجد ريحها عاقّ ولا قاطع رحم».

وقال ﷺ: «برّ أمك وأباك، وأختك وأخاك، ثم أدناك فأدناك».

ويُروى: أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: يا موسى، إنه من برّ والديه وعقّني كتبته باراً، ومن برّني وعقّ والديه كتبته عاقاً.

وقيل: لما دخل يعقوب على يوسف عليهما السلام لم يقم له، فأوحى الله إليه أتتعاظم أن تقوم لأبيك؟ وعزتي وجلالي لا أخرجتُ من صُلبك نبياً.

وقال ﷺ: «ما على أحد إذا أراد أن يتصدّق بصدقة أن يجعلها لوالديه إن كانا مسلمين، فيكون لوالديه أجرُها، ويكون له مثل أجورهما من غير أن ينقص من أجورهما شيء».

وقال مالك بن ربيعة: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة

فقال: يا رسول الله هل بقي عليّ من برّ أبوي شيء أبرُّهما به بعد وفاتهما؟ قال: «نعم الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وانفاذ عهدهما، واكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا تُوصل إلا بهما».

وقال ﷺ: «إن من أبرّ البرّ أن يصل لرجل أهل ودّ أبيه بعد أن يولّي الأب».

وقال ﷺ: «برُّ الوالدة على الولد ضعفان».

وقال ﷺ: «دعوة الوالدة أسرع اجابة» قيل: يا رسول الله ولمَ ذاك؟ قال: «هي أرحم من الأب ودعوة الرحم لا تسقط».

وسأله رجل فقال: يا رسول الله مَنْ أبرُّ؟ فقال: «برّ والديك» فقال: ليس لي والدان. فقال: «بر ولدك كما أن لوالديك عليك حقاً، كذلك لولدك عليك حق».

وقال ﷺ: «رحم الله والداً أعان ولده على برّه» أي لم يحمله على العقوق بسوء عمله.

وقال ﷺ: «ساووا بين أولادكم في العطية».

وقد قيل: ولدك ريحانتك تشمها سبعاً، وخادمك سبعاً. ثم هو عدوك أو شريكك.

وقال أنس رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: «الغلام يُعَقُّ عنه اليوم السابع، ويُسمى ويُماط عنه الأذى، فإذا بلغ ست سنين أُدِّب، فإذا بلغ تسع سنين عُزِل فراشه، فإذا بلغ ثلاث عشر سنة ضُرب على الصلاة، فإذا بلغ ست عشرة سنة زوّجه أبوه، ثم أخذ بيده وقال: قد أدبتك وعلمتك وأنكحتك، أعوذ بالله من فتنتك في الدنيا وعذابك في الآخرة».

وقال ﷺ: «من حق الولد على الوالد أن يُحسِن أدبه ويحسن اسمه».

وقال ﷺ: «كل غلام رهين أو رهينة بعقيقته تُذبح عنه يوم السابع، ويُحلق رأسه».

وقال قتادة: إذا ذبحت العقيقة أخذت صوفة منها فاستقبلت بها أوداجها، ثم توضع على نافوخ الصبي حتى يسيل منه مثل الخيط، ثم يُغسل رأسه ويحلق بعد.

وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فشكا إليه بغض ولده فقال: هل دعوت عليه؟ قال: نعم. قال: أنت أفسدته.

ويُستحب الرفق بالولد، رأى الأقرع بن حابس النبي ﷺ وهو يقبّل ولده الحسن فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت واحداً منهم. فقال ﷺ: «إن من لا يَرحم لا يُرحم».

وقالت عائشة رضي الله عنها: قال لي رسول الله ﷺ يوماً: «اغسلي وجه أسامة» فجعلت أغسله وأنا أنفة، فضرب يدي ثم أخذه فغسل وجهه ثم قبّله. ثم قال: «قد أحسن بنا إذ لم تكن له جارية».

وتعثر الحسن والنبي ﷺ على منبره فنزل فحمله وقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[1].

وقال عبد الله بن شداد: بينما رسول الله ﷺ يصلّي بالناس، إذ جاءه الحسين فركب عنقَه وهو ساجدٌ، فأطال السجود بالناس، حتى ظنوا أنه قد حدث أمرٌ، فلما قضى صلاته قالوا: قد أطلت السجود يا رسول الله، حتى ظننا أنه قد حدث أمر.

فقال: «إن ابني قد ارتحلني، فكرهت أن أعجله، حتى يقضي حاجته».

وفي ذلك فوائد إحداها: القرب من الله تعالى، فإن العبد أقرب ما يكون من الله تعالى إذا كان ساجداً. وفيه الرفق بالولد والبرُّ وتعليم لأمَّتِهِ.

وقال ﷺ: «ريح الولد من ريح الجنة».

وقال يزيد بن معاوية: أرسل أبي إلى الأحنف بن قيس، فلما وصل إليه قال له: يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟ قال: يا أمير المؤمنين، ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن

---

(١) سورة التغابن، الآية: ١٥.

لهم أرض ذليلة، وسماء ظليلة. وبهم نصول على كل جليلة، فإن طلبوا فأعطهم، وإن غضبوا فأرضهم، يمنحوك ودّهم، ويحبوك جهدَهم، ولا تكن عليهم ثقلاً ثقيلا فيملوا حياتك، ويودوا وفاتك، ويكرهوا قربك. فقال معاوية: أنت يا أحنف، لقد دخلت عليّ وأنا مملوء غضباً وغيظاً على يزيد. فلما خرج الأحنف من عنده رضي عن يزيد، وبعث إليه بمئتي ألف درهم، ومئتي ثوب، فأرسل يزيد الى الأحنف بمئة ألف درهم ومئة ثوب، فقاسمه إياها على الشطر.



٩٠ـ باب: في حقوق الجوار والاحسان للمساكين

اعلم أن الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام، فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مطعم وزيادة. إذ قال النبي ﷺ: «الجيران ثلاثة: جار له حق واحد، وجار له حقان، وجار له ثلاثة حقوق.

فالجار الذي له ثلاثة حقوق: الجار المسلم، ذو الرحم، فله حق الجوار، وحق الإسلام، وحق الرحم. وأما الذي له حقّان: فالجار المسلم، له حق الجوار، وحق الإسلام. وأما الذي له حق واحد، فالجار المشرك».

فانظر كيف أثبت للمشرك حقاً بمجرد الجوار.

وقد قال ﷺ: «أحسنْ مجاورة من جاورك تكن مسلماً».

وقال النبي ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه».

وقال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخرة فليكرمْ جاره».

وقال ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقَه».

وقال ﷺ: «أول خصمين يوم القيامة جاران».

وقال ﷺ: «إذا أنت رميتَ كلبَ جارك فقد آذيته».

ويُروى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود رضي الله عنه. فقال له: إن لي جاراً يؤذيني ويشتمني ويضيّق عليّ.

فقال: اذهب، فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه.

وقيل لرسول الله ﷺ: «إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها. فقال ﷺ: «هي في النار».

وجاء رجل إليه ﷺ يشكو جاره، فقال له النبي عليه السلام: «اصبر» [ثم أتاه الثانية يشكوه، فقال له: «اصبر»] ثم قال له في الثالثة والرابعة: «اطرح متاعك في الطريق»

قال: فجعل الناس يمرّون به ويقولون: ما لك؟ فيقال: آذاه جاره. قال: فجعلوا يقولون: لعنه الله، فجاءه جاره فقال له: رد متاعك فوالله لا أعود.

وروى الزهريّ أن رجلاً أتى النبي عليه الصلاة والسلام فجعل يشكو جاره، فأمر النبي ﷺ أن يُنادى على باب المسجد: «ألا إن أربعين داراً جارٌ».

قال الزهري: أربعون هكذا، وأربعون هكذا، وأربعون هكذا، وأربعون هكذا. وأومأ إلى أربع جهات.

وقال عليه الصلاة السلام: «اليُمنُ والشؤم في المرأة والمسكن والفرس، فيُمنُ المرأة خفَّةُ[1] مهرها، ويُسر نكاحها، وحسن خلقها، وشؤمها غلاء مهرها، وعسر نكاحها، وسوء خلقها.

ويُمن المسكن سعته، وحسن جوار أهله، وشؤمه ضيقه، وسوء جوار أهله، ويُمنُ الفرس ذلُّه، وحسن خلقه، وشؤمه صعوبته، وسوء خلقه».

واعلم أنه ليس حق الجوار كفُّ الأذى فقط، بل احتمال الأذى أيضاً، فإن الجار إذا كف أذاه، فليس في ذلك قضاء حقّ، ولا يكفي احتمال الأذى، بل لا بدَّ من الرفق، وإسداء الخير والمعروف، إذ يقال: إن الجار الفقير يتعلق بجاره الغني يوم القيامة فيقول: يا ربّ سلْ هذا لم منعني معروفه وسد بابه دوني؟

وبلغ ابن المقفّع أن جاراً له يبيع داره في دَينٍ ركبه، وكان يجلس في ظل داره، فقال: ما قمت إذاً بحرمة ظل داره إن باعها مُعدماً. فدفع إليه ثمن الدار، وقال: لا تَبِعْها.

وشكا بعضهم كثرة الفأر في داره، فقيل له: لو اقتنيت هراً. قال: أخشى أن الفأر يسمع صوت الهرّ، فيهرب إلى دار الجيران، فأكون قد أحببت لهم ما لا أحب لنفسي.

وجملة حق الجار: أن يبدأه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يُكثر عليه السؤال، ويعوده في المرض، ويعزّيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويظهر الشركة في السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح إلى

(١) خفَّةُ مهرها: قلّة مهرها.

عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا يصبّ الماء في ميزابه، ولا يطرح التراب في فنائه، ولا يضيّق طريقه في الدار، ولا يتبعه بالنظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف له من عوراته، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلاماً، ويغضّ بصره عن حرمته، ولا يديم النظر إلى خادمته، ويتلطّف بولده في كلمته، ويُرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه.

هذا إلى جملة الحقوق التي لعامة المسلمين.

وقد قال ﷺ: «أتدرون ما حقُّ الجار؟ إن استعان بك أعنته، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك[1] أقرضته، وإن افتقر عدت عليه، وإن مرض عدته، وإن مات تبعت جنازته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذه، وإذا اشتريت فاكهة فاهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سراً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار قِدْرك، إلا أن تغرف له منها» ثم قال: «أتدرون ما حق الجار؟ والذي نفسي بيده لا يبلغ حق الجار إلاّ من رحمه الله». هكذا رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، عن النبي ﷺ.

وقال مجاهد: كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شاة فقال: يا غلام إذا سلخت الشاة فابدأ بجارنا اليهوديِ، حتى قال ذلك مراراً. فقال له: كم تقول في هذا؟ فقال: إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه.

وقال هشام: كان الحسن لا يرى بأساً أن تُطعم الجار اليهودي والنصراني من أضحيتك.

وقال أبو ذر رضي الله عنه: أوصاني خليلي ﷺ وقال: «إذا طبخت قدراً فأكثر ماءها، ثم انظر بعض أهل بيت في جيرانك فاغرف لهم منها».

---

(١) استقرضك: طلب منك قرضاً.

٩١ ـ باب: في عقوبة شارب الخمر

قد أنزل الله في الخمر ثلاث آيات: الأولى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عن الخَمْرِ والمَيْسِرِ قُلْ فِيهما إثمٌ كَبيرٌ ومَنَافعُ للنَّاسِ﴾[1] الآية. فكان في المسلمين شارب وتارك، إلى أن شرب رجل فدخل في الصلاة فهَجَر[2]، فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاة وأنتُم سُكارَى﴾[3] الآية. فشربها من شربها من المسلمين، وتركها من تركها، حتى شربها عمر رضي الله عنه، فأخذ بلحي بعير وشج بها رأس عبد الرحمن بن عوف. ثم قعد ينوح على قتلى بدر، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مغضباً يجر ردائه، فرفع شيئاً كان في يده فضربه به، فقال: «أعوذ بالله من غضبه، وغضب رسوله»، فأنزل الله تعالى: ﴿إنَّما يُريدُ الشَّيطانُ أن يُوقعَ بَينكُم العَدَاوَةَ والبَغْضَاءَ في الخَمْر والمَيْسر﴾[4] الآية.

فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا. انتهينا.

ومن الأخبار المتفقة على تحريمها قول سيدنا رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة مدمن خمر».

وقوله ﷺ: «أول ما نهاني ربي بعد عبادة الأوثان عن شرب الخمر، وملاحاة[5] الرجال».

وقوله ﷺ: «ما من قوم اجتمعوا على مُسكر في الدنيا إلا جمعهم الله في النار، فيُقبلُ بعضهم على بعض يتلاومون، يقول أحدهم للآخر: يا فلان لا جزاك الله عني خيراً،

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.
(٢) هَجَر: خلط في كلامه.
(٣) سورة النساء، الآية: ٤٣.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٩١.
(٥) مُلاحاة الرجال: منازعتهم.

فأنت الذي أوردتني هذا المورد، فيقول له الآخر: مثل ذلك».

وعنه ﷺ أنه قال: «من شرب الخمر في الدنيا سقاه الله من سُمِّ الأساود[1] شَربة يتساقط منها لحم وجهه في الإناء قبل أن يشربها، فإذا شربها يتساقط لحمه وجلده، يتأذى به أهل النار، ألا إن شاربها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكلَ ثمنها شركاء في إثمها، لا يقبلُ الله منهم صلاة ولا صوماً ولا حجاً حتى يتوبوا، فإن ماتوا قبل التوبة كان حقاً على الله أن يسقيهم بكل جرعة شربوها في الدنيا من صديد جهنم، ألا وإن كل مُسكر حرام، وكل خمر حرام».

وذكر ابن أبي الدنيا أنّه مرَّ بسكران وهو يبول في يده، ويغسل به يده كهيئة المتوضيء، وهو يقول: الحمد لله الذي جعل الإسلام نوراً، والماء طهوراً.

وعن العباس ابن مرداس أنه قيل له في الجاهلية: لم لا تشرب الخمر فإنها تزيد في حرارتك؟ فقال: ما أنا بآخذ جهلي بيدي، فأدخله في جوفي، ولا أرضى أن أصبح سيد قومي وأمسي سفيههم.

وروى البيهقي عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا أم الخبائث. فإنه كان رجل ممن كان قبلكم يتعبَّد، ويعتزل الناس، فتعلقت به امرأة غوية، فأرسلت اليه جاريتها فقالت: إنا ندعوك لشهادة، فدخل فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى الى امرأة وضيئة جالسة، وعندها غلام وباطية فيها خمر، فقالت: إنا لم ندعُك لشهادة، ولكن دعوتك لتقتل هذا الغلام، أو تقع عليّ وتشرب كأساً من الخمر، فإن أبيت صحتُ بك وفضحتك. فلما رأى أنه لا بد له من ذلك قال: اسقني كأساً من الخمر. فسقته، فقال: زيديني، فلم يزل حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنه والله لا يجتمع إيمان وإدمان الخمر في صدر رجل أبداً، ليوشكنّ أحداهما أن يخرج صاحبه».

وروى أحمد وابن حبان في «صحيحه» عن ابن عمر: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن آدم لما أُهبط إلى الأرض قالت الملائكة: أي ربِّ **﴿أتجعلُ فيها من يُفسدُ فيها ويسفكُ الدِّماءَ ونحن نسبِّحُ بحمدك ونقدِّسُ لك قال إنِّي أعلمُ ما لا**

(١) الأساود: الحيات العظيمة.

تعلمون﴾[١] قالوا: ربنا نحن أطوع لك من بني آدم. قال الله تعالى لملائكته: هلموا إلى ملكين من الملائكة، فننظر كيف يعملان.

قالوا: ربّنا، هاروت وماروت، قال: فاهبطا إلى الأرض، فتمثلت لهم الزهرة امرأة من أحسن البشر، فجاآها فسألاها نفسها، فقالت: لا والله، حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك، قالا: والله لا نشرك بالله أبداً. فذهبت عنهما، ثم رجعت إليهما ومعها صبي تحمله، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تقتلا هذا الصبي. فقالا: لا والله لا نقتله أبداً. فذهبت ثم رجعت بقدح خمر تحمله، فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تشربا هذه الخمرة، فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبي، فلما أفاقا، قالت المرأة: والله ما تركتما من شيء أبيتما عليّ إلا فعلتما حين سكرتما، فخُيّرا عند ذلك بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا.

وروي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: اشتكت بنت لي، فنبذتُ لها في كوز، فدخل علي رسول الله ﷺ وهو يغلي، قال: «ما هذا يا أم سلمة؟» فذكرت له إني أداوي به ابنتي، فقال ﷺ: «إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرّم عليها».

وروي: أن الله تعالى لمّا حرّم الخمر، سلب منها المنافع.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

٩٢ ـ باب: في معراج النبي ﷺ

روى البخاري عن قتادة عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أن نبيّ الله ﷺ حدثهم عن ليلة أُسريَ به. قال: «بينما أنا في الحطيم وربما قال: في الحجر مضطجعاً، إذا أتاني آت فقَدَّ» قال وسمعته يقول: «فشقَّ ما بين هذه إلى هذه». فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ قال: من ثُغْرَةِ نحره إلى شعرته «فاستخرج قلبي، ثم أُتيت بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغُسل قلبي، ثم حُشي، ثم أُعيد، ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار، أبيض» فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم.

يضع خَطوَهُ عند أقصى طرفه، فحُمِلت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أُرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحبا به فنعم المجيء جاء، ففتح فلما خلصت فإذا فيها آدم فقال: هذا أبوك آدم فسلِّم عليه. فسلمت عليه فرد عليّ السلام، ثم قال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم صَعِد بي، حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء ففتح، فلما خلصت إذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة قال: هذا يحيى وعيسى، فسلِّم عليهما. فسلمت عليهما فردَّا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح. ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلِّم عليه. فسلمت عليه فردّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صَعِد بي حتى أتى السماء الرابعة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خَلَصت إذا ادريس، قال: هذا ادريس، فسلِّم عليه. فسلمت عليه فردّ، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صَعِد بي حتى أتى السماء الخامسة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا هارون، قال: هذا هارون، فسلِّم عليه. فسلمت عليه فردّ. ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعم المجيء جاء، فلما خَلَصت فإذا موسى، قال: هذا موسى، فسلِّم عليه. فسلمت عليه فردّ. ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلما جاوزته بكى، قيل: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلاماً بُعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أُمتي.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة. فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك إبراهيم، فسلِّم عليه. فسلمت عليه فردّ عليّ السلام، فقال: مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح. ثم رُفِعتُ إلى سِدرة المنتهى فإذا نَبِقُها(١) مثل قِلال(٢) هَجَر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة. قال: هذه سِدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات، ثم رُفع لي البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم أُتيت بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فاخترت اللبن، فقال: هي الفطرة التي أنت عليها وأُمَّتُك.

ثم فُرضت عليّ الصلاة، خمسين صلاة كل يوم، فرجعت، فمررت على موسى فقال: بِمَ أُمرت؟ قلت: أُمرتُ بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جرّبت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشدّ المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشراً، فرجعت إلى موسى. فقال مثله،

---

(١) نبقها: ثمرها.

(٢) قلال: جمع قلّة: وهي الجرة الكبيرة.

فرجعت فوضع عني عشراً فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت فأُمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى، فقال مثله، فرجعت فأُمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بِمَ أُمرت؟ قلت: أُمرت بخمس صلوات كل يوم. قال: إن أُمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جرّبت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك، فاسأله التخفيف لأمتك. قال: سألت ربي حتى استحييت منه، ولكن أرضى وأسَلِّم. قال: فلما جاوزت ناداني مُنادٍ: أمضيت فريضتي، وخفَّفت عن عبادي».



٩٣ ـ باب: في فضائل الجمعة

اعلم أن هذا يوم عظيم، عظم الله به الإسلام، وخصص به المسلمين.

قال الله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ للصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعُوا إلى ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعِ﴾[1] فحرّم الاشتغال بأمور الدنيا وبكل صارف عن السعي إلى الجمعة.

وقال ﷺ: «إن الله عز وجل فرض عليكم الجمعة في يومي هذا، في مقامي هذا».

وقال ﷺ: «من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه».

وفي لفظ آخر: «فقد نبذَ الإسلام وراء ظهره».

واختلف رجل الى ابن عباس يسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعةً، ولا جماعة، فقال: في النار. فلم يزل يتردّد اليه شهراً يسأله عن ذلك، وهو يقول: في النار.

وفي الخبر: «إن أهل الكتابين أُعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه، فصُرفوا عنه، وهدانا الله له، وأخّره لهذه الأمة، وجعله عيدا لها فهم أولى الناس به سبقاً، وأهل الكتابين لهم تبع».

وفي حديث عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «أتاني جبريل عليه السلام في كفه مرآة بيضاء، وقال: هذه الجمعة يفرضها عليك ربك لتكون لك عيداً، ولأمتك من بعدك».

قلت: فما لنا فيها؟ قال: لكم فيها خير ساعة، من دعا فيها بخير قُسم له أعطاه الله سبحانه إياه، ومن ليس له قسم ذَخَرَ له ما هو أعظم منه، أو تعوّذ من شرّ هو مكتوب عليه، إلا أعاذه الله عزّ وجلّ من أعظم منه، وهو سيد الأيام عندنا، ونحن ندعوه في الآخرة يوم المَزيدِ.

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٩.

قلت: ولِمَ؟ قال: إن ربك عزّ وجلّ اتخذ في الجنة وادياً أفيحَ من المسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة نزل الله من علّيين على كرسيّه فيتجلى لهم حتى ينظروا إلى وجهه الكريم».

وقال ﷺ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم عليه السلام، وفيه أُدخل الجنة وفيه أُهبط إلى الأرض. وفيه تِيب[١] عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة، وهو عند الله يوم المزيد، كذلك تسمّيه الملائكة في السماء، وهو يوم النظر إلى الله تعالى في الجنة».

وفي الخبر: «إن الله عز وجل يخرج في كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار».

وفي حديث أنس رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «إذ سلمت الجمعة سلمت الأيام».

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الجحيم تُسعَّر في كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس في كبد السماء، فلا تصلّوا في هذه الساعة إلا يوم الجمعة، فإنه صلاة كلّه، وإن جهنم لا تُسعر فيه».

وقال كعب: إن الله عز وجل فضَّل من البلدان مكّة، ومن الشهور رمضان، ومن الأيام الجمعة، ومن الليالي ليلة القدر.

ويُقال: إن الطير والهوام[٢] يلقى بعضها بعضاً في يوم الجمعة، فتقول: سلامٌ سلامٌ يوم صالح.

وقال ﷺ: «من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة كتب الله له أجر شهيد، ووقاه فتنة القبر».

---

(١) تيب عليه: أي قبلت توبته.

(٢) الهوام: الحشرات الصغيرة.

٩٤ ـ باب: في حق الزوجة على الزوج

حقوق الزوجات على الأزواج كثيرة. منها: حُسن الخلق معهن، واحتمال الأذى منهن، ترحماً عليهنّ لقصور عقولهن.

قال الله تعالى: ﴿وعَاشِرُوهُنَّ بالمَعْروفِ﴾[1].

وقال في تعظيم حقهن: ﴿وأخَذْنَ مِنكم مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾[2].

وقال: ﴿والصَّاحِبِ بالجَنْبِ﴾[3] قيل: هي المرأة.

وآخر ما وصّى به رسول الله ﷺ ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه، وخفي كلامه، جعل يقول: «الصلاةَ الصلاةَ، وما ملكت أيمانكم، لا تكلّفوهم ما لا يطيقون، الله الله في النساء، فإنهن عوان في أيديكم ـ يعني أسراء ـ أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله».

وقال ﷺ: «من صبر على سُوء خلق امرأته أعطاه الله من الأجر مثل ما أعطى أيوب على بلائه، ومن صبرت على سُوء خُلُق زوجها، أعطاها الله مثل ثواب آسية امرأة فرعون».

واعلم: أنه ليس من حُسن الخلق معها كفّ الأذى عنها، بل احتمال الأذى منها، والحلم عند طيشها وغضبها، اقتداء برسول الله ﷺ فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام وتهجره الواحدة منهنّ يوماً إلى الليل، وراجعت امرأة عمر رضي الله عنه عمر في الكلام فقال: أتراجعيني يا لكعاء؟ فقالت: إن أزواج رسول الله ﷺ يراجعنه، وهو خير منك. فقال عمر: خابت حفصة وخسرت أن راجعته. ثم قال لحفصة: لا تغتري بابنة ابن أبي

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٢١.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٦.

قُحافة، فإنها حِبُّ رسول الله ﷺ وخوَّفها من المراجعة.

ورُوي أنه دفعت أحداهنَّ في صدر رسول الله ﷺ فزجرتها أمها فقال ﷺ: «دعيها فإنهن يصنعن أكثرَ من ذلك».

وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلا بينهما أبا بكر رضي الله عنه حكماً، واستشهده، فقال رسول الله ﷺ: «تكلمين أو أتكلم»؟ فقالت: بل تكلم أنت ولا تقل إلا حقاً. فلطمها أبو بكر حتى دَمي فوها، وقال: يا عدوة نفسها أويقول غير الحق؟ فاستجارت برسول الله ﷺ وقعدت خلف ظهره، فقال له النبي ﷺ: «لم ندعُك لهذا، ولا أردنا منك هذا».

وقالت له مرة في كلام غضبت عنده: أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟.. فتبسم رسول الله ﷺ واحتمل ذلك حلماً وكرماً.

وكان يقول لها: «إني لأعرف غضبك من رضاك» قالت: وكيف تعرفه؟ قال: إذا رضيتِ قلتِ: لا، وإله محمّد، وإذا غضبت قلتِ: لا، وإله إبراهيم. قالت: صدقت، إنما أهجُرُ اسمك.

ويقال: إن أول حب وقع في الإسلام حب النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها، وكان يقول لها: «كنتُ لك كأبي زرع لأم زرع، غير أني لا أطلّقكِ».

وكان يقول لنسائه: «لا تؤذينني في عائشة، فإنه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكنَّ غيرها».

وقال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالنساء والصبيان.

ومنها: أن يزيدَ على احتمال الأذى بالمداعبة والمزاح، والملاعبة، هي التي تطيب قلوب النساء، وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن، وينزل الى درجات عقولهنّ في الأعمال والأخلاق، حتى رُوي أنه ﷺ كان يُسابق عائشة في العدو، فسبقته يوماً وسبقها في بعض الأيام، فقال ﷺ: «هذه بتلك».

وفي الخبر: أنه كان ﷺ من أفْكَهِ الناس مع نسائه.

وقالت عائشة رضي الله عنها: سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم

يلعبون في يوم عاشوراء، فقال لي رسول الله ﷺ: «أتحبين أن تري لعبهم؟» قالت: قلت: نعم. فأرسل إليهم، فجاؤوا، وقام رسول الله ﷺ بين البابين، فوضع كفّه على الباب، ومد يده ووضعت ذقني على يده، وجعلوا يلعبون وأنظر، وجعل رسول الله ﷺ يقول: «حَسْبُك» وأقول: اسكت مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: «يا عائشة حسبك» فقلت: نعم. فأشار إليهم فانصرفوا، فقال رسول الله ﷺ: «أكمل المؤمنين ايماناً أحسنهم خُلقاً وألطفهم بأهله».

وقال ﷺ: «خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائي».

وقال عمر رضي الله عنه مع خشونته: ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي، فإذا التمسوا ما عنده وُجِدَ رجلاً.

وقال لقمان رحمه الله ينبغي للعاقل أن يكون في أهله كالصبي، وإذا كان في القوم وُجد رجلاً.

وفي تفسير الخبر المروي: «إن الله يُبغض الجعظري الجواظ» قيل: هو الشديد على أهله، المتكبر في نفسه، وهو أحد ما قيل في معنى قوله تعالى: ﴿عُتُل﴾[1] قيل: العتل هو الفظ اللسان، الغليظ القلب على أهله.

وقال ﷺ لجابر: «هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك».

ووصفت أعرابية زوجها وقد مات، فقالت: والله لقد كان ضحوكاً إذا ولج، سكّيتاً إذا خرج، آكلاً ما وجد، غير مسائل عما فقد.

ومنها: أن لا ينبسط في الدعابة، وحسن الخلق، والموافقة باتباع هواها إلى حد يُفسد خلقها، ويسقط بالكلية هيبته عندها، بل يراعي الاعتدال فيه، فلا يدع الهيبة والانقباض، مهما رأى منكراً، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمَّر وامتعض.

قال الحسن: والله ما أصبح رجل يطيع امرأته فيما تهوى إلا كبّه الله في النار.

---

(١) سورة القلم، الآية: ١٣.

وقال عمر رضي الله عنه: خالفوا النساء فإن في خلافهن البركة.

وقد قيل: شاوروهنَّ وخالفوهنَّ.

وقد قال ﷺ: «تعس عبد الزوجة».

وإنما قال ذلك، لأنه إذا أطاعها في هواها فهو عبدها، وقد تعس، فإن الله ملَّكه المرأة فملَّكها نفسه، فقد عكس الأمر وقلب القضية، وأطاع الشيطان لما قال: ﴿ولآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ﴾[1] إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً.

وقد سمّى الله الرجال قوّامين على النساء، وسمّى الزوج سيداً. فقال تعالى: ﴿وأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى البَابِ﴾[2] فإذا انقلب السيد مسخراً، فقد بدل نعمة الله كفرا.

ونفس المرأة على مثال نفسك، إن أرسلت عنانها قليلاً جمحتْ بك طويلاً، وإن أرخيت عذارها فِتراً، جذبتك ذراعاً، وإن كبحتها وشددت يدك عليها في محل الشدّة، ملكتها.

قال الشافعي رضي الله عنه: ثلاثاً إن أكرمتهم أهانوك، وإن أهنتهم أكرموك: المرأة والخادم والنبطي.

أراد به: إن محضت الإكرام ولم تمزج غلظك بلينك، وفظاظتك برفقك.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٩.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٥.

٩٥ ـ باب: في حق الزوج على الزوجة

والقول الشافي فيه: أن النكاح نوعُ رقٍّ، فهي رقيقة له، فعليها طاعةُ الزوج مطلقاً، في كلِّ ما طلب منها في نفسها، مما لا معصيةَ فيه.

وقد ورد تعظيم حقِّ الزوج عليها أخبار كثيرة، قال ﷺ: «أيّما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة».

وكان رجل قد خرج إلى سفر وعهِدَ إلى امرأته أن لا تنزل من العلوِ إلى السفل، وكان أبوها في الأسفل، فمرض، فأرسلت المرأةُ إلى رسول الله ﷺ تستأذنُ في النزول إلى أبيها، فقال ﷺ: «أطيعي زوجك» فمات، فاستأمرته، فقال: «أطيعي زوجك» فدُفن أبوها، فأرسل رسول الله ﷺ إليها يخبرها: «إن الله قد غَفَر لأبيها بطاعتها لزوجها».

وقال ﷺ: «إذا صلّتِ المرأة خمسها، وصامتْ شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، دخلت جنة ربِّها» فأضاف طاعة الزوج إلى مباني الإسلام.

وذكر رسول الله ﷺ النساء فقال: «حاملات، والدات، مُرْضعات، رحيمات بأولادهنَّ، لولا ما يأتين إلى أزواجهنَّ دخلَ مصلياتُهنَّ الجنَّةَ».

وقال ﷺ: «اطّلعتُ في النار، فإذا أكثرُ أهلها النساء» فقلن: لِمَ يا رسول الله؟ قال: «يُكثرن اللعن، ويكفرن العشير» يعني: الزوج المعاشر.

وفي خبرٍ آخر: «اطّلعتُ في الجنة فإذا أقلُّ أهلها النساء فقلت: أين النساء؟ قال: شغلهنَّ الأحمران الذهب والزعفران» يعني: الحلي ومُصبغات الثياب.

وقالت عائشة رضي الله عنها: أتت فتاةٌ إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني فتاةٌ أُخطب، فأكره التزويج، فما حقُّ الزوج على المرأة؟ قال: «لو كان من فوقه إلى قدمه صديدٌ فلحسته ما أدّتْ شُكره» قالت: أفلا أتزوّج؟ قال: «بلى تزوّجي، فإنه خير».

وقال ابن عباس: أتت امرأة من خثعم الى رسول الله ﷺ فقالت: إني أمرأة

أيم[١]، وأريد أن أتزوج، فما حقُّ الزوج؟.

قال: «إن من حقِّ الزوج على الزوجة إذا أرادها فراودها عن نفسها، وهي على ظهر بعير لا تمنعه، ومن حقِّه لا تُعطي شيئاً من بيته إلاّ بإذنه، فإن فعلت ذلك كان الوزرُ عليها والأجر له، ومن حقِّه لا تصوم تطوّعاً إلاّ بإذنه، فإن جاعت وعطشت لم يُتقبّل منها، وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو تتوب».

وقال ﷺ: «لو أمرت أحداً أن يسجدَ لأحدٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجها، من عظم حقِّه عليها».

وقال ﷺ: «أقربُ ما تكون المرأةُ من وجه ربِّها إذا كانت في قعر بيتها، وإن صلاتها في صحن دارها أفضل من صلاتها في المسجد، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في صحن دارها، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها» والمخدع: بيت في بيت، وذلك للتستر.

ولذلك قال ﷺ: «المرأة عورةٌ، فإذا خرجت استشرفها الشيطان».

وقال أيضاً: «للمرأة عشرُ عورات: فإذا تزوّجت ستر الزوج عورة واحدة، فإذا ماتت ستر القبرُ العشر عورات».

فحقوق الزوج على الزوجة كثيرة، وأهمها أمران أحدهما: الصيانة والستر، والآخر ترك المطالبة بما وراء الحاجة، والتعفّف عن كسبه، إذا كان حراماً.

وهكذا كانت عادة النساء في السلف. كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته أو ابنته: إيّاك وكسب الحرام، فإنّا نصبر على الجوع والضرّ، ولا نصبر على النار.

وهمّ رجل من السلف بالسفر، فكره جيرانه سفره، فقالوا لزوجته: لِمَ ترضين بسفره، ولم يدع لك نفقة؟ فقالت: زوجي منذ عرفته عرفته أكّالاً، وما عرفته رزّاقاً، ولي ربٌّ رزّاقٌ، يذهب الأكّالُ، ويبقى الرزّاق.

وخطبتْ رابعةُ بنت إسماعيل أحمدَ بن أبي الحواري، فكره ذلك لما كان فيه من

---

(١) أيم: الأيم هي: التي لا زوج لها سواء كانت ثيباً أو بكراً.

العبادة، وقال لها: والله ما لي همّةٌ في النساء لشُغلي بحالي.

فقالت: إنّي لأشغلُ بحالي منك، ومالي شهوةٌ، ولكن ورثتُ مالاً جزيلاً من زوجي، فأردتُ أن تنفقه على إخوانك، والأعرف بك الصالحين، فيكون لي طريقاً إلى الله عزّ وجل. فقال: حتى استأذن أستاذي.

فرجع إلى أبي سُليمان الداراني، قال: وكان ينهاني عن التزويج، ويقول: ما تزوّج أحدٌ من أصحابنا إلا تغيّر. فلما سمع كلامها قال: تزوّج بها، فإنها وليّةٌ لله، هذا كلام الصدّيقين. قال: فتزوجتها فكان في منزلنا كنٌّ من جص ففني من غسل أيدي المستعجلين للخروج بعد الأكل، فضلاً عمّن غسل بالأشنان، قال: وتزوّجتُ عليها ثلاث نسوة فكانت تُطعمني الطيّبات، وتطيّبني. وتقول: إذهب بنشاطك وقوّتك إلى أزواجك. وكانت رابعة هذه تشبه في أهل الشام برابعة العدوية البصرية.

ومن الواجبات عليها ألاّ تفرّط[1] في ماله، بل تحفظه عليه، قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ لها أن تُطعم من بيته إلاّ بإذنه إلا الرّطب من الطعام، الذي يخافُ فساده، فإن أطعمتْ عن رضاه كان لها مثل أجره، وإن أطعمتْ بغير إذنه كان له الأجرُ وعليها الوزر.

ومن حقّها على الوالدين تعليمها حسن المعاشرة، وآداب العشرة مع الزوج كما رُوي أن أسماء بنت خارجة الفزارية قالت لابنتها عند التزوّج: إنك خرجت من العشّ الذي فيه درجت، فصرت إلى فراشٍ لا تعرفينه، وقرين[2] لم تألفيه، فكوني له أرضاً، يكنْ لك سماء، وكوني له مهاداً، يكن لك عماداً، وكوني له أمَةً يكن لك عبداً، لا تلحقي به فيقلاك[3]، ولا تباعدي عنه فينساك، إذا دنا منك فاقربي منه، وإن نأى فابعدي عنه، واحفظي أنفه وسمعه وعينه، فلا يشمَّنَّ منك إلا طيّباً، ولا يسمع إلاّ حسناً، ولا ينظر إلاّ جميلاً.

(١) تفرط: تقصر في المال حتى تضيعه.
(٢) قرين: شريك.
(٣) فيقلاك: فيكرهك وينساك.

وقال رجل لزوجته:

خذي العفوَ مني تستديمي مودَّتي ... ولا تنطقي في سَورتي حين أغضبُ
ولا تنقريني نقرِكَ الدّفَ مرَّةً ... فإنَّكِ لا تدرينَ كيفَ المغيَّبُ
ولا تُكثري الشكوى فتذهب بالهوى ... ويأباك قلبي والقلوبُ تقلّبُ
فإني رأيت الحبَّ في القلب والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحبُّ يذهبُ



٩٦ ـ باب: في فضل الجهاد

قال تعالى: ﴿إنّما المؤمِنُونَ الَّذينَ آمنُوا بالله ورسُولِهِ ثمّ لم يَرْتَابوا وجَاهَدُوا بأموالِهم وأنفسِهِم في سبيلِ الله أُولئكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[1].

وعن النُّعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: كنتُ عند منبرِ رسول الله ﷺ فقال رجل: ما أبالي ألاّ أعمل عملاً بعد الإسلام إلاّ أن أسقي الحاجَّ. وقال آخر: لا أبالي ألاّ أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمرَ المسجد الحرام.

وقال آخر: للجهادُ أفضلُ ممّا قلتم. فزجرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: لا ترفعوا أصواتَكُم عند منبرِ رسول الله ﷺ، وهذا يوم الجمعة، ولكنْ إذا صلّيتُ الجمعة دخلتُ فاستفتيته فيما اختلفتم فيه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أجَعَلْتُم سِقَايةَ الحاجِّ وعِمَارةَ المسجدِ الحَرام كمن آمن بالله واليوم الآخِرِ وجَاهَدَ في سبيلِ الله لا يَسْتَوُون عندَ الله والله لاَ يَهْدِي القومَ الظّالمين﴾[2].

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: قعدنا نفراً[3] من أصحاب رسول الله ﷺ فقلنا: لو نعلمُ أيّ الأعمال أفضل وأحبُّ إلى الله عزّ وجلّ عملناه، فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّح لله ما فِي السَّمواتِ وما في الأرض وهو العَزِيزُ الحكيم * يا أيُّها الذينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولونَ ما لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً[4] عِندَ الله أنْ تَقُولوا مَا لا تفعلون * إنّ الله يُحِبُّ الذينَ يُقَاتِلُونَ في سَبيلِهِ صَفّاً كأنّهم بُنيانٌ مَرْصُوصٌ﴾[5] فقرأها علينا رسول الله ﷺ.

ورُوي أن رجلاً قال: يا رسول الله، دُلّني على عمل يعدل الجهاد. قال: «لا

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٩.

(٣) النفر: هم الجماعة الثلاثة وحتى التسعة.

(٤) المقت: هو البغض الشديد.

(٥) سورة الصف، الآيات: ١ ـ ٤.

أجده» ثم قال: «هل تستطيع إذا خرجَ المجاهدُ أن تدخل مسجدك، فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر؟» فقال: ومن يستطيع ذلك؟

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مرَّ رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ بشعبٍ فيه عُيَيْنَةٌ من ماء عذبة، فقال: لو اعتزلتُ الناس فأقمت في هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «لا تفعل، فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنَّة، اغزوا في سبيل الله تعالى، من قاتل في سبيل الله تعالى فُواقَ ناقةٍ، وجبتْ له الجنة».

فإذا كان الصحابيُ الجليل لم يأذنْ له رسول الله ﷺ في العزلة مع اجتهاده في الطاعات، وتعاطيه من الطيّبات، بل أرشده ﷺ إلى الجهاد، فكيف يليقُ بنا تركه مع قلّة طاعتنا، وكثرة سيئآتنا، وتعاطينا ما جهل حلّه من الأقوات، وفساد العزائم والنيّات؟.

وقال رسول الله ﷺ: «إن مثل المجاهد في سبيل الله ـ والله أعلمُ بمن يجاهد في سبيله ـ كمثل الصائم القائم الخاضع الراكع الساجد».

وقال رسول الله ﷺ: «من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّد ﷺ رسولاً، وجبت له الجنَّة» فعجب لها أبو سعيد الخدري فقال: أعدْها عليَّ يا رسول الله. فأعادها عليه، ثم قال: «وأخرى يرفعُ الله بها العبد مئة درجة، ما بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض». قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله».

٩٧ ـ باب: في مكر الشيطان

قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، أينام الشيطان؟ فتبسّم وقال: لو نام لاسترحنا. فإذاً لا خلاص للمؤمن منه، نعم له سبيل إلى دفعه، وتضعيف قوته، قال رسول الله ﷺ: «إن المؤمن يُنضي شيطانه كما يُنضي أحدكم بعيره، في سفره».

وقال ابن مسعود: شيطان المؤمن مهزول[1].

وقال قيس بن الحجّاج: قال لي شيطاني: دخلت فيك وأنا مثل الجزور[2]، وأنا الآن مثل العصفور، قلت: ولِمَ ذاك؟ قال: تذيبني بذكر الله تعالى.

فأهل التقوى لا يتعذّر عليهم سدُّ أبواب الشيطان، وحفظها بالحراسة، أعني: الأبواب الظاهرة، والطرقَ الجلية، التي تفضي إلى المعاصي الظاهرة، وإنّما يتعثرونَ في طرقه الغامضة، فإنهم لا يهتدون إليها فيحرسونها، لأن الأبواب المفتوحة إلى القلب للشيطان كثيرةٌ، وباب الملائكة بابٌ واحدٌ، وقد التبس ذلك الباب الواحد بهذه الأبواب الكثيرة، فالعبد فيها كالمسافر الذي يبقى في باديةٍ كثيرة الطرق، غامضة المسالك، في ليلة مظلمة، فلا يكاد يعلم الطريق إلاّ بعينٍ بصيرةٍ، وطلوعِ شمسٍ مشرقة، والعين البصيرة ههنا هي القلب المصفّى بالتقوى، والشمس المشرقةُ هي العلم الغزير المستفاد من كتاب الله تعالى، وسنّة رسوله ﷺ، فيما يهتدي به إلى غوامض طرقه، وإلا فطرقه كثيرة وغامضة.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: خطَّ لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً وقال: «هذا سبيل الله» ثم خطَّ خطوطاً عن يمينِ الخطِّ وعن شماله، ثمَّ قال: «هذه سُبُلٌ على كلِّ سبيلٍ منها شيطان، يدعو إليه» ثم تلا: **﴿وأنَّ هذا صرَاطي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكُم عن سَبيلِهِ﴾**[3].

---

(١) مهزول: ضعيف.

(٢) الجزور: الإبل.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

وقد ذَكَرنا مثالاً للطريق الغامض من طُرقه، وهو الذي يخدَعُ به العلماءَ والعبّاد المالكين لشهواتهم، الكافّين عن المعاصي الظاهرة، فلنذكر مثالاً لطريقه الواضح، الذي لا يخفى، إلاّ أن يضطرَّ الآدمي إلى سلوكه، وذلك كما يُروى عن النبيِّ ﷺ أنه «كان راهبٌ في بني إسرائيل، فعمد الشيطانُ إلى جاريةٍ فخنقها وألقى في قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب، فأتوا بها إليه فأبى أن يقبَلَها، فلم يزالوا به حتى قِبَلها، فلمّا كانت عنده ليعالجها، أتاه الشيطان فزين له مقاربتها، ولم يزل به حتى واقعها، فحملتْ منه، فوسوس إليه وقال: الآن تفتضحُ، يأتيك أهلُها، فاقتلها، فإن سألوك فقل: ماتت، فقتلها ودفنها، فأتى الشيطان أهلها، فوسوس إليهم وألقى في قلوبهم أنه أحبلها ثم قتلها ودفنها، فأتاه أهلها، فسألوه عنها فقال: ماتت، فأخذوه ليقتلوه بها، فأتاه الشيطان فقال: أنا الذي خنقتها، وأنا الذي ألقيتُ في قلوب أهلها، فأطعني تنجُ، وأخلّصك منهم، قال: بماذا؟ قال: اسجد لي سجدتين. فسجدَ له سجدتين، فقال له الشيطان: إني بريءٌ منك، فهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿كَمَثَلِ الشَّيطَانِ إِذْ قالَ لِلإنسانِ اكْفُرْ فَلَمّا كَفَرَ قالَ إنِّي بَرِيءٌ مِنكَ﴾[1].

ورُوي أن إبليس سأل الإمام الشافعي رضي الله عنه: ما قولك فيمن خلقني كما اختار، واستعملني فيما اختار، وبعد ذلك إن شاء أدخلني الجنة وإن شاء أدخلني النار، أعدل في ذلك أم جار؟ فنظر في كلامه ثم قال: يا هذا إن كان خلقك لما تريد أنت فقد ظلمك، وإن كان خلقك لما يريد هو فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، فاضمحل إلى أن صار لا شيء، ثم قال: والله يا شافعي لقد أخرجتُ بمسألتي هذه سبعين ألف عابد من ديوان العبودية، إلى ديوان الزندقة.

ورُوي أيضاً أن إبليس لعنه الله تمثّل لعيسى بن مريم عليهما السلام فقال له: قل: لا إله إلا الله، فقال: كلمةُ حقٍ، ولا أقولها بقولك، أي لأن له تلبيسات في الخير، كما أن له تلبيسات في الشر تتناهى، وبها يهلك العباد والزهاد والأغنياء وأصناف الخلق، إلا من حَفِظَهُ الله.

اللهم أحفظنا من مكائده حتى نلقاك مهتدين.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ١٦.

٩٨ ـ باب: في بيان السماع

حكى القاضي أبو الطيب الطبري عن الشافعي، ومالك، وأبي حنيفة وسُفيان وجماعة من العلماء ألفاظاً يُستدلُّ بها على أنهم رأوا تحريمه.

وقال الشافعي رحمه الله في كتاب «آداب القضاء»: إن الغناء لهو مكروه يُشبه الباطل، ومن استكثر منه فهو سفيه، ترد شهادته.

وقال القاضي أبو الطيب: استماعه من المرأة التي ليست بمحرم له، لا يجوز عند أصحاب الشافعي رحمه الله بحال، سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب، وسواء كانت حرة أو مملوكة.

وقد قال الشافعي رضي الله عنه: صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه ترد شهادته.

وقال: حكي عن الشافعي أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب، ويقول: وضعته الزنادقة ليتشغلوا به عن القرآن.

وقال الشافعي رحمه الله: ويُكره من جهة الخبر اللعب بالنرد أكثر مما يُكره اللعب بشيء من الملاهي، ولا أحبُّ اللعب بالشطرنج، وأكره كلَّ ما يَلعبُ به الناس، لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين، ولا المروءة.

وأمّا مالك رحمه الله، فقد نهى عن الغناء. وقال: إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردّها، وهو مذهب سائر أهل المدينة، إلاّ إبراهيم ابن سعد وحده.

وأمّا أبو حنيفة رضي الله عنه فإنه كان يكره ذلك، ويجعل سماعَ الغناء من الذنوب، وكذلك سائر أهل الكوفة: سُفيان الثوري، وحمّاد، وإبراهيم، والشعبي وغيرهم، فهذا كلّه نقله القاضي أبو الطيب الطبري.

ونقل أبو طالب المكـي إباحةَ السماع عن جماعة. فقال: سمعَ من الصحابة: عبد الله بن جعفر، وعبد الله بن الزُّبير، والمُغيرة بن شُعبة، ومعاوية وغيرهم، وقال: قد

فعل ذلك كثير من السلف الصالح صحابي وتابعي بإحسان.

وقال: ولم يزل الحجازيون عندنا بمكّة يسمعون السماع في أفضل أيام السنة، وهي الأيام المعدودات التي أمر الله عباده فيها بذكره كأيام التشريق، ولم يزلْ أهل المدينة مواظبين كأهل مكّة على السماع إلى زماننا هذا. فأدركنا أبا مروان القاضي وله جَوارٍ يُسْمِعْنَ الناس التلحين، قد أعدَّهن للصوفية، قال: وكان لعطاء جاريتان يلحنان، فكان إخوانه يستمعون إليهما.

قال: وقيل لأبي الحسن بن سالم: كيف تُنكر السماع وقد كان الجُنيد، وسري السقطي، وذو النون يستمعون؟ فقال: وكيف أُنكر السماع؟ وقد أجازه وسمعه من هو خيرٌ منّي، فقد كان عبد الله بن جعفر الطيّار يسمع، وإنما أنكر اللهو واللعب في السماع.

وروي عن يحيى بن معاذ أنه قال: فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها، ولا أراها تزدادُ إلاّ قلّةً: حسن الوجه مع الصيانة، وحسن القول مع الديانة، وحسن الإخاء مع الوفاء، ورأيتُ هذا في بعض الكتب محكياً بعينه عن الحارث المُحاسبي، وفيه ما يدلُّ على تجويزه السماع مع زهده وتصاونه، وجدُّه في الدين وتشميره، قال: وكان ابن مجاهد لا يُجيبُ دعوةً إلاّ أن يكونَ فيها سماعٌ.

وحكى غيرُ واحد أنه قال: اجتمعنا في دعوة ومعنا أبو القاسم ابن بنت مُنيع، وأبو بكر بن داود، وابن مجاهد في نظرائهم، فحضر سماعٌ فجعل ابن مجاهد يحرّض ابن بنت منيع على ابن داود في أن يسمع. فقال ابن داود: حدّثني أبي عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع، وكان أبي يكرهه، وأنا على مذهب أبي. فقال أبو القاسم ابن بنت منيع: أما جدك أحمد ابن بنت منيع فحدّثني عن صالح بن أحمد، أن أباه كان يسمع قول ابن الخبازة. فقال مجاهد لابن داود: دعني أنت من أبيك، وقال لابن بنت منيع: دعني أنت من جدك، أيُّ شيء تقول يا أبا بكرٍ فيمن أنشدَ بيت شعرٍ أهو حرام؟ فقال ابن داود: لا. قال: فإن كان حسنَ الصوت حرم عليه إنشاده؟ قال: لا. قال: فإن أنشده وطوّله وقصّر منه الممدود، ومدَّ منه المقصور، أيحرم عليه؟ قال: أنا لم أقوَ لشيطانٍ واحدٍ فكيف أقوى لشيطانين؟.

قال وكان أبو الحسن العسقلاني الأسود من الأولياء يسمع ويوله عند السماع، وصنّف فيه كتاباً، وردَّ فيه على مُنكريه، وكذلك جماعة منهم صنّفوا في الردّ على منكريه.

وحُكي: عن بعض الشيوخ أنه قال: رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام فقلت له: ما تقول في هذا السماع الذي اختلف فيه أصحابنا؟ فقال: هو الصفو الزُّلال الذي لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء.

وحُكي: عن ممشاد الدِّيْنَوَرِيّ أنه قال: رأيت النبي ﷺ في النوم فقلتُ: يا رسول الله، هل تنكر من هذا السماع شيئاً؟ فقال: ما أنكر منه شيئاً، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن، ويختمون بعده بالقرآن.

وحُكي: عن طاهر بن بلال الهمداني الورّاق، وكان من أهل العلم، أنه قال: كنت معتكفاً في جامع جدَّة على البحر، فرأيت يوماً طائفة يقولون في جانبٍ منه قولاً ويستمعون، فأنكرت ذلك بقلبي، وقلتُ: في بيتٍ من بيوت الله يقولون الشعر! قال: فرأيتُ النبيَّ ﷺ تلك الليلة وهو جالسٌ في تلك الناحية وإلى جانبه أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه، وإذا أبو بكر يقول شيئاً من القول، والنبيُّ ﷺ يستمع إليه، ويضع يده على صدره كالواجد بذلك، فقلت في نفسي: ما كان ينبغي لي أن أُنكر على أولئك الذين كانوا يستمعون، وهذا رسولُ الله ﷺ يستمع، وأبو بكر يقول، فالتفتَ إليّ رسول الله ﷺ وقال: هذا حقٌّ بحقٍّ، أو قال: حقٌّ من حقٍّ. أنا أشكُّ فيه.

وقال الجُنيد: تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع: عند الأكل؛ لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة، وعند المذاكرة، لأنهم لا يتحاورون إلاّ في مقامات الصدّيقين، وعند السماع؛ لأنهم يسمعون بوجدٍ، ويشهدون حقاً.

وعن ابن جريج أنه كان يرخّص في السماع فقيل له: أيؤتى به يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيئاتك؟ فقال: لا في الحسنات ولا في السيئات، لأنه شبيه باللغو[1]، وقال الله تعالى: ﴿لا يُؤَاخِذُكُم الله باللَّغْوِ في أَيْمَانِكُمْ﴾[2].

هذا ما نقل من الأقاويل ومن طلب الحقّ في التقليد، فمهما استقصى تعارضتْ عنده هذه الأقاويل، فيبقى متحيّراً أو مائلاً إلى بعض الأقاويل بالتشهّي، وكلُّ ذلك قصور، بل ينبغي أن يطلب الحقّ بطريقه وذلك بالبحث عن مدارك الحظر والإباحة.

---

(١) اللغو: هو ما لا يُعتدّ به من كلام وغيره، ولا يحصل منه على فائدة ولا نفع.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.

٩٩ ـ باب: في النهي عن البدعة واتباع الهوى

قال ﷺ: «إيّاكم ومُحدثات[١] الأمور، فإنَّ كلَّ مُحدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعة ضلالةٌ وكلَّ ضلالة في النار».

وقال ﷺ: «من أحدث في أمر ديننا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ».

وقال ﷺ: «عليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين من بعدي».

فعُلم من هذه الأحاديث: أن كل ما خالف الكتاب والسنة وإجماع الأئمة فهو بدعة مردودة.

وقال ﷺ: «من سنَّ سنَّةً حسنةً كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنَّ سنَّةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمل به إلى يوم القيامة».

وقال قتادة رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وأنَّ هذا صراطي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ﴾[٢].

اعلموا: أن السبيل سبيلٌ واحدٌ جِماعُهُ الهدى، ومصيره الجنة، وأن إبليس استبدع سُبُلاً متفرّقة جِماعُها الضلالة، ومصيرها إلى النار.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ لنا رسولُ الله ﷺ خطّاً بيده ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيماً» ثم خطَّ خطوطاً عن يمين ذلك الخطِّ وعن شماله ثم قال: «هذه سُبُلٌ ليس منها سبيلٌ إلاّ عليه شيطانٌ يدعو إليه» ثم قرأ هذه الآية.

وعن ابن عباس: «هذه السُّبُلُ الضلالاتُ».

وقال ابن عطية: هذه السُّبل تعمُّ اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمّق

---

(١) محدثات: جمع مُحْدَث وهو كل ما لم يكن معروفاً في كتاب ولا سنة ولا إجماع أو هي المبتدعات.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٣.

في الجدال، والخوض في الكلام، وهذه كلُها عُرضةٌ للزلل، ومظنّةٌ لسوء المعتقد.

وقال ﷺ: «من رغب عن سنّتي فليس مني».

وقال ﷺ: «ما من أُمّةٍ ابتدعتْ بعد نبيّها في دينها بدعةً[1] إلاّ أضاعت مثلَها من السُّنَّة».

وقال ﷺ: «ما تحت ظلِّ السماء من إله يُعبد أعظم عند الله من هوًى يُتَّبع».

وقال ﷺ: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمَّدٍ ﷺ، وشرّ الأمور مُحدثاتها، وكلّ بدعةٍ ضلالةٌ، وإنّما أخشى عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى، إيّاكم والمحدثاتِ فإنَّ كلَّ محدثةٍ ضلالةٌ».

وقال ﷺ: «إن الله حجب التوبة عن كلِّ صاحب بدعةٍ حتى يدع بدعته».

وقال ﷺ: «لا يقبل الله لصاحب بدعة صوماً ولا حجّاً ولا عمرةً ولا جهاداً ولا صَرفاً ولا عدلاً، يخرج من الإسلام كما تخرجُ الشعرة من العجين، لقد تَركْتُكم على مثل البيضاء ليلُها كنهارها، لا يزيغ[2] عنها إلاّ هالكٌ، لكلِّ عمرٍ شِرّةٍ، ولكلِّ شرّةٍ فترةٌ، فمن كانت شرّتُهُ إلى سنّتي فقد اهتدى، ومن كانت شِرّتُهُ إلى غير ذلك فقد هَلَكَ.

إني أخافُ على أُمتي من ثلاث: من زَلّةِ عالم، وهوًى متّبع، وحكم جائر» رواه الترمذي وحسنّه في مواضع، وصحّحه في أخرى. والشرّة بكسر الشين وفتح الراء مشددة النشاط والهمة.

فصل في النهي عن آلة اللهو:

روى البخاري: أنه ﷺ قال: «من قال لصاحبه: تعال أقامرك، فليتصدَّق».

وروى مسلم، وأبو داود، وابن ماجه: «من لعب بنردٍ أو نرد شير فكأنما غمس يده في لحم خنزير ودمه».

وروى أحمد وغيره أنه ﷺ قال: «مثلُ الذي يلعب بالنرد، ثم يقوم ليصلّي مثلُ

---

(١) بدعة: البدعة: هي ما استحدث في الدين وغيره.

(٢) لا يزيغ: لا يبتعد ولا يميل عنها.

الذي يتوضَّأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلّي» أي فلا تُقبل له صلاةٌ، كما صرّحت به رواية أخرى.

وأخرج البيهقي عن يحيى بن كثير قال: مرَّ رسولُ الله ﷺ على قومٍ يلعبون بالنَّرْد، فقال: «قلوبٌ لاهية، وأيد عاملة، وألسنة لاغية».

وأخرج الديملي أنه ﷺ قال: «إذا مررتم بهؤلاء الذين يلعبون بهذه الأزلام والشطرنج والنرد وما كان من هذه ـ أي: ما شابه ذلك من كلِّ لهوٍ محرَّمٍ ـ فلا تسلّموا عليهم، وإن سلَّموا عليكم، فلا تردُّوا عليهم».

وقال ﷺ: «ثلاث من الميسر: القمار، والضربُ بالكعاب، والصفير بالحمَّام».

ومرَّ عليٌّ رضي الله عنه بقوم يلعبون الشطرنج فقال: **﴿ما هذهِ التَّماثيلُ الَّتي أنتُم لها عاكِفُونَ﴾**[1] لأن يمسَّ أحدُكم جمراً حتى يُطْفأ خيرٌ له من أن يمسَّها. ثم قال: والله لغيرِ هذا خُلقتم.

وقال أيضاً رضي الله عنه: صاحب الشطرنج أكثرُ الناس كذباً، يقول أحدهم: قتلت. وما قتل، ومات وما مات.

وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لا يلعب بالشطرنج إلاّ خاطىءٌ.

واعلم أن الملاهي: إما حرام: كعودٍ وطنبورٍ، ومعزفةٍ، وطبلٍ، ومزمار وما ألهى بصوت مطرب إذا انفرد. أو مكروهٍ وهو ما يزيد به الغناء طرباً، ولم يطرب منفرداً كالصنج والقصب فيكره مع الغناء لا وحده.

أو مباح: وهو ما خرجَ عن آلة الطرب إلى إنذارٍ كالبوق وطبلِ الحرب أو لمجمعةٍ وإعلانٍ كالدفّ في النكاح.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥٢.

١٠٠ ـ باب: في فضائل رجب

رجب مشتقٌ من الترجيب وهو التعظيم، ويقال له: الأصبُّ، لأن الرحمة تُصب فيه على التائبين، وتفيض أنوارُ القبول على العاملين. ويقال له: الأصمُّ لأنه لم يُسمع فيه حسُّ قتالٍ.

وقيل: رجب اسم نهر في الجنة ماؤه أشدُّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، وأبردُ من الثلج، لا يشرب منه إلاّ من صامَ شهر رجب.

قال عليه الصلاة السلام: «رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمتي».

وقال أهل الإشارة: رجب ثلاثة أحرف: راء وجيم وباء، فالراء رحمة الله، والجيم جرم العبد وجنايته، والباء بر الله، كأنَّ الله تعالى يقول: أجعل جرم عبدي بين رحمتي وبري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «من صام السابع والعشرين من رجب كُتب له صيام ستين شهراً» هو أوّل يوم نزل فيه جبريل على النبي ﷺ بالرسالة، وفيه أُسري به ﷺ.

وقال ﷺ: «ألا إن رجباً شهر الله الأصم، فمن صام من رجب يوماً إيماناً واحتساباً، استوجب رضوان الله الأكبر».

قيل: زيَّن الله الشهور بأربعة: ذي القعدة، وذي الحجة، والمحرم، ورجب، فذلك قوله تعالى: ﴿مِنها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾[١] فالأشهر الحرم ثلاثة سرد[٢]، وواحد فرد. وهو شهر رجب.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(٢) سرد: متعاقبة ومتوالية.

وحكي أن امرأةً في بيت المقدس كانت تقرأ كل يوم من رجب: ﴿قُل هو الله أحَدٌ﴾[(١)] اثني عشر ألف مرَّةٍ وكانت تلبس الصوف في شهر رجب، فمرضتْ، وأوصت ابنها أن يدفن معها صوفها، فلما ماتت كفَّنها في ثيابٍ مرتفعةٍ، فرآها في منامه تقول له: أنا عنك غيرُ راضيةٍ، لأنك لم تعمل بوصيتي. فانتبه فزعاً، وأخذ صوفها ليدفنه معها، فنبشَ قبرها فلم يجدها فيه، فتحيّر فسمع نداءً: أما علمت أن من أطاعنا في رجب لا نتركه فرداً وحيداً.

وروي: إذا كان ثلث الليل من أوّل جمعةٍ من رجب لا يبقى مَلَكٌ إلاّ ويستغفرُ لصوّام رجب.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صام ثلاثة أيامٍ من شهرٍ حرامٍ كُتب له ثواب عبادة تسعمائة سنة». وقال أنس رضي الله عنه: صُمَّتْ أُذناي إن لم أكنْ سمعته من رسول الله ﷺ.

لطيفة الأشهرُ الحرم أربعة، وخيار الملائكة أربعة.

وأفضل الكتب المنزلة أربعة. وأعضاء الوضوء أربعة. وأفضل التسبيحات كلماتٌ أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وعماد الحساب أربعة: آحاد وعشرات، ومئات، وألوف.

والأوقات أربعة: الساعة، واليوم، والشهر والسنة.

وفصول السنة أربعة: ربيع، وصيف، وخريف، وشتاء.

والطبائع أربعة: حرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة.

وسلطان البدن أربعة: صفراء وسوداء ودم وبلغم.

والخلفاء الراشدون أربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضوان الله عليهم أجمعين.

روى الديلمي عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

(١) سورة الإخلاص، الآية: ١.

«يَسُحُّ[1] الله الخير في أربع ليالٍ سَحّاً: ليلة الأضحى، وليلة الفطر، وليلة النصف من شعبان، وأول ليلة من رجب».

وروى الديلمي أيضاً بسنده عن أبي أُمامة عن رسول الله ﷺ قال: «خمسُ ليالٍ لا تُردُّ فيها دعوةٌ: أول ليلة من رجب، وليلة النصف من شعبان، وليلة الجمعة، وليلتا العيدين».



(١) يسحّ: سحّ سحّاً: صب الخير صباً كثيراً ومتتابعاً.

١٠١ ـ باب: في فضل شعبان المبارك

سُمِّي شعبان لأنه يتشعّب منه خيرٌ كثير، مشتقٌ من الشِّعب بكسر الشين، وهو طريق الجبل فهو طريق الخير.

وروي عن أبي أُمامة الباهلي رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «إذا دخل شعبان فطهِّروا أنفسكم، وأحسنوا نيّتكم فيه».

وعن عائشة رضي الله عنه قالت: كان رسول الله ﷺ يصومُ حتى نقول: لا يُفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم، وكان أكثرُ صيامه في شعبان».

وفي النسائي من حديث أُسامة رضي الله عنه قلتُ: يا رسول الله، لم أَرَكَ تصوم من شهرٍ من الشهور ما تصوم من شعبان. قال: «ذاكَ شهرٌ يَغفل الناسُ عنه بين رجب ورمضان وهو شهرٌ تُرفعُ فيه الأعمال لربِّ العالمين، فأحبُّ أن يُرفعَ عملي وأنا صائم».

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ استكملَ صيامَ شهرٍ قطّ إلا رمضان، وما رأيته في شهرٍ أكثر منه صياماً من شعبان.

وفي روايةٍ: كان يصومُ شعبان كلّه.

ولمسلم: كان يصوم شعبان إلاّ قليلاً؛ فهذه الرواية مفسّرة للأولى، فالمراد بـ «كلّه» أغلبُه.

قيل: إن للملائكة في السماء ليلتي عيدٍ كما أنَّ للمسلمين في الأرض يومي عيدٍ، فعيدُ الملائكة ليلة البراءة، وهي ليلة النصف من شعبان، وليلة القدر، وعيد المؤمنين يوم الفطر، ويوم الأضحى، فلذا سُميت ليلة نصف شعبان ليلة عيد الملائكة.

وذكر السُّبْكيُّ في تفسيره: أنها تكفّر ذنوب السنة، وليلة الجمعة تكفّر ذنوبَ الأسبوع، وليلة القدر تكفّر ذنوب العمر. أي إحياءُ هذه الليالي سببٌ لتكفير الذنوب.

وتُسمّى ليلة التكفير أيضاً لذلك، وليلة الحياة لما روى المنذري مرفوعاً: «من أحيا ليلتي العيد، وليلة النصف من شعبان، لم يمت قلبُه يوم تموت القلوب».

وتُسمَّى ليلة الشفاعة لما رُوي أنه ﷺ سأل الله تعالى ليلة الثالث عشر الشفاعة في أمته، فأعطاه الثلث، وسأله ليلة الرابع عشر فأعطاه الثلاثين، وسأله ليلة الخامس عشر، فأعطاه الجميع إلا من شرد على الله شِرادَ البعير. يعني من فرَّ من الله وتباعد عنه بالإصرار على المعصية.

وتُسمَّى ليلة المغفرة أيضاً لما روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليطَّلعُ ليلة النصف من شعبان إلى عباده فيغفر لأهل الأرض إلا رجلين: مُشرك أو مشاحن».

وتُسمَّى ليلة العَتْق، لما روى ابن إسحاق عن أنس بن مالك قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى منزل عائشة رضي الله عنها في حاجةٍ، فقلت لها: أسرعي، فإني تركت النبيَّ ﷺ يحدثهم عن ليلة النصف من شعبان. فقالت: يا أُنيس، إجلس حتى أحدثك بحديث ليلة النصف من شعبان، تلك الليلة كانت ليلتي من رسول الله ﷺ، فجاء ودخل معي في لحافي، فانتبهت من الليل فلم أجده، فقلت: لعلَّه ذهب إلى جاريته القبطية.

فخرجت فمررت في المسجد، فوقعت رجلي عليه، وهو يقول: «سجد لك سوادي وخيالي، وآمن بك فؤادي، وهذه يدي وما جنيت بها على نفسي، يا عظيماً يُرجى لكلِّ عظيمٍ، أغفرِ الذنب العظيم، سجدَ وجهي للذي خلقه وصوّره، وشقَّ سمعه وبصره».

ثم رفع رأسه فقال: «اللَّهُمَّ، ارزقني قلباً تقياً نقياً من الشرك، برياً، لا كافراً، ولا شقياً».

ثم عاد ساجداً فسمعته يقول: «أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وبك منك، لا أُحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، أقول كما قال أخي داود: اعفر[1] وجهي في التراب لسيدي، وحُقَّ لوجه سيدي أن يعفَّر» ثم رفع رأسه فقلت: بأبي أنت وأمي، أنت في وادٍ، وأنا في وادٍ.

فقال: «يا حُميراء، أما تعلمين أن هذه الليلة ليلة النصف من شعبان؟ إن لله عز

---

(١) اعفـر: أمرِّغ وجهي في التراب.

وجل في هذه الليلة عتقاءُ من النارِ بعدد شعر غنم بني كلب، إلاّ ستَّة: لا مدمن خمر، ولا عاق لوالديه، ولا مصرّ على زنا، ولا مُصارم، ولا مضرب، ولا قتَّات».

وفي رواية: «مصوِّر» بدل «مضرب».

وتُسمى ليلة القسمة والتقدير، لما روى عطاء بن يسار: إذا كانت ليلة النصف من شعبان نُسخ لملك الموت كلُّ من يموت من شعبان إلى شعبان، وإن العبد ليغرسُ الغرسَ، وينكح الأزواج، ويبني البنيان، وإن اسمه قد نُسخ في الموتى، وما ينتظر به ملك الموت إلاّ أن يُؤمر به فيقبضه.



١٠٢ ـ باب: في فضل رمضان المعظم

قال الله تعالى: ﴿يا أيُّها الذينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَمَا كُتِبَ على الَّذينَ من قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾[1].

عن سعيد بن جُبير رضي الله عنه: كان صوم من قبلنا من العتمة إلى الليلة القابلة كما كان في ابتداء الإسلام.

وقال جماعة من أهل العلم: كان واجباً على النصارى فربَّما كان يقع في الحرّ الشديد، والبرد الشديد، وكان يشقُّ عليهم في أسفارهم وبعض معايشهم، فاجتمع رأي كبرائهم على أن يجعلوا صيامهم في فصل من السنة بين الشتاء والصيف، فجعلوه في الربيع، وزادوا فيه عشرة أيامٍ كفّارةً لما صنعوا.

ثم إن ملكاً لهم اشتكى، فجعل لله عليه إن برىء من وجعه أن يزيد في صومهم أسبوعاً، فبرىء، فزاد فيه أسبوعاً، فلما مات ذلك، وتولاّهم ملك آخر فقال: أتموه خمسين يوماً. ثم أصابهم موتان وهو موت البهائم، فقال: زيدوا صيامكم. فزادوا عشراً قبلُ وعشراً بعدُ.

وقيل: ما من أمة إلا وفُرض عليهم صيام رمضان، إلا أنهم ضلوا عنه.

قال البغوي: والصحيح أن رمضان اسم للشهر من الرَّمْضاء، وهي الحجارة المحماة لأنهم كانوا يصومون في الحرّ الشديد، لأن العرب لما أرادت أن تضعَ أسماء للشهور، وافقَ أن الشهر المذكور كان في شدَّة الحرّ.

وقيل: سُمّي بذلك لأنه يرمض الذنوبَ. أي يحرقها.

وفُرضَ في السنة الثانية من الهجرة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

وهو معلوم من الدين بالضرورة يكفُر جاحد وجوبه.

وورد في فضله أحاديث كثيرة منها: قوله ﷺ: «إذا كان أول ليلة من رمضان، فُتحت أبوابُ الجنان كلُّها، فلا يُغلق منها بابٌ في الشهر كلِّه، وأمر الله تعالى منادياً يُنادي: يا طالب الخير أقبلْ، ويا باغي الشرِّ أقصرْ، ثم يقول: هل من مستغفرٍ فيُغفر له؟ هل من سائلٍ فيُعطى سؤله؟ هل من تائب فيُتاب عليه؟ فلم يزل كذلك إلى انفجار الصبح، ولله كلَّ ليلةٍ عند الفطر ألف ألف عتيق من النار، قد استوجبوا العذاب».

وعن سلمانَ الفارسي رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال: «أيُّها الناس قد أظلكم شهر عظيم، فيه ليلة القدر خيرٌ من ألف شهرٍ، جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوّعاً، من تقرب فيه بخصلة من الخير، كان كمن أدى فريضة فيما سواه. ومن أدى فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، وهو شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة، وهو شهر المواساة، وهو شهر يُزاد في رزق المؤمن، من فطّر فيه صائماً كان له عتق رقبةٍ ومغفرة لذنوبه».

قلنا: يا رسول الله ليس كلُّنا يجد ما يُفَطِّر به الصائم؟ قال: «يُعطى الله هذا الثواب من يفطر صائماً على مذقة لبن، وشربة ماء، أو تمرة، ومن أشبع صائماً كان له مغفرة لذنوبه وسقاه ربُّه من حوضي، شربةً لا يظمأ بعدها أبداً، وكان له مثلُ أجره من غير أن ينقص من أجره شيء، وهو شهرٌ أوّله رحمةٌ، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار، ومن خفّف عن مملوكه فيه أعتقه الله من النار.

فاستكثروا فيه من أربع خصال. خصلتين تُرضون بهما ربّكم، وخصلتين لا غنى لكم عنهما أمّا الخصلتان اللتان تُرضون بهما ربّكم: فشهادة ألاّ إله إلا الله، وتستغفرونه وأمّا الخصلتان اللّتان لا غنى لكم عنهما: تسألون ربّكم الجنَّة، وتتعوّذون به من النار».

ومنها قوله ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفرَ الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر».

وقوله ﷺ: «كلُّ عمل ابن آدم له إلا الصوم، فإنه لي وأنا أجزي به».

وناهيك بعبادة أضافها الباري تبارك وتعالى لنفسه.

ومنها قوله ﷺ: «أُعطيتْ أمتي خمسَ خصالٍ في شهر رمضان لم تُعطهنّ أمةٌ قبلها: خُلُوف[1] فم الصائم أطيبُ عند الله من ريح المسك، وتستغفر لهم الملائكة حتى يفطروا، وتصفد فيه مردةُ الشياطين، ويزيِّن الله تعالى كلَّ يوم الجنَّة ويقول: يُوشك عبادي الصالحون أن يكفَّ عنهم السوء والأذى، ويغفر لهم في آخر ليلة منه» قيل: يا رسول الله، أهي ليلة القدر؟ قال: «لا، ولكنَّ العاملَ يُوفَّى أجره إذا قضى عمله».



(١) خُلُوف: خلف الشيء خلوفاً: أي تغيير وفسد.

١٠٣ ـ باب: في فضل ليلة القدر

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلٌ من بني إسرائيل حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهرٍ، فعجبَ رسول الله ﷺ لذلك، وتمنّى ذلك لأمّتِهِ فقال: «يا رب جعلت أمتي أقصر الأمم أعماراً وأقلها أعمالاً» فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، خير من ألف شهر، مدّة حمل الإسرائيلي السلاح في سبيل الله له ولأمته إلى يوم القيامة، فهي من خصائص هذه الأمة.

ويُقال اسم ذلك الرجل شمعون، غزا العدو ألف شهر، لم يجفَّ لِبْدُ فرسه، وقهر الكفّار لما أعطي من القوة والجسارة، فضاقت قلوبُهم منه، فبعثوا رسولاً إلى امرأته وضمنوا لها طستاً من ذهب مملوءاً ذهباً، إن هي قيّدته حتى يحبسوه في بيت لهم، ويستريحوا منه فلمّا نام بالليل أوثقته بحبل من ليف، فلما انتبه حرك أعضائه، فقطع الحبل قطعاً، وسألها لِمَ صنعت ذلك؟ فقالت: أجرّبُ قوتك.

فلما أُخبِرَ الكفار بعثوا لها سلسلةً، ففعلتْ مثل ما فعلت، فقطعها، فجاء إبليس إلى الكفار وأرشدهم أن تسأل المرأة زوجها: أيُّ شيء لا يقوى على فكه وقطعه؟ فأرسلوا إليها فسألته، فقال: ذوائبي. وكان له ثمانية ذوائب طويلة تجرُّ على الأرض، فلمّا نام قيّدت رجليه بأربعة، ويديه بأربعة. فجاء الكفّار وأخذوه، وذهبوا به إلى بيت مذبحهم، مقدار أربعمائة ذراع علوه، ومع اتساعه له عمودٌ واحدٌ، فقطعوا أُذنيه وشفتيه، وكانوا كلُّهم مجتمعين لديه، فسأل الله تعالى أن يقوّيه على فكِّ وثاقه، وعلى أن يجرَّ العمود ويهدمه عليهم مع نجاته منهم، فقوّاه الله فتحرّك فانفكَّ وثاقه، وحرّك العمودَ فوقع عليهم السقفُ، فأهلكهم الله جميعاً ونجا منهم، فلمّا سمع أصحابُ رسول الله ﷺ ذلك الخبر، قالوا: يا رسول الله، هل ندركُ نحن ثوابه؟ فقال: «لا أدري» ثم سأل ربّه فأعطاه كما تقدّم ليلة القدر.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كانت ليلةُ القدر، نزل

جبريل عليه السلام في كَبْكَبة من الملائكة يُصلون ويسلّمون على كلِّ عبدٍ قائمٍ أو قاعدٍ يذكر الله تعالى».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: الملائكةُ تنزل ليلة القدر في الأرض أكثر من عدد الحصى، فتفتح أبواب السماء للتنزل، كما ورد، فتسطع الأنوار، ويحصل تجلٍّ عظيمٍ، وينكشف فيها الملكوت، والناس في ذلك متفاوتون، فمنهم من يكشف له عن ملكوت السموات والأرض، فتُكشفُ له الحُجُبُ عن السموات، فيُشاهد فيها الملائكة على صورها، ما بين قائم وقاعدٍ وراكعٍ وساجد وذاكر وشاكر، ومسبِّح ومهلِّل.

ومنهم من يُكشف له عن الجنة بما فيها من دُوْرِها وقصورها، وحورها وأنهارها وأشجارها وأثمارها، ويُشاهد عرش الرحمن وهو سقفها، ويشاهد منازل الأنبياء والأولياء والشهداء والصدِّيقين، ويهيمُ في هذا الملكوت، ويتنزه في ذلك الرحموت، ويشاهد جهنم، ويشاهد دركاتها ومنازل الكفار إلى غير ذلك، ومنهم من تَنْكشفُ حجُبُهُ عن جمال الله فلا يشهد إلا إياه.

وعن عمر، عنه عليه الصلاة والسلام: «من أحيا ليلة سبع وعشرين من رمضان إلى الصبح فهو أحبُّ إليّ من قيام ليالي شهر رمضان كلها» فقالت فاطمةُ: يا أبتِ، ما تصنع الضُّعفاءُ من الرجال والنساء ممن لا يقدرون على القيام؟.

قال: «لا يضعون الوسائد فيتكئون عليها، ويقعدون ساعة من ساعات تلك الليلة، ويدعون الله عزَّ وجلَّ إلا كان ذلك أحبَّ إليَّ من قيام أمتي جميعاً شهر رمضان».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحيا ليلة القدر وصلى فيها ركعتين، واستغفر فيها، غفر الله له، وخاض في رحمة الله، ومسحه جبريل بجناحه، ومن مسحه جبريل بجناحه دخل الجنَّة».

١٠٤ ـ باب: في فضل العيد

سُمّي هذا اليوم الذي هو أول شوال واليوم الذي هو العاشر من ذي الحجة عيداً، لأن المؤمنين عادوا فيهما من طاعة الله تعالى، التي هي أداءُ فريضتي صيام شهر رمضان، والحجِّ إلى طاعة رسوله ﷺ التي هي صيام ستٍّ من شوال، والتأهُّب لزيارته ﷺ، ولتكرار ذلك كلّ عام ولكثرة عوائد الله تعالى فيه بالإحسان، ولعود السرور بعوده.

وأوّل عيد صلاةُ رسول الله ﷺ عيد الفطر في السنة الثانية من الهجرة، ولم يتركها. فهي سنة مؤكدة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «زينوا أعيادكم بالتكبير».

وقال ﷺ: «من قال سُبحان الله وبحمده يوم العيد ثلاثمائة مرة، وأهداها لأموات المسلمين، دخل في كلِّ قبرٍ ألفُ نورٍ، ويجعلُ الله تعالى في قبره إذا مات ألف نور».

وعن وهب بن منبّه رضي الله عنه: أن إبليس يرنُّ في كلِّ عيدٍ فيجتمع إليه الأبالسة. فيقولون: يا سيدنا ممَّ غضبك؟ فيقول: إن الله تعالى قد غفر لأمّة محمّد ﷺ في هذا اليوم، فعليكم أن تشغلوهم باللّذات والشهوات.

وعن وهب أيضاً: أن الله تعالى خلق الجنة يوم عيد الفطر، وغرس شجرة طوبى يوم عيد الفطر، واصطفى جبريل للوحي يوم عيد الفطر، وتاب على سحرةِ فرعون يوم عيد الفطر.

وقال النبيُّ ﷺ: «من قام ليلة العيد مُحتسباً لم يمتْ قلبُه يوم تموت القلوب».

حُكي أن عمر رأى ولداً له يوم عيد، وعليه قميص خَلَقٌ، فبكى فقال: ما يُبْكيك؟ فقال: يا بُنيَّ، أخشى أن ينكسر قلبُك في يوم العيد إذا رآك الصبيان بهذا القميص الخَلَقِ، فقال: إنما ينكسر قلب من أعدمه الله رضاه، أو عقَّ أمَّه وأباه، وإني لأرجو أن يكون الله راضياً عني برضاك. فبكى عمر وضمّه إليه، ودعا له رضي الله عنهما.

وما أحسن قول القائل:

قالوا: غداً العيدُ ماذا أنت لابسُه ... فقُلت: خِلْعَةَ ساق عبدَهُ الجُرَعا

فقرٌ وصبرٌ هما ثوبان بينهما ... قلبٌ يرى ربَّه الأعياد والجمعا

العيدُ لي مأتمٌ إنْ غبتَ يا أملي. والـ ... ـعيدُ إن كنت لي مرأى ومُستَمَعاً

ورُوي: «إذا كان غداةُ عيد الفطر، بعث الله الملائكة فيهبطون إلى الأرض، ويقومون على أفواه السكك، فينادون بصوت يسمعه جميعُ خلق الله إلاّ الجنَّ والإنس، يقولون: يا أمَّةَ محمَّدٍ، أُخرجوا إلى ربٍّ كريم، يُعطي العطاء الجزيل، ويغفرُ الذنب العظيم.

فإذا برزوا إلى مُصلاّهم، قال الله للملائكة: ما جزاء الأجير إذا عمل؟ فيقولون: جزاؤه أن يوفّى أجره. فيقول الله سبحانه وتعالى: أُشهدكم إني قد جعلتُ ثوابَهم رضائي ومغفرتي».



١٠٥ ـ باب: في فضل عشر ذي الحجة

روى ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من أيام العمل فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيام» ـ يعني: أيام العشر ـ قالوا: ولا الجهادُ في سبيل الله تعالى؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلاّ رجلٌ خرج بنفسه وماله فلم يرجعْ من ذلك بشيء».

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أيّام أحبُّ إلى الله وأفضل من أيام العشرِ» قيل: ولا مثلهن في سبيل الله؟ قال: «ولا مثلهنّ في سبيل الله، إلا رجل عقر[١] جوادَه، وعفّر وجهه في سبيل الله».

وعن عائشة رضي الله عنها: أن شاباً كان صاحبَ سماع، وكان إذا هلّ هلال ذي الحجة أصبح صائماً، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فدعاه فقال: «ما يحملك على صيام هذه الأيام»؟ قال: بأبي أنت وأمي يا رسولَ الله، إنها أيّام المشاعر، وأيام الحجِّ، عسى الله أن يشركني في دعائهم.

قال: «فإنَّ لك بكلِّ يوم تصومه عدل مائة رقبةٍ، ومائة بدنة، ومائة فرسٍ يُحملُ عليها في سبيل الله، فإذا كان يوم التروية فلك فيها عدل ألف رقبة، وألف بدنة، وألف فرس تحمل عليها في سبيل الله، فإذا كان يوم عرفة فلك فيها عدل ألفي رقبة، وألفي بدنة، وألفي فرس يُحمل عليها في سبيل الله تعالى».

وقال ﷺ: «يعدل صوم يوم عرفة بسنتين، ويعدل صوم عاشوراء بصوم سنة».

وقال أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِين لَيْلَةً وأتمَمناها بعَشْرٍ﴾[٢] الآية. إنها العشرُ الأول من ذي الحجة.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إن الله اختار من الأيام أربعةً، ومن الشهور أربعةً،

---

(١) عَقَرَ: قطع قوائمه وذبحه.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

ومن النساء أربعةً، وأربعةٌ يسبقون إلى الجنة، وأربعةٌ اشتاقت اليهم الجنة.

أمّا الأيام: فأوّلها: يوم الجمعة. فيه ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم يسأل الله تعالى شيئاً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إياه.

وثانيها: يومُ عرفة، فإذا كان يوم عرفة يُباهي الله تعالى ملائكته فيقول: يا ملائكتي، انظروا إلى عبادي جاؤوا شُعثاً غُبراً قد أنفقوا الأموال وأتعبوا الأبدان، اشهدوا أني غفرتُ لهم.

وثالثها: يوم النحر، فإذا كان يومُ النحر وقرّبَ العبد قربانه، فأولُ قطرةٍ قطرتْ من القربان تكون كفّارةً لكلِّ ذنب عمله العبد.

ورابعها: يوم الفطر، فإذا صاموا شهر رمضان، وخرجوا إلى عيدهم، يقول الله تبارك وتعالى لملائكته: إن كلَّ عامل يطلب أجره، وعبادي صاموا شهرهم، وخرجوا من عيدهم يطلبون أجرهم، أُشهدكم أني قد غفرتُ لهم، وينادي المُنادي: يا أُمَّةَ محمَّدٍ، ارجعوا، فقد بُدِّلت سيئاتكم حسنات.

وأمّا الشهور: فرجب الفرد وذو القعدة وذو الحجة ومحرم.

وأمّا النساء: فمريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد سابقةُ نساءِ العالمين إلى الإيمان بالله ورسوله، وآسية بنت مُزاحم امرأة فرعون، وفاطمة بنت محمَّد سيدة نساء الجنة.

وأمّا السابقون: فلكلِّ قومٍ سابقٌ فسيدنا محمدٌ ﷺ سابق العرب، وسلمان سابق الفرس، وصُهيب سابق الروم، وبلال سابق الحبشة.

وأمّا الأربعة الذين اشتاقت لهم الجنة: فعليٌّ بن أبي طالب، وسلمان الفارسي، وعمار بن ياسر، والمقداد بن الأسود.

وعنه ﷺ: «من صام يوم التَّروية أعطاه الله ثوابَ صبر أيوب عليه السلام على بلائه، ومن صام يوم عرفة أعطاه الله ثواباً مثل ثواب عيسى عليه السلام».

وعن النبي ﷺ: «إذا كان يومُ عرفة نشرَ الله رحمته، فليس من يومٍ أكثر عتقاً منه،

ومن سأل الله يوم عرفة حاجةً من حوائج الدنيا والآخرة، قضاها له، وصومُ يوم عرفة يكفّر سنة ماضيةً، وسنة مُستَقْبَلَة».

والحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ أنه بين عيدين، وهما يوما سرورٍ للمؤمنين، ولا سرور أعظم من غفران ذنوبهم، ويوم عاشوراء بعد العيدين فهو كفّارة سنة واحدة، ولأنه لموسى عليه السلام، ويوم عرفة لنبينا ﷺ وكرامته تتضاعف على غيره ﷺ.



١٠٦ ـ باب: في فضل عاشوراء

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم النبيُّ ﷺ المدينة فوجدَ اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم عن ذلك. فقالوا: إن هذا اليوم أظهرَ الله فيه موسى وبني إسرائيل على قوم فرعون، فنحن نصومُه تعظيماً له، فقال النبيُّ ﷺ: «نحن أوْلى بموسى منكم» فأمر بصومه.

وقد ورد في فضل عاشوراء آثار كثيرة منها: أنه تيب على آدم فيه، وكان خلقه فيه، وفيه أُدخل الجنة، وفيه خلق العرش والكرسي والسموات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجنّة، وولد إبراهيم الخليل فيه، وكانت نجاته من النار فيه، وكذلك نجاة موسى ومن معه، وإغراق فرعون ومن معه فيه، وفيه وُلد عيسى، وفيه رُفع إلى السماء، وفيه رُفع إدريس مكاناً علياً، وفيه استوت سفينة نوح على الجُوديِّ، وأُعطي فيه سُليمان الملك العظيم، وأُخرج يونس من بطن الحوت؛ ورُدَّ بصر يعقوب عليه، وأخرج يوسف من الجُبِّ، وكُشف ضرُّ أيوب، وأول مطرٍ نزل من السماء إلى الأرض كان يوم عاشوراء.

وكان صومه معروفاً بين الأمم حتى قيل: إنه فُرِضَ قبل رمضان ثم نُسخ به، وصامه ﷺ قبل الهجرة، ولما دخل المدينة أكَّد طلبه حتى قال ﷺ في آخر عمره الشريف: «إن عشتُ إلى قابلٍ لأصومنَّ التاسع والعاشر» فانتقل الى الرفيق الأعلى من عامه، ولم يصمْ غير العاشر، لكنَّه رغَّب فيه وفي صوم التاسع والحادي عشر بقوله ﷺ: «صوموا قبله يوماً وبعده يوماً وخالفوا سُنَّةَ اليهود» أي: حيث أفردوه بالصوم.

وروى البيهقي في «شُعب الإيمان»: «من وسَّع على عياله وأهله في يوم عاشوراء، وسع الله عليه في سائر سَنَتِه».

وفي رواية منكرة للطبراني: «الصدقة فيه بدرهم بسبعمائة ألف درهم».

وأما حديث: «من اكتحل يومه لم يرمدْ ذلك العام، ومن اغتسل فيه لم يمرض» فموضوع، وقد صرَّح الحاكم بأن الاكتحالَ يومه بدعة.

وقال ابن القيم: حديث الاكتحال، وطبخ الحبوب، والادِّهان، والتطيُّب يوم عاشوراء من وضع الكذّابين.

واعلم أن ما أُصيب به الحسين رضي الله عنه يوم عاشوراء إنما هو الشهادة الدالّةُ على مزيد رفعته ودرجته عند الله، وإلحاقه بدرجات أهل بيته الطاهرين، فمن ذكر ذلك اليوم مصابَه، فلا ينبغي أن يشتغل إلاّ بالاسترجاع، امتثالاً للأمر، وإحراز لما رتّبه تعالى عليه بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِم صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهم وَرَحْمَةٌ وأُولئك هُمُ المُهْتَدُونَ﴾[1] وإيّاه ثم إيّاه أن يشتغل ببدع الرافضة ونحوهم، من الندب والنياحة[2] والحزن، إذ ليس ذلك من أخلاق المؤمنين، وإلاّ لكان يومُ وفاة جده ﷺ أولى بذلك وأحرى. وحسبنا الله تعالى وحده ونعم الوكيل.



(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٧.

(٢) النياحة: كثرة البكاء.

١٠٧ ـ باب: في فضل ضيافة الفقراء

قال ﷺ: «لاَ تَكَلَّفوا للضيف فَتَبْغَضُوه، فإنه من أبغض الضيف فقد أبغض الله، ومن أبغض الله أبغضه الله».

وقال ﷺ: «لا خير فيمن لا يُضيف».

ومرّ رسول الله ﷺ برجلٍ له إبل وبقر كثيرة، فلم يُضِيفه، ومرَّ بامرأة لها شويهات فذبحت له. فقال ﷺ: «انظروا إليهما إنّما هذه الأخلاق بيد الله، فمن شاء أن يمنحه خُلُقاً حسناً فعل».

وقال أبو رافع مولى رسول الله ﷺ: إنه نزل به ﷺ ضيفٌ فقال: «قلْ لفلان اليهودي نزل بي ضيفٌ، فأسلفني شيئاً من الدقيق إلى رجب» فقال اليهودي: والله ما أسلفه إلاّ برهن. فأخبرته فقال: «والله إني لأمينٌ في السماء، أمينٌ في الأرض، ولو أسلفني لأدّيته، فاذهب بدرعي وارهنه عنده».

وكان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا أراد أن يأكل خرج ميلاً أو ميلين يلتمس من يتغدّى معه، وكان يكنّى أبا الضيفان، ولصدق نيّته دامتْ ضيافته في مشهده الى يومنا هذا، فلا تنقضي ليلةٌ إلا ويأكل عنده جماعة من بين ثلاثة إلى عشرة إلى مائة.

وقال قُوّامُ الموضع: إنه لم يخلُ عنه ضيف.

وسُئل رسول الله ﷺ ما الإيمان؟ فقال: «إطعام الطعام، وبذل السلام».

وقال ﷺ: «في الكفارات والدرجات: إطعام الطعام، والصلاة بالليل، والناس نيام».

وسُئل عن الحجّ المبرور فقال: «إطعام الطعام، وطيب الكلام».

قال أنس رضي الله عنه: كلُّ بيتٍ لا يدخله ضيفٌ لا تدخله الملائكة».

والأخبار الواردة في فضل الضيافة والإطعام لا تُحصى.

وما أحسن قول القائل:

لِـمَ لا أحـبُّ الضَّيـفَ أو أرتـاحُ مـن طـربٍ إليـه؟
والضيـفُ يـأكـلُ رزقـه عنـدي ويشكـرنـي عليـه

ومن كلام الحكماء: لا تتمُّ الصنيعة[1] إلاّ بطلاقةِ الوجه، وحسن الحديث، ولطف اللقاء.

وقال آخر:

أُضاحِكُ ضيفي قبل إنزال رحله ويخصب[2] عندي والمحلُّ جديبُ
وما الخِصْبُ للأضيافِ في كثرة القرى ولكنّما وجهُ الكريم خصيبُ

فينبغي للداعي أن يعمد بدعوته الأتقياء دون الفسّاق.

قال ﷺ: «أكل طعامَك الأبرار» في دُعائه لبعض من دعا له.

وقال ﷺ: «لا تأكلْ إلاّ طعام تقيٍّ، ولا يأكل طعامك إلاّ تقيٌّ» ويقصد الفقراء دون الأغنياء على الخصوص.

قال ﷺ: «شرُّ الطعام طعام الوليمة، يُدعى إليها الأغنياء دون الفقراء».

وينبغي ألاّ يُهمِل أقاربه في ضيافته، فإن إهمالهم إيحاشٌ وقطع رحمٍ، وكذلك يُراعي الترتيب في أصدقائه ومعارفه، فإن في تخصيص البعض إيحاشاً لقلوب الباقين».

وينبغي ألاّ يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر، بل استمالة قلوب الإخوان والتسنّن بسنّة رسول الله ﷺ في اطعام الطعام، وإدخال السرور على قلوب المؤمنين، وينبغي ألاّ يدعو من يعلم أنه يشقُّ عليه الإجابة، وإذا حضر تأذّى بالحاضرين بسببٍ من الأسباب، وينبغي ألاّ يدعو إلا من يحبُّ اجابته.

قال سفيان: من دعا أحداً إلى طعام وهو يكره الإجابة، فعليه خطيئة، فإن أجابَ المدعوُّ فعليه خطيئتان؛ لأنّه حمله على الأكل مع كراهةٍ، ولو علم ذلك لما كان يأكله.

---

(١) الصنيعة: هي كل ما عمل من خير أو إحسان.

(٢) يخصب: أي يكثر العشب والكلأ.

وإطعام التقيّ إعانةٌ على الطاعة، وإطعام الفاسق تقويةٌ على الفسق.

وقال رجلٌ خياطٌ لابن المبارك: أنا أخيط ثياب السلاطين، فهل تخاف أن أكون من أعوان الظلمة؟ قال: لا، إنما أعوانُ الظلمة من يبيع منك الخيطَ والإبرة، أمّا أنت فمن الظلمة نفسهم.

وأما الإجابةُ فهي سنَّةٌ مؤكّدة، وقد قيل: بوجوبها في بعض المواضع.

قال ﷺ: «لو دعيت إلى كراع[1] لأجبتُ، ولو أُهدي إليَّ ذراع[2] لقبلت».

وللإجابة خمس آداب مذكورة في «إحياء علوم الدين» وغيره.



(١) كُراع: مستدق الساق من البقر والغنم.

(٢) ذراع: هو الكتف.

١٠٨ ـ باب: في الكلام على الجنازة والقبر

اعلم أن الجنائز عبرةٌ للبصير، وفيها تنبيهٌ وتذكير، أما أهل الغفلة فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلاّ قساوة؛ لأنهم يظنُّون أنهم أبداً إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون، أو يحسبون ذلك، ولكنَّهم على القرب لا يقدرون ولا يتفكّرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون، فبطل حسبانهم، وانقرض على القرب زمانهم، فلا ينظرُ عبدٌ إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولاً عليها فإنه محمولٌ عليها على القرب، ولعله في غد، أو بعد غد.

ويروى عن أبي هريرة رضي الله عنه كان إذا رأى جنازة. قال: امضوا فإنّا على الأثر.

وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازةً قال: اغدوا فإنا رائحون، موعظة بليغة، وغفلة سريعة، يذهب الأولُ، والآخر لا عقل له.

وقال أُسيد بن حُضير: ما شهدتُ جنازة فحدثتني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به، وما هو صائر إليه.

ولمّا مات أخو مالك بن دينار خرج مالك في جنازته يبكي ويقول: والله لا تَقرُّ عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه، ولا أعلم ما دمت حياً.

وقال الأعمش: كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي، لحزن الجميع.

وقال ثابت البُناني: كنّا نشهد الجنائز، فلا نرى إلا متَقَنِّعاً باكياً.

فهكذا كان خوفهم من الموت، والآن لا ننظر الى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون، ويلهون، ولا يتكلَّمون إلا في ميراثه، وما خلّفه لورثته، ولا يتفكّر أقرانه وأقاربه إلاّ في الحيلة التي بها يتناول بعض ما خلّفه، ولا يتفكّر واحد منهم إلى ما شاء الله في جنازة نفسه، وفي حاله إذا حُمل عليها، ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوةُ القلوب بكثرة المعاصي والذنوب، حتى نسينا الله تعالى، واليوم الآخر، والأهوال التي

بين أيدينا، فصرنا نلهو ونغفل، ونشتغل بما لا يعنينا.

فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة، فإنَّ أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت.

نظر إبراهيم الزيّات إلى أناسٍ يترحّمون على الميت، فقال: لو ترحّمون على أنفسكم لكان خيراً لكم، إنه نجا من ثلاثة: وجه ملك الموت وقد رأى، ومرارة الموت وقد ذاق، وخوف الخاتمة وقد أمن.

وقال أبو عمرو بن العلاء: جلست إلى جرير وهو يملي على كاتبه شعراً، فأُطْلِعَتْ جنازة، وأنشأ يقول:

تُرَوِّعُنا[1] الجنائزُ مُقبلاتٍ ونلهو حين تذهبُ مُدبراتِ
كَرَوْعةِ ثُلّةٍ[2] لمغار ذئبٍ فلما غاب عادت راتعاتِ

فمن آداب حضور الجنائز: التفكر والتنبه، والاستعداد، والمشي أمامها على هيئة التواضع، كما ذكرت آدابه وسننه في فن الفقه، ومن آدابه حسنُ الظنّ بالميت، وإن كان فاسقاً، وإساءةُ الظنّ بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح، فإن الخاتمة خطرةٌ لا تُدرى حقيقتها.

ولذلك روي عن عمر بن ذرٍّ أنه مات واحد من جيرانه. وكان مسرفاً على نفسه، فتجافى[3] كثير من الناس عن جنازته، فحضرها هو، وصلى عليها، فلما دُلّي في قبره وقف على قبره وقال: يرحمك الله يا أبا فلان، فلقد صحبت عمرك بالتوحيد، وعفّرت وجهك بالسجود، وإن قالوا مذنب وذو خطايا، فمن منا غيرُ مذنبٍ، وغير ذي خطايا.

ويحكى: أن رجلاً من المنهمكين في الفساد، مات في بعض نواحي البصرة، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته، إذ لم يدر بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه، فاستأجرت حمّالين وحملتها إلى المصلّى، فما صلّى عليه أحد. فحملتها إلى الصحراء للدفن، فكان على جبلٍ قريب من الموضع زاهد من الزُّهاد الكبار، فرأته كالمنتظر

(١) تَرُوِّعُنا: تفزعنا.
(٢) ثلّة: جماعة.
(٣) فتجافى: ابتعد.

للجنازة، ثم قصد أن يصلي عليها، فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلي على فلان، فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه، وتعجَّب الناس من صلاة الزاهد عليه.

فقال: قيل لي في المنام: إنزل إلى موضع كذا، ترى جنازةً ليس معها أحد، إلا امرأة فصلِّ عليه فإنه مغفور له. فزاد تعجب الناس، فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله، وأنه كيف كانت سيرته؟ قالت: كما عُرف، كان طول نهاره في الماخور، مشغولاً بشرب الخمر. فقال: أنظري هل تعرفين منه شيئاً عن أعمال الخير؟ قالت: نعم ثلاثة أشياء: كان إذا أفاق من سكره وقت الصبح، يبدِّل ثيابه ويتوضَّأ، ويصلي الصبح في جماعةٍ، ثم يعود إلى الماخور، ويشتغل بالفسق.

والثاني: أنه كان أبداً لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين، وكان إحسانه إليهم أكثرَ من إحسانه إلى أولاده، وكان شديد التفقد لهم.

والثالث: أنه كان يفيق في أثناء سُكره في ظلام الليل فيبكي ويقول: يا ربِّ أيَّ زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث؟ يعني نفسه، فأنصرف الزاهد وقد أرتفع إشكاله من أمره.

قال الضحاك: قال رجل: يا رسول الله من أزهدُ الناس؟ قال «من لم ينس القبرَ والبِلَى، وترك فضل زينةِ الدنيا، وآثر ما يبقى على ما يفنى، ولم يعدَّ غداً من أيامه، وعد نفسه من أهل القبور».

وقيل لعليٍّ كرَّم الله وجهه: ما شأنك جاورت المقبرة؟ قال: إني أجدهم خير جيران، إني أجدُهم جيران صدقٍ يكفُّون الألسنة، ويُذكِّرون الآخرة.

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى، حتى يبلَّ لحيته فسُئل عن ذلك وقيل له: تذكرُ الجنَّةَ والنار فلا تبكي، وتبكي إذا وقفتَ على قبرٍ؟ فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن القبر أولُ منازل الآخرة، فإن نجا منه صاحبُه فما بعده أيسرُ منه، وإن لم ينجُ منه فما بعدَه أشدُّ منه».

وقيل: إن عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلّى ركعتين فقيل له: هذا شيء لم تكن تصنعه. فقال: ذكرتُ أهلَ القبور، ما حِيل بينهم وبينه، فأحببت أن أتقرّب

إلى الله بهما.

وقال مجاهد: أوّلُ ما يُكَلّمُ ابن آدم حفرتُهُ، فتقول: أنا بيت الدود، وبيت الوحدة، وبيث الغربة، وبيت الظُّلمة، هذا ما أعددت لك، فما أعددت لي؟

وقال لي أبو ذر: ألا أُخبركم بيوم فقري يومَ أُوضعُ في قبري.



١٠٩ ـ باب: في التخويف من عذاب جهنم

أخرج البخاري: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: ﴿رَبَّنا آتِنا في الدُّنيا حَسَنَةً وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنا عَذَابَ النَّارِ﴾[١].

وأبو يعلى: أنه ﷺ خطب فقال: «لا تنسوا العظيمتين الجنة والنار» ثم بكى، حتى جرى وَبَلُ دموعه جانبي لحيته، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لو تعلمون ما أعلم من أمر الآخرة لمشيتم على الصعيد، ولحثيتم على رؤوسكم التراب».

والطبراني في «الأوسط»: جاء جبريل إلى النبيِّ ﷺ في حين غير حينه الذي كان يأتيه فيه، فقام إليه رسول الله ﷺ فقال: «يا جبريل، ما لي أراك متغيّر اللون؟» فقال: ما جئتك حتى أمر الله عز وجل بمنافخ النار.

فقال رسول الله ﷺ: «يا جبريل، صِفْ لي النار، أو انعت لي جهنم» فقال جبريل: إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنّم، فأُوقد عليها ألف عامٍ حتى ابيضّت، ثم أمر فأُوقد عليها ألف عام حتى احمرّتْ، ثم أمر فأُوقد عليها ألف عام حتى اسودّت، فهي سوداء مظلمة لا يُضيء شررُها، ولا يُطفأ لهبها، والذي بعثك بالحقّ نبيّاً لو أن قدر ثقب إبرةٍ فُتح من جهنم لمات من في الأرض كلُّهم جميعاً من حرّه.

والذي بعثك بالحق نبياً لو أن خازناً من خزنة جهنم برز إلى أهل الدنيا لمات من في الأرض كلّهم جميعاً من قبح وجهه، ومن نتن ريحه.

والذي بعثك بالحق نبياً لو أن حلقة من حلق سلسلة أهل النار، التي نعت الله في كتابه، وضعت في جبال الدنيا لارفضّت وما تقارّتْ، حتى تنتهي إلى الأرض السُّفلى. فقال رسول الله ﷺ: «حسبي يا جبريل لا ينصدعُ قلبي فأموتُ» قال: فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل وهو يبكي فقال: تبكي يا جبريل، وأنت من الله بالمكان الذي أنت به؟»

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

فقال: ومالي لا أبكي وأنا أحقُّ بالبكاء لعلّي أكون في علم الله على غير الحال التي أنا عليها، وما أدري لعلّي أُبتلَى بما أُبتلي به إبليس، فقد كان من الملائكة، وما أدري لعلّي أبتلَى بما ابتُلي به هاروت وماروت.

قال: فبكى رسول الله ﷺ وبكى جبريل، فما زالا يبكيان حتى نوديا أن يا جبريل، ويا محمّد إن الله تعالى قد أمّنكما أن تعصياه، فارتفع جبريل، وخرج رسول الله ﷺ فمرّ بقومٍ من الأنصار يضحكون ويلعبون. فقال: «أتضحكون ووراءكم جهنم؟ فلو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، وبكيتم كثيراً، ولما أسغتم الطعام والشراب، ولخرجتم إلى الصّعدات تجأرون إلى الله عزّ وجل» فنودي يا محمّد لا تُقنّط عبادي إنما بعثتك مبشراً، ولم أبعثك مُعسّراً. فقال ﷺ: «سددوا وقاربوا».

ورُوي أنه ﷺ قال لجبريل: «ما لي لا أرى ميكائيل ضاحكاً قطُّ؟» فقال: ما ضحك ميكائيل منذ خُلقتِ النار.

وابن ماجه، والحاكم وصحّحه: «إن ناركم هذه جزءٌ من سبعين جُزء من نار جهنم، ولولا أنها أُطفئت بالماء مرّتين لما انتفعتم بها، وإنها لتدعو الله عزّ وجلّ ألاّ يُعيدها فيها».

والبيهقي أن عمر رضي الله عنه قرأ ﴿كُلَّما نَضِجتْ جُلُودُهُم بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها لِيَذُوقُوا العَذَابَ﴾[1] قال: يا كعب، أخبرني بتفسيرها، فإن صدقت صدقتك، وإن كذبت، رددتُ عليك. فقال: إن جلد ابن آدم يحرق ويجدد في ساعة، أو في يوم ستة آلاف مرة، قال: صدقت.

والبيهقي: إن الحسن البصري قال في هذه الآية: تأكلهم النار كلَّ يوم سبعين ألف مرّةٍ كلّما أكلتهم قيل لهم: عُودوا. فيعودون كما كانوا.

ومسلم: «يُؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار فيُصبغ في النار صبغةً ثم يُقال له: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قطّ؟ هل مرَّ بك نعيم قطّ؟ فيقول: لا والله يا ربّ.

ويُؤتى بأشدِّ الناسِ بُؤساً في الدنيا من أهل الجنة فيُصبغ صبغةً في الجنة فيقال له:

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٦.

يا ابن آدم، هل رأيتَ بُؤساً قطّ؟ هل مرت بك شدَّةٌ قطُّ؟ فيقول: لا والله يا ربِّ لا مرّ بي بؤسٌ قطُّ، ولا رأيتُ شدَّةً قطّ».

وروى ابن ماجه: «يُرسَلُ البكاءُ على أهل النار فيبكون، حتى تنقطعَ الدموع، ثم يبكون الدمَ، حتى يصير في وجوههم كهيئة الأخدود، لو أُرسلت فيها السفن لجرتْ».

وأبو يعلى: «يا أيُّها الناس، أبكوا فإن لم تبكوا، فتباكوا فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في خدودهم كأنها جداول، حتى تنقطعَ الدموعُ فيسيل - يعني الدم - فتُقرِّح العيون».



١١٠ ـ باب: في الميزان والصراط

أخرج أبو داود عن الحسن، عن عائشة: أنها بكت. فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك؟» قالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يومَ القيامة؟ فقال ﷺ: «أمّا في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحداً: عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانُه أم يثقل، وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابُه في يمينه أو في شماله أو وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهراني جهنم حتى يعلم أيجوز أم لا».

والترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة. قال: «أنا فاعلٌ إن شاء الله تعالى» قلت: فأين أطلبك؟ قال: أوّل ما تطلبني على الصراط قلت: فإن لم ألقك على الصراط. قال: «فاطلبني عند الميزان» قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟ قال: «فاطلبني عند الحوض، فإني لم أخطىء هذه الثلاثة مواطن».

وروى الحاكم: «يوضع الميزان يوم القيامة، فلو وُزنت أو وضعت فيه السموات والأرض لوضعت. فتقول الملائكة: يا ربُّ، لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئتُ من خلقي. فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك. ويُوضع الصراط مثل حدِّ الموسى. فتقول الملائكة: من يجوز على هذا؟ فيقول: من شئتُ من خلقي. فيقولون: سبحانك ما عبدناك حقَّ عبادتك».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: يُوضع الصراط على سواء جهنم مثلَ حدِّ السيف المُرهف، مَدْحَضَة مَزَلَّة، عليه كلاليبُ من نار، يُختطف بها فمُمْسك يهوي فيها، ومَصروعٌ، ومنهم من يمرُّ كالبرق فلا ينشب ذلك أن ينجو، ثم كالرِّيح فلا ينشب ذلك أن ينجو، ثم كجري الفرس، ثم كسعي الرجل، ثم كَرَمَلِ الرجل، ثم كمشي الرجل، ثم يكون آخرُهم إنساناً رجل قد لوّحته النار، ولقي فيها شراً ثم يُدخله الله الجنَّة بفضله وكرمه ورحمته، فيُقال له: تمنَّ وسلْ. فيقول: أيْ ربِّ، أتهزأ مني، وأنت ربُّ العزَّةِ؟ فيُقال له: تمنَّ وسلْ. حتى إذا انقطعت به الأماني، قال: لك ما سألت ومثله معه .

وروى مسلمٌ: عن أمّ مُبشر الأنصارية رضي الله عنها أنها سمعتْ رسولَ الله ﷺ يقول عند حفصة رضي الله عنها: «لا يدخل النار إن شاء الله تعالى أحدٌ من أصحاب الشجرة، الذين بايعوا تحتها» قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت حفصة رضي الله عنها: ﴿وإنْ مِنكُمْ إلاّ وَارِدُهَا﴾[1] فقال النبيُّ ﷺ: «قد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجّي الّذين اتَّقوا ونَذَرُ الظَّالمينَ فِيها جِثِيّاً﴾[2].

وروى أحمد: أنَّ جماعةً اختلفوا في الورود فقال بعضهم: لا يدخلها مؤمن.

وقال بعضهم: يدخلونها جميعاً ثم يُنجّي الله الذين اتقوا. فسأل بعضهم جابر بن عبد الله رضي الله عنه فقال: تَرِدُونها جميعاً، ثم أهوى بأصبعيه إلى أذنيه وقال: صمّتا إن لم أكن سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الورود الدخول، لا يبقى برٌّ ولا فاجر إلاّ دخلها، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم، حتى إن للنار أو قال لجهنم ضجيجاً من بردهم ﴿ثُمَّ نُنَجّي الّذينَ اتَّقَوا وَنَذَرُ الظَّالمين فيها جِثِياً﴾[3].

وروى الحاكم: «يَرِدُ الناس النار، ثم يصدون عنها بأعمالهم، أوّلهم كلمح البرق، ثم كلمح الريح، ثم كحُضْر الفرس، ثم كالراكب في رحله، ثم كشدّ الرجل، ثم كمشيه».

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧١.
(٢) سورة مريم، الآية: ٧٢.
(٣) سورة مريم، الآية: ٧٢.

١١١ ـ باب: في وفاة النبي ﷺ

قال ابن مسعود رضي الله عنه : دخلنا على رسول الله ﷺ في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها، حين دنا الفراق، فنظر إلينا فدمعت عيناه ﷺ ثم قال: «مرحباً بكم، حيّاكم الله، آواكم الله، نصركم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأوصي بكم الله، إني لكم نذير مبين، ألا تعلوا على الله في بلاده وعباده، وقد دنا الأجل، والمُنقلب إلى الله، وإلى سدرة المنتهى، وإلى جنة المأوى، وإلى الكأس الأوفى، فاقرءوا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدي مني السلام ورحمة الله».

ورُوي أنه ﷺ قال لجبريل عليه السلام عند موته: «من لأمتي بعدي؟» فأوحى الله تعالى إلى جبريل: أن بشّر حبيبي أني لا أخذله في أمته، وبشّره بأنه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بُعثوا، وسيدهم إذا جُمعوا، وأن الجنة محرّمة على الأمم حتى تدخلها أمته. فقال: «الآن قرت عيني».

وقالت عائشة رضي الله عنها: أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب، من سبعة آبار ففعلنا ذلك، فوجد راحة، فخرج فصلّى بالناس واستغفر لأهل أحد، ودعا لهم، وأوصى بالأنصار فقال: «أما بعد يا معشر المهاجرين فإنكم تزيدون، وأصبحت الأنصار لا تزيد على هيئتها التي هي عليها اليوم، وإن الأنصار عَيْبَتي التي أويت إليها، فأكرموا كريمهم ـ يعني محسنهم ـ وتجاوزوا عن مسيئهم» ثم قال: «إن عبداً خيّر بين الدنيا وبين ما عند الله، فاختار ما عند الله».

فبكى أبو بكر رضي الله عنه. وظن أنه يريد نفسه، فقال النبي ﷺ: «على رِسلك يا أبا بكر، سدُّوا هذه الأبواب الشوارع في المسجد، إلا باب أبي بكر، فإني لا أعلم أمرأ أفضل عندي في الصحبة من أبي بكر».

قالت عائشة رضي الله عنها: فقُبض ﷺ في بيتي، وفي يومي وبين سَحْري

ونَحْري[١]، وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت، فدخل عليّ أخي عبد الرحمن وبيده سواك، فجعل ينظر إليه، فعرفت أنه يعجبه ذلك فقلت له: آخذه لك؟ فأومأ برأسه أي نعم، فناولته إياه فأدخله في فيه، فاشتد عليه، فقلت: ألّينه لك؟ فأومأ برأسه أي نعم، فلينته. وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده، ويقول: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات» ثم نصب يده يقول: «الرفيق الأعلى، الرفيق الأعلى» فقلت: إذاً والله لا يختارنا.

وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال: لما رأتِ الأنصار أن رسول الله ﷺ يزداد ثقلاً أطافوا بالمسجد فدخل العباس رضي الله عنه على النبي ﷺ فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك، ثم دخل عليه عليّ رضي الله عنه فأعلمه بمثله، فمد يده. وقال: «ها» فتناولوه، فقال: «ما تقولون؟» قالوا: نخشى أن تموت.

وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي ﷺ فسار رسول الله ﷺ فخرج متوكئاً على عليّ والفضل، والعباس أمامه، ورسول الله ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه، حتى جلس على أسفل مَرقاة من المنبر، وثاب الناس إليه، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «أيها الناس إنه بلغني أنكم تخافون عليّ الموت، كأنه استنكار منكم للموت، وما تنكرون من موت نبيكم، ألم أنعَ إليكم وتُنعى إليكم أنفسكم؟ هل خُلِّد نبي قبلي فيمن بعث؟ فأخلَّد فيكم، ألا إني لاحق بربي، وإنكم لاحقون به، وإني أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً، وأوصي المهاجرين فيما بينهم، فإن الله عز وجل قال: ﴿والعَصْر* إنَّ الإنسَانَ لفي خُسْرٍ* إلاّ الذينَ آمنُوا[٢]﴾ وإن الأمور تجري بإذن الله. فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله عز وجل لا يَعْجَلُ لعجلة أحد، ومن غالب الله غلبه، ومن خادع الله خدعه ﴿فَهَل عَسَيْتُم إنْ تَوَلَّيْتُم أنْ تُفْسِدُوا في الأرضِ وتُقَطِّعُوا أرْحَامَكُم﴾[٣].

وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلكم، وأن تُحسنوا

---

(١) سحري ونحري: السَّحر: الرئة: أي أنه مات وهو مستند إلى صدرها ونحرها.

(٢) سورة العصر، الآيات: ١ ـ ٣.

(٣) سورة محمد، الآية: ٢٢.

إليهم، ألم يشاطروكم الثمار؟ ألم يُوسعوا عليكم في الديار؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟ ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم، وليتجاوز عن مسيئهم، ألا ولا تستأثروا عليهم، ألا وإني فَرَطٌ لكم، وأنتم لاحقون بي، ألا وإن موعدكم الحوض، حوضي أعْرَض مما بين بُصرى والشام وصنعاء اليمن، يصب فيه ميزاب الكوثر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وألين من الزبد، أحلى من الشهد، من شرب منه لم يظمأ أبداً، حصباؤه اللؤلؤ، وبطحاؤه المسك، من حُرِمَهُ في الموقف غدا حُرم الخير كله، ألا فمن أحب أن يرده عليّ غداً، فليكفف لسانه ويده مما ينبغي».

فقال العباس: يا نبي الله أوص بقريش. فقال: «إنما أوصي بهذا الأمر قريشاً، والناس تبع لقريش، بَرُّهم لبَرِّهم وفاجرهم لفاجرهم، فاستوصوا آل قريش بالناس خيراً، يا أيها الناس إن الذنوب تغير النعم، وتبدل القسم، فإذا برَّ الناس بروهم، وإذا فجر الناس عقوهم. قال الله تعالى: ﴿وكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالمينَ بَعْضاً بما كانوا يَكْسِبُونَ﴾[(١)].

وروى ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأبي بكر رضي الله عنه: «سل يا أبا بكر» فقال: يا رسول الله دنا الأجل؟ فقال: «قد دنا الأجل وتدلى» فقال: ليهنك يا نبي الله ما عند الله فليت شعري عن منقلبنا. فقال: «إلى الله وإلى سِدرة المنتهى ثم إلى جنَّة المأوى، والفردوس الأعلى، والكأس الأوفى، والرفيق الأعلى، والحظ والعيش المهنا».

فقال: يا نبي الله من يلي غسلك؟ قال: «رجال من أهل بيتي، الأدنى فالأدنى» قال: ففيم نكفنك؟ قال: «في ثيابي هذه، وفي حلّة يمانية وفي بياض مصر» فقال: كيف الصلاة عليك منا؟ وبكينا وبكى ثم قال: «مهلاً، غفر الله لكم، وجزاكم عن نبيكم خيراً، إذا غسلتموني وكفنتموني، فضعوني على سرير في بيتي هذا، على شفير قبري، ثم اخرجوا عني ساعة، فإن أول من يُصلي عليّ الله عزّ وجل ﴿هو الذي يُصَلّي عَلَيْكُمْ ومَلَائِكَتُهُ﴾[(٢)] ثم يأذن للملائكة في الصلاة عليّ. فأول من يدخل عليّ من خلق الله

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٩.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٣.

ويصلّي عليّ جبريل، ثم ميكائيل، ثم إسرافيل، ثم ملك الموت مع جنود كثيرة، ثم الملائكة بأجمعها صلى الله عليهم أجمعين ثم أنتم فادخلوا عليّ أفواجاً، فصلوا عليّ أفواجاً، زمرة زمرة، وسلموا تسليماً. ولا تؤذوني بتزكية ولا صيحة ولا رنَّة، وليبدأ منكم الإمام، وأهل بيتي الأدنى فالأدنى، ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان».

قال: فمن يُدخلك القبر؟ قال: «زمر من أهل بيتي الأدنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم، وهم يرونكم، قوموا فأدوا عني إلى من بعدي».

وقالت عائشة رضي الله عنها: فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خِفَّة في أول النهار، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم، مستبشرين وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء، فبينما نحن على ذلك ولم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك، إذ قال رسول الله ﷺ: «اخرجن عني، هذا الملك يستأذن عليّ» فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجري، فجلس وتنحّيت في جانب البيت، فناجى الملك طويلاً، ثم دعاني فأعاد رأسه في حجري، وقال للنسوة: «ادخلن» فقلت: ما هذا بحسّ جبريل عليه السلام.

فقال رسول الله ﷺ: «أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءني. فقال: إن الله عز وجل أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك إلا بإذن. فإن لم تأذن لي أرجع، وإن أذنت لي دخلت، وأمرني أن لا أقبضك حتى تأمرني فماذا أمرك؟ فقلت: أكفف عني حتى يأتيني جبريل عليه السلام، فهذه ساعة جبريل».

قالت عائشة رضي الله عنها: فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأي، فوجمنا، وكأنما ضُربنا بصاخَّة ما نحير إليه شيئاً، وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاماً لذلك الأمر، وهيبة ملأت أجوافنا، قالت: وجاء جبريل في ساعته، فسلم فعرفت حسَّه، وخرج أهل البيت، فدخل فقال: إن الله عز وجل يُقرئك السلام ويقول: كيف تجدك؟ وهو أعلم بالذي تجد منك، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً، وأن يتم كرامتك وشرفك عليّ وأن تكون سنّة في أمتك. فقال: «أجدني وجِعاً» فقال: أبشر فإن الله تعالى أراد أن يُبلّغك ما أعدَّ لك. فقال: «يا جبريل إن ملك الموت استأذن عليّ» وأخبره الخبر فقال جبريل: يا محمد إن ربك إليك مشتاق، ألم يعلّمك الذي يريد بك؟ لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط، ولا يستأذن عليه أبداً، ألا إن ربك متمٌّ شرفك، وهو

إليك مشتاق.

قال: «فلا تبرح إذاً حتى يجيء» وأذن للنساء، فقال: «يا فاطمة إدني» فأكبّت عليه فناجاها، فرفعت رأسها وعيناها تدمع، وما تطيق الكلام، ثم قال: «ادني مني رأسك» فأكبت عليه فناجاها، فرفعت رأسها وهي تضحك، وما تطيق الكلام، فكان الذي رأيناه منها عجباً، فسألناها بعد ذلك فقالت: أخبرني وقال: «إني ميّت اليوم» فبكيت، ثم قال: «إني دعوت الله أن يُلحقك بي في أول أهلي، وأن يجعلك معي» فضحكت، وأدنت ابنيها منه، فشمهما، قالت: وجاء ملك الموت فسلم واستأذن، فأذن له، فقال الملك: ما تأمرنا يا محمد؟ قال: «ألحقني بربي الآن» فقال: بلى من يومك هذا، أما إن ربك إليك مشتاق. ولم يتردد عن أحد تردده عنك، ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك، ولكن ساعتك أمامك. وخرج.

قالت: وجاء جبريل فقال: السلام عليك يا رسول الله، هذا آخر ما أنزلُ فيه إلى الأرض أبداً، طُوي الوحي، وطُويت الدنيا، وما كان لي في الأرض حاجة غيرك وما لي فيها حاجة إلا حضورك، ثم لزوم موقفي. لا والذي بعث محمداً بالحقّ ما في البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة، ولا يبعث إلى أحد من رجاله لعظم ما نسمع من حديثه، ووجْدِنا وإشفاقنا.

قالت: فقمت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين ثديّ، وأمسكت بصدره، وجعل يُغمى عليه حتى يُغلب، وجبهته ترشح رشحاً ما رأيته من إنسان قط، فجعلت أسلت[1] ذلك العرق، وما وجدت رائحة شيء أطيب منه، فكنت أقول له إذا أفاق: بأبي أنت وأمي، ونفسي وأهلي، ما تلقى جبهتك من الرشح، فقال: «يا عائشة، إن نفس المؤمن تخرج بالرشح، ونفس الكافر تخرج من شدقيه كنفس الحمار».

فعند ذلك ارتعدنا، وبعثنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخي بعثه إليّ أبي، فمات رسول الله ﷺ قبل أن يجيء أحد، وإنما صدّهم الله عنه، لأنه ولاه جبريل وميكائيل، وجعل إذا أغمي عليه قال: «بل الرفيق الأعلى» كأن الخيرة تعاد عليه، فإذا أطلق الكلام قال: «الصلاة الصلاة، إنكم لا تزالون متماسكين ما صليتم جميعاً،

(١) أسلت: أمسح.

الصلاة الصلاة» كان يُوصي بها حتى مات، وهو يقول: «الصلاة الصلاة».

قالت عائشة رضي الله عنها: مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار، يوم الاثنين.

قالت فاطمة رضي الله عنها: ما لقيت من يوم الاثنين، والله لا تزال الأمّة تصاب فيه بعظيمة.

وقالت أم كلثوم يوم أصيب عليّ كرّم الله وجهه بالكوفة مثلها: ما لقيت من يوم الاثنين، مات فيه رسول الله ﷺ وفيه قُتل عليّ، وفيه قُتل أبي، فما لقيت من يوم الاثنين.

وقالت عائشة رضي الله عنها: لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس حتى ارتفعت الرنّة، وسَجّى رسول الله ﷺ الملائكة بثوبي، واختلفوا فكذب بعضهم بموته، وأخرس بعضهم، فما تكلم إلا بعد البعد، وخلّط آخرون فلاثوا[1] الكلام بغير بيان، وبقي آخرون معهم عقولهم، وأقعد آخرون.

فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته، وعليّ فيمن أُقعد، وعثمان فيمن أخرس، ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس، فإن الله عز وجل أيّدهما بالتوفيق والسداد، وإن كان الناس لم يرعَووا إلا بقول أبي بكر، حتى جاء العباس فقال: والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله ﷺ الموت، ولقد قال وهو بين أظهركم: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهم مَيِّتُونَ* ثُمَّ إِنَّكم يَومَ القيامَةِ عندَ رَبِّكُم تَخْتَصِمُونَ﴾[2].

وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج، فجاء ودخل على رسول الله ﷺ فنظر إليه ثم أكب عليه فقبّله، ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما كان الله ليذيقك الموت مرتين، فقد والله تُوفِّي رسول الله ﷺ. ثم خرج إلى الناس فقال: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحمَّدٌ إلاّ رسولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبلِهِ الرُّسُلُ أَفَإنْ مَاتَ أو قُتِلَ

(١) فلاثوا: أي خلطوا.
(٢) سورة الزمر، الآيتان: ٣٠ ، ٣١.

انقَلَبْتُم على أعْقَابِكُمْ﴾[1] الآية. فكأنَّ الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ.

وفي رواية: أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر، دخل بيت رسول الله وهو يصلي على النبي ﷺ وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة، وهو في ذلك جَلِدُ الفعل والمقال، فأكب عليه فكشف عن وجهه، وقبّل جبينه وخديه، ومسح وجهه، وجعل يبكي ويقول: بأبي أنت وأمي، ونفسي وأهلي، طبت حياً وميتاً، انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء، فعَظمتَ عن الصّفة، وجللت عن البكاء، وخُصصت حتى صرت مسلاة، وعممت حتى صرنا فيك سواء، ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجدنا لحزنك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء العيون، فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد وادّكار، محالفان لا يبرحان، اللهم فأبلغه عنا. أُذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك، ولنكن من بالك، فلولا ما خلّفت من السكينة، لم يقم أحد لما خلّفت من الوحشة.

اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا، ولكن هذا آخر ما أقدرنا الله عليه، وجذب قلوبنا إليه، ليكون لنا برسول الله أسوة حسنة، ونرجو من الله أن يبدل السيئة بالحسنة، وأن يلحقنا بنبينا ﷺ على الإيمان، إنه أكرم مسؤول، وأعز مأمول، والحمد لله رب العالمين.

تم الكتاب بعون الله تعالى

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

فهرس الموضوعات


مركز تحقيقات كامپيوتري علوم اسلامي